

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد



بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثاني

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه



الطبعة الثانية

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي

قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

[بعثُ معاوية بُسْرَ بن أرطاة إلى الحجاز واليمن]

فأمّا خبرُ بُسْرِ بن أرطاة العامريّ ؛ من بنى عامر بن لؤى بن غالب ، وبَعْثُ معاوية له ليُغيرَ على أعمال أمير المؤمنين عليه السلام ، وما عمِله من سَفْك الدماء وأخذ الأموال ، فقد ذكر أرباب السّير أنّ الذى هاج معاوية على تسريح بُسْر بن أرطاة ـ ويقال ابن أبى أرطاة ـ إلى الحجاز واليمن ، أنّ قوما بصنعاء كانوا من شيعة عثمان ، يُعْظِمون قتله ، لم يكن لهم نظام ولا رأس ، فبايعوا لعلىّ عليه السلام على ما فى أنفسهم ؛ وعاملُ علىّ عليه السلام على صنعاء يومئذ عُبيد الله بن عباس[1] وعامله على الجَنَد سعيد بن نِمْران[2] .

فلمّا اختلف الناسُ على علىّ عليه السلام بالعراق ، وقُتِل محمدّ بن أبى بكر بمصر ، وكثُرتْ غاراتُ أهلِ الشام ، تكلّموا ودعوْا إلى الطلب بدم عثمان ، فبلغ ذلك عُبيدَ الله ابن عباس ، فأرسل إلى ناسٍ من وُجوههم ، فقال : ما هذا الذى بلغنى عنكم ؟ قالوا : إنّا لم نَزَلْ ننكر قتل عثمان ، ونرى مُجاهدة مَنْ سَعَى عليه. فحبسهم ، فكتبوا إلى مَن بالجَنَد من أصحابهم ، فثاروا بسعيد بن نِمْران ، فأخرجوه من الجَنَد ، وأظهروا أمرَهم ، وخرج إليهم مَنْ كان بصنعاء ، وانضمّ إليهم كلّ مَنْ كان على رأيهم ، ولحق بهم قوم لم يكونوا على رأيهم ؛ إرادةَ أن يمنعوا الصدقة ، والتقى عُبيد الله بن عباس وسعيد بن نِمْران ، ومعهما شيعة علىّ عليه السلام ، فقال ابنُ عباس لابن نِمْران : والله لقد اجتمع هؤلاء ، وإنهم لنا

---

(١) عبيد الله بن العباس ؛ كان أصغر من أخيه عبد الله بسنة ، رأى النبى صلى الله عليه وسلم وسمع منه ، وحفظ عنه . الاستيعاب ٤٠٤ .

(٢) سعيد بن نمران الهمدانى ؛ كان كاتبا لعلى ؛ وأدرك من حياة النبى عليه السلام أعواما . الاستيعاب ٥٤٢ .

لقاربون ، وإن قاتلناهم لا نعلم على مَنْ تكون الدائرة ؛ فهلمَّ لنكتبَ إلى أمير المؤمنين عليه السلام[١] بخبرهم وقَدْحهم ، وبعزمهم الذى هُم به .

فكتبا إلى أمير المؤمنين عليه السلام[١] :

أمّا بعدُ ، فإنّا نخبر أميرَ المؤمنين ، أنّ شيعةَ عثمان وثبوا بنا ، وأظهروا أنّ معاوية قد شَيَّد أمرَه ، واتسق له أكثرُ الناس ، وأنّا سِرْنا إليهم بشيعة أمير المؤمنين ومَنْ كان على طاعته ، وأنّ ذلك أحْمَشَهم[٢] وألَبَهم ، فتنمّروا[٣] لنا ، وتداعَوْا علينا من كلّ أوْب ، ونصرَهم علينا مَنْ لم يكن له رأى فيهم ، إرادةَ أن يمنَع حقَّ الله المفروضَ عليه ؛ وليس يمنعُنا من مُناجزتهم إلّا انتظارُ أمرِ أمير المؤمنين ، أدام الله عزّه وأيّده ، وقضى له بالأقدار الصالحة فى جميع أموره . والسلام .

فلمّا وصل كتابهما ، ساء عليًّا عليه السلام وأغضبه ، وكتب إليهما :

من علىّ أمير المؤمنين إلى عبيد الله بن العباس وسعيد بن نِمْران : سلامٌ الله عليكما ، فإنى أحمَدُ إليكما اللهَ الذى لا إله إلّا هو ؛ أمّا بعد ؛ فإنه أتانى كتابُكما تذكُران فيه خروجَ هذه الخارجة ، وتعظّمان من شأنها صغيراً ؛ وتُكَثِّران من عددها قليلا ؛ وقد علمتُ أنّ نَخْبَ[٤] أفئدتكما ، وصِغرَ أنفسكما ، وشَتاتَ رأيكما ، وسوءَ تدبيركما ، هو الذى أفسد عليكما مَن لم يكن عليكما فاسدا ، وجرّأ عليكما من كان عن لقائكما جبانًا ، فإذا قدم رسولى عليكما ، فامْضيا إلى القوم حتى تقرءا عليهم كتابى إليهم ، وتدعوَاهم إلى حظّهم وتقوى ربّهم ؛ فإن أجابوا حَمِدنا الله وقَبِلناهم ، وإنْ حارَبوا استعنّا بالله عليهم ؛ ونابذناهم على سواء ؛ إن الله لا يحبّ الخائنين .

قالوا : وقال علىّ عليه السلام ليزيد بن قيس الأرحبىّ : ألا ترى إلى ماصنَع قومُك !

(١ — ١) ساقط من ا

(٢) أحمشهم : هاجهم وأغضبهم .

(٣) ب : « فتصوا » .

(٤) النخب : الجبن وضعف القلب .

فقال : إنّ ظنى يا أمير المؤمنين بقومى لحسنٌ فى طاعتك ، فإن شئتَ خرجتُ إليهم فكفيتهم ، وإن شئتَ كتبتَ إليهم فتنظر مايجيبونك . فكتب علىّ عليه السلام إليهم [١] :

من عبد الله علىّ أمير المؤمنين ، إلى من شاقّ وغدر من أهل الجَنَد وصنعاء .أمابعد، فإنى أحمدُ الله الذى لا إله إلا هو ، الذى لايُعقّب له حكم،ولا يُردّ له قضاء، ولا يردّ بأسُه عن القوم المجرمين .

وقد بلغنى تجرُّؤكم وشقاقُكم وإعراضُكم عن دينكم ، بعد الطاعة وإعطاء البيْعة ، فسألتُ أهلَ الدّين الخالص ، والورَع الصادق ، واللُّبّ الراجح ، عن بدْء تحرّككم ، وما نويتم به ، وما أحْمشكم له : فحُدِّثت عن ذلك بما لم أرَ لكم فى شىء منه عُذْرا مبينا، ولا مقالا جميلا،ولا حُجّة ظاهرة ؛ فإذا أتاكم رسولى فتفرقوا وانصرفوا إلى رحالكم أعفُ عنكم ، وأصفح عن جاهلكم ، وأحفظ قاصيكم ، وأعمل فيكم بحكم الكتاب ؛ فإن لم تفعلوا ، فاستعدّوا لقدوم جيش جمّ الفرسان،عظيم الأركان، يقصد لمن طغى وعصى [٢] ، فتُطحنوا كطحن الرّحا ؛ فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربّك بظلام للعبيد.

ووجّه الكتاب مع رجل من همْدان ، فقدم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خير ، فقال لهم:إنّى تركتُ أميرَ المؤمنين يريد أن يوجّه إليكم يزيدَ بن قيس الأرحبىّ فى جيش كثيف ، فلم يمنعْه إلا انتظارُ جوابكم.فقالوا : نحن سامعون مطيعون ، إن عزَل عنّا هذين الرجلين : عُبيدَ الله وسعيدا .

فرجع الهَمْدانىّ من عندهم إلى علىّ عليه السلام فأخبره خبر القوم .

قالوا : وكتبتْ تلك العصابةُ حين جاءها كتاب علىّ عليه السلام إلى معاوية يخبرونه، وكتبوا فى كتابهم :

مُعاوىَ إلّا تُسرعِ السيرَ نحوَنا ... نبايعْ عليًّا أو يزيدَ اليمانيا

(١) ساقطة من ب .

(٢) ساقطة من ا

فلما قدم كتابهم ، دعا بُسْرَ بن أبي أرطاة ـ وكان قاسيَ القلب فظًّا سفّاكًا للدماء ، لا رأفةَ عنده ولا رحمة ـ فأمره أن يأخذَ طريقَ الحجاز والمدينة ومكّة حتى ينتهيَ إلى اليمن ، وقال له : لا تنزلْ على بلد أهلُه على طاعة عليّ ، إلّا بسطتَ عليهم لسانَك ؛ حتى يَرَوْا أنهم لا نجاء لهم ، وأنّك محيط بهم . ثم اكفُفْ عنهم،وادعُهم إلى البيْعة لي، فمن أبي فاقتلْه ، واقتلْ شيعةَ عليّ حيث كانوا .

* * *

وروى إبراهيم بن هلال الثقفيّ في كتاب " الغارات " عن يزيد بن جابر الأزديّ ، قال :

سمعت عبد الرحمن بن مَسعدة الفزاريّ يحدّث في خلافة عبدالملك ، قال : لما دخلتْ سنة أربعين ، تحدّث الناس بالشام أنّ عليًّا عليه السلام يستنفرُ الناسَ بالعراق فلا ينفِرون معه ، وتذاكروا أن قد اختلفتْ أهواؤهم ، ووقعت الفُرقة بينهم ، قال:فقمت في نفَر من أهل الشام إلى الوليد بن عُقْبة ، فقلنا له : إنّ الناس لا يشكّون في اختلاف الناس على عليّ عليه السلام بالعراق ، فادخلْ إلى صاحبك فمُرْه فليسِرْ بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرّقهم ، أو يصلحَ لصاحبهم ماقد فسد عليه من أمره . فقال : بلى ، لقد قاولته في ذلك وراجعته وعاتبته ، حتى لقد برم بي ، واستثقل طَلْعتي ، وايمُ الله على ذلك ما أدع أنْ أبلّغه مامشيْتم [(١)] إليّ فيه .

فدخل عليه فخبّره بمجيئنا إليه ، ومقالتنا له ، فأذن لنا ، فدخلْنا عليه ، فقال : ماهذا الخبرُ الذي جاءني به عنكم الوليد ؟ فقلنا : هـذا خبرٌ في الناس سائر ، فشمِّرْ للحرب ، وناهِض الأعداء ، واهتبِل الفرصة ، واغتنم الغِرّة ، فإنك لا تدري متى تقدرُ على عدوّك على مثل حالِهم التي هم عليها ؛ وأن تسيرَ إلى عدوّك أعزُّ لك من أن يسيرُوا إليك . واعلم

(١) ا : « ماعشتم » .

واللهِ أنّه لولا تفرّق الناس عن صاحبك لقد نهضَ إليك . فقال لنا : ما أستغنى عن رأيكم ومشورتكم ، ومتى أحتَجْ إلى ذلك منكم أدْعُكم . إنّ هؤلاء الذين تذكُرون تفرّقهم على صاحبهم،واختلافَ أهوائهم،لم يبلغ ذلك عندى بهم أن أكونَ أطمعُ فى استئصالهم واجتياحهم ، وأن أسيرَ إليهم مخاطرا بجُندى ، لا أدرى علىّ تكونُ الدائرة أم لى ! فإيّاكم واستبطائى ، فإنى آخِذٌ بهم فى وجهٍ هو أرفقُ بكم ، وأبلغُ فى هَلَكَتِهم . قد شَنَنْتُ عليهم الغارات من كلّ جانب ؛ فخيلى مرةً بالجزيرة ، ومرةً بالحجاز ؛ وقد فتح اللهُ فيما بين ذلك مصر ، فأعزّ بفتحها وليّنا ، وأذلّ به عدوّنا ، فأشرافُ أهل العراق لما يرون من حُسْن صنيع الله لنا ، يأتوننا على قلائصهم فى كلّ الأيام ، وهــذا مما يزيدكم الله به وينقصهم ، ويقوّيكم ويُضعفهم ، ويُعِزّكم ويذلّهم ؛ فاصبروا ولا تعجلوا ، فإنّى لو رأيت فرصتى لاهتبلتُها .

فخرجنا من عنــده ونحن نعرف الفَضْلَ[1] فيما ذكر ، فجلسنا ناحيةً ، وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بُسر بن أبى أرطاة ، فبعثه فى ثلاثة آلاف ، وقال : سِرْ حتى تمرّ بالمدينة ، فاطرد الناس ، وأخِفْ مَنْ مررت به ، وانهبْ أموال كلِّ مَنْ أصبت له مالا ؛ ممن لم يكن دخل فى طاعتنا ، فإذا دخلتَ المدينة ، فأرهم أنك تريد أنفسَهم ، وأخبرهم أنه لا براءة لهم عندك ولا عذر ؛ حتى إذا ظنّوا أنّك موقعٌ بهم فاكففْ عنهم، ثم سِرْ حتى تدخل مكة ، ولا تعرضْ فيها لأحد ، وأرْهِب الناسَ عنك فيما بين المدينة ومكة ، واجعلها شُرُداً ؛ حتى تأتى صنعاء والجنَــد ، فإنّ لنا بهما شيعة ، وقد جاءنى كتابهم .

فخرج بُسْر فى ذلك البَعْث ؛ حتى أتى دير مروان ، فعرضهم فسقط منهم أربعمائة ، فمضى فى ألفين وستّمائة ، فقال الوليــد بن عُقْبة : أشرْنا على معاوية برأينا أن يسيرَ

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : « الفضل » .

إلى الكوفة ، فبعث الجيشَ إلى المدينة ، فمثُلنا ومثَلُه ، كما قال الأول : أُريها السُّها وتُريني القمرَ [١] .

فبلغ ذلك معاوية ، فغضب وقال: والله لقد هممتُ بمساءة هذا الأحمق الذى لا يُحسِن التدبير ، ولا يدرى سياسة الأمور . ثم كفَّ عنه .

• • •

قلت : الوليد كان لشدَّة بغضه عليًّا عليه السلام القديم التالد ، لا يرى الأناة فى حَرْبه ، ولا يستصلح الغارات على أطراف بلاده ، ولا يشفِى غيظَه ولا يُبرِد حزازاتِ قلبه ؛ إلا باستئصاله نفسه بالجيوش،وتسييرها إلى دار مُلْكه،وسرير خلافته،وهى الكوفة، وأن يكون معاوية بنفسه هو الذى يسير بالجيوش إليه ؛ ليكونَ ذلك أبلغَ فى هلاك علىّ عليه السلام ، واجتثاث أصل سلطانه ، ومعاوية كان يرى غيرَ هذا الرأى ، ويعلم أنّ السيرَ بالجيش للقاء علىّ عليه السلام خَطَر عظيمٌ ؛ فاقتضت المصلحةُ عنده وما يغلبُ على ظَنّه من حُسْن التدبير ، أن يثبُت بمركزه بالشام فى جمهور جَيْشه ، ويسرِّب الغارات على أعمال علىّ عليه السلام وبلاده ، فتحوس خلال الديار وتضعفها، فإذا أضعفَتْها أضعفتْ بيضة ملك علىّ عليه السلام ؛ لأنّ ضعف الأطراف يُوجب ضعف البَيْضة،وإذا أُضعِفت البيضة كان على بلوغ إرادته ، والسير حينئذ ـ إن استصوب السير ـ أقدرَ .

ولا يلام الوليد على مافى نفسه ؛ فإنّ عليًّا عليه السلام قتل أباه عُقْبة بن أبى مُعيط صَبْرًا [٢] يوم بدر ، وسُمّى الفاسقَ [٣] بعد ذلك فى القرآن ، لنزاع وقع بينه وبينه ،

---

(١) السها : كويكب صغير خفى الضوء فى بنات نعش الكبرى ، والناس يمتحنون به أبصارهم . والمثل فى اللسان ١٩ : ١٣٣ وانظر الميدانى ١ : ٢٩١ .

(٢) القتل صبرا : أن يحبس الإنسان ويرمى به حتى يموت .

(٣) يشير إلى ماذكروه من سبب نزول قوله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ . وانظر الإصابة ٦ : ٦٣١ ، وأسباب النزول للواحدى ٢٩١ .

ثم جلده الحدّ فى خلافة عثمان ، وعزله عن الكوفة ، وكان عاملها . وبعض هذا عند العرب أرباب الدين والتقى تُستحلّ المحارم ، وتُستباح الدماء ، ولا تبقى مراقبة فى شفاء الغيظ لدين ولا لعقاب ولا لثواب ، فكيف الوليد المشتمل على الفسوق والفجور ، مجاهراً بذلك ! وكان من المؤلفة قلوبهم ، مطعوناً فى نسبه[1] ، مرميًّا بالإلحاد والزندقة .

* * *

قال إبراهيم بن هلال : روى عَوانة عن الكلبيّ ولوط بن يحيى أن بُسراً لما أسْقَط مَن أسقط من جيشه ، سار بمن تخلّف معه ، وكانوا إذا وردوا ماء أخذوا إبل أهل ذلك الماء فركبوها ، وقادوا خيولهم حتى يردوا الماء الآخر ، فيردّون تلك الإبل ، ويركبون إبل هؤلاء ، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينة .

قال : وقد روى أنّ قُضاعة استقبلتهم ينحرون لهم الجُزُر ، حتى دخلوا المدينة قال : فدخلوها ، وعامل علىّ عليه السلام عليها أبو أيوب الأنصارىّ ، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرج عنها هارباً ، ودخل بُسْر المدينة ، فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ وتوعدهم ، وقال : شاهت الوجوه ! إنّ الله تعالى يقول : ﴿ وضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا .. ﴾[2] الآية ، وقد أوقع الله تعالى ذلك المثل بكم وجعلكم أهله ! كان بلدُكم مهاجَر النبى صلى الله عليه ومنزله ، وفيه قبره ومنازل الخلفاء من بعده ؛ فلم تشكروا نعمة ربكم ، ولم ترعَوا حقّ نبيكم ، وقُتل خليفة الله بين أظهركم ، فكنتم بين قاتل وخاذل ، ومتربّص وشامت ، إن كانت للمؤمنين ، قلتم : ألم نكن معكم ! وإن كان للكافرين نصيب ، قلتم : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من

---

(١) ا : « دينه » .

(٢) سورة النحل ١١٢ ، وبقيتها : ﴿ رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

المؤمنين ! ثم شتم الأنصار ، فقال : يا معشرَ اليهود وأبناء العبيد : بنى زُرَيق ، وبنى النجار ، وبنى سَلِمة ، وبنى عبد الأشهل ! أما والله لأوقعنّ بكم وقعة تَشفى غليل صدور المؤمنين وآل عثمان ؛ أما والله لأدعنّكم أحاديثَ كالأمم السالفة[1].

فتهددهم حتى خاف الناسُ أن يوقع بهم ، ففزعوا إلى حُوَيْطِب بن عبد العُزّى — ويقال إنه زوّج أمّه — فصعد إليه المنبر ، فناشده ، وقال : عِترتك وأنصار رسول الله ، ولَيْسُو بقَتَلة عثمان ؛ فلم يزل به حتى سكن ، ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه . ونزل فأحرقَ دورا كثيرة ، منها دار زُرارة بن حَرُون ، أحد بنى عمرو بن عوف ، ودار رفاعة ابن رافع الزُّرَقى ، ودار أبى أيوب الأنصاريّ . وتفقد جابر بن عبد الله ، فقال : مالى لا أرى جابرا يا بنى سلِمة ! لا أمان لكم عندى ، أو تأتونى بجابر ؛ فعاذ جابر بأمّ سلمة رضى الله عنها ، فأرسلت إلى بُسر بن أرطاة ، فقال : لا أؤمنه حتى يبايع ، فقالت له أم سلمة : اذهب فبايع ، وقالت لابنها عمر : اذهب فبايع ، فذهبا فبايعاه[2] .

قال إبراهيم : وروى الوليد بن كثير عن وهب بن كَيْسان ، قال : سمعت جابر ابن عبد الله الأنصاريّ يقول : لمّا خفتُ بُسراً وتواريت عنه ، قال لقومى : لا أمانَ لكم عندى حتى يحضر جابر ، فأتونى وقالوا : ننشُدُك الله لما انطلقْتَ معنافبايعتَ ، فحقنتَ دمك ودماء قومك ؛ فإنك إن لم تفعـل قُتلتْ مُقاتلينا ، وسبيتْ ذرارينا . فاستنظرتهم الليل ، فلما أصبحت دخلت على أمّ سلمة فأخبرتُها الخبر ، فقالت : يابنىّ ، انطلق فبايع ، احقِنْ دَمك ودماء قومك ؛ فإنى قد أمرت ابنَ أخى أن يذهبَ فيبايع ، وإنى لأعلم أنها بيعة ضلالة .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ٥ : ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) فى تاريخ الطبرى : « فقال لها : ماذا ترين ؟ إنى قد خشيت أن أقتل ؛ وهـذه بيعة ضلالة ، فقالت : « أرى أن تبايع ، فإنى قد أمرت ابنى عمر بن أبى سلمة أن يبايع ، وأمرت ختنى عبدالله بن زمعة .. » .

قال إبراهيم : فأقام بُسْر بالمدينة أياماً ثم قال لهم : إنى قد عفوْت عنكم ؛ وإن لم تكونوا لذلك بأهل ؛ ما قومٌ قتِلَ إمامُهم بين ظَهْرانيهم بأهل أن يُكفَّ عنهم العذاب ؛ ولئن نالكم العفو منى فى الدنيا ؛ إنى لأرجو ألّا تنالكم رحمة الله عز وجلّ فى الآخرة ، وقد استخلفتُ عليكم أبا هريرة ؛ فإياكم وخلافه . ثم خرج إلى مكة .

* * *

قال إبراهيم : وروى الوليد بن هشام ، قال : أقبل بُسْر ، فدخل المدينة ، فصعِد مِنْبَر الرسول صلى الله عليه وآله ، ثم قال : يأهل المدينة ، خَضَبتم لحاكم ، وقتلتم عثمان مخضوبا ، والله لا أدَعُ فى المسجد مخضوبا إلا قتلتُه ، ثم قال لأصحابه : خذُوا بأبواب المسجد – وهو يريد أن يستعرضهم – فقام إليه عبد الله بن الزُّبير وأبو قيس أحد بنى عامر بن لؤىّ ، فطلبا إليه حتى كفّ عنهم ، وخرج إلى مكة ، فلما قرب منها هرب قُثَم ابن العباس – وكان عاملَ علىّ عليه السلام – ودخلها بُسْر ، فشتم أهلَ مكة وأنّبهم . ثم خرج عنها ، واستعمل عليها شَيْبة بن عثمان .

قال إبراهيم : وقد روى عَوانة عن الكلبى أن بُسْراً لما خرج من المدينة إلى مكة قتل فى طريقه رجالاً ، وأخذ أموالا ، وبلغ أهلَ مكة خبرُه ، فتنحّى عنها عامةُ أهلها ، وتراضَى الناس بشيبة بن عثمان أميراً لما خرج قُثَم بن العباس عنها ، وخرج إلى بُسر قوم من قريش ، فتلقَّوْه ، فشتمهم ، ثم قال : أمَا والله لو تُرِكت ورأيى فيكم لتركتكم ومافيكم روح تمشى على الأرض . فقالوا : ننشدُك الله فى أهلك وعِتْرتك ! فسكت ثم دخل وطاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، ثم خطبهم ، فقال :

الحمدُ لله الذى أعزّ دعوتنا ، وجمع ألفتنا ، وأذلّ[1] عَدُوَّنا بالقتل والتشريد ، هذا ابنُ أبى طالب بناحية العراق فى ضَنْك وضيق ، قد ابتلاه الله بخطيئته ، وأسلمه بجَرِيرته ؛

(١) ا : « وخذل » .

فتفرق عنه أصحابُه ناقمين عليه ، وولىَ الأمرَ معاويةُ الطالبُ بدم عثمان ؛ فبايعوا ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا . فبايَعوا .

وتفقدَ سعيدَ بن العاص فطلبه فلم يجده ، وأقام أياما ثم خطبهم فقال :

يأهلَ مكة ، إنى قد صفحت عنكم ، فإياكم والخلاف ، فوالله إنْ فعلتم لأقصِدَنّ منكم إلى التى تُبير الأصل ، وتحرُب المال ، وتخرّب الديار .

ثم خرج إلى الطائف ، فكتب إليه المغيرة بن شعبة حين خرج من مكة إليها :

أما بعد ، فقد بلغَنِي مسيرُك إلى الحجاز ، ونزولُك مكة ، وشِدّتُك على المريب ، وعفوُك عن المسىء ، وإكرامُك لأولى النُّهى ، فحَمِدتُ رأيك فى ذلك ، فدُمْ على صالحِ ما كنتَ عليه ، فإنّ الله عزّ وجلّ لن يزيد بالخير أهلَه إلّا خيرا ؛ جعلنا الله وإيّاك من الآمرين بالمعروف ، والقاصدين إلى الحقّ ، والذاكرين الله كثيرا .

قال : ووجّه رجلاً من قريش إلى تَبالة ، وبها قوم من شيعة علىّ عليه السلام ، وأمره بقتلهم . فأخذهم ، وكُلّمَ فيهم وقيل له : هؤلاء قومُك ، فكفّ عنهم حتى نأتيك بكتاب من بُسْر بأمانهم ؛ فحبسهم . وخرج منيع الباهلىّ من عندهم إلى بُسر وهو بالطائف يستشفع إليه فيهم ، فتحمّل عليه بقوم من الطائف ، فكلّموه فيهم ، وسألوه الكتاب بإطلاقهم ، فوعدهم ، ومَطَلهم بالكتاب حتى ظن أنه قد قتلهم القرشىّ المبعوث لقتلهم ، وأن كتابه لا يصل إليهم حتى يُقتلوا . ثم كتب لهم ، فأتى مَنيع منزله ، وكان قد نزل على امرأة بالطائف ورَحْله عندها ، فلم يجدها فى منزلها ، فوطِئَ على ناقته بردائه ، وركب فسار يومَ الجمعة وليلة السبت لم ينزل عن راحلته قطّ ، فأتاهم ضحوة ، وقد أخرِج القومُ ليقتلوا ، واستبطِئَ كتاب بُسر فيهم ، فقدِّم رجل منهم فضربه رجلٌ من أهل الشام ، فانقطع سيفه ، فقال الشاميّون بعضهم لبعض : شمِّسوا سيوفكم حتى تلين فهزّوها . وتبصّر منيع

الباهلى بربق السيوف ، فألمع بثوبه ، فقال القوم : هـذا راكب عنده خبر ، فـكفّوا ، وقام به بعيره فنزل عنه ، وجاء على رجليه يشتدّ فدفع الـكتاب إليهم فأطلقوا . وكان الرجل المقدّم — الذى ضرب بالسيف فانـكسر السيف — أخاه .

***

قال إبراهيم : وروى علىّ بن مجاهد ، عن ابن إسحاق أنّ أهلَ مكّةَ لما بلغهم ما صنع بُسر ، خافوه وهربوا ، فخرج ابنا عبيد الله بن العباس ؛ وهما سليمان وداود ، وأمهما جُوَيْرِيَةَ ابنة خالد بن قَرَظ الـكنانية ، وتُـكْنَى أمّ حكيم ، وهم حلفاء بنى زُهرة — وهما غلامان — مع أهل مكّة ، فأضلوهما عند بئر ميمون بن الحضرمىّ — وميمون هذا هو أخو العلاء بن الحضرمى — وهجم عليهما بسر ، فأخذهما وذبحهما ، فقالت أمهما[1] :

هامَنْ أحَسّ بِابنىّ اللّذَين هما ... كالدُّرّتين تَشَظّى عنهما الصَّدَفُ[2]

هامَنْ أحس بِابنىّ اللّذين هما ... سمعى وقلبى ؛ فقلبى اليومَ مُختطَفُ

هامَنْ أحس بِابنىّ اللّذين هما ... مُخُ العِظام ، فمُخّى اليومَ مزدهَفُ[3]

نُبّئْتُ بسراً وما صدّقتُ ما زعموا ... من قولهم ومن الإفكِ الذى اقترفُوا

أنحَى على وَدَجَىْ إبنىّ مُرْهَفَةً ... مشحوذةً وكذاكَ الإثمُ يُقْتَرَفُ[4]

من دَلّ والهة حَرّى مُسَلَّبَةٍ[5] ... على صبيّينِ ضلاّ إذ مضى السلفُ[6]

---

(١) الأبيات فى الـكامل — بشرح المرصفى ٨ : ١٥٨ ، وهى أيضاً مع الخبر فى الأغانى ١٥ : ٤٥ (طبعة الساسى) .

(٢) الـكامل والأغانى : « يامن أحس بنىّ » . وتشظى : تفرق .

(٣) مزدهف : ذهب به .

(٤) الـكامل : « على ودجى طفل » ، وبعد هذا البيت فى رواية الأغانى :

حتّى لقيتُ رجالاً مِنْ أرومَتِهِ ... شُمّ الأنوفِ لهم فى قومِهِمْ شرفُ

فالآن ألعنُ بسراً حَقّ لعنَتِهِ ... هذا لعَمْرُ أبى بُسْرٍ هُوَ السّرَفُ

(٥) الـكامل : « مفجعة » والأغانى : « مولهة » .

(٦) الـكامل : « على صبيين غابا » ، والأغانى : « إذ غدا السلف » .

وقد روى أن اسمهما قُثَم وعبد الرحمن. ورُوِى أنهما ضلا فى أخوالهما من بنى كنانة. وروى أن بُسْراً إنما قتلهما باليمن ، وأنهما ذبحا على دَرَج صنعاء [١] .

* * *

وروى عبد الملك بن نوفل بن مُساحق عن أبيه ، أنّ بُسْراً لما دخل الطائف، وقد كلّمه المغيرة ، قال له : لقد صدقتنى ونصحتنى ؛ فبات بها وخرج منها ، وشيّعه المغيرة ساعة ، ثم ودّعه وانصرف عنه، فخرّج حتى مَرّ ببنى كنانة، وفيهم ابنا عبيد الله بن العباس وأمهما. فلما انتهى بُسْر إليهم ، طلبهما، فدخل رجل من بنى كنانة — وكان أبوهما أوصاه بهما — فأخذ السيفَ من بيته وخرج ، فقال له بُسْر : ثكلتكَ أمك ! والله ما كنا أردنا قتلك ، فلمَ عرّضت نفسكَ للقتل ! قال : أُقتلُ دون جارى أعذَرُ لى عند الله والناس . ثم شدّ على أصحاب بُسر بالسيف حاسرا ، وهو يرتجز :

آليتُ لا يمنع حافاتِ الدارْ ولا يموت مصلِتاً دُونَ الجارْ [٢]

* إلا فتى أرْوَعُ غير غدّارْ *

فضارب بسيفه حتى قُتل ، ثم قُدّم الغلامان فقتلا. فخرج نسوة من بنى كنانة، فقالت امرأة منهن : هذه الرجال يقتلها ، فما بال الولدان ! والله ما كانوا يقتلون فى جاهلية ولا إسلام، والله إنّ سلطانا لا يشتدّ إلا بقتل الضّرَع الضعيف، والشيخ الكبير ، ورفع الرحمة، وقطع الأرحام لَسُلطان سوء ؛ فقال بُسْر : والله لَهممتُ أن أضعَ فيكنّ السيف، قالت: والله إنه لأحَبُّ إلىّ إن فعلت !

* * *

قال إبراهيم : وخرج بُسر من الطائف ، فأتى نجْران ، فقتل عبد الله بن عبد المدان وابنه مالكا — وكان عبد الله هذا صهرا لعبيد الله بن العباس — ثم جمعهم وقام فيهم، وقال:

---

(١) الدرج : الطريق . (٢) المصلت : المجرد سيفه .

يأهلَ نجران ، يامعشرَ النصارى وإخوان القرود : أما والله إنْ بلغنى عنكم ما أكرَه لأعودَنّ عليكم بالتى تقطع النَّسْل ، وتُهلِكُ الحرث ، وتخرب الديار !

وتهددَهم طويلا، ثم سار حتى [بلغ] أرْحَب، فقتل أبا كرب ـ وكان يتشيَّع ـ وقال : إنه سيِّد مَنْ كان بالبادية من هَمْدان ، فقدمه فقتله .

* * *

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيد الله بن العباس وسعيد بن نِمْران ، وقد استخلف عبيدُ الله عليها عَمْرو بن أراكة الثقفىّ ، فمنع بُسْراً من دخولها وقاتله، فقتله بُسْر ، ودخل صنعاء ، فقتل منها قوما ، وأتاه وفدُ مأرِب فقتلهم ، فلم ينجُ منهم إلا رجل واحد، ورجع إلى قومه ، فقال لهم : « أنعى قتلاَنا ، شيُوخنا وشُبانَنا » .

قال إبراهيم: وهذه الأبيات المشهورة لعبد الله بن أراكة الثقفىّ يرثى بها ابنه عمرا[1]:

لَعَمْرِى لقد أرْدَى ابنُ أرطاةَ فارساً بصنعاء كالليث الهِزَبْرِ أبى الأجْرِ[2]

تعزَّ فإن كان البكا ردّ هالكا على أحد ، فاجهد بُكاكَ على عمرو[3]

ولا تبكِ مَيْتاً بعــــد مَيْتٍ أجنّه علىّ وعباسٌ وآلُ أبى بَكْرِ

قال : وروى نُمَيْر بن وَعْلة ، عن أبى وَدَّاك[4]، قال : كنتُ عند علىّ عليه السلام لما قدم عليه سعيد بن نِمْران الكوفة ، فعتب عليه وعلى عبيد الله ألّا يكونا قاتلا بُسرا ،

---

(١) الأبيات فى الكامل ـ بشرح المرصفى ٨ : ١٠٢ ، وقبلها فى روايته :

لَعَمْرِى لَئِنْ أتْبَعْتَ عَيْنَيْكَ ما مَضَى به الدَّهْرُ أوساقَ الحِمامُ إلى القَبْرِ

لَتَسْتَنْفِــدَنْ ماءَ الشُّئُونِ بأسْرِهِ ولَوْ كُنْتَ تَمْرِيهِنَّ مِنْ ثَبَجِ البَحْرِ

(٢) فى الكامل : « أبى أجر » ، وأجر : جمع جرو ؛ وهو هنا اسم ولد الأسد ؛ ويجمع على أجراء أيضاً .

(٣) رواية الكامل :

تَبَيَّنْ فإنْ كانَ البكا رَدَّ هالكا على أحد فاشْدُدْ بُكاكَ على عمرو

(٤) هو جبر بن نوف الهمدانى ، أبو الوداك ، بفتح الواو وتشديد الدال . التقريب ٤١ .

فقال سعيد : قد والله قاتلت ، ولكنّ ابن عباس خذلني وأبى أن يقاتل، ولقد خلوتُ به حين دنا منّا بُسْر ، فقلت : إنّ ابنَ عمك لا يرضى منّي ومنك بدون الجِدّ في قتالهم، قال: لا والله مالنا بهم طاقة ولا يدَان ، فقمت في الناس، فحمدت الله ثم قلت : يا أهل اليمن ، مَنْ كان في طاعتنا وعلى بيعة أمير المؤمنين عليه السلام فإليّ إليّ. فأجابني منهم عِصابة، فاستقدمت بهم ، فقاتلت قتالا ضعيفا ، وتفرّق الناس عنّي وانصرفت .

قال: ثم خرج بُسْر من صنعاء، فأتى أهل جَيْشان[1] ــ وهم شيعة لعلي عليه السلام ــ فقاتلهم وقاتلوه، فهزمهم وقتلهم قتلاً ذريعا، ثم رجع إلى صنعاء، فقتل بها مائة شيخ من أبناء فارس، لأنّ ابني عبيدالله بن العباس كانا مستترَيْن في بيت امرأة من أبنائهم، تعرف بابنة بُزُرْج.

***

وقال الكلبيّ وأبو مِخْنف: فندب عليّ عليه السلام أصحابَه لبعث سريّة في إثر بُسْر، فتثاقلوا ، وأجابه جارية بن قُدامة السعديّ ، فبعثه في ألفين، فشخَص إلى البصرة، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قدِم اليمن ، وسأل عن بسر فقيل : أخذ في بلاد بني تميم ، فقال : أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم . وبلغ بسراً مسيرُ جارية ، فانحدر إلى اليمامة ، وأغذّ جارية بن قدامة السير ، ما يلتفت إلى مدينة مرّ بها ولا أهل حصن ، ولا يعرّج على شيء، إلّا أن يُرْمِل[2] بعضُ أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته، أو يسقط بعير رجل أو تحفَى دابته فيأمر أصحابه بأن يُعقِبوه، حتى انتهوْا إلى أرض اليمن؛ فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجبال، واتّبعهم شيعة عليّ عليه السلام، وتداعَتْ عليهم من كلّ جانب ، وأصابوا منهم، وصَمَد[3] نحو بُسْر ، وبسر بين يديه يفرّ من جهة إلى جهة أخرى، حتى أخرجه من أعمال عليّ عليه السلام كلّها .

فلما فعل به ذلك، أقام جارية بجُرَش نحوا من شهر، حتى استراح وأراحَ أصحابه، ووثب الناس ببُسْر في طريقه لما انصرف من بين يدي جارية ، لسوء سيرته وفظاظته وظلمه وغَشْمه وأصاب بنو تميم ثِقْلا من ثقله في بلاده وصحبه إلى معاوية ليبايعه على الطاعة ابنُ مجّاعة

(١) جيشان : مخلاف باليمن ، شمال شرقي صنعاء . (٢) يقال : أرمل القوم ؛ إذا نفد زادهم .
(٣) صمد : قصد .

وتَيس اليمامة ، فلما وصل بُسر إلى معاوية قال : يا أميرَ المؤمنين ، هذا ابن مجّاعة قد أنبتُّك به فاقتله ، فقال معاوية : تركتَه لم تقتله ، ثم جئتني به فقلت اقتله ! لا لعمرى لا أقتله . ثم بايعه ووصله ، وأعاده إلى قومه .

وقال بُسر : أحمَدُ الله يا أمير المؤمنين أنى سرت فى هـذا الجيش أقتل عدوَّك ذاهبا جائيا لم يُنْكَب رجل منهم نـكبة ، فقال معاوية : اللهُ قد فعل ذلك لا أنت .

وكان الذى قتلَ بسرٌ فى وجهه ذلك ثلاثين ألفا ، وحرّق قوما بالنار ، فقال يزيد ابن مفرِّغ :

تَعَلّقَ مِن أسْمَـــاءَ ما قَدْ تَعَلّقَا ... ومثلُ الذى لاقَى من الشوق أرّقا[1]

سقى هَزِمُ الأرعاد منبعج الكُلَى ... منازلَها من مَسْرُقانَ فسُرَّقَا

إلى الشرف الأعلى إلى رَامَهُرْمُزٍ ... إلى قريات الشَّيْخِ من نهر أرْبَقَا

إلى دشتِ بارِينٍ إلى الشّطّ كُلّه ... إلى مجمع السُّلّان من بطن دَوْرَقا[2]

إلى حيث يُرْفا من دُجَيْلٍ سفينةٌ ... إلى مجمع النهرين حيث تفرّقا

إلى حيث سار المرء بُسرٌ بجيشه ... فقتّل بُسرٌ ما استطاع وحرّقا

• • •

وروى أبو الحسن المدائنىّ ، قال : اجتمع عُبيد الله بن العباس وبُسر بن أرطاة يوما عند معاوية بعد صلح الحسن عليه السلام ، فقال له ابن عباس : أنت أمرتَ اللعين السيّئ الفَدْم أن يقتل ابنىّ ؟ فقال : ما أمرتُه بذلك ، ولوددت أنه لم يكن قتلهما ، فغضب بُسر ونزع سيفه فألقاه وقال لمعاوية : اقبِض سيفَك ، قلّدتنيه وأمرتنى أن أخبِط به الناس ففعلت ، حتى إذا بلغتُ ما أردتَ قلت : لم أهْوَ ولم آمُر ! فقال : خذْ سيفَك إليك ، فلَعَمْرى

(١) وردت هذه الأبيات فى الأغانى ١٧ : ٦٩ (ساسى) ، ومعجم ما استعجم ٢ : ١٢٢٥ ـ ١٢٢٦ ، ومعجم البلدان ٨ : ٥٢ ؛ مع اختلاف فى الرواية وعدد الأبيات وترتيبها . (٢) الدشت : الصحراء .

إنك ضعيف مائق حين تُلقِي السيفَ بين يدىْ رجلٍ من بنى عبد مناف ، قد قتلتَ أمس ابنيَّ .

فقال له عبيد الله : أتحسبنى يامعاوية قاتلًا بُسراً بأحد ابنيّ ! هو أحقر وألأم من ذلك ؛ ولكنّى والله لا أرى لى مَقْنعاً ، ولا أدرك ثأراً إلا أن أصيب بهما يزيدَ وعبد الله .

فتبسّم معاوية وقال : وما ذنبُ معاوية وابنىْ معاوية ! والله ما علمتُ ولا أمرتُ ، ولا رضيت ولا هَوِيت . واحتملها منه لشرفه وسؤدده .

قال : ودعا علىّ عليه السلام على بُسْر فقال : اللهمّ إنّ بُسْراً باع دينَه بالدنيا ، وانتهك محارمَك ، وكانت طاعةُ مخلوقٍ فاجر آثرَ عنده ممّا عندك . اللهمّ فلا تُمِتْه حتى تَسْلُبَه عقلَه ، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار . اللهمّ ألعن بُسْراً وعمراً ومعاوية ، وليحلّ عليهم غضبُك ، ولتنزل بهم نقمتك ، وليصبهم بأسُك ورجزُك الذى لا تردّه عن القوم المجرمين .

فلم يلبثْ بُسْرٌ بعد ذلك إلا يسيرا حتى وسوس وذهب عقلُه . فكان يهذى بالسّيف ، ويقول : أعطُونى سيفا أقتلْ به ؛ لا يزال يردد ذلك حتى اتُّخِذ له سيف من خشب ، وكانوا يدنون منه المِرْفقة ، فلا يزال يضربُها حتى يُغْشى عليه ، فلبث كذلك إلى أن مات .

قلت : كان مُسلم بن عُقْبة ليزيد وما عمِل بالمدينة فى وقعة الحرّة كما كان بُسر لمعاوية وما عمل فى الحجاز واليمن ، ومن أشبه أباه فما ظلم .

تَبْنِى كَمَا كَانَتْ أوائلُنَا تَبْنِى وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَافَعَلُوا[1]

---

(١) قبله :

إنّا وإن كَرُمَتْ أوائلنا لَسْنَا عَلَى الأحْسَابِ نَتَّكِلُ

وينسب إليهمان للمتوكل الليثى ؛ وهما فى العقد ٣ : ٤١١ .

(٢٦)

الأصلُ :

ومن خطبة له عليه السلام :

إنَّ اللهَ تعالَى بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ ، وَفِي شَرِّ دَارٍ ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ ، وَحَيَّاتٍ صُمٍّ ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ . الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ ، وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ .

* * *

الشرحُ :

يجوز أن يعنى بقوله : « بين حجارة خشن ، وحيات صُمٍّ » الحقيقةَ لا المجاز ؛ وذلك أنّ البادية بالحجاز ونجد وتِهامة وغيرها من أرض العرب ذاتُ حيّاتٍ وحجارة خُشْن ، وقد يعنى بالحجارة الخُشْن الجبال أيضاً أو الأصنام ؛ فيكونُ داخلا فى قِسْم الحقيقة إذا فرضناه مُرادا ، ويكون المعنى بذلك وصفَ ما كانوا عليه من البؤس وشَظَف العيشة وسوء الاختيار فى العبادة ، فأبدلهم الله تعالى بذلك الرِّيف[1] ولين المهاد وعبادةَ من يستحق العبادة .

ويجوز أن يعنى به المجاز ، وهو الأحسن ؛ يقال للأعداء حَيّات . والحيّة الصماء أدْهى من التى ليست بصّماء ، لأنها لا تنزجر بالصوت . ويقال للعدوّ أيضا : إنه لخشن المسّ ، إذا كان ألدّ الخصام .

والجَشِب من الطعام : الغليظُ الخشِن .

(١) الريف : أرض فيها زرع وخصب وسعة فى المأكل والمشرب .

وقال أبو البَخترِيّ وهب بن وهب القاضي : كنتُ عند الرشيد يوماً ، واستدعى ماء مبرّداً بالثلج ، فلم يوجد فى الخزانة ثلج ، فاعتذِر إليه بذلك ، وأحضِر إليه ماء غير مثلوج ، فضرب وجهَ الغلام بالكوز ، واستشاط غضبا ، فقلت له : أقول يا أمير المؤمنين وأنا آمِن ؟ فقال : قل ، قلت : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من الغِيَر بالأمس — يعنى زوال دَوْلة بنى أميّة — والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها ، والحزْم ألّا تعوّد نفسَك الترفّه والنعمة ، بل تأكل اللّيّن والجشِب ، وتلبس الناعم والخشِن ، وتشرب الحارّ والقارّ ؛ فنفحنى بيده ، وقال : لا والله ، لا أذهب إلى ما تذهب إليه ، بل ألبسُ النعمة ما لبِستَنى ، فإذا نابتْ نَوْبة الدَّهر عدت إلى نِصاب غير خَوّار[1] .

وقوله : « والآثام بكم معصوبة » ، استعارة ، كأنها مشدودة إليهم .

وعنى بقوله : « تسفكون دماءكم ، وتقطعون أرحامكم » ما كانوا عليه فى الجاهلية من الغارات والحروب .

* * *

الأصلُ :

ومنها :

فَنَظَرْتُ فإذا لَيْسَ لِى مُعِينٌ إلّا أهْلَ بَيْتِى ، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ ، وَأغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى ، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَى ، وَصَبَرْتُ عَلَى أخْذِ الْكَظَمِ ، وَعَلَى أمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ .

* * *

(١) الخوار : الضعيف .

الشَّرحُ

الكَظَمُ ، بفتح الظاء : مخرج النَّفَس ، والجمع أكْظام وضِنْت ، بالكسر : بخلت .
وأغضيت على كذا : غمضت طرفي ، والشَّجَى : مايعترض في الحلق .

* * *

[حديث السقيفة]

اختلفت الروايات في قصّة السَّقيفة ، فالذي تقوله الشيعة — وقد قال قوم من المحدّثين بعضَه ورووا كثيرا منه — أنّ عليا عليه السلام امتنع من البَيْعة حتى أخرِج كُرْهاً ، وأنّ الزُّبيرَ بن العوام امتنع من البَيْعة وقال : لاأبايع إلا عليًّا عليه السلام ، وكذلك أبو سفيان ابن حرب ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أميَّة بن عبد شمس ، والعبّاس بن عبد المطلب وبنوه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وجميعُ بني هاشم . وقالوا : إنّ الزُّبير شهَر سيفَه ، فلما جاء عمر ومعه جماعة من الأنصار وغيرهم ، قال في جملة ماقال : خُذُوا سيفَ هذا فاضربوا به الحجر . ويقال : إنّه أخذ السّيف من يد الزبير فضرب به حَجراً فكسره ، وساقهم كلَّهم بين يديه إلى أبي بكر ، فحملهم على بيعته ولم يتخلف إلا عليّ عليه السلام وحدَه ، فإنّه اعتصم ببيت فاطمة عليها السلام، فتحاموْا إخراجه منه قَسْرا ، وقامت فاطمة عليها السلام إلى باب البيت فأسمعت مَنْ جاء يطلبُه ، فتفرقوا وعلموا أنّه بمفرده لايضرّ شيئا ، فتركوه .

وقيل : إنهم أخرجوه فيمن أخرج وحمل إلى أبي بكر فبايعه . وقد روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري كثيرا من هذا [1] .

فأمّا حديثُ التحريق وماجرى مجراه من الأمور الفظيعة ، وقول مَنْ قال إنّهم أخذوا عليًّا عليه السلام يُقادُ بعمامته والناس حوله ؛ فأمْر بعيدٌ ، والشِّيعة تنفرد به ، على أن جماعة من أهل الحديث قد رووْا نحوه ، وسنذكر ذلك .

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٣ ومابعدها .

وقال أبو جعفر : إنّ الأنصار لمّا فاتها ماطلبت من الخلافة ، قالت ــ أو قال بعضها : لا نبايع إلا عليا . وذكر نحو هـذا علىّ بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصلىّ فى تاريخه [١] .

فأما قوله : « لم يكن لى معين إلا أهل بيتى فضننتُ بهم عن الموت » فقولٌ مازال علىّ عليه السلام يقوله ، ولقد قاله عَقِيبَ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : لَوْ وَجدتُ أربعين ذوى عزم !

ذكر ذلك نصر بن مُزاحم فى كتـاب " صفين " ، وذكره كثير من أرباب السيرة .

وأما الذى يقوله جمهور المحدّثين وأعيانهم ، فإنه عليه السلام امتنع من البيعة ستة أشهر ، ولزِم بيتَه ، فلم يبايع حتى ماتت فاطمة عليها السلام ، فلما ماتت بايع طوْعاً .

وفى صحيحىْ مسلم والبخارىّ : كانت وجوه الناس إليه وفاطمة باقية بعدُ ، فلما ماتت فاطمة عليها السلام انصرفت وجوه الناس عنه ، وخرَج من بيته فبايع أبا بكر ، وكانت مدةُ بقائها بعد أبيها عليه الصلاة والسلام ستة أشهر [٢] .

وروى أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى التاريخ ، [٣] عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قال لى عبد الرحمن بن عوف ، وقد حَجَجْنا مع عمر [٣] : شهدت اليومَ أمير المؤمنين عليه السلام بِمِنًى ، وقال له رجلٌ [٤] : إنّى سمعتُ فلانا يقول : لو قد مات عمر لبايعت فلانا ، فقال عمر [٥] : إنى لقائم العشيةَ فى الناس أحذّرهم هؤلاء الرهْطَ الذين يريدون أن

(١) الكامل ٢ : ٢٢٠ ومابعدها .

(٢) صحيح البخارى بسنده عن عائشة فى كتاب المغازى ، وصحيح مسلم بسنده أيضا عن عائشة ، فى كتاب الجهاد والسير .

(٣ـ٣) صدر الخبر فى الطبرى : « عن ابن عباس ، قال : كنت أقرئ عبد الرحمن بن عوف ، قال : لحج عمر وحججنا معه ، قال : فإنى لفى منزل بمنى إذ جاءنى عبد الرحمن بن عوف فقال : شهدت » .

(٤) الطبرى : « وقام إليه رجل فقال » . (٥) الطبرى : « فقال أمير المؤمنين » .

يغتصبوا الناسَ أمرَهم . قال عبد الرحمن : فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الموسمَ يجمع رَعاع الناس وغَوغاءهم،[1] وهم الذين يقربون من مجلسك ويغلبون عليه،وأخاف أن تقولَ مقالة لا يَعونها ، ولا يحفظونها فيطيروا بها[1] ،ولكن أمهِلْ حتى نقدَم المدينة[2] وتخلص بأصحاب رسول الله ، فتقول [ماقلت متمكِّنا][3] ، فيسمعوا[4] مقالتك . فقال : والله لأقومَنّ بها أولَ مَقام أقومُه بالمدينة .

قال ابن عباس :[5] فلما قدمناها ، هجَّرتُ يوم الجمعة لحديث[5] عبدالرحمن ، فلما جلس[6] عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال[6] بعد أن ذكر الرَّجْم وحدّ الزنا: إنه بلغني أنّ قائلا منكم يقول:لو مات أميرُ المؤمنين بايعت فلانا،فلا يغرّنّ امرأ أن يقول : إنّ بيعة أبي بكر كانت فَلْتةً ، فلقد كانت كذلك ؛ ولكن[7] الله وقى شرّها ، وليس فيكم مَنْ تُقطَع إليه الأعناقُ كأبي بكر،وإنه كان من خيرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه . أن عليًّا والزبير تخلّفا عنا في بيت فاطمة ومَنْ معهما ، وتخلّفت عنّا الأنصار ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقلت له :انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار .فانطلقنا نحوهم ، فلقِيَنا رجُلان صالحان من الأنصار قد شهدا بدرا : أحدهما عويم بن ساعدة ، والثاني مَعْن بن عديّ ، فقالا لنا : ارجعوا فاقضوا أمرَكم بينكم[8] ؛ فأتينا الأنصار ، وهم مجتمعون في سقيفة

(١–١) عبارة الطبرى : « وإنهم الذين يغلبون مجلسك ، وإنى لخائف إن قلت اليوم مقالة ألا يعوها ولا يحفظوها ، ولا يضعوها على مواضعها ، وأن يطيروا بها كل مطير » .

(٢) الطبرى : « دار الهجرة والسنة » . (٣) تكملة من تاريخ الطبرى .

(٤) الطبرى : « فيعوا » .

(٥–٥) الطبرى : « فلما قدمنا المدينة وجاء يوم الجمعة هجرت للحديث الذى حدثنيه عبد الرحمن فوجدت سعيد بن زيد قد سبقني بالتهجير ، فجلست » .

(٦–٦) عبارة الطبرى : « فوجدت سعيد بن زيد قد سبقني بالتهجير ، فجلست إلى جنبه عند المنبر ، ركبتى إلى ركبته ، فلما زالت الشمس لم يلبث عمر أن خرج ، فقلت لسعيد وهو مقبل : ليقولن أمير المؤمنين اليوم على هذا المنبر مقالة لم تقل قبله ، فغضب وقال : فأى مقالة يقول لم تقل قبله ! فلما جلس عمر على المنبر أذن المؤذنون ، فلما قضى المؤذن أذانه قام عمر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال ... » .

(٧) الطبرى : « غير أن » .

(٨) بعدها فى الطبرى : « فقلنا والله لنأتينهم » .

بنى ساعدة، وبين أظهرهم رجل مُزَمَّل، فقلت : من هذا ؟[1] فقالوا: سعد بن عبادة وجع[1].
فقام رجل منهم ، فحمد الله وأثنى عليه، فقال : أما بعدُ ، فنحن الأنصار ، وكتيبة الإسلام وأنتم يامعشر قريش رَهْطُ نبيّنا ، قد دفّت إلينا دافّة من قومكم[2] ، فإذا أنتم تريدون أن تغصبونا الأمر .

فلما سكت ،[3] وكنت قد زوّرت فى نفسى مقالة أقولها بين يدى أبى بكر[3] ، فلما ذهبت أتكلم ، قال أبو بكر : عَلَى رِسْلك ! فقام فحمد الله وأثنى عليه ، فما ترك شيئا كنت زوّرت[4] فى نفسى إلا جاء به أو بأحسنَ منه ، وقال : يا معشرَ الأنصار ، إنكم لا تذكرون فضلا إلا وأنتم له أهل ، وإنّ العربَ لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش ، أوسطِ العرب داراً ونسباً ، وقد رَضيتُ لكم أحدَ هذين الرجلين — وأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح — والله ما كرِهْتُ من كلامه غيرَها ؛ إن كنتُ لأُقدَّم فتضربُ عُنقى فيما لا يقربنى إلى إثم ؛ أحبّ إلىّ من أن أؤمَّر على قوم فيهم أبو بكر .

فلما قضى أبو بكر كلامه ، قام رجل[5] من الأنصار ، فقال : أنا جُذَيْلُها المحكَّك، وعُذَيقُها المرجَّب[6] ؛ منا أمير ومنكم أمير .

(١ـ١) عبارة الطبرى « فقلت : ماشأنه ؟ قالوا : وجع » .
(٢) الدافة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد .
(٣ـ٣) الطبرى : « قال : فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويغصبونا الأمر ، وقد كنت زورت فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر » .
(٤) زورت فى نفسى كلاما ، أى هيأت وأصلحت . والتزوير : إصلاح الشىء .
(٥) هو الحباب بن المنذر الخزرجى ، ذكره الزمخشرى فى الفائق ١ : ١٨١ ، وأورد كلامه .
(٦) الجذيل فى الأصل :تصغير الجذل ؛ وهو عود ينصب للإبل الجربى تستشفى بالاحتكاك به . والمحكك: الذى كثر به الاحتكاك حتى صار مملسا . والعذيق : تصغير العذق ، وهو النخلة . والمرجب : المدعوم بالرجبة ؛ وهى خشبة ذات شعبتين ؛ وذلك إذا كثر وطال حمله ؛ والمعنى أنى ذو رأى يشفى بالاستضاءة به كثيرا فى مثل هذه الحادثة ، وأنا فى كثرة التجارب والعلم بموارد الأحوال فيها وفى أمثالها ومصادرها كالنخلة الكثيرة الحمل . الفائق ١ : ١٨١ ، ١٨٢ .

وارتفعت الأصوات واللَّغط ، فلما خِفْتُ الاختلاف ، قلتُ لأبي بكر : ابسُطْ يدك أبايِعْك ، فبَسط يده فبايعتُه وبايعه الناس ، ثم نزونا على سعد بن عبادة ، فقال قائلهم : قتلتم سعداً ! فقلتُ : اقتلوه قتله الله ، وإنّا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبي بكر ، خشِيت إنْ فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدِثوا بعدنا بيعة ، فإما أنْ نبايعَهم على مالا نرضى ، أو نخالفَهم فيكون فساد .

هذا حديث مُتَّفَق عليه من أهل السِّيَرة ، وقد وردت الروايات فيه بزيادات ؛ روى المدائنيّ قال : لما أخذ أبو بكر بيدِ عمر وأبي عبيدة وقال للناس : قد رضيت لكم أحدَ هذين الرجلين ، قال أبو عبيدة لعمر : امْدُدْ يدَك نبايعْك ، فقال عمر : مالك في الإسلام فَهَّةٌ[1] غيرها . أتقول هذا وأبو بكر حاضرٌ ! [2] ثم قال للناس : أيّكم يَطِيب نفساً أن يتقدم قدمَيْن قدّمهما رسول الله صلى الله عليه للصلاة ؟ رضيَك رسول الله صلى الله عليه لديننا ، أفلا نرضاك لدنيانا ! ثم مدّ يدَه إلى أبي بكر فبايعه .

وهذه الرواية هي التي ذكرها قاضي القضاة رحمه الله تعالى في كتاب « المغنى » .

وقال الواقديّ في روايته في حكاية كلام عمر : والله لأنْ أقدّم فأُنحرَ كما يُنْحَر البعير ، أحبُّ إليّ من أن أتقدم على أبي بكر .

وقال شيخُنا أبو القاسم البلخيّ : قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : إنّ الرجل الذي قال : لو قد مات عمرُ لبايعت فلانا ، عمارُ بن ياسر ، قال : لو قد مات عمر لبايعت علياً عليه السلام فهذا القولُ هو الذي هاج عمرَ أنْ خطب بما خطب به .

وقال غيره من أهل الحديث : إنما كان المعزوم على بيعته لو مات عمر ، طلحة ابن عبيد الله

(١) الفهة : السقطة والجهلة ونحوها .
(٢) في رواية اللسان — فهه — : « أتبايعني وفيكم الصديق ثاني اثنين ! » .

فأما حديثُ الفَلْتة ، فقد كان سبق مِنْ عمر أن قال : إنْ بيعةَ أبي بكر كانت فَلْتة وقى الله شرها ؛ فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه .

وهـذا الخبر الذي ذكرناه عن ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف فيه حديث الفَلْتة ؛ ولـكنه منسُوق على ماقاله أولا ، ألا تراه يقول : فلا يغرنّ امْرَأً أن يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتة ، فلقد كانت كذلك ، فهذا يُشعر بأنه قد كان قال مِنْ قبل : إنْ بيعة أبي بكر كانت فَلْتة .

وقد أكثر الناس في حـديث الفَلْتة ؛ وذكرها شيوخنا المتكلّمون ، فقال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : الفلتة ليست الزّلة والخطيئة ، بل هي البَغْتة ، وما وقع فجأة من غير رويّة ولا مشاورة ، واستشهد بقول الشاعر :

من يأمن الحدثان بعـد صُبَيْرةَ القرشيِّ ماتا[1]

سبقت منيّته المشيـب وكان ميتته افتلاتا

يعني بغتة .

وقال شيخنا أبو عليّ رحمه الله تعالى : ذكر الرّياشيّ أن العرب تسمّى آخر يوم من شوّال فَلْتة ، من حيث إنّ كلّ مَنْ لم يُدرك ثأره فيه فاته ؛ لأنهم كانوا إذا دخلوا في الأشهر الحرُم لا يطلبون الثأر ، وذو القعدة من الأشهر الحرم ، فسمّوْا ذلك اليوم فَلْتة ، لأنهم إذا أدركوا فيه ثأرهم ، فقـد أدركوا ما كان يفوتهم . فأراد عمرُ أنّ بيعة أبي بكر تدارَكها بعد أن كادت تفوت .

وقوله : « وقى الله شرّها » دليل على تصويب البَيْعة ، لأن المراد بذلك أنّ الله تعالى دفع شرّ الاختلاف فيها .

---

(١) البيان في الكامل ١ : ٢١٨ .

فأمّا قوله : « فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه » ؛ فالمراد مَنْ عاد إلى أن يُبايع من غير مُشاورة ولا عدد يُثبت صحة البيعة به ، ولا ضرورة داعية إلى البَيْعة ، ثم بسط يده على المسلمين بدخلهم فى البيعة قهراً ، فاقتلوه [1] .

قال قاضى القضاة رحمه الله تعالى : وهل يشكّ أحدٌ فى تعظيم عمرَ لأبى بكر وطاعته إياه ! ومعلوم ضرورةً من حالِ عمر إعظامُه له ، والقول بإمامته والرّضا بالبيعة والثناء عليه فكيف يجوز أن يترك مايُعلم ضرورة لقولٍ محتمل ذى وجوه وتأويلات ! وكيف يجوز أن تُحمَل هذه اللفظة من عمر على الذمّ والتّخطئة وسوء القول !

واعلم أنّ هذه اللفظة من عمر مناسبة للفظات كثيرة كان يقولها بمقتضى ماجَبَله الله تعالى عليه من غِلَظ الطينة وجفاء الطبيعة ، ولا حيلة له فيها ؛ لأنه مجبولٌ عليها لا يستطيع تغييرَها ، ولا ريب عندنا أنه كان يتعاطى أنْ يتلطّف ، وأن يُخرِجَ ألفاظه مخارج حسنة لطيفة ، فينزع به الطبع الجاسى ، والغريزة الغليظة ، إلى أمثال هذه اللفظات ، ولا يقصد بها سوءاً ، ولا يريد بها ذمّا ولا تخطئة ، كما قدّمنا من قبلُ فى اللفظة [2] التى قالها فى مرض رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكاللفظات [3] التى قالها عام الحديبية وغير ذلك ، والله تعالى لا يجازى المكلّف إلا بما نواه ، ولقد كانت نيته من أطهر النيّات وأخلصها لله سبحانه وللمسلمين. ومَن أنصف علم أنّ هذا الكلام حقّ ، وأنه يُغنى عن تأويل شيخنا أبى علىّ .

ونحن من بعدُ نذكر ماقاله المرتضى رحمه الله تعالى فى كتاب " الشافى " [4] لما تكلم فى هذا الموضع ، قال : أمّا ما ادّعى من العلم الضرورىّ برضا عمر ببيعة أبى بكر وإمامته ، فالمعلوم ضرورةً بلا شبهة أنه كان راضيا بإمامته ، وليس كلّ مَنْ رضِيَ شيئا

---

(١) نقله المرتضى فى الشافى ٢٤١ . (٢) الجزء الأول ص ١٦١ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٣ : ٣٦٥ .

(٤) كتاب الشافى فى الإمامة والنقض على كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار ، وقد اختصره أبو جعفر محمد ابن الحسن الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ ، وطبع الكتاب والمختصر فى العجم سنة ١٣٠١ فى جزأين .

كان متديّناً به ، معتقداً لصوابه ؛ فإنّ كثيراً من الناس يرضون بأشياء من حيث كانت دافعةً لما هو أضرُّ منها ؛ وإن كانوا لا يرونها صواباً ، ولو ملكوا الاختيار لاختاروا غيرها ، وقد علمنا أنّ معاوية كان راضياً ببيعة يزيد وولايته[1] العهد لمن بعده ، ولم يكن متديّناً بذلك ومعتقداً صحته ، وإنما رضيَ عمر ببيعة أبي بكر ، من حيث كانت حاجزة من بيعة أمير المؤمنين عليه السلام ، ولو ملك الاختيارَ لكان مصير الأمر إليه[2] أسرَّ في نفسه ، وأقرَّ لعينه . وإن ادّعى أنّ المعلوم ضرورةً تديّنُ عمر بإمامة أبي بكر ، وأنه أولى بالإمامة منه ، فهذا مدفوع أشدّ دفع ، مع أنه قد كان يبدر من عمر[3] في وقتٍ بعد آخر مايدلُّ على ماأوردناه . روى الهيثم[4] بن عديّ عن عبد الله بن عياش الهمْداني[5] عن سعيد بن جُبير ، قال : ذُكر أبو بكر وعمر عند عبد الله بن عمر ، فقال رجل : كانا والله شمسيّ هذه الأمة ونوريها ، فقال ابن عمر : وما يُدْريك ؟ قال الرجل : أو ليسَ قد ائتلفا ؟ قال ابن عمر : بل اختلفا لو كنتم تعلمون ! أشهدُ أنّي كنتُ عند أبي يوماً ، وقد أمرني أن أحبس الناس عنه ، فاستأذن عليه عبدُ الرحمن بن أبي بكر فقال عمر : دويبّة سوء ، ولهو خيرٌ من أبيه ، فأوحشني ذلك منه ، فقلت : يا أبت ، عبد الرحمن خير من أبيه ! فقال : ومَنْ ليس بخير من أبيه لا أمّ لك ! ائذن لعبد الرحمن ، فدخل عليه فكلّمه في الحطيئة الشاعر أنْ يرضى عنه ـ وقد كان عمر حبسه في شعر قاله ـ فقال عمر : إنّ في الحطيئة أوَداً[6] فدعني أقوّمه بطول حبسه ، فألحّ عليه عبد الرحمن وأبى عمر ،

---

(١) الشافي : « وولايته » . (٢) الشافي : « آثر » .

(٣) الشافي : « منه ـ أعني عمر » .

(٤) هو الهيثم بن عدي الطائي المنبجي الكوفي ؛ كان أخباريا روى عن هشام بن عروة وعبد الله بن عياش ومجالد ؛ قال ابن عدي : إنما هو صاحب أخبار . وقال ابن المديني : هو أوثق من الواقدي ولا أرضاه في شيء . وقال النسائي : متروك الحديث . وقال أبو نعيم : يوجد في حديثه المناكير . توفي سنة ٢٠٦ ـ لسان الميزان ٤ : ٢١٠ .

(٥) في الأصول والشافي : « عباس » ، تصحيف ؛ وهو عبدالله بن عياش بن عبد الله الهمداني الكوفي ؛ كان راوية للأخبار والآداب ؛ ويقع في أخباره المناكير . مات سنة ١٥٨ ، لسان الميزان ٣ : ٣٢٢ .

(٦) الشافي : « إن الحطيئة لبذيء » .

فخرج عبد الرحمن ، فأقبل عليّ أبي وقال : أي غفلة أنت إلى يومك هذا عمّا كان من تقدّم أحيمق بني تيم عليّ وظلمه لي ! فقلت : لا علمَ لي بما كان من ذلك ، قال : يابُنيّ فما عسيت أن تعلم ؟ فقلت : والله لَهُوَ أحبُّ إلى الناس من ضياء أبصارهم ، قال : إنّ ذلك لكذلك على رغم أبيك وسُخْطه ، قلت : ياأبت ، أفلا تجلّي عن فعله[1] بموقفٍ في الناس تُبيِّن ذلك لهم ؟ قال : وكيف لي بذلك مع ماذكرتَ أنّه أحبُّ إلى الناس من ضياء أبصارهم ! إذن يُرْضَخ[2] رأسُ أبيك بالجندل . قال ابنُ عمر : ثم تجاسر والله فجسَر ، فما دارت الجمعة حتى قام خطيباً في الناس ، فقال : أيها الناس ؛ إنّ بيعة أبي بكر كانت فلْتة وقى الله شرّها ، فَمَنْ دعاكم إلى مثلها فاقتلوه .

وروى الهيثم بن عديّ ، عن مجالد[3] بن سعيد ، قال : غدوت يوماً إلى الشعبيّ وأنا أريد أن أسأله عن شيء بلغني عن ابن مسعود أنه كان يقوله ، فأتيته وهو في مسجد حيّه وفي المسجد قوم ينتظرونه ، فخرج فتعرّفت إليه ، وقلت : أصلحك الله ! كان ابن مسعود يقول : ما كنت محدّثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، قال : نعم ، كان ابن مسعود يقول ذلك ، وكان ابن عباس يقوله أيضاً ـ وكان عند ابن عباس دفائنُ علم يعطيها أهلَها ، ويصرفها عن غيرهم ـ فبينا نحن كذلك إذ أقبل رجل من الأزْد ، فجلس إلينا ، فأخذنا في ذكر أبي بكر وعمر ، فضحك الشعبيّ وقال : لقد كان في صدر عمر ضِبٌّ[4] على أبي بكر ، فقال الأزديّ : والله مارأينا ولاسمعنا برجل قطّ كان أسلسَ قياداً لرجل ،

---

(١) الثاني : « أفلا تحكى من فعله » . (٢) الرضخ : كسر الرأس بالحجر .

(٣) هو مجالد بن سعيد بن عمير الهمداني الكوفي . قال البخاري : كان يحيي بن سعيد يضعفه ، وكان ابن مهدي لايروي عنه ، وكان أحمد بن حنبل لايراه شيئاً ـ وقال ابن معين : ضعيف واهي الحديث . مات سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٩ .

(٤) الضب : الحقد والعداوة ؛ وجمعه ضباب ؛ قال الشاعر :

فما زالَتْ رُقاكَ تَسُلُّ ضِغْني وَتُخْرِجُ مِنْ مَكامِنِها ضِبابِي

ولا أقولَ فيه بالجليّ من عمر في أبي بكر ، فأقبل عليّ الشعبيّ وقال : هذا مما سألتَ عنه،
ثم أقبل على الرجل وقال : يا أخا الأزد، فكيف نصنع بالفَلْتَة التي وقى الله شرّها ! أترى
عدوًّا يقول في عدوّ يريد أن يهدم ما بنى لنفسه في الناس أكثر من قول عمر في أبي بكر !
فقال الرجل : سبحان الله ! أنت تقول ذلك يا أبا عمرو ! فقال الشعبيّ : أنا أقوله، قاله عمر
ابن الخطاب على رءوس الأشهاد ، فلُمْه أو دَعْ . فنهض الرجل مُغضَبا وهو يُهَمْهِم
في الكلام بشيء لم أفهمه . قال مجالد : فقلت للشعبيّ : ما أحسب هذا الرجل إلا سينقل
عنك هذا الكلام إلى الناس ويَبُثّه فيهم ! قال : إذَنْ والله لا أحفِلُ به ، وشيء
لم يحفِلْ به عمر حين قام على رءوس الأشهاد من المهاجرين والأنصار أحفل به أنا !
أذيعوه أنتم عنى أيضا ما بدا لكم.

وروى شريك بن عبدالله النخعيّ[1] ، عن محمد بن عمرو بن مُرّة عن أبيه، عن عبدالله
ابن سلمة ، عن أبي موسى الأشعريّ ، قال : حججتُ مع عمر ، فلما نزلنا وعُظْم الناس
خرجت من رَحْل أريده ، فلقيني المغيرة بن شعبة ، فرافقني ، ثم قال : أين تريد؟ فقلت:
أميرَ المؤمنين ، فهل لكَ ؟ قال : نعم ، فانطلقنا نريد رَحْل عمر، فإنّا لَفي طريقنا إذ ذكرنا
تولّيَ عمر وقيامَه بما هو فيه ، وحياطته على الإسلام ، ونهوضَه بما قِبَله من ذلك ، ثم
خرجنا إلى ذكر أبي بكر ، فقلت للمغيرة : يالكَ الخير ! لقد كان أبو بكر مسدَّدا في عمر،
لكأنه ينظر إلى قيامه من بعده ، وجِدّه واجتهاده وغَنائه في الإسلام ، فقال المغيرة : لقد
كان ذلك ، وإن كان قوم كرهوا ولاية عمر ليزووها عنه، وما كان لهم في ذلك من حظّ ،
فقلت له : لا أبالك، ومَنِ القوم الذين كرهوا ذلك لعمر ؟ فقال المغيرة : لله أنت ! كأنك

---

(١) هو شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي أبو عبد الله الكوفي ؛ قال ابن معين : شريك صدوق ثقة ؛ إلا أنه إذا خالف فغيره أحب إلينا منه . وقال ابن المبارك : شريك أعلم بحديث الكوفيين من الثوري . وقال الجوزجاني : شريك سيء الحفظ مضطرب الحديث مائل . مات سنة ١٧٧ . تهذيب التهذيب ٤ : ٣٣٥ .

لا تعرف هذا الحيّ من قريش وما خُصّوا به من الحسد ! فوالله لو كان هذا الحسدُ يُدرَك بحساب لكان لقريش تسعة أعشاره وللناس كلِّهم عشر ، فقلت : مه يامغيرة ! فإن قريشا بانتْ بفضلها على الناس . فلم نزل فى مثل ذلك حتى انتهينا إلى رَحْل عمر فلم نجده ، فسألنا عنه فقيل : قد خرج آنفا ، فمضيْنا نقفو أثره حتى دخلْنا المسجد ، فإذا عمر يطوف بالبيت . فطفنا معه ، فلما فرغ دخل بينى وبين المغيرة ، فتوكأ على المغيرة وقال : مِنْ أين جئتما ؟ فقلنا : خرجنا نريدك يا أميرَ المؤمنين ، فأتينا رَحْلك فقيل لنا : خرج إلى المسجد ، فاتبعناك . فقال : اتّبعكما الخير ، ثم نظر المغيرةُ إلىّ وتبسم ، فرمقه عمر ، فقال : مم تبسّمْتَ أيها العبد ! فقال : مِنْ حديث كنت أنا وأبو موسى فيه آنفا فى طريقنا إليك ، قال : وما ذاك الحديث ؟ فقصصْنا عليه الخبر حتى بلغْنا ذِكْر حَسَد قريش ، وذكر مَنْ أراد صرف أبى بكر عن استخلاف عمر ، فتنفس الصُّعَداء ثم قال : ثكلتْك أمك يامغيرة ! وما تسعة أعشار الحسد ! بل وتسعة أعشار العشر ، وفى الناس كلِّهم عشر العشر ، بل وقريش شركاؤهم أيضا فيه ! وسكت مليًّا وهو يتهادى بيننا ، ثم قال : ألا أخبركما بأحسد قريش كلها ؟ قلنا : بلى يا أمير المؤمنين ، قال : وعليكما ثيابكما ؟ قلنا : نعم ، قال : وكيف بذلك وأنتما ملبَسان ثيابكما ! قلنا يا أمير المؤمنين ، وما بالُ الثياب ! قال : خوف الإذاعة منها ، قلنا له : أتخاف الإذاعة من الثياب أنت ، وأنت من ملبس الثياب أخوف ! وما الثياب أردت ! قال : هو ذاك ، ثم انطلق وانطلقنا معه حتى انتهينا إلى رَحْله ، فخلّى أيدينا من يده ، ثم قال : لا تريما ، ودخل ، فقلت للمغيرة : لا أباك ! لقد عثرنا[1] بكلامنا معه ، وما كنّا فيه ، وما نراه حبَسنا إلا ليذاكرنا إياها ، قال : فإنّا لكذلك إذ أخرج إذْنَه إلينا ، فقال : ادخلا ، فدخلنا فوجدناه مستلقيا على بَرْذَعة بِرَحْل ، فلما رآنا تمثل بقول كعب بن زهير :

لا تُفْشِ سِرّك إلّا عِنْدَ ذِى ثِقَةٍ　　أوْلى وأفضل ما اسْتَوْدَعْتَ أسْرارا[2]

(١) كذا فى الشافى وهو الصواب ، وفى الأصول : « أرنا » .
(٢) ملحق ديوانه ٢٥٧ ، وغرر الخصائص ١٨١ .

صدراً رحيباً وقلباً واسعاً قَمِناً ألاّ تخافَ متى أودعتَ إظهارا

فعلمنا أنه يريد أن نضمن له كتمانَ حديثه، فقلت أنا له : ياأميرَ المؤمنين، الزمْناو خُصَّنا وصِلْنا، قال : بماذا ياأخا الأشعرين[1]؟ فقلت: بإفشاء سرك وأن تُشْرِكَنا في هَمِّك فنعم المستشاران نحنُ لك ! قال : إنكما كذلك ، فاسألا عمّا بدا لكما ، ثم قام إلى الباب ليُغلقه، فإذا الآذن الذى أذن لنا عليه في الحجرة ، فقال : امضِ عنّا لا أمَّ لك ! فخرج وأغلق الباب خَلْفه، ثم أقبل علينا ، فجلس معنا، وقال : سَلا تُخْبَرا ، قلنا : نريد أن يخبرنا أمير المؤمنين بأحسدِ قريش ، الذى لم يأمن ثيابنا على ذكره لنا، فقال : سألتُما عن مُعْضِلة ؛ وسأخبركما فليكن عندكما في ذِمّةٍ منيعة وحرزٍ ما بقيت ؛ فإذا مِتُّ فشأنَكما وماشئتما من إظهار أو كتمان . قلنا : فإنّ لك عندنا ذلك . قال أبو موسى : وأنا أقول في نفسي: مايريد إلا الذين كرهوا استخلاف أبي بكر له كطلحة وغيره ، فإنهم قالوا لأبي بكر : أتستخلف علينا فظًّا غليظًا ! وإذا هو يذهبُ إلى غير مافي نفسي ، فعاد إلى التنفس، ثم قال : مَنْ تُرَيانه ؟ قلنا : والله ماندرى إلا ظنًّا ! قال : ومَنْ تظنّان ؟ قلنا : عساك تريد القوم الذين أرادوا أبا بكر على صَرْفِ هذا الأمر عنك ؟ قال : كلا والله ! بل كان أبو بكر أعقَّ ، وهو الذى سألتما عنه، كان والله أحسدَ قريش كلِّها . ثم أطرق طويلا ، فنظر المغيرة إليّ ونظرتُ إليه، وأطرقنا مليًّا لإطراقه ، وطال السكوت منّا ومنه ، حتى ظننا أنه قد ندم على مابدا منه . ثم قال: والهفاه على ضئيل بنى تيم بن مرة ! لقد تقدّمنى ظالمًا ، وخرج إليّ منها آثمًا ، فقال المغيرة : أمّا تقدّمه عليك ياأميرَ المؤمنين ظالمًا فقد عرفناه ، كيف خرج إليك منها آثمًا ؟ قال : ذاك لأنه لم يخرج إليّ منها إلا بعد يأس منها ، أما والله لو كنت أطعتُ يزيد بن الخطاب وأصحابَه لم يتلمّظ من حلاوتها بشيء أبدا ، ولكنى قدّمت وأخرت ، وصعّدت وصوّبت، ونقضت وأبرمت ، فلم أجد إلا الإغضاء على مانشب به منها ، والتلهف على نفسى ، وأمّلت إنابته ورجوعَه ، فوالله مافعل حتى نَغَر[2] بها بَشَمًا .

---

(١) في اللسان : «تقول العرب : جاء بك الأشعرون ، بحذف ياء النسب» . (٢) نغر : أى امتلأ .

قال المغيرة : فما منعك منها يا أمير المؤمنين ، وقد عرّضتك لها يوم السقيفة بدعائك إليها ! ثم أنت الآن تنقِم وتتأسّف . قال : ثَكِلتك أمك يامغيرة ! إني كنت لأعدّك[1] من دُهاة العرب، كأنك كنت غائبا عمّا هناك ! إنّ الرجل ماكرني فماكرته ، وألفاني أحذَرَ من قطاة ؛ إنه لما رأى شَغَف الناس به ، وإقبالَهم بوجوههم عليه ، أيقن أنهم لا يريدون به بدلا ، فأحبّ لمّا رأى من حرص الناس عليه ، وميلهم إليه أن يعلم ما عندي ، وهل تنازعني نفسي إليها ؟ وأحبّ أن يبلوني بإطماعي فيها ، والتعريض لي بها ، وقد علم وعلمتُ لو قبلتُ ماعرضه عليّ ، لم يجب الناس إلى ذلك ، فألفاني قائما على أخمَصي مستوفزا حذِرا ، ولو أجبتُه إلى قبولها لم يسلّم الناس إلى ذلك، واختبأها ضِغنا عليّ في قَلْبِه ، ولم آمن غائلته ولو بعد حين ؛ مع ما بدا لي من كراهة الناس لي ؛ أما سمعت نداءهم من كلّ ناحية عند عَرْضها عليّ : لا نريد سواك يا أبا بكر، أنت لها ! فرددتُها إليه عند ذلك ؛ فلقد رأيته التمع وجهُه لذلك سرورا . ولقد عاتبني مرّة على كلام بلغه عني، وذلك لما قُدِم عليه بالأشعث أسيرا ، فمنّ عليه وأطلقه ، وزوّجه أخته أم فَرْوة ، فقلت للأشعث وهو قاعد بين يديه : ياعدوّ الله ، أكفرت بعد إسلامك ، وارتددت ناكصا على عَقِبيك ! فنظر إليّ نظرا علمت أنه يريد أن يكلّمني بكلام في نفسه ، ثم لقِيَني بعد ذلك في سِكَك المدينة ، فقال لي : أنت صاحبُ الكلام يابن الخطاب ؟ فقلت : نعم ياعدوّ الله ؛ ولك عندي شرّ من ذلك ، فقال : بئس الجزاء هذا لي منك ! قلت : وعلام تريد مني حُسْن الجزاء ؟ قال : لأنفَتِي لك من اتّباع هذا الرجل ، والله ماجرّأني على الخلاف عليه إلا تقدّمه عليك ، وتخلّفك عنها ، ولو كنتَ صاحبَها لما رأيتَ مني خلافا عليك . قلت : لقد كان ذلك ، فما تأمر الآن ؟ قال : إنه ليس بوقت أمر بل وقت صبر ، ومضى ومضيت . ولقي الأشعث الزِّبْرِقان بن بدر فذكر له ماجرى بيني وبينه، فنقل ذلك إلى أبي بكر ؛ فأرسل إليّ بعتاب مؤلم، فأرسلت إليه : أما والله

(١) ب : « أعدك » .

لتسكُنُنّ أو لأقولنّ كلمة بالغة بى وبك فى الناس،تحملها الركبان حيث ساروا ،وإن شئتَ استدمنا مانحن فيه عفوا ، فقال : بل نستديمه ، وإنها لصائرة إليك بعد أيام ، فظننت أنه لا يأتى عليه جمعة حتى يردّها علىّ ، فتغافل ، والله ماذاكرنى بعد ذلك حرفا حتى هلك .

ولقد مَدّ فى أمَدها عاضًّا على نواجذه حتى حضره الموت،وأيس منها فكان منه مارأيتما ، فاكتما ماقلت لكما عن الناس كافة وعن بنى هاشم خاصة ، وليكن منكما بحيث أمرتكما ، قوما إذا شئتما على بركة الله. فقمنا ونحن نعجب من قوله،فوالله ماأفشينا سرّه حتى هلك[1] .

قال المرتضى:وليس فى طعن عمر على أبى بكر مايؤدّى إلى فساد خلافته،إذ له أن يُثبت إمامة نفسه بالإجماع ، لابنص أبى بكر عليه . وأما الفلتة فإنها وإن كانت محتملة لابغتة كما قاله أبو على رحمه الله تعالى؛ إلا أن قوله: «وقى الله شرّها » يخصصها بأنّ مخرجها مخرج الذم . وكذلك قوله: «فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه»،وقوله:المراد وقى الله شرّ الاختلاف فيها،عدولٌ عن الظاهر ؛ لأنّ الشرّ فى الكلام مضاف إليها دون غيرها . وأبعدُ من هذا التأويل قوله : إن المراد مَنْ عاد إلى مثلها من غير ضرورة وأكْرَهَ المسلمين عليها فاقتلوه ؛ لأن ما جرى هذا المجرى لايكون مِثلاً لبيعة أبى بكر عندهم ؛ لأنّ كلّ ذلك ماجرى فيها على مذاهبهم ؛ وقد كان يجب على هذا أن يقول : فمن عاد إلى خلافها فاقتلوه .

وليس له أن يقول :إنما أراد بالمِثل وَجْهًا واحدا،وهو وقوعها من غير مشاورة،لأنّ ذلك إنما تمّ فى أبى بكر خاصة بظهور أمره واشتهار فضله ،ولأنهم بادروا إلى العقد خوفا من الفتنة؛ وذلك لأنه غير منكر أن يتفق من ظهور فضل غير أبى بكر واشتهار أمره وخوف الفتنة ما اتفق لأبى بكر ، فلا يستحق قتلا ولا ذمًّا ؛ على أنّ قوله : «مِثلها» يقتضى وقوعها على الوجه الذى وقعت عليه ، فكيف يكون ماوقع من غير مشاورة لضرورة داعية وأسباب موجبة مِثلا لما وقع بلا مشاورة ، ومن غير ضرورة ولا أسباب! والذى رواه عن أهل اللغة

(١) كتاب الشافى ٢٤١ — ٢٤٤

من أنّ آخر يوم من شوال يسمّى فَلْتة من حيث إنّ من لم يدرك فيه الثأر فإنه فوّل لا نعرفه ؛ والذى نعرفه أنّهم يسمون الليلة التى ينقضى بهـا آخرُ الأشهر الحُرُم وبتم فلتة ، وهى آخر ليلة من ليالى الشهر ، لأنه ربما رأى الهلالَ قوم لتسع وعشرين ولم يبصره الباقون ، فيغير هؤلاء على أولئك وهم غارّون[١] ، فلهذا سُمّيت تلك الليلة فَلْتة ؛ على أنّا قد بيّنا أنّ مجموعَ الكلام يقتضى ما ذكرناه من المعنى ، لو سُلِّمَ له ما رواه عن أهل اللغة فى احتمال هذه اللفظة .

قال : وقد ذكر صاحب كتاب " العين " أن الفلتة الأمرُ الذى يقع على غير إحْكام ، فقد صحّ أنّها موضوعة فى اللغة لهذا ، وإن جاز ألّا تختص به ، بل تكون لفظة مشتركة .

وبعد ، فلو كان عمر لم يُرِدْ بقوله توهين بيعة أبى بكر ؛ بل أراد ما ظنه المخالفون ، لكان ذلك عائدا عليه بالنقص ؛ لأنه وضع كلامه فى غير موضعه ، وأراد شيئاً فعبّر عن خلافه ، فليس يَخْرُج هذا الخبر من أن يكون طعنا على أبى بكر ؛ إلّا بأن يكون طعنا على عمر[٢] .

* * *

واعلم أنّه لا يبعد أن يقال : إنّ الرضا والسخط ، والحبّ والبغض ، وما شاكل ذلك ، من الأخلاق النفسانية وإن كانت أموراً باطنة ، فإنها قد تُعْلَم ويضطر الحاضرون إلى حصولها بقرائن أحوال تفيدهم العلم الضرورى ؛ كما يُعْلَم خوف الخائف وسرور المبتهج . وقد يكون الإنسان عاشقاً لآخر فيعلم المخالطون لهما ضرورةً أنه يَعْشَقُه ، لما يشاهدونه من قرائن الأحوال ، وكذلك يُعلم من قرائن أحوال العابد المجتهد فى العبادة ، وصوم الهواجر وملازمة الأوراد وسهر الليل ، أنه يتدين بذلك . فغيرُ منكر أن يقول قاضى القضاة رحمه الله

(١) غارون : غافلون .

(٢) كتاب الشافى ٢٤٤ مع اختصار وتصرف .

تعالى : إنّ المعلوم ضرورةً من حالِ عمر تعظيم أبي بكر ورضاه بخلافته وتدينه بذلك ، فالذي اعترضه رحمه الله تعالى به غيرُ وارد عليه .

وأما الأخبار التي رواها عن عمر فأخبار غريبة ؛ ما رأيناها في الكتب المدوّنة ، وما وقفنا عليها إلا من كتاب المرتضى ، وكتاب آخر يعرف بكتاب " المسترشد "[1] لمحمد بن جرير الطبري ـ وليس هو محمد بن جرير صاحب " التاريخ " ، بل هو من رجال الشيعة ـ وأظنّ أن أمه من بني جرير من مدينة آمُل طَبَرِستان ، وبنو جرير الآمليّون شيعة مستهترون بالتشيّع ، فنسب إلى أخواله ، ويدلّ على ذلك شعر مرويٌّ له وهو :

بآمُلَ مولدي وبنو جَرِيرٍ ... فأخوالي،ويحكي المرءُ خالَهْ[2]
فَمَنْ يَكُ رافضيًّا عن أبيه ... فإني رافضيٌّ عن كَلالَهْ

وأنت تعلم حال الأخبار الغريبة التي لا توجد في الكتب المدونة كيف هي ؟

فأما إنكارُه ما ذكره شيخنا أبو علي رحمه الله تعالى من أنّ الفلتة هي آخر يوم من شوال ، وقوله : إنا لا نعرفه ؛ فليس الأمر كذلك بل هو تفسير صحيح ، ذكره الجوهريّ في كتاب " الصحاح " قال : الفلتة آخر ليلة من كل شهر ، ويقال . هي آخر يوم من الشهر الذي بعده الشهر الحرام[3] . وهذا يدل على أن آخر يوم من شوال يسمى فَلْتة ، وكذلك آخر يوم من جمادى الآخرة ؛ وإنّما التفسيرُ الذي ذكره المرتضى غيرُ معروف عند أهل اللغة .

وأما ما ذكره من إفساد حَمْلِ الفلتة في الخبر على هذه الوجوه المتأوّلة فجيّد ، إلاّ أنّ الإنصاف أنّ عمرَ لم يخرج الكلام مخرج الذمّ لأمر أبي بكر ؛ وإنما أراد باللفظة محض حقيقتها في اللغة ، ذكر صاحب " الصحاح " أنّ الفلتةَ الأمر الذي يُعمل فجأة من

(١) كتاب المسترشد في الإمامة، طبع في النجف وفي الأصول : «المستنير» وهو خطأ،راجع النجاشي٢٦٦
(٢) نسبهما ياقوت في معجم البلدان (١ : ٦٣) الى أبي بكر الخوارزمي ، وظن أنه قالها في حاله الطبري المؤرخ ؛ وحققه محمد باقر ، وذكر أن الأمر اشتبه على ياقوت . وانظر روضات الجنات ٦٢٣
(٣) الصحاح ١ : ٢٦٠

غير ترود ولا تدبّر ؛ وهكذا كانت بيعة أبي بكر ؛ لأنّ الأمر لم يكن فيها شورى بين المسلمين ، وإنما وقعت بغتة لم تمحَّصْ فيها الآراء ، ولم يتناظر فيها الرجال ، وكانت كالشيء المستلَب المنتَهب ، وكان عمر يخاف أن يموت من غير وصيّة ، أو يُقتل قتلا فيبايع أحد من المسلمين بغتة كبيعة أبي بكر ، فخطب بما خطب به ، وقال معتذراً : ألَا إنه ليس فيكم مَنْ تُقطع إليه الأعناق كأبي بكر !

وأيضا قول المرتضى : قد يتفق[1] من ظهورِ فضـل غير أبي بكر وخوف الفتنة مثل ما اتفق لأبي بكر ، فلا يستحق القتل ، فإنّ لقائل أن يقول : إنّ عمر لم يخاطب بهذا إلا أهلَ عصره ، وكان هو رحمه الله يذهبُ إلى أنه ليس فيهم كأبي بكر ، ولا من يَحتمل له أن يبايع فَلْتة كما احتمل ذلك لأبي بكر ؛ فإن اتفق أن يكون في عصرٍ آخر بعد عصره مَنْ يظهر فضله ، ويكون في زمانه كأبي بكر في زمانه فهو غيرُ داخل في نهى عمر وتحريمه .

واعلم أنّ الشيعة لم تسلِّمْ لعمر أن بيعة أبي بكر كانت فَلْتة ، قال محمد بن هانئ المغربيّ :

وَلَكِنْ أمراً كان أُبرِمَ بينهمْ   وإن قال قوم فَلْتَةٌ غَيْرُ مُبْرَمِ[2]

وقال آخر :

زعموها فَلْتَةً فاجئـــةً   لا وَرَبِّ البيت والرُّكْنِ المَشِيدِ
إنمـــا كانتْ أموراً نُسِجَتْ   بينهم أسبابُهـــا نَسْجَ البُرود

* * *

وروى أبو جعفر أيضا في[3] التاريخ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما قبِض اجتمعت الأنصار في سَقيفة بني ساعدة ، وأخرجوا سعد بن عبادة ، ليولّوه الخلافة ، وكان

(١) ب : « سبق » ، تحريف صوابه من ح والناق .   (٢) ديوانه ٦٨٩ (طبع المعارف) .
(٣) تاريخ الطبري ٣ : ٢١٨ وما بعدها مع اختصار وتصرف .

مريضا ، فخطبهم ودعاهم إلى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه ، ثم ترادّوا الكلام فقالوا : فإنْ أبَى المهاجرون ، وقالوا : نحن أولياؤه وعِتْرته ؟ فقال قوم من الأنصار : نقول : منّا أمير ومنكم أمير ، فقال سعد : فهذا أول الوَهَن ! وسمع عمر الخبر فأتى منزل رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيه أبو بكر ، فأرسل إليه أن اخرج إليّ ، فأرسل : إني مشغول ، فأرسل إليه عمر أن اخرج ، فقد حدث أمر لا بدّ أن تحضُره ، فخرج فأعلمه الخبر ، فمضيا مسرعيْن نحوهم ومعهما أبو عُبيدة ، فتكلّم أبو بكر ، فذكر قُرْب المهاجرين من رسول الله صلى الله عليه وأنهم أولياؤه وعِتْرته ، ثم قال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا نفتاتُ عليكم بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور .

فقام الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال :

يامعشرَ الأنصار املِكوا عليكم أمرَكم ، فإنّ الناس في ظلّكم ، ولن يجترئ مجترئ على خِلافكم ، ولا يَصدُرُ أحد إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العِزّة والمَنَعة ، وأولو العَدَد والكثرة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس ماتصنعون ، فلا تختلفوا فتفسد عليكم أمورُكم ، فإن أبى هؤلاء إلا ماسمعتم ؛ فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : هيهات ! لا يجتمع سيْفان في غِمْد ، والله لا ترضى العرب أن تؤمّرَكم ونبيُّها من غيركم ، ولا تمتنع[1] العربُ أن تولّيَ أمرَها مَنْ كانت النبوة منهم ، مَنْ ينازعنا سلطان محمد ، ونحن أولياؤه وعشيرته !

فقال الحُبَاب بن المنذر :

يامعشرَ الأنصار ، املِكوا أيديَكم ، ولا تسمعوا مقالةَ هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوْا عليكم فأجلُوهم من هذه البلاد ، فأنتم أحقُّ بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان الناس بهذا الدّين ؛ أنا جُذَيْلُها المحكَّك ، وعُذَيْقُها المرجَّب ،

(١) كذا في ح وتاريخ الطبري ، وفي ا ، ب : « تمنع » .

أنا أبو شِبْل فى عرِّيسة الأسد ؛ والله إن شئتم لَنُعيدَنَّها جَذَعة .

فقال عمر : إذن يقتلَكَ الله ، قال : بل إياكَ يقتل .

فقال أبو عبيدة : يامعشرَ الأنصــار ؛ إنَّكم أولُ مَنْ نصر وآزر ، فلا تكونوا أوَّل من بدَّل وغيَّر .

فقام بشير بن سعد ، والد النعمان بن بشير فقال : يامعشرَ الأنصار ؛ ألا إنَّ محمدا من قريش ، وقومُه أوْلى به ، وايمُ الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر .

قال أبو بكر : هذا عمر وأبو عبيدة بايعوا أيَّهما شئتم ، فقالا : والله لا نتولَّى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه فى الصلاة ــ وهى أفضلُ الدين ــ ابسط يدك . فلمّا بسط يدَه ليبايعاه سبقَهما إليه بشير بن سعد فبايعه ، فناداه الحباب بن المنذر : يابَشير ، عَقَقْتَ عَقاق[1] ؛ أنَفِسْتَ على ابن عمِّك الإمارة[2] !

فقال أسيد بن حُضَيْر[3] رئيس الأوس لأصحابه : والله لئنْ لم تبايعوا ليكوننَّ للخزرج عليكم الفضيلةُ أبداً . فقاموا فبايعوا أبا بكر .

فانكسر على سعد بن عبادة والخزرج ما اجتمعوا عليه ، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر مِنْ كلِّ جانب ، ثم حُمِل سعد بن عبادة إلى داره ، فبقى أياما ، وأرسل إليه أبو بكر ليبايع ، فقال : لا والله حتى أرمِيَكم بما فى كنانتى ، وأخضِّب سِنان رمحى ، وأضربَ بسيفى ما أطاعنى ، وأقاتلَكم بأهل بيتى ومن تبعَنى ، ولو اجتمع معكم الجنّ والإنسُ مابايعتكم حتى أعرَض على ربّى .

فقال عمر : لا تدعْه حتى يبايع ، فقال بشير بن سعد : إنه قد لجّ ، وليس بمبايع لكم

(١) عقاق : مبنية على الكسر ، مثل حذام وفى الطبرى « عققك عقاق » .
(٢) بعدها كما فى التاريخ : « فقال : لا والله ، ولكنى كرهت أن أنازع قوماً حقا جعله الله لهم » .
(٣) فى الطبرى : « ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش ؛ وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ؛ فقال بعضهم لبعض ، وفيهم أسيد بن حضير . . . » ثم ذكر كلام أسيد .

حتى يُقتل، وليس بمقتول حتى يُقتلَ معه أهله وطائفة من عشيرته، ولا يضرّكم تركه؛ إنما هو رجل واحد، فتركوه.

وجاءت أسلم فبايعت، فقوِيَ بهم جانب أبي بكر، وبايعه الناس.

* * *

وفي كتب غريب الحديث في تتمة كلام عمر: فأيّما رجل بايع رجلا بغير مشورة من الناس فلا يؤمّر واحد منهما تَغِرّةً أن يقتلا[1].

قالوا: غرّر تغريرا وتَغِرّة. كما قالوا: حلّل تحليلا وتَحِلّة، وعلّل تعليلا وتَعِلّة، وانتصب «تغرّة» هاهنا لأنه مفعول له؛ ومعنى الكلام أنه إذا بايع واحد لآخر بغتةً عن غير شورى، فلا يؤمّر واحد منهما، لأنهما قد غرّرا بأنفسهما تَغِرّةً، وعرّضاها لأن تُقتلا.

* * *

وروى جميع أصحاب السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما توفّيَ كان أبو بكر في منزله[2] بالسُّنْح، فقام عمر بن الخطاب فقال: ما مات رسول الله صلى الله عليه، ولا يموت حتى يظهر دينُه على الدِّين كلّه، وليرجِعَنّ، فليُقطِّعنّ أيديَ رجال وأرجلهم ممّن أرْجَف بموته، لا أسمع رجلا يقول: مات رسول الله إلا ضربته بسيفي. فجاء أبو بكر وكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: بأبي وأمي! طِبْتَ حيًّا وميّتاً، والله لا يذيقك اللهُ الموتتين أبداً، ثم خرج والناس حول عمر، وهو يقول لهم: إنه لم يمت، ويحلف، فقال له: أيّها الحالف، على رِسْلك! ثم قال: مَنْ كان يعبد محمّداً فإن محمّداً قد مات ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[3]، وقال: ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾[4]، قال عمر: فوالله

---

(١) النهاية لابن الأثير ٣: ١٥٦

(٢) السنح؛ بالضم ثم السكون: إحدى محال المدينة؛ كان بها منزل أبي بكر؛ وهي منازل بني الحارث ابن الخزرج بعوالي المدينة.

(٣) سورة الزمر ٣٠

(٤) سورة آل عمران ١٤٤

ماملكتُ نفسي حيثُ سمعتُها أن سقطتُ إلى الأرض ، وعلمتُ أنّ رسول الله صلى الله عليه قد مات .

وقد تكلّمت الشّيعة في هذا الموضع ، وقالوا : إنه بلغ من قلة علمه أنه لم يعلم أن الموتَ يجوز على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه أسوة الأنبياء في ذلك ؛ وقال : لما تلا أبو بكر الآيات ، أيقنتُ الآن بوفاته ، كأنّي[1] لم أسمع هذه الآية ، فلو كان يحفظ القرآن أو يتفكر فيه ، ماقال ذلك ، ومَنْ هذه حاله لا يجوز أن يكون إماما .

وأجاب قاضي القضاة رحمه الله تعالى في "المغني" عن هذا فقال : إنّ عمر لم يمنع من جواز موته عليه السلام ، ولا نفى كونه ممكنا ، ولكنه تأوّل في ذلك قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[2]، وقال: كيف يموت ولم يظهر صلوات الله عليه على الدين كلّه ! فقال أبو بكر : إذا ظهر دينُه فقد ظهر هو ، وسيظهر دينُه بعد وفاته .

فحمَل عمر قوله تعالى : ﴿أَفَإِنْ مَاتَ﴾ على تأخّر الموت ، لا على نفيه بالكلية ، قال: ولا يجب فيمن ذَهل عن بعض أحكام القرآن ألّا يحفظ القرآن ، لأن الأمر لو كان كذلك لوجب ألّا يحفظ القرآن إلا من عرف جميع أحكامه ؛ على أنّ حفظ جميع القرآن غير واجب ، ولا يقدح الإخلال به في الفضل[3] .

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في كتاب "الشافي" هذا الكلام، فقال: لا يخلُو خلاف عمر في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كل حال والاعتقاد أن[4] الموت لا يجوز عليه على كلّ وجه ، أو يكون منكِرا لموته في

---

(١) الشافي : « وكأني » .
(٢) سورة التوبة ٣٣ .
(٣) نقله المرتضى في الشافي ٢٥٢ مع اختلاف في الروايتين .
(٤) ب : « لأن » ، والأصوب ما أثبته من ا .

تلك الحال من حيث لم يظهر على الدين كلّه، فإن كان الأوّل فهو مما لا يجوز خلاف عاقل فيه، والعلم بجواز الموت على جميع البشر ضروري. وليس يحتاج في حصول هذا العلم إلى تلاوة الآيات التي تلاها أبو بكر. وإنْ كان الثاني، فأوّل ما فيه أنّ هذا الاختلاف لا يليق بما احتجّ به أبو بكر عليه من قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾، لأن عمر لم ينكر على هذا الوجه جوازَ الموت عليه وصحتَه، وإنما خالف في وقته. فكان يجب أن يقول لأبي بكر: وأيّ حجة في هذه الآيات عليّ! فإني لم أمنع جوازَ موته، وإنما منعتُ وقوع موته الآن، وجوزته في المستقبل، والآيات إنما تدل على جواز الموت فقط، لا على تخصيصه بحال معينة.

وبعد، فكيف دخلت هذه الشبهة البعيدة على عُمر من بين سائر الخلق! ومن أين زعم أنه سيعود فيقطع أيديَ رجال وأرجلهم! وكيف لم يحصل له من اليقين لما رأى من الواعية[1] وكآبة الخلق وإغلاق الباب وصُراخ النساء ما يدفع به ذلك الوهم والشبهة البعيدة، فلم يحتج إلى موقّف!

وبعد، فيجب إن كانت هذه شبهته أن يقول في مرض النبي صلى الله عليه وآله ـ وقد رأى جَزَعَ أهله وخوفهم عليه الموت، وقولَ أسامة صاحب الجيش ـ: لم أكنْ لأرحل وأنت هكذا أسأل عنك الرُّكّب: ياهؤلاء لا تخافوا ولا تجزعوا، ولا تخفْ أنت يا أسامة، فإنّ رسول الله صلى الله عليه لا يموت الآن لأنه لم يظهر على الدين كلّه.

وبعد، فليس هذا من أحكام الكتاب التي يُعْذَر من لا يعرفها على ما ظنّ المعتذر له[2].

* * *

ونحن نقول: إنّ عمر كان أجلّ قدرا من أن يعتقد ما ظهر عنه في هذه الواقعة؛

---

(١) الواعية: الصراخ على الميت. (٢) الشافي ٢٥٢ مع اختصار وتصرف

ولكنه لما علم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات، خاف من وقوع فتنة فى الإمامة، وتقلّب أقوام عليها، إمّا من الأنصار أو غيرهم، وخاف أيضا من حدوث رِدّة، ورجوع عن الإسلام، فإنه كان ضعيفاً بعد لم يتمكّن، وخاف من تِراتٍ تُشَنّ، ودماء تُراق، فإنّ أكثر العرب كان موتورا فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لِقتل مَنْ قتَل أصحابُه منهم، وفى مثل ذلك الحال تنتهز الفرصة، وتُهتَبَلُ الغِرّة، فاقتضت المصلحة عنده تسكينَ الناس بأنْ أظهر ما أظهره من كون رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمت، وأوقَع تلك الشبهةَ فى قلوبهم، فكسر بها شِرّةَ كثير منهم، وظنوها حقّاً، فثناهم بذلك عن حادث يُحدثونه، تخيّلا منهم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ما مات، وإنما غاب كما غاب موسى عن قومه، وهكذا كان عمر يقول لهم: إنّه قد غاب عنكم كما غاب موسى عن قومه، وليعودَنّ فليقطّعن أيدىَ قوم أرجفوا بموته.

ومثلُ هذا الكلام يقع فى الوهْم، فيصدّ عن كثيرٍ من العزم؛ ألا ترى أنّ الملِك إذا مات فى مدينة وقع فيها فى أكثر الأمر نهب وفساد وتحريق، وكلّ مَنْ فى نفسه حِقد على آخر بلَغ منه غرضه، إمّا بقتلٍ أو جرح أو نهب مال؛ إلى أن تتمهّد قاعدةُ الملِك الذى يَلِى بعده؛ فإذا كان فى المدينة وزير حازم الرأى، كتَم موت الملك، وسجن قوما ممن أرجف بموته، وأقام فيهم السياسة، وأشاع أن الملِك حىّ، وأنّ أوامره وكتبه نافذة، ولا يزال يلزم ذلك الناموس إلى أن يمهّد قاعدة الملك للوالى بعده؛ وكذلك عمر أظهر ما أظهر حِراسة للدين والدولة، إلى أن جاء أبو بكر ـ وكان غائبا بالسُّنْح، وهو منزل بعيد عن المدينة ـ فلما اجتمع بأبى بكر قوىَ به جأشُه، واشتدّ به أزره، وعَظُم طاعة الناس له وميلهم إليه، فسكت حينئذٍ عن تلك الدعوى التى كان ادّعاها، لأنه قد أمِنَ بحضور أبى بكر من خَطْبٍ يحدث، أو فساد يتجدّد؛ وكان أبو بكر محبّبا إلى الناس؛ لا سيّما المهاجرين.

ويجوز عند الشيعة وعند أصحابنا أيضا أن يقول الإنسان كلاما ظاهر الكذب على جهة المعاريض، فلا وَصْمَةَ على عمر إذا كان حلَف أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَمُتْ، ولا وَصْمَةَ عليه في قوله بعد حضور أبي بكر وتلاوة مآتلا : كأنى لم أسمعها ، أو قد تيقنت الآن وفاته صلى الله عليه، لأنه أراد بهذا القول الأخير تشييدَ القول الأول، وكان هو الصواب، وكان من سيّئ الرأى وقبيحه أن يقولَ : إنما قلتهُ تسكينا لكم ، ولم أقله من اعتقاد، فالذى بدَأ به حَسن وصواب ، والذى ختم به أحسن وأصوَب .

* * *

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى فى كتاب " السقيفة " عن عمر بن شبّة، عن محمد بن منصور، عن جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار، قال : كان النبي صلى الله عليه وآله قد بعثَ أبا سفيان ساعياً [1] ، فرجع من سعايته وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلقيَه قوم فسألهم ، فقالوا : مات رسول الله صلى الله عليه ، فقال : مَنْ وليَ بعده ؟ قيل : أبو بكر ، قال : أبو فَصيل ! قالوا : نعم ، قال : فما فعل المستضعفان : عليّ والعباس ! أما والذى نفسى بيده لأرفعنّ لهما من أعضادهما .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وذكر الراوى – وهو جعفر بن سليمان – أنّ أبا سفيانَ قال شيئا آخر لم تحفظه الرواة ؛ فلما قدم المدينة قال : إنّى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ! قال : فكلّم عمرُ أبا بكر ، فقال : إنّ أبا سُفيان قد قدِم ، وإنا لا نأمن شرّه ، فدَعْ له ما فى يده ، فتركه فرضىَ .

وروى أحمد بن عبد العزيز أن أبا سفيان قال لما بويع عثمان : كان هذا الأمر فى تَيْم ، وأنّى لتَيْم هذا الأمر ! ثم صار إلى عدىّ فأبعد وأبعد، ثم رجعت إلى منازلها، واستقرّ الأمر قراره ، فتلقفوها تلقّفَ الكرة .

---

(١) السعاية : مباشرة أعمال الصدقات .

قال أحمد بن عبد العزيز : وحدثني المغيرة بن محمد المهلبي قال : ذاكرت إسماعيل ابن إسحاق القاضي بهــذا الحديث ، وأن أبا سفيان قال لعثمان : بأبي أنت ! أنفق ولا تــكن كأبي حجر ، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدان الكرة ، فوالله مامن جنّة ولا نار — وكان الزبير حاضرا ، فقال عثمان لأبي سفيان: اعزُب ، فقال : يا بنيّ أهاهنا أحد؟ قال الزبير: نعم والله لا كتمتُها عليك — قال : فقال إسماعيل:هذا باطل.قلت:وكيف ذلك؟ قال : ما أنكر هذا من أبي سفيان،ولكن أنكر أن يكون سمعه عثمان،ولم يضرب عنقه.

وروى أحمد بن عبد العزيز ، قال : جاء أبو سفيان إلى علي عليه السلام ، فقال : وليتم على هذا الأمر أذل بيت في قريش ، أما والله لئن شئت لأملأنّها على أبي فصيل خيلا ورجلا ، فقال علي عليه السلام : طالما غششت الإسلام وأهله فما ضررتهم شيئا ! لا حاجة لنا إلى خيلك ورجلك ، لولا أنا رأينا أبا بكر لها أهلا ، لما تركناه .

وروى أحمد بن عبد العزيز ، قال : لما بويع لأبي بكر كان الزبير والمقداد يختلفان في جماعة من الناس إلى علي وهو في بيت فاطمة،فيتشاورون ويتراجعون أمورهم،فخرج عمر حتى دخل على فاطمة عليها السلام ، وقال: يابنت رسول الله،مامن أحد من الخلق أحبّ إلينا من أبيك ، ومامن أحد أحبّ إلينا منك بعــد أبيك ، وايمُ الله ماذاك بمانعي إن اجتمع هؤلاء النفر عندك أنْ آمر بتحريق البيت عليهم . فلمــا خرج عمر جاءوها ، فقالت : تعلمون أنْ عمر جاءني ، وحلف لي بالله إن عُدتم ليحرقن عليكم البيت،وايمُ الله ليمضينّ لما حلف له ، فانصرفوا عنا راشدين . فلم يرجعوا إلى بيتها ، وذهبوا فبايعوا لأبي بكر .

* * *

وروى أحمد — وروى المبرد في " الكامل " صدر هذا الخبر[1] — عن عبد الرحمن

(١) والخبر أيضاً في تاريخ الطبري : (٣ : ٢٣٤) وما بعدها .

ابن عوف ، قال : دخلتُ على أبي بكر أعودُه في مرضه الذي مات فيه ، فسلّمت ، وسألته: كيف به ؟ فاستوى جالسا ، فقلت : لقد أصبحتَ بحمد الله بارئا ، فقال : أما إنّي على ماترى لَوَجِعٌ، وجعلتم لي معشر المهاجرين شغلا مع وجَعِي ، وجعلت لكم عهدا مني من بعدي ، واخترت لكم خيرَكم في نفسي ، فكلّكم وَرِم[1] لذلك أنفُه رجاء أن يكون الأمر له ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ؛ والله لتتّخِذُنّ ستورَ الحرير ونضائد الديباج[2] ، وتألمون ضجائع الصوف الأذربيّ[3]، كأنّ أحدَكم على حَسَك[4] السَّعْدَان . والله لأنْ يقدّم أحدكم فتضربَ عنقه في غير حَدّ خَيْرٌ له من أن يَسْبَح في غمرة الدنيا ، وإنكم غداً لأوّل ضالّ بالناس يجورون عن الطريق يمينا وشمالا ، ياهاديَ الطريق جُرْتَ ؛ إنما هو البَجْر أو الفَجْر[5] . فقال له عبد الرحمن : لاتُكْثر على مابك فيَهيضَك[6]، والله ماأردتَ إلا خيرا[7]، وإن صاحبَك لذو خير ؛ وما الناس إلا رجلان : رجل رأى مارأيت ؛ فلا خلاف عليك منه، ورجل رأى غيرَ ذلك ؛ وإنما يشير عليك برأيه . فسكنَ وسكتَ هُنَيهةً ؛ فقال عبدُ الرحمن : ماأرى بك بأسا والحمد لله ، فلا تأسَ على الدنيا ، فوالله إن علمْنَاك إلا صالحا مصلحا . فقال : أما إني لا آسَى إلا على ثلاث فعلتُهن ، ودِدت أنّي لم أفعلْهن ، وثلاث لم أفعلهنّ وددْت أني فعلتهُنّ، وثلاث ودِدت أني سألت رسول الله صلى الله عليه عنهنّ :

فأما الثلاث التي فعلتُها ووددت أنّي لم أكن فعلتُها : فودِدْت أني لم أكن كشفتُ

---

(١) ورم أنفه : أي امتلأ من ذلك غضبا .

(٢) نضائد الديباج : واحدتها نضيدة ؛ وهي الوسادة وما ينضد من المتاع .

(٣) الأذربي : منسوب إلى أذربيجان .

(٤) السعدان : نبت كثير الحسك تأكله الإبل فتسمن عليه .

(٥) قال في الكامل : « وقوله : والله هو الفجر أوالبحر ، يقول : إن انتظرت حتى يضيء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك ، وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه » .

(٦) يهيضك : أي يحطمك ويؤذيك ؛ وأصله في العظم إذا كسر بعد الجبور ؛ فإنه يكون أشد وجعا .

(٧) هذه آخر رواية المبرد — مع تصرف كثير في العبارة — في الكامل ١ : ٥٤ ، ٥٥ — بشرح المرصفي.

عن بيت فاطمة وتركتهُ ولو أُغلِق على حَرْب، ووددْت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة كنت قذفت الأمرَ فى عُنق أحـد الرجلين : عمر أو أبى عبيدة ، فـكان أميراً وكنت وزيراً ؛ ووددت أنى إذ أتيت بالفُجَاءة[1] لم أكن أحرقته ، وكنت قتلته بالحديد أو أطلقته .

وأما الثلاث التى تركتها ووَدِدْت أنى فعلتها : فوددت أنى يوم أتيت بالأشعث كنت ضربت عنقَه ، فإنه يخيل إلىَّ أنه لا يرى شرًّا إلا أعان عليه ؛ ووددت أنى حيث وجّهت خالداً إلى أهل الردة أقمت بذى القَصّة، فإن ظَفِر المسلمون وإلا كنتُ رِدْءًا لهُم ، ووددت حيث وجهت خالدا إلى الشام كنت وجهت عمر إلى العراق، فأكون قد بسطت كلتا يدىّ: اليمين والشمال فى سبيل الله .

وأما الثلاث اللواتى وددت أنى كنت سألت رسول الله صلى الله عليه عنهن: فوددت أنى سألته فيمن هذا الأمر ، فـكنا لا ننازعه أهله ؛ [ووددت أنى كنت سألته هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟][2] ووددت أنى سألته عن ميراث العمة وابنة الأخت ؛ فإنّ فى نفسى منهما حاجة .

ومن كتاب معاوية المشهور إلى على عليه السلام :

وأعهدك أمس تحملُ قعيدةَ بيتِك ليلا على حمار ويدَاك فى يدى ابنيك الحسن والحسين يوم بويع أبو بكر الصديق ، فلم تَدَع أحـدا من أهل بَدْر والسوابقِ إلا دعوتَهم إلى نفسك ، ومشيت إليهم بامرأتك ، وأدلَيْت إليهم بابنيك ، واستنصرتهم على صاحب رسول الله، فلم يجبك منهم إلا أربعة أو خمسة ؛ ولَعَمْرِى لو كنت محقًّا لأجابوك ، ولكنك ادّعيتَ باطلا ، وقلت مالا نعرف ، ورُمْتَ مالا يُدرَك ، ومهما نسيتُ فلا أنسى قولك لأبى سفيان ، لما حرّكك وهيّجك : لو وجدتُ أربعين ذوِى عزم منهم لناهضتُ القوم؛ فما يوم المسلمين منك بواحد ، ولَا بغْيُك على الخلفاء بطريف ولا مستبدَع .

---

(١) هو إياس بن عبد الله بن عبد ياليل السلمى ، وكان قد استعرض الناس بقتلهم وأخذ أموالهم ، فأمر أبو بكر بإحراقه . وانظر تفصيل الخبر فى الطبرى ٣ : ٢٣٤ .
(٢) زيادة من الطبرى يقتضيها السياق .

وسنذكر تمام هذا الكتاب وأوله عند انتهائنا إلى كتب عليّ عليه السلام .

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري عن أبي المنذر وهشام بن محمد بن السائب عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، قال : كان بين العباس وعليّ مباعدة ، فلقيَ ابنُ عباس عليًّا ، فقال : إن كان لك في النظر إلى عمك حاجة فأته ، وما أراك تلقاه بعدها . فوجَمَ[1] لها وقال . تقدمني واستأذن ،فتقدمتُه واستأذنت له،فأذِن فدخل،فاعتنق كلّ واحد منهما صاحبَه ، وأقبل عليّ عليه السلام على يده ورجله يقبّلهما ، ويقول : ياعمّ ، ارضَ عني رضيَ اللهُ عنك ، قال : قد رضيتُ عنك .

ثم قال: يابنَ أخي،قد أشرتُ عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل،ورأيتَ في عاقبتها ما كرهت؛ وهأنذا أشير عليك برأي رابع ، فإن قبلتَه ؛ وإلا نالك ما نالك مما كان قبله . قال : وما ذاك ياعم ؟ قال : أشرتُ عليك في مرض رسول الله صلى الله عليه أن تسأله ، فإن كان الأمر فينا أعطاناه،وإن كان في غيرنا أوصى بنا،فقلت:أخشى إن منعناه لا يعطيناه أحد بعده[1]،فمضت تلك.فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه وآله،أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة ، فدعوناك إلى أن نبايعك،وقلت لك: ابسُط يدك أبايعك ويبايعك هذا الشيخ،فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحدمن بني عبدمناف ، وإذابايعك بنو عبدمناف لم يختلف عليك أحد[2] من قريش ، وإذا بايعتْك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب ، فقلتَ :لنا بجهاز رسول الله صلى الله عليه شُغل ، وهذا الأمر فليس نخشى عليه ؛ فلم نلبَثْ أن سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة ، فقلت : ياعمّ ، ماهذا ؟ قلتُ : ما دعوناك إليه فأبيت ، قلت : سبحان الله ! أو يكون هذا ! قلتُ : نعم . قلتَ : أفلا يردّ ؟ قلتُ لك : وهل رُدّ مثلُ هذا قطّ ! ثم أشرتُ عليك حين طُعِن عمر فقلت : لاتُدْخِل نفسك في الشورى ، فإنك إن اعتزلتهم قدّموك ، وإن ساويتهم تقدموك ، فدخلتَ معهم فكان ما رأيت .

---

(١) ساقطة من ب .	(٢) ب : « قريش »

ثم أنا الآن أشيرُ عليك برأيٍ رابعٍ ، فإن قبلتَه وإلّا نالك مانالك ممّا كان قبله : إنّي أرى أنّ هذا الرجل ـ يعني عثمان ـ قد أخذ في أمور ، والله لكأنّي بالعرب قد سارت إليه حتى يُنْحَرَ في بيته كما يُنْحَرُ الجمل . والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة ألزمك الناس به ؛ وإذا كان ذلك لم تنلْ من الأمر شيئا إلّا من بعد شرٍ لاخير معه .

قال عبد الله بن عباس : فلما كان يوم الجمل عَرَضْتُ له ـ وقد قتل طلحة ، وقد أكثر أهل الكوفة في سَبِّه وغَمْصِه ـ فقال عليّ عليه السلام : أما والله لئن قالوا ذلك ، لقد كان كما قال أخو جُعفيّ[1] :

فَتًى كَانَ يُدْنِيهِ الْغِنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَاهُوَ اسْتَغْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ

ثم قال : والله لكأنّي أنظر إليه كان ينظر من وراء سِتْرٍ رَقيق ! والله مانلتُ من هذا الأمر شيئا إلا بعد شرٍّ لاخيرَ معه .

• • •

وروى أبو بكر أحمد بن عبد العزيز ، عن حُباب بن يزيد ، عن جرير بن المغيرة أنّ سلمان والزّبير والأنصار كان هواهم أن يُبايعوا عليّاً عليه السلام بعد النبيّ صلّى الله عليه وآله ، فلمّا بُويع أبو بكر ، قال سلمان : أصبتم الخِبْرَةَ وأخطأتم المَعْدِن

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا عليّ بن أبي حفص ، قال : حدّثنا عمرو بن ثابت ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : قال سلمان يومئذ : أصبتم ذا السنّ منكم ، وأخطأتم أهلَ بيت نبيّكم ! لوجعلتموها فيهم مااختلف عليكم اثنان ، ولأكلتموها رغداً .

قال أبو بكر : وأخبرنا عمر بن شبّة ، قال : حدّثني محمد بن يحيى ، قال : حدّثنا غسّان

---

(١) هو سلمة بن يزيد بن مشجعة الجعفي ، من كلمة يرثي فيها أخاه لأمه قيس بن سلمة . أمالي القالي ٢ : ٢٤٣

ابن عبد الحميد ، قال : لمّا أكثر الناس فى تَخَلُّف علىّ عليه السلام عن بيعة أبى بكر ، واشتدّ أبو بكر وعمر عليه فى ذلك ، خرجتْ أم مِسْطح بن أثاثة ، فوقفتْ عند القبر ، وقالت :

كانتْ أمورٌ وأنبــــاء وَهَنْبَثَةٌ ... لو كنتَ شاهدَها لم تَكْثُرِ الخُطَبُ[1]

إنّا فقدْناك فَقْدَ الأرضِ وَابِلَهـــا ... واختلّ قومُك فاشْهَدْهُمْ ولا تَغِبِ[2]

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شَبّة ، قال : حدّثنا إبراهيم بن المنذر ، عن ابن وهب ، عن ابن لَهِيعة ، عن أبى الأسود ، قال : غضب رجالٌ من المهاجرين فى بيعة أبى بكر بغير مشورة ، وغضب علىّ والزبير ، فدخَلا بيت فاطمة عليها السلام ، معهما السلاح ، فجاء عمر فى عصابة ؛ منهم أُسَيْد بن حُضَير وسلَمة بن سَلَامة ابن وَقْش - وهما من بنى عبد الأشهل - فصاحت فاطمة عليها السلام ، وناشدتْهم الله . فأخذوا سيفَىْ علىّ والزبير ، فضربوا بهما الجدار حتى كسروهما ، ثم أخرجهما عمر يَسُوقهما حتى بايعا ، ثم قام أبو بكر فخطب الناس ، واعتذر إليهم ، وقال : إن بيعتى كانت فَلْتَةً وقى الله شرّها ، وخشيتُ الفتنة ، وايمُ الله ماحرَصت عليها يوما قطّ ، ولقد قُلِّدت أمرا عظيما مالى به طاقة ولا يدان ، ولوَدِدْتُ أنّ أقوى الناس عليه مكانى . وجعل يعتذر إليهم ، فقبل المهاجرون عذرَه . وقال علىّ والزبير : ما غَضِبْنا إلا فى المشورة ، وإنا لَنَرَى أبا بكر أحقّ الناس بها ؛ إنه لصاحبُ الغار ، وإنا لنعرف له سِنّه ، ولقد أمَره رسول الله صلى الله عليه بالصلاة بالناس وهو حىّ .

قال أبو بكر - وقد روى بإسناد آخر ذكره : أنّ ثابت بن قيس بن شَمّاس كان مع الجماعة الذين حَضَرُوا مع عمر فى بيت فاطمة عليها السلام ؛ وثابت هذا أخو بنى الحارث ابن الخزرج .

---

(١) الهنبثة ، واحدة الهنابث ؛ وهى الأمور الشداد المختلفة ؛ والبيتان فى اللسان (٣ : ٢٠) ، وذكر أنه جاء فى حديث أن فاطمة قالتهما بعد موت الرسول عليه السلام ؛ وذكر أيضا أنه ورد هذا الشعر فى حديث آخر ؛ قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت صفية تلمع بثوبها وتقول البيتين » .

(٢) اللسان : « فاختل » .

وروى أيضاً أن محمد بن مسلمة كان معهم ، وأن محمداً هو الذى كسر سيف الزبير .

قال أبو بكر : وحدّثنى يعقوب بن شَبّة ، عن أحمد بن أيوب ، عن إبراهيم بن سعد ، عن ابن إسحاق ، عن الزّهرىّ ، عن عبدالله بن عباس ، قال : خرج علىّ عليه السلام على الناس من عند رسول الله صلى الله عليه فى مرضه ، فقال له الناس : كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه يا أبا حسن ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً ، قال : فأخذ العباس بيد علىّ ، ثم قال : يا علىّ ، أنت عبد العصا بعد ثلاث ! أحلف لقد رأيتُ الموتَ فى وجهه — وإنى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب — فانطلِقْ إلى رسول الله صلى الله عليه فاذكر له هذا الأمر ؛ إن كان فينا أعلَمَنا ، وإن كان فى غيرنا أوصَى بنا . فقال : لا أفعل ، والله إن منِعْناه اليوم لا يؤتيناه الناسُ بعده ؟ قال : فتُوفّىَ رسول الله ذلك اليوم .

وقال أبو بكر : حدّثنى المغيرة بن محمد المهلبىّ من حفظه وعمر بن شَبّة من كتابه ، بإسنادٍ رفعه إلى أبى سعيد الخُدْرىّ ، قال : سمعت البراء بن عازب يقول : لم أزلْ لبنى هاشم محبّاً ، فلما قُبِض رسول الله صلى الله عليه تخوّفتُ أن تَمالأ قريشٌ على إخراج هذا الأمر عن بنى هاشم ، فأخذنى ما يأخذ الوالهَ العَجُول .

ثم ذكر ما قد ذكرناه نحن فى أول هذا الكتاب[1] فى شرح قوله عليه السلام : « أما والله لقد تقمّصها فلان » ، وزاد فيه فى هذه الرواية : فمكثتُ أكابد ما فى نفسى ، فلما كان بليل ، خرجت إلى المسجد ، فلما صرت فيه تذكّرت أنى كنت أسمعُ همهمة رسول الله صلى الله عليه بالقرآن ، فامتنعتُ من مكانى ، فخرجت إلى الفضاء ، فضاء بنى بيّاضة ، وأجد نفراً يتناجوْن ، فلما دنوتُ منهم سكَتُوا ، فانصرفت عنهم ، فعرفونى وما أعرفهم ، فدعونى إليهم فأتيتُهم ، فأجد المقدادَ بنَ الأسود وعبادة بن الصامت ، وسلْمان الفارسىّ ، وأبا ذر ، وحُذيفة ، وأبا الهَيْثم بن التّيهان ؛ وإذا حُذَيفة يقول لهم : والله ليكوننّ ما أخبرتُكم

(١) الجزء الأول ص ١٤٩ وما بعدها .

به ، والله ما كَذَبتُ ولا كُذِبت ؛ وإذا القوم يريدون أن يُعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين .

ثم قال : ائتوا أُبيّ بن كعب ، فقد علم كما علمت . قال : فانطلقنا إلى أُبيّ ، فضربنا عليه بابه ؛ حتى صار خلف الباب ، فقال : من أنتم ؟ فكلّمه المقداد ، فقال : ما حاجتكم ؟ فقال له : افتح عليك بابك ، فإنّ الأمر أعظم من أن يُجرَى من وراء حجاب ، قال : ما أنا بفاتح بابي ، وقد عرفتُ ماجئتم له ، كأنكم أردتم النظر في هذا العقد . فقلنا : نعم ، فقال : أفيكم حُذيفة ؟ فقلنا : نعم ، قال : فالقول ماقال ؛ وبالله ما أفتح[1] عني بابي حتى يُجرَى على ما هي جارية ، ولَما يكون بعدها شرٌّ منها ، وإلى الله المشتكى !

قال : وبلغ الخبرُ أبا بكر وعمر ، فأرسلا إلى أبي عُبيدة والمغيرة بن شُعْبة ، فسألاهما من الرأي ، فقال المغيرة : أن تلقَوُا العباس فتجعلوا له في هذا الأمر نصيبا فيكون له ولعقبه ، فتقطعوا به من ناحية عليّ ، ويكون لكم حُجّةٌ عند الناس على عليّ ، إذا مال معكم العباس .

فانطلقوا حتى دخلوا على العبّاس في الليلة الثانية من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله .
ثم ذكر خطبة أبي بكر وكلام عمر وما أجابهما العباس به ، وقد ذكرناه فيما تقدم من هذا الكتاب في الجزء الأول .

وروى أبو بكر ، قال : أخبرنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، قال : حدثنا عبدالله بن عمر ، عن حماد بن زيد ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد ، قال : لما تُوُفّيَ النبي صلى الله عليه اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عُبادة ، فأتاهم أبو بكر وعمر وأبو عُبيدة ، فقال الحُباب :

(١) ب : « ما بفتح » .

ابن المنذر : منا أمير ومنكم أمير ، إنا والله ما ننفس[1] هذا الأمر عليكم أيها الرهط ؛ ولكنا نخاف أن يليه بعدكم من قتلنا أبناءهم وآباءهم وإخوانهم ؛ فقال عمر بن الخطاب : إذا كان ذلك فمت إن استطعت . فتكلم أبو بكر فقال : نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، والأمر بيننا نصفان كشق الأُبْلُمَة[2] . فبويع ، وكان أول من بايعه بشير بن سعد والد النعمان ابن بشير .

فلما اجتمع الناس على أبي بكر ، قَسَم قَسْماً[3] بين نساء المهاجرين والأنصار ، فبعث إلى امرأة من بني عدي بن النجار قَسْمَها مع زيد بن ثابت ، فقالت : ما هذا ؟ قال : قَسْمٌ قَسَمه أبو بكر للنساء ، فقالت : أتراشونني عن ديني ! والله لا أقبل منه شيئاً فردّه عليه .

قلت : قرأت هذا الخبر على أبي جعفر يحيى بن محمد العلوي الحسني المعروف بابن أبي زيد نقيب البصرة رحمه الله تعالى في سنة عشر وستمائة من كتاب السقيفة لأحمد ابن عبد العزيز الجوهري ، قال : لقد صدقت فراسة الحُباب ، فإن الذي خافه وقع يوم الحرة ، وأخذ من الأنصار ثأر المشركين يوم بدر . ثم قال لي رحمه الله تعالى : ومن هذا خاف أيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله على ذُرّيته وأهله ، فإنه كان عليه السلام قد وَتَر الناس ، وعلم أنه إن مات وترك ابنته وولدها سُوقة ورعيّة تحت أيدي الولاة ، كانوا بعرض خطر عظيم ، فما زال يقرر لابن عمه قاعدة الأمر بعده ، حفظاً لدمه ودماء أهل بيته ، فإنهم إذا كانوا ولاة الأمر كانت دماؤهم أقربَ إلى الصّيانة والعصمة مما إذا كانوا سوقة تحت يد والٍ من غيرهم ، فلم يساعده القضاء والقدَر ، وكان من الأمر ما كان . ثم أفضى أمر ذرّيته فيما بعد إلى ما قد علمت .

---

(١) تنفس : تحسد .

(٢) واللسان : (١٤ : ٣٢٠) وفي حديث السقيفة : « الأمر بيننا وبينكم كقد الأبلمة » ، و« أبلمة » بضم الهمزة واللام وفتحهما وكسرهما : خوصة المقل ، وهمزتها زائدة ، يقول : نحن وإياكم في الحكم سواء ، لا فضل لأمير على مأمور ، كالخوصة إذا شقت باثنين متساويتين .

(٣) القسم هنا : العطاء .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : حدّثني يعقوب بن شيبة بإسناد رفعه إلى طلحة ابن مصرِّف ، قال: قلت لهذيل بن شُرَحبيل : إن الناس يقولون : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى علىّ عليه السلام ، فقال : أبو بكر يتأمر على وصىّ رسول الله صلى الله عليه ! ودّ أبو بكر أنه وجد من رسول الله صلى الله عليه عهدا فخزم أنفه .

قلت : هذا الحديث قد خرّجه الشيخان : محمد بن إسماعيل البخارىّ ومسلم بن الحجاج القُشَيرىّ فى صحيحيهما عن طلحة بن مصرِّف ، قال : سألت عبد الله بن أبى أوفى : أوصى[1] رسول الله صلى الله عليه؟ قال: لا ،قلت :فكيف كُتِب على المسلمين الوصية[2] أو كيف أمِر بالوصية ولم يوص[3] ؟ قال : أوصى بكتاب الله[4] . قال طلحة : ثم قال ابن أوفى : ما كان أبو بكر يتأمر على وصىّ رسول الله صلى الله عليه ؛ ودّ أبو بكر أنه وَجَد مِنْ رسول الله صلى الله عليه عهدا ، فخزم أنفه بخزامه .

وروى الشيخان فى الصحيحين عن عائشة أنه ذُكِر عندها أن رسول الله صلى الله عليه أوصى ، قالت : ومتى أوصى ؟ ومن يقول ذلك ! قيل : إنهم يقولون ، قالت : مَنْ يقوله ؟ لقد دعا بطستٍ ليبول ، وإنه بين سَحْرى ونَحْرى فانخنث[5] ، فى صدرى فمات وما شَعَرْت[6] .

وفى الصحيحين أيضاً ، خرّجاه معا عن ابن عباس ، أنه كان يقول : يوم الخميس ، وما يوم الخميس ! ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى ، فقلنا : يابْنَ عباس ، وما يوم الخميس ؟

(١) لفظ مسلم : « هل أوصى ؟ » .
(٢) لفظ مسلم : « فلم كتب على المسلمين الوصية ! » .
(٣) لفظ مسلم : « أو فلم أمروا بالوصية ؟ » .
(٤) صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٦ .
(٥) انخنث : مال وسقط .
(٦) لفظ مسلم ٣ : ١٢٥٧ بسنده عن الأسود بن يزيد : « ذكروا عند عائشة أن عليا كان وصيا ، فقالت : متى أوصى إليه ؟ فقد كنت مسندته إلى صدرى ــ أو قالت حجرى ــ فدعا بالطست ، فلقد انخنث فى حجرى ، وما شعرت أنه مات ، فمتى أوصى إليه ؟ » .

قال : اشتدّ برسول الله صلى الله عليه وَجَعُه ، فقال : ائتونى بكتاب أكتُبه لكم[١] لا تضلّوا بعدى أبدا . فتنازعوا ، فقال : إنه لا ينبغى عندى تنازُع ، فقال قائل : ماشأنه ؟ أهَجَر ؟ استفهموه . فذهبوا يعيدون عليه ، فقال : دعونى ، والذى أنا فيه خير من الذى أنتم فيه ، ثم أمَر بثلاثة أشياء ، فقال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحوما كنت أجيزُهم ؛ وسئل ابن عباس عن الثالثة ، فقال : إمّا ألا يكون تكلّم بها ، وإمّا أن يكون قالها فنسيت[٢] .

وفى الصحيحين أيضا خرّجاه معا عن ابن عباس رحمه الله تعالى ، قال : لما احتُضِر[٣] رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفى البيت رجالٌ منهم عمر بن الخطاب ؛ قال النبىّ صلى الله عليه : هلمّ أكتبْ لكم كتابا لا تضلّونَ بعده ، فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه قدغلب عليه الوجَع ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف القوم واختصموا ، فمنهم من يقول : قرّبُوا إليه يكتبْ لكم كتابا لن تضلّوا بعده ، ومنهم من يقول : القولُ ماقاله عمر ؛ فلما أكثروا اللغو والاختلاف عنده عليه السلام ، قال لهم : قوموا ، فقاموا ، فكان ابن عباس يقول : إن الرزيّة كلَّ الرزيّة ماحال بين رسول الله صلى الله عليه وبين أن يكتب لكم[٤] ذلك الكتاب[٥] .

• • •

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهرى : وحدثنى أحمد بن إسحاق بن صالح ، قال : حدثنى عبد الله بن عمر بن معاذ ، عن ابن عون ، قال : حدثنى رجل عن زُرَيق

---

(١) لفظ مسلم : « ائتونى أكتب لكم كتابا » .
(٢) لفظ مسلم : « قال : وسكت عن الثالثة أو قال : فأنسيتها » ، والحديث فى صحيحه ٣ : ١٢٥٧ — ١٢٥٨ .
(٣) لفظ مسلم : « حضر » ؛ وهما بمعنى حضره الموت .
(٤) لفظ مسلم : « لهم » .
(٥) صحيح مسلم ٣ : ١٢٥٩ .

أن عمر كان يومئذ — قال : يعني يوم بويع أبو بكر — محتجزاً[1] يهرول بين يدي أبي بكر ؛ ويقول : ألا إن الناس قد بايعوا أبا بكر . قال : فجاء أبو بكر حتى جلس على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد ، فإني وُلِّيتُكم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسُنَّت السنن ، وعلمنا فعلمنا أنّ أكيس الكَيْس التقى ، وأحمق الحُمْق الفجور . وإن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بالحق ، وأضعفكم عندي القويّ حتى آخذ منه الحق . أيها الناس إنّما أنا متّبع ولست بمبتدع ، إذا أحسنتُ فأعينوني ، وإذا زُغت فقوّموني .

قال أبو بكر : وحدّثني أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدثنا أحمد بن معاوية ، قال : حدّثني النضر بن شُميل ، قال : حدثنا محمد بن عمرو ، عن سلمة بن عبد الرحمن ، قال : لما جلس أبو بكر على المنبر ، كان عليّ عليه السلام والزبير وناسٌ من بني هاشم في بيت فاطمة ، فجاء عمر إليهم ، فقال : والذي نفسي بيده ، لتخرُجُنّ إلى البيعة أو لأُحرِقنّ البيت عليكم ! فخرج الزبير مُصلتاً سيفه ، فاعتنقه رجل من الأنصار وزياد بن لبيد . فبدر السيف ، فصاح به أبو بكر وهو على المنبر : اضرب به الحجر ، فدق به . قال أبو عمرو ابن حماس : فلقد رأيت الحجر فيه تلك الضربة ، ويقال : هذه ضربةُ سيف الزبير ثم قال أبو بكر : دعوهم فسيأتي الله بهم ، قال : فخرجوا إليه بعد ذلك فبايعوه .

قال أبو بكر : وقد رُوي في رواية أخرى أنّ سعد بن أبي وقّاص ، كان معهم في بيت فاطمة عليها السلام والمقداد بن الأسود أيضاً ، وأنهم اجتمعوا على أن يبايعوا عليّاً عليه السلام ، فأتاهم عمر ليحرق عليهم البيت ، فخرج إليه الزُّبير بالسيف ، وخرجت فاطمة عليها السلام تبكي وتصيح ؛ فنَهنهتْ من الناس ، وقالوا : ليس عندنا معصية ، ولا خلاف في خير اجتمع عليه الناس ؛ وإنما اجتمعنا لنؤلّف القرآن في مصحف واحد . ثم بايعوا أبا بكر ، فاستمرّ الأمرُ واطمأنّ الناس .

(١) يقال : احتجز بالإزار إذا شده على وسطه

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : أخبرنا أبو بكر الباهليّ ، قال : حدثنا إسماعيل بن مجالد ، عن الشعبيّ ، قال : سأل أبو بكر فقال : أين الزبير ؟ فقيل : عند عليّ وقد تقلّد سيفه ، فقال : قم يا عمر ، قم يا خالد بن الوليد ؛ انطلقا حتى تأتياني بهما ، فانطلقا ، فدخل عمر ، وقام خالد على باب البيت من خارج ، فقال عمر للزبير : ما هذا السيف ؟ فقال : نبايع عليًّا ، فاخترطه عمر فضرب به حجرا فكسره ، ثم أخذ بيد الزبير فأقامه ثم دفعه ، وقال : يا خالد دونكه فأمسكه ، ثم قال لعليّ : قم فبايع لأبي بكر ، فتلكّأ واحتبس ، فأخذ بيده ، وقال : قم ، فأبى أن يقوم ، فحمله ودفعه كما دفع الزبير فأخرجه ، ورأت فاطمة ما صنع بهما ، فقامت على باب الحجرة ، وقالت : يا أبا بكر ، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله ! والله لا أكلّم عمر حتى ألقى الله . قال : فمشى إليها أبو بكر بعد ذلك وشفع لعمر ، وطلب إليها فرضيت عنه .

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد ، قال : وحدثنا محمد بن حاتم ، قال : حدثنا الحزاميّ ، قال : حدثنا الحسين بن زيد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : مرّ عمر بعليّ وعنده ابنُ عباس بفِناء داره ، فسلّم فسألاه : أين تريد ؟ فقال : مالي بيَنْبُع ، قال عليّ : أفلا نصل جناحَك ونقوم معك ؟ فقال : بلى ، فقال لابن عباس : قم معه ، قال : فشبّك أصابعه في أصابعي ، ومضى حتى إذا خلّفنا البقيع ، قال : يابن عباس ، أما والله إن كان صاحبُك هذا أولى الناس بالأمر بعد وفاة رسول الله إلّا أنا خفناه على اثنتين . قال ابن عباس : فجاء بمنطق لم أجد بُدًّا معه من مسألته عنه ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما هما ؟ قال : خشيناه على حداثة سِنّه وحبّه بني عبد المطلب .

قال أبو بكر : وحدثني أبو زيد ، قال : حدثنا هارون بن عمر ، بإسناد رفعه إلى ابن عباس رحمه الله تعالى ، قال : تفرّق الناس ليلة الجابية [1] عن عمر ، فسار

(١) الجابية : قرية من أعمال دمشق ، ذكر ياقوت أن عمر خطب فيها خطبته المشهورة .

كلّ واحد مع إلفه، ثم صادفت عمر تلك الليلة في مسيرنا، فحادثته، فشكا إليّ تخلّف عليّ عنه. فقلت: ألم يعتذر إليك؟ قال: بلى، فقلت: هو ما اعتذر به، قال: يابن عباس، إنّ أولّ من رَيَّثكم عن هذا الأمر أبو بكر؛ إنّ قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوّة، قلت: لم ذاك يا أمير المؤمنين؟ ألم نُنِلْهُمْ خيرا؟ قال: بلى، ولكنهم لو فعلوا لكنتم عليهم جَحْفاً جَحْفا[1].

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا عبد العزيز بن الخطاب، قال: حدثنا عليّ بن هشام، مرفوعا إلى عاصم بن عمرو بن قتادة، قال: لَقِيَ عليّ عليه السلام عمر، فقال له عليّ عليه السلام: أنشُدك الله، هل استخلفك رسول الله صلى الله عليه؟ قال: لا، قال: فكيف تصنع أنت وصاحبك؟ قال: أما صاحبي فقد مضى لسبيله، وأما أنا فسأخلعها من عنقي إلى عُنُقك، فقال: جَدَّع الله أنفَ مَنْ يُنقذك منها! لا ولكن جعلني الله علَما، فإذا قمتُ فمن خالفني ضلّ.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، عن هارون بن عمر، عن محمد بن سعيد بن الفضل عن أبيه، عن الحارث بن كعب، عن عبد الله بن أبي أوفى الخزاعيّ، قال: كان خالد ابن سعيد بن العاص مِنْ عُمّال رسول الله صلى الله عليه على اليمن، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه جاء المدينة، وقد بايع الناس أبا بكر، فاحتبس عن أبي بكر فلم يبايعه أياما، وقد بايع الناس، وأتى بني هاشم، فقال: أنتم الظهر والبطن، والشِّعار دون الدِّثار[2]، والعصا دون اللِّحا[3]، فإذا رضيتم رضينا، وإذا سخطتم سخطنا. حدّثوني إن كنتم قد بايعتم هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: على بَرد ورِضاً من جماعتكم؟ قالوا: نعم، قال:

---

(١) جحفا جحفا، أي فخرا فخرا وشرفا شرفا. النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٥.

(٢) الشعار: ما يلي شعر الجسد؛ وهو تحت الدثار.

(٣) اللحا: ما على العصا من قشرها، يمد ويقصر؛ وفي خطبة الحجاج: « لألحونكم لحو العصا ».

فأنا أرضى وأبايع إذا بايعتم . أما والله يا بنى هاشم، إنكم الطوال الشجر الطيبو[1] الثمر . ثم إنه بايع أبا بكر ، وبلغت أبا بكر فلم يحفل بها ، و ضطغنها عليه عمر ، فلما ولاه أبو بكر الجند الذى استنفر إلى الشام ، قال له عمر : أتولّى خالداً وقد حَبَسَ عليك بيعته، وقال لبنى هاشم ما قال ، وقد جاء بوَرِق من اليمن وعبيد وحُبْشان ودُروع ورماح ! ما أرى أن تولّيَه ، وما آمن خلافه . فانصرف عنه أبو بكر ؛ وولّى أبا عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبى سفيان وشُرَحْبيل بن حَسَنة .

* * *

واعلم أن الآثار والأخبار فى هذا الباب كثيرة جداً، ومَنْ تأملها وأنصف علم أنه لم يكن هناك نصٌ صريح ومقطوع به لا تختلجه الشكوك، ولا تتطرّق إليه الاحتمالات كما تزعم الإمامية، فإنهم يقولون: إن الرسول صلى الله عليه وآله نص على أمير المؤمنين عليه السلام نصًّا صريحاً جلياً ليس بنصّ يوم الغدير[2] ، ولا خبر المنزلة[3] ، ولا ما شابههما من الأخبار الواردة من طرق العامة وغيرها، بل نَصّ عليه بالخلافة وبإمرة المؤمنين ، وأمر المسلمين أن يسلّموا عليه بذلك ، فسلّموا عليه بها، وصرح لهم فى كثير من المقامات بأنه خليفة عليهم من بعده، وأمرهم بالسمع والطاعة له. ولا ريب أنّ المنصف إذا سمع ماجرى لهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله يعلم قطعاً أنّه لم يكن هذا النصّ ، ولكن قد سبق إلى النفوس والعقول أنّه قد كان هناك تعريض وتلويح ، وكناية وقول غير صريح، وحكم غير مبتوت، ولعله صلى الله عليه وآله كان يصدّه عن التصريح بذلك أمرٌ يعلمه ، ومصلحة يراعيها، أو وقوف مع إذن الله تعالى فى ذلك .

فأما امتناع علىّ عليه السلام من البيعة حتى أخرج على الوجه الذى أخرج عليه، فقد

(١) كذا فى ج ، وفى ا ، ب : «الطيب».

(٢) هو غدير خم ، موضع بين مكة والمدينة ، نقل المحب الطبرى فى الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) أن الرسول عليه السلام قال يوم غدير خم : « من كنت مولاه فعلى مولاه » .

(٣) يشير إلى حديث : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى » .

ذكره المحدثون ورواه أهل السير . وقد ذكرنا ماقاله الجوهري في هذا الباب؛ وهو من رجال الحديث ومن الثقات المأمونين ، وقد ذكر غيره من هذا النحو مالا يحصى كثرة .

فأما الأمور الشنيعة المستهجنة التي تذكرها الشيعة من إرسال قنفذ إلى بيت فاطمة عليها السلام ، وأنه ضربها بالسوط فصار في عضدها كالدملج وبقي أثره إلى أن ماتت ، وأن عمر أضغطها بين الباب والجدار ، فصاحت : يا أبتاه يارسول الله ! وألقت جنينا ميتا ، وجُعل في عنق علي عليه السلام حبلٌ يقاد به وهو يُعتَل ، وفاطمة خلفه تصرخ وتنادي بالويل والثبور ، وابناه حسن وحسين معهما يبكيان ، وأن عليًّا لما أحضر سألوه البيعة فامتنع ، فتُهدِّد بالقتل ، فقال : إذن تقتلون عبدالله وأخا رسول الله ! فقالوا : أما عبدُالله فنعم ، وأما أخو رسول الله فلا ، وأنه طعن فيهم في أوجههم بالنِّفاق ، وسطر صحيفة الغدر التي اجتمعوا عليها، وبأنهم أرادوا أن ينفّروا ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة؛ فكله لا أصل له عند أصحابنا، ولا يُثبته أحد منهم ، ولا رواه أهل الحديث ولا يعرفونه ، وإنما هو شيء تنفرد الشيعة بنقله .

* * *

الأصل :

ومنها :

وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَنًا . فَلَا ظَفِرَتْ يَدُ الْبَائِعِ ، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ ! فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا ، وَأَعِدُّوا لَهَا عُدَّتَهَا ، فَقَدْ شَبَّ لَظَاهَا ، وَعَلَا سَنَاهَا . وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ ، فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ .

* * *

الشَّرْحُ

هذا فصل من كلام يذكر فيه عليه السلام عمرو بن العاص . وقوله : « فلا ظفِرتْ يد البائع » يعني معاوية ، وقوله : « وخزِيَتْ أمانة المبتاع » يعني عمرا ، وخزيت ، أي

خسرت وهانت. وفى أكثر النسخ: «فلا ظفرت يد المبايع»، بميم المفاعلة، والظاهر ما رويناه.

وفى بعض النسخ «فإنه أحزم للنصر»، من حَزَمْتُ الشىء إذا شددته، كأنه يشدّ النصر ويوثّقه، والرواية التى ذكرناها أحسن.

والأهبة: العدّة. وشبّ لظاها استعارة، وأصله صعود طرف النار الأعلى. والسنا بالقصر: الضوء. واستشعروا الصبر: اتخذوه شعارا، والشّعار: مايلى الجسد من الثياب، وهو ألزم الثياب للجسد؛ يقول: لازموا الصبر كما يلزم الإنسان ثوبه الذى يلى جِلْده لا بدّ له منه، وقد يستغنى عن غيره من الثياب.

• • •

[قدوم عمرو بن العاص على معاوية]

لما نزل علىّ عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البَصْرة، كتب إلى معاوية كتابا يدعوه إلى البَيْعة، أرسل فيه[1] جرير بن عبد الله البَجَلىّ، فقدم عليه به الشام، فقرأه واغتمّ بما فيه، وذهبت به أفكاره كلّ مذهب، وطاول جريرا بالجواب عن الكتاب، حتى كلّم قوما من أهل الشام فى الطلب بدم عثمان؛ فأجابوه ووثّقوا له، وأحبّ الزيادة فى الاستظهار، فاستشار أخاه عتبة بن أبى سفيان، فقال له: استعنْ بعمرو بن العاص، فإنه من قد علمتَ فى دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان فى حياته، وهو لأمرك أشدّ اعتزالا؛ إلا أن يثمّن له دينه فسيبيعك، فإنه صاحب دنيا.

فكتب إليه معاوية:

أما بعد، فإنه كان من أمر علىّ وطلحة والزبير ما قد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم فى نفر من أهل البصرة[2]، وقدم علينا جرير بن عبد الله فى بيعة علىّ، وقد حبستُ نفسى عليك، [3] فأقبلْ أذاكرك أمورا لا تعدَم صلاح مَغَبّتها، إن شاء الله[3]

(١) ساقطة من ب. (٢) فى كتاب صفين: «فى رافضة أهل البصرة».
(٣ – ٣) فى صفين: «حتى تأتينى، أقبل أذاكرك أمرا».

فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه : عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو ، فقال لهما : ماترين ؟ فقال عبد الله : أرى أنّ رسول الله صلى الله عليه قُبِض وهو عنك راض ، والخليفتان من بعده ؟ وقُتِل عثمان وأنت عنه غائب ، فقَرّ فى منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، ولا تزيد على[1] أن تكون حاشية لمعاوية ، على دنيا قليلة أوشكتما أن تهلكا ، فتشقيا[2] فى عقابها . وقال محمد : أرى أنك شيخُ قريش ، وصاحبُ أمرِها ، وإن تصرّم هذا الأمر وأنت فيه غافل[3] تصاغرَ أمرُك ، فالحق بجماعة أهل الشام ، وكن يدا من أيديها ، طالبا بدم عثمان ، فإنه سيقوم بذلك بنو أميّة[4] .

فقال عمرو : أمّا أنت ياعبد الله ، فأمرتني بما هو خير لى فى دينى ، وأنت يامحمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى ، وأنا ناظر . فلما جنّه الليل رفع صوته وأهله يسمعون[5] ، فقال :

تَطَاوَلَ لَيْلِى بِالهُمُومِ الطَّوَارِقِ ... وَخَوْفِ التى تجلُو وجوهَ العوائِقِ[6]

وإنّ ابنَ هند سائلى أنْ أزورَه ... وتلك التى فيها بناتُ البوائقِ[7]

أتاه جَرِيرٌ من علىّ بِخُطَّةٍ ... أمَرّتْ عليه العيشَ ذاتِ مضايقِ

فإنْ نال منّى ما يُؤَمِّلُ رَدّه ... وإن لم ينلْه ذلّ ذلّ المطابقِ[8]

فواللهِ ماأدرِى وَمَا كُنْتُ هَكَذَا ... أكونُ وَمَهْمَا قادَنِى فهو سابِقِى

أخادِعُه إنّ الخداعَ دنيّةٌ ... أم أعطيه من نَفْسى نصيحةَ وامِقِ

---

(١) فى كتاب صفين والإمامة والسياسة ١٠٨ : « ولا تريد أن تكون » .

(٢) كذا فى أ ، والإمامة والسياسة ، وفى ب . « فتشربا » ، وفى كتاب صفين « أو شك أن تهلك فتشقى فيها » .

(٣) فى صفين والإمامة والسياسة : « وأنت خامل » .

(٤) فى الإمامة والسياسة : « فإنك به تستميل بنى أمية » .

(٥) كتاب صفين : « ينظرون » .

(٦) فى صفين : « وخوف التى تجلو » ، والعوائق : جمع عاتق ؛ وهى الشابة .

(٧) البوائق : جمع بائقة ؛ وهى الداهية ؛ وفى صفين : « سائلى أن أزوره »

(٨) المطابقة : المشى فى القيد

أم أقعد في بيتي وفي ذاك راحـــةٌ ... لشيخ يخاف الموتَ في كلّ شارقِ[١]

وقد قال عبـــدُ الله قولا تعلّقت ... به النفس إن لم تقتطعني عوائقِي[٢]

وَخَالَقَةٌ فيه أخوهُ محمـــدٌ ... وإنى لصُلْبُ العود عِنْدَ الحقائِقِ[٣]

فقال عبد الله : رحل الشيخ[٤] . ودعا عمرو غلامه وَرْدان ـ وكان داهيا ماردا ـ فقال : ارحَلْ ياوَرْدان ، ثم قال : احْطُطْ يا وردان ، ثم قال : ارحَلْ ياوردان ، احْطُطْ يا وردان . فقال له وردان : خلطت أبا عبد الله ! أما إنك إن شئت أنبأتُك بما في قلبك ، قال : هات ويحك ! قال : اعتركت الدّنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : عليٌّ معه الآخرة في غير دنيا وفي الآخرة عوض من الدنيا ، ومعاوية معـه الدّنيا بغير آخرة ، وليس في الدّنيا عِوَضٌ من الآخرة ، وأنت[٥] واقف بينهما ، قال : قاتلك الله ! ما أخطأتَ ما في قلبي ، فما ترى يا وردان ؟ قال : أرى أن تقيم في بيتك ، فإن ظهر أهلُ الدين عشت في عَفْو دينهم[٦] ، وإن ظهر أهلُ الدنيا لم يستغنوا عنك . قال : الآن لما أشهرت العرب سيرى إلى معاوية[٧] ! فارتحل وهو يقول :

يا قاتَلَ الله وَرْدانا وَقِدْحَتَـــهُ ... أبدَى لَعَمْرُكَ ما في النّفسِ وردانُ[٨]

لمّا تعرّضَتِ الدُّنْيَا عرَضْتُ لَهَا ... بحرص نفسى وفي الأطباع إدْهَانُ[٩]

نفسٌ تعِفُّ وأخرَى الحرْصُ يَغْلِبُهَا ... والمرء يأكل تبنًا وَهْـــو غرْثانُ

أمّا عليٌّ فدِينٌ ليسَ يَشْرَكُهُ ... دُنْيَا، وذاك له دنيـــا وسُلْطَانُ

---

(١) في صفين : « أو القعد » .
(٢) في صفين : « إن لم يعاقني » .
(٣) الحقائق : مايجب على المرء حمايته من عرض أو مال .
(٤) في صفين : « نرحل » .
(٥) في صفين : « فأنت » .
(٦) عفو دينهم : أي فضل دينهم .
(٧) في الإمامة والسياسة : « الآن حين شهرتني العرب بمسيرى إلى معاوية » .
(٨) في صفين : « وقدحته » . (٩) الإدهان : المصانعة .

فاخْتَرْتُ مِنْ طَمَعِي دُنْيَا عَلَى بَصَرٍ ... وَمَا مَعِي بِالَّذِي أَخْتَارُ بُرْهَانُ
إنّي لأعرف مافيها وأُبصِرُهُ ... وفيّ أيضًا لما أهواه ألوانُ
لكنّ نفسي تُحبُّ العيشَ في شرَفٍ ... وليس يرضى بذلّ العيشِ إنسانُ

فسار حتى قدم على معاوية ، وعرف حاجة معاوية إليه ، فباعده من نفسه ، وكايد كلّ واحد منهما صاحبه .

فقال له معاوية يوم دخل عليه : أباعبد الله ، طرقتنا في ليلتنا ثلاثة أخبار ليس فيها ورْدٌ ولا صَدَرٌ ، قال : وماذاك ؟ قال : منها أنّ محمد بن أبي حُذَيفة كَسَر سِجْن مصر فخرج هو وأصحابه ، وهو من آفات هذا الدين . ومنها أنّ قيصر زَحَفَ بجماعة الرّوم ليغلب على الشام . ومنها أن عليا نزل الكوفة ، وتهيّأ للمسير إلينا .

فقال عمرو : ليس كلّ ماذكرتَ عظيما : أما ابنُ أبي حُذيفة ، فما يتعاظمك من رجل خرج في أشباهه أن تبعثَ إليه رجلا يقتله أو يأتيك به ، وإنْ قاتل لم يضرّك[1] ! وأما قيصر فأهدِ له الوصائفَ وآنية الذهب والفضة ، وسله الموادعة فإنّه إليها سريع . وأمّا عليّ فلا والله يامعاوية مايسوِّى العرب[2] بينك وبينه في شيء من الأشياء ، وإنّ له في الحرب لحظًّا ماهو لأحد من قريش ؛ وإنه لصاحبُ ماهو فيه إلا أن تظلمه . هكذا في رواية نصر بن مزاحم عن محمد بن عبيد الله[3] .

* * *

وروى نصر[4] أيضاً عن عمر بن سعد قال : قال معاوية لعمرو : ياأبا عبدالله ، إنّي أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشقّ عصا المسلمين ، وقتل الخليفة وأظهر الفتنة، وفرّق

(١) في وقعة صفين : « وإن فاتك لايضرك » وفي الإمامة والسياسة : « وإن يقتل فلا يضرك » .
(٢) كذا في ا ، وصفين ، وفي ب : « ما يسوى العربي » .
(٣) وقعة صفين ٣٩ — ٤٠ ، وفي ب : « عبد الله » ، وصوابه من ا .
(٤) وقعة صفين ٤٢ — ٥٢

الجماعة وقطَع الرَّحِم ، فقال عمرو : مَنْ هو ؟ قال : علىٌّ ، قال : والله يامعاوية ماأنت وعلىٌّ بحِملَىْ[1] بعير ؟ليس لك[2] هِجْرتُه ولاسابقته ، ولاصحبته ولاجهاده ، ولافقهه ولاعلمه . [3] ووالله إنّ له مع ذلك كَظًّا فى الحرب ليس لأحد غيره ، ولكنّى قد تعوّدت من الله تعالى إحسانا وبلاء جميلا [3] ؛ فما تجعل لى إنْ شايعتُك على حربه ، وأنت تعلم مافيه من الغَرر والخطر ؟ قال : حُكْمَك ، فقال : مصر طُعْمة ، فتلكأ عليه معاوية .

قال نصر : وفى حديث غير عمر بن سعد : فقال له معاوية : ياأباعبدِ الله ، إنى أكره لك أن تتحدّث العرب عنك أنك إنما دخلت فى هذا الأمر لغرض الدنيا ، قال عمرو : دَعْنى عنك ، فقال معاوية : إنى لو شئت أنْ أمنّيك وأخدعَك لفعلت ، قال عمرو : لا ، لعَمْرُ الله مامثلى يُخْدع ، لأنا[4] أكيَسُ من ذلك ؛ قال معاوية : ادْنُ منى أسارّك ، فدنا منه عمرو ليساره ، فعضّ معاوية أذنه ، وقال : هذه خدعة ! هل ترى فى البيت أحدا ؟ ليس غيرى وغيرك .

• • •

قلت : قال شيخنا أبو القاسم البلخىّ رحمه الله تعالى : قول عمرو له : « دعْنى عنك » كناية عن الإلحاد ، بل تصريح به ، أى دَعْ هذا الكلام ؛ لا أصل له ، فإنّ اعتقاد الآخرة ، وأنها لاتباع بعرَض الدنيا من الخرافات .

وقال رحمه الله تعالى : وما زال عمرو بن العاص مُلْحِداً ، ماتردّد قطُّ فى الإلحاد والزندقة ، وكان معاوية مثله ، ويكفى من تلاعبهما بالإسلام حديث السِّرار المروىّ ، وأن معاوية عضّ أذن عمرو ؛ أين هذا من سيرة عمر ؟ وأين هذا من أخلاق علىّ عليه السلام وشدته فى ذات الله ، وهما مع ذلك يعيبانه بالدّعابة !

(١) فى كتاب صفين : « بحكى بعير » ، والحكيان : عدلان يعدمان على جانبى الهودج .
(٢) فى صفين : « مالك هجرته » .
(٣ ــ ٣) وقعة صفين : « والله إنه مع ذلك حدا وجدا ، وحظا وحظوة ، وبلاء من الله حسنا » .
(٤) كذا فى ب ، ج ، وفى ا : « لأنى » .

قال نصر : فأنشأ عمرو يقول :

مُعَاوِيَ لَاأُعْطِيكَ دِينِي وَلَمْ أَنَلْ ... بِهِ مِنْكَ دُنْيَا فَانْظُرَنْ كَيْفَ تَصْنَعُ

[فَإِنْ تُعْطِنِي مِصْراً فَأَرْبِحْ بِصَفْقَةٍ ... أخذتَ بها شيخا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ][1]

وَما الدِّينُ والدنيـا سواء، وإننى ... لآخـذ ماتعطى وَرَأْسِى مُقَنَّعُ

وَلَكِنَّنِي أُغْضِى الجُفُونَ وإنَّنى ... لأخدعُ نفسى، والمخادعُ يُخْدَعُ

وَأُعْطِيكَ أمراً فيـه لِلْمُلْكِ قُوَّةٌ ... وَأَلْقَى به إن زَلَّتِ النعـل أَصْرَعُ[2]

وتمنعُنِي مِصراً وليست بِرَغْبَـةٍ ... وإنى بِذَا الممنوع قِدْماً لَمُولَعُ

* * *

قال شيخنا أبو عثمان الجاحظ : كانت مصر فى نفس عمرو بن العاص ، لأنه هو الذى فتحهـا فى سنة تسعَ عشرةَ من الهجرة فى خلافة عمر ، فكان لعظمها فى نفسه وجلالتها فى صدره ، وماقد عرفه من أموالها وسعة الدنيا ، لايستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه ، وهذا معنى قوله :

* وإنّى بذا الممنوع قِدْماً لَمُولَعُ *

* * *

قال نصر : فقال له معاوية : ياأبا عبد الله ، أماتعلم أن مصر مثل العراق ؟ قال: بلى ، ولكنها إنما تكون لى إذا كانت لك ، وإنما تكون لك إذا غلبت عليًّا على العراق .

قال : وقد كان أهل مصر بعثوا بطاعتهم إلى علىّ عليه السلام .

فلما حضر عُتْبة بن أبى سفيـان قال لمعاوية : أما ترضى أن تشترىَ عَمْراً بمصر

---

(١) هذا البيت زيادة من كتاب صفين ، ولم يرد فى الأصول .

(٢) فى كتاب صفين :

* وإنى به إن زَلَّتِ النَّعْلُ أصْرَعُ *

إن هى صفت لك ! ليتك لا أُغلَب على الشام . فقال معاوية : ياعتْبة ، بِتْ عندنا الليلة، فلما جنّ الليل على عتبة رفع صوته ليسمع معاوية ، وقال :

أيها المانِعُ سَيْفاً لم يُهَزّْ ... إنما مِلْتَ عَلَى خَزٍّ وَقَزّْ
إنما أنت خروف مائلٌ ... بين ضَرْعَيْنِ وَصُوفٍ لم يُجَزّْ
أعطِ عَمْراً إن عَمْراً تاركٌ ... دينَه اليوم لدنيـــا لم تُحَزّْ
يالك الخيرُ فخذْ مِنْ دَرّهِ ... شَخْبَهُ الأوّلَ وابعِدْ ماغَرَزْ
واسْحَبِ الذّيلَ، بادِرْفوقَها(١) ... وانتهزْها إنّ عمرا يَنْتَهِزْ
أعطـــه مِصراً وزده مثلَها ... إنما مصر لمن عزّ فبزْ
وَاتْرُكِ الحِرْصَ عَلَيْهَا ضَلّةً ... وَاشْبُبِ النّارَ لمقرورٍ يَكِزْ(٢)
إنّ مصرا لعليّ أوْ لَنا ... يَغْلِبُ اليوم عليها مَنْ عَجَزْ

قال : فلما سمع معاويةُ قولَ عتبة ، أرسل إلى عمرو، فأعطاه مصر ، فقال عمرو: لِيَ اللهُ عليك بذلك شاهد؟ قال : نعم ، لك اللهُ عليّ بذلك إن فتح اللهُ علينا الكوفة ، فقال عمرو: ﴿ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾(٣).

فخرج عمرو من عنده ، فقال له ابناه : ماصنعتَ ؟ قال : أعطانا مصر طعمة ، قالا: وما مصر فى مُلْك العرب ! قال : لاأشبع الله بطونكما إن لم تُشبعكما [مصر](٤).

قال : (٥)وكتب معاوية له بمصر كتابه ، وكتب(٥) : « على ألا ينقُضَ شرطٌ طاعةً »، فكتب عمرو : « على ألا تنقض طاعةٌ شرطا » . فكايد كلّ واحد منهما صاحبه .

* * *

قلت : قد ذكر هذا اللفظ أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد فى كتابه " الكامل "

---

(١) الفوق هنا : الطريق الأول .
(٢) الكزاز : داء يأخذ من شدة البرد ، وتعترى منه رعدة .
(٣) سورة القصص ٢٨ .
(٤) من كتاب وقعة صفين .
(٥ .. ٥) فى كتاب وقعة صفين : « فأعطاه إياه ، وكتب له كتابا ، وكتب معاوية »

ولم يفسره[1] ، وتفسيره أنّ معاوية قال للكاتب : « اكتب على ألّا ينقضَ شرطٌ طاعةً » ، يريد أخذَ إقرار عمرو له أنه قد بايعه على الطاعة بيعة مطلقة غير مشروطة بشيء ، وهذه مكايدة له ؛ لأنه لو كتب ذلك لكان لمعاوية أن يرجع في إعطائه مصر ، ولم يكن لعمرو أن يرجع عن طاعته ، ويحتجَّ عليه برجوعه عن إعطائه مصر ، لأنّ مقتضى المشارطة المذكورة ، أنّ طاعة معاوية واجبة عليه مطلقا ، سواء أكانت مصر مسلّمة إليه أم لا .

فلما انتبه عمرو إلى هذه المكيدة منع الكاتب من أن يكتب ذلك ، وقال : بل اكتب : « على ألا تنقض طاعةٌ شرطا » ، يريد أخذَ إقرار معاوية له بأنه إذا كان أطاعه لا تنقض طاعته إياه ما شارطه عليه من تسليم مصر إليه . وهذا أيضا مكايدة من عمرو لمعاوية ، ومنعٌ له من أن يغدر بما أعطاه من مصر .

قال نصر : وكان لعمرو بن العاص عمّ من بني سهم ، أريبٌ[2] ، فلما جاء عمرو بالكتاب مسرورا عجِب الفتى ، وقال : ألا تخبرني يا عمرو ، بأيّ رأى تعيش في قريش ؟ أعطيت دِينَك وتمنّيت دنيا غيرك ! أترى أهل مصر — وهم قتلة عثمان — يدفعونها إلى معاوية وعليٌّ حيّ ! وأتراها إن صارت لمعاوية لا يأخذها بالحرف الذي قدّمه في الكتاب ؟ فقال عمرو : يابن أخي ، إن الأمر لله دون عليّ ومعاوية ، فقال الفتى :

ألا ياهندُ أختَ بني زيادٍ ‏ ‏ رُمِي عمرو بداهية البلادِ[3]

رُمِي عمرو بأعورَ عبشميٍّ ‏ ‏ بعيد القعر مخشيِّ الكيادِ[4]

لهُ خُــــدَعٌ يحار العقل منها ‏ ‏ مزخرفةٌ صوائـــدُ للفؤادِ

فشرّطَ في الكتاب عليه حرفًا ‏ ‏ يناديه بخدعتـــه المنادي

---

(١) الكامل ٣ : ٢١٠ — بشرح المرصفي .

(٢) في كتاب صفين : « وكان مع عمرو ابن عمه ، فتى شاب ، وكان داهية حليما » ، وفي كتاب الإمامة والسياسة ١٦٠ « وكان مع عمرو بن العاص ابن أخ له جاءه من مصر » . وهو مايناسب مايجيء بعد .

(٣) كتاب صفين : « دهي عمرو » .

(٤) يريد أنه يخشى كيده .

وأنبتَ مثلَه عمرو عليـــهِ ... كِلاَ للراين حَيَّةَ بطنِ وادِ
ألا يا عَمْرُو ما أحرزْتَ مِصْراً ... ولا ملتَ الغَـــداة إلى الرَّشادِ
أبِعْتَ الدِّين بالدنيا خَسَاراً ... فأنت بذاك من شَرِّ العِبادِ
فلو كنتَ الغداةَ أخذْتَ مصرا ... ولكن دونها خَرْطُ القتادِ
وفدتَ إلى معاوية بن حرب ... فكنتَ بها كوافدِ قَوْمِ عادِ
وأعطيتَ الذى أعطيت منها ... بِطِرْسٍ فيه نَضْحٌ من مدادِ
ألم تعرف أبا حسنٍ عليًّا ... وما نالت يداه من الأعادى
عدلتَ به معاوية بنَ حرب ... فيا بُعْدَ البياضِ من السَّوادِ !
ويا بُعْدَ الأصابع من سُهَيْلٍ ... ويا بُعْدَ الصـــلاح من الفسادِ !
أتأمن أن تدَال على خِدَبٍّ ... يحثُّ الخيـل بالأَسَل الحِدادِ[1]
ينادى بالنَّزَال وأنت منه ... قريبٌ فانظرَنْ مَنْ ذا تعادى

فقال عمرو: يابن أخى، لو كنتُ عندعلىٍّ لوسعنى، ولكنى الآن عندمعاوية[2]. قال الفتى: إنك لو لم تُرِدْ معاوية لم يرِدْك؛ ولكنك تريد دنياه، وهو يريد دينَك. وبلغ معاويةَ قولُ الفتى فطلبه، فهرب فلحق بعلىٍّ عليه السلام، فحدثه أمره فسُرَّ به وقرّبه.

قال: وغضب مروان وقال: مابالى لاأشترَى [كما اشترِىَ عمرو][3]! فقال معاوية: إنما يُشترى الرجال لك. فلما بلغ عليا عليه السلام ما صنع معاوية قال:

يا عجبا لقد سمعت مُنْكرا ... كِذْبًا على الله يُشِيبُ الشَّعَرا
يسترِقُ السَّمعَ ويُغشِى البصرا ... ما كان يَرضى أحدٌ لو أخبرا[4]

(١) الخدب: الضخم. وفى صفين: «أن تراه».
(٢) كذا فى ج وكتاب صفين، وفى ا، ب: «ولكنى الآن عنده».
(٣) تكملة من كتاب صفين.
(٤) صفين: «لو خبرا».

أن يَقْرِنوا وَصِيَّــــه والأبترا شانِى الرسول واللعينَ الأخزرا[1]

كِلاهُما فى جُندِهِ قَدْ عَسْكَرَا قد باعَ هــــذا دِينَه فأفجرا

مَنْ ذا بدُنيا بيعَــــهُ قد خسِرا بملك مصر أنْ أصاب الظفرا !!

إنى إذا الموتُ دنا وحَضَرا شَمَّرْتُ ثوبى ودعوت قَنْبَرا[2]

قَدِّمْ لوائِى لا تؤخِّرْ حَــــذَرَا لا يدفع الحِــــذَارُ ماقدْ قُدِرا

لَمَا رأيتُ الموتَ موتاً أحمرا عَبَّأْتُ هَمْــــدان وَعَبَّوْا حِمْيَرا

حىٌّ يمــــانٍ يُعْظِمونَ الخطرا قِرْنٌ إذا ناطَحَ قِرْناً كَسَّرا[3]

قل لابن حرب لا تدِبّ الخَمَرا أَرْوِدْ قليلاً أُبْدِ مِنْكَ الضَّجَرا[4]

لا تحسبنِّى يابنَ هِند غُمَرا[5] وســــلْ بِنا بَدْراً معاً وخيبرا

يومَ جعلْنَا كمْ ببدرٍ جَزَرا[6] لو أنَّ عِندى يابنَ هنـد جعفرا

أو حمزةَ القَرْمَ الهمامَ الأزهرا رأتْ قريش نجمَ ليـــلٍ ظُهُرا

قال نصر : فلما كتب الكتاب[7] ، قال معاوية لعمرو : ماترى الآن ؟ قال : أمضِ الرأىَ الأول. فبعث مالك بن هبيرة الكندىَّ فى طلب محمد بن أبى حُذيفة ، فأدركه فقتله ، وبعث إلى قيصر بالهدايا فوادعه ، ثم قال : ماترى فى علىّ ؟ قال : [أرى فيه

---

(١) الأخزر : الذى ينظر بمؤخر عينه .

(٢) قنبر : مولى على .   (٣) يرى الأستاذ هاشم أنها : « قرن » . بالفتح على المجاز .

(٤) الخمر : ما واراك من الشجر والجبال ونحوها ؛ والدبيب : المشى على هينة ؛ يقال للرجل إذا ختل صاحبه : هو يدب له الضراء ويمشى له الخمر . والإرواد : الإمهال .

(٥) الغمر : من لم يجرب الأمور .

(٦) الجزر : اللحم الذى تأكله السباع ، وفى كتاب صفين .

* كانتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ جَزَرا *

وبعده :

* إذْ وردوا الأمْرَ فذَمُّوا الصَّدَرا *

(٧) فى كتاب صفين : « كانت عمرو عند معاوية وأصبح أعطاه مصر طعمة له ، وكتب له بها كتابا » .

خيرا](١)، إنه قد أتاك فى طلب البَيْعة خيرُ أهل العراق،ومن عند خير الناس فى أنفس الناس ؛ ودعواك أهلَ الشام إلى رد هذه البيعة خطر شديد ، ورأس أهل الشام شُرَحْبِيل بن السِّمْط الكِنْدىّ ، وهو عدوّ جرير المرسَل إليك ، فابعث إليه ووطّن له ثقاتك ، فَلْيُفْشُوا فى الناس أنّ عليا قتل عثمان ، وليكونوا أهل رضا عند شُرَحْبِيل ، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحبّ ، وإن تعلّقتْ بقلب شُرَحْبِيل لم تخرج منه بشىء أبدا .

فكتب إلى شُرَحْبِيل : إنّ جرير بن عبد الله قدِم علينا من عند علىّ بن أبى طالب بأمر مفظع ، فاقْدَم .

ودعا معاوية يزيدَ بن أسد ، وبُسر بن أرطاة ، وعمرو بن سفيان، ومخارق بن الحارث الزُّبيدى، وحمزة بن مالك، وحابس بن سعد الطائى — وهؤلاء رءوس قحطان واليمن، وكانوا ثقاتِ معاوية وخاصته وبنى عمّ شُرَحْبِيل بن السِّمْط — فأمرهم أن يلقَوْه ويُخبروه أنّ عليا قتل عثمان. فلما قدم كتاب معاوية على شُرَحْبِيل وهو بحمص، استشار أهلَ اليمن فاختلفوا عليه، فقام إليه عبدالرحمن بن غَنْم الأزدىّ — وهو صاحبُ معاذ بن جبل وخَتَنُه، وكان أفقهَ أهل الشام — فقال : ياشُرَحْبِيل بن السِّمْط ، إنّ الله لم يَزَلْ يزيدُك خيراً منذ هاجرت إلى اليوم، وإنه لا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من الناس ؛ وإنّ الله لا يغيِّر مابقوم حتى يُغيِّروا مابأنفسهم. إنه قد أُلقِىَ إلى معاوية أنّ عليا قتل عثمان(٢)، ولهذا يريدك، فإن كان قتله فقد بايعه المهاجرون والأنصار ، وهم الحكّام على الناس ، وإن لم يكن قتله، فعلامَ تصدّق معاوية عليه ! لا تُهلِكَنّ نفسك وقومك ؛ فإن كرهت أن يذهب بحظّها جرير، فسِرْ إلى علىّ ، فبايعه عن(٣) شامك وقومك فأبى شُرَحْبِيل إلا أن يسير إلى معاوية ، فكتب إليه عياض الثُّمالى — وكان ناسكا :

(١) من كتاب صفين .
(٢) فى كتاب صفين : « إنه قد ألقى إلينا قتل عثمان ، وأن عليا قتل عثمان » .
(٣) صفين : « على شامك وقومك » .

يا شُرْحُ يابن السِّمط إنك بالغٌ ... بودِّ علىٍّ ما تريدُ من الأمرِ [1]

وَيا شُرْحُ إن الشام شامُك مابها ... سواكَ فَدَعْ عنك المضلِّلَ من فِهْرِ [2]

فإنّ ابنَ هند ناصبٌ لك خُدْعَةً ... تكونُ علينا مثل راغيةِ البَكْرِ [3]

فإن نال ما يرجُو بنا كان مُلْكنا ... هنيئاً له ، والحربُ قاصمة الظهرِ

فلا تَبْغِيَنْ حَرْبَ العراق فإنها ... تحرِّمُ أطهارَ النساء من الذُّعْرِ

وإنّ علياً خيرُ مَنْ وطِئَ الثرى ... من الهاشميين المداريك للوِتْرِ [4]

له فى رقابِ الناسِ عهدٌ وذِمّةٌ ... كعهدِ أبى حفصٍ وعهد أبى بكرِ

فبايع ولا ترجع على العَقْبِ كافراً ... أعيذك بالله العزيز من الكفر ا

ولا تسمَعَنْ قولَ الطُّغاة فإنهم ... يريدون أن يُلقوك فى لُجة البحرِ

وماذا عليهم أن تُطاعِنَ دونهم ... علياً بأطرافِ المثقّفةِ السُّمْرِ

فإن غَلَبُوا كانوا علينا أئمةً ... وكنا بحمدِ الله مِنْ وَلَدِ الطُّهرِ

وإنْ غُلِبُوا لَمْ يَصْلَ بالخطبِ غيرُنا ... وكان علىٌّ حَرْبَنا آخِرَ الدهْرِ

يهونُ عَلَى عُلْيَا لؤىِّ بن غالب ... دماء بنى قحطان فى ملكهم تجْرى

فدعْ عنك عثمان بن عفان إنّما ... لك الخبر ـ لا تدرى بأنك لا تدرى

على أىِّ حال كان مصرعُ جنبه ... فلا تسمَعَنْ قولَ الأُعَيْوِرِ أو عمرو

قال : فلما قدم شُرَحبيل على معاوية ، أمر الناس أن يلقوْه ويعظّموه ، فلما

---

(١) شرح : مرخم شرحبيل .

(٢) صفين : « فدع عنك المضلل » .

(٣) راغية البكر ، يريد رغاء البكر . وموضع راغية موضع المصدر ؛ يشير إلى ما كان من رغاء بكر ثمود ، ورغا فيهم فأهلكوا ، فضربه العرب مثلا فى الشؤم ، وأكثرت فيه . انظر الكامل للمبرد ١ : ٢٢ ـ بشرح المرصفى .

(٤) الوتر : الثأر والذحل .

دخل على معاوية ، فتكلّم معاوية فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا شُرَحبيل ، إن جريرَ ابن عبد الله قدِم علينا يدعونا إلى بَيْعة عليّ ، وعليّ خير الناس ؛ لولا أنه قتل عثمان بن عفان ؛ وقد حبستُ نفسي عليك ، وإنما أنا رجل من أهل الشام ، أرضى ما رضُوا وأكره ما كرهوا .

فقال شُرَحبيل : أخرجُ فأنظر . فلقيه هؤلاء النفر الموطّئون له ، فكلّهم أخبره[1] أنّ عليا قتل عثمان ، فرجع مغضبا إلى معاوية فقال : يا معاوية ، أبى الناس إلا أنّ عليا قتل عثمان ، والله إن بايعتَ له لنخرجنّك من شامنا أو لنقتلنّك . فقال معاوية : ما كنتُ لأخالِف عليكم ، ما أنا إلا رجل من أهل الشام . قال : فرُدّ هذا الرجل إلى صاحبه إذن . فعرف معاوية أن شرحبيل قد نفذت بصيرته فى حرب أهل العراق ، وأن الشام كله مع شرحبيل ، وكتب إلى عليّ عليه السلام ما ستورده فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

(١) كتاب صفين : « يخبره » .

(٢٧)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى ، وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ ، وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ . فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ ، وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ ، وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ ، وَسِيمَ الْخَسْفَ ، وَمُنِعَ النَّصَفَ .

أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا ، وَقُلْتُ لَكُمْ : اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ ؛ فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا ، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ ؛ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ ، وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ .

[1] فَهَذَا أَخُو غَامِدٍ ، قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ ، فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَهَا ، وَقَلَائِدَهَا وَرُعُثَهَا ، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالاسْتِرْجَاعِ وَالاسْتِرْحَامِ . ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ ، مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ ، وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ ؛ فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا ، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا !

فَيَا عَجَبًا عَجَبًا ! وَاللهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ ، وَيَجْلِبُ الْهَمَّ ، مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ! فَقُبْحًا لَكُمْ وَتَرَحًا ، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى ، يُغَارُ

---

(١) ج مخطوطة النهج : « هذا » .

عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ ، وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ ، وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ !

فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ : هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ ، أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ ، أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ ؛ كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ ؛ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ ؛ فَأَنْتُمْ وَاللهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ !

يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ ؛ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً — وَاللهِ — جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً . قَاتَلَكُمُ اللهُ ! لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً ، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً ، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً ، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ ؛ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ : إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ . لِلَّهِ أَبُوهُمْ ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي ! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ ؛ وَهَأَنَذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ ! وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ !

* * *

الشَّرْحُ :

هذه الخطبة من مشاهير خطبه عليه السلام ؛ قد ذكرها كثير من الناس ، ورواها أبو العباس المبرّد في أول " الكامل " ، [1] وأسقط من هذه الرواية ألفاظا وزاد فيها ألفاظا ، وقال في أولها :

« إنه انتهى إلى عليّ عليه السلام أنّ خيلاً وردت الأنبار لمعاوية ، فقتلوا عاملا له

---

(١) الكامل ١ : ٢٠ ، ٢١ ؛ يرويها عن عبد الله بن حفص التيمي المعروف بابن عائشة.

يقال له : حسّان بن حسان ، فخرج مغضبا يجُرّ رداءه[١] ، حتى أتى النُّخيلة[٢] ، واتّبعه الناسُ ، فرقِيَ رُباوَة[٣] من الأرض ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أما بعد فإنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ، ألبسه الله الذلّ وسيما الخسْفِ » .

وقال في شرح ذلك : قوله : « وسيما الخسفِ » ، هكذا حدّثونا به ، وأظنّه « سِيمَ الخسفَ » ، من قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾[٤] . وقال :[٥] فإن نصرّنا ما سمعناه ، « فسيما الخسف »[٥] ، تأويله علامة الخسف ، قال الله تعالى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾[٦] ، وقال : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾[٧] ، وسيما مقصور ؛ وفي معناه « سيمياء » ممدود ، قال الشاعر[٨] :

غُــلامٌ رَمَاهُ اللهُ بالحُسْنِ يافعا لَهُ سِيمياءُ لَاتَشُقُّ عَلَى البَصَرْ

ونحن نقول : إنّ السماع الذي حكاه أبو العباس غير مرضيّ ، والصحيح ما تضمّنه "نهج البلاغة" وهو « سِيمَ الخسفَ » فعل ما لم يسمّ فاعله ، و « والخسفَ » منصوب ؛ لأنه مفعول ، وتأويله : أُولِيَ الخسفَ وكُلّف إياه ، والخسف : الذلّ والمشقة .

وأيضا فإن في "نهج البلاغة" لايمكن أنْ يكون إلا كما اخترناه ؛ لأنه بين أفعال متعدّدة بُنيت للمفعول به ، وهي : « دُيِّثَ » و « ضُرِبَ » و « أُديل » و « مُنِع » ،

---

(١) في الكامل : « ثوبه » .
(٢) النخيلة : اسم موضع خارج الكوفة .
(٣) الرباوة : اسم لكل ما ارتفع من الأرض ، كالرباة والربوة والرابية .
(٤) سورة البقرة ٤٩ .
(٥) كذا في الأصول ، وعبارة الكامل فيما لدينا من نسخه : « ومن قوله : « سيما الخسف » ، تأويله علامة ، هذا أصل هذا » .
(٦) سورة الفتح ٢٩ .
(٧) سورة الرحمن ٤١ .
(٨) في زيادات الكامل : « هو ابن عنقاء الفزاري في عميلة الفزاري » ؛ وذكر بعده :

كأنّ الثريّا عُلِّقَتْ في جبينِهِ وفي أنفِهِ الشِّعْرَى وفي جِيدِهِ القَمَرْ

ولا يمكن أن يكون ما بين هذه الأفعال معطوفاً عليها إلا مثلها ، ولا يجوز أن يكون اسما .

وأما قوله عليه السلام : « وهو لباس التقوى » ، فهو لفظة مأخوذة من الكتاب العزيز ، قال الله سبحانه : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ﴾ [1] .

والجُنّة : ما يُجْتَنّ به ، أي يستتر ، كالدّرع والحَجَفة [2] .

وتركه رغبةً عنه ، أي زهداً فيه ، رغبت عن كذا ، ضدّ رغبت في كذا .

ودُيّث بالصغار ، أي ذُلّل ، بعير مُدَيّث ، أي مُذَلّل ؛ ومنه الدَّيُّوث : الذى لا غيرة له ، كأنه قد ذُلّل حتى صار كذلك .

والصَّغَار : الذل والضيم .

والقَمَاء ؛ بالمد : مصدر قَمُؤ الرّجُل قَمَاء وقَمَاءة ، أي صار قميئاً ، وهو الصغير الذليل ، فأما قَمَأ ، بفتح الميم فمعناه سَمِن ، ومصدره القُمُوء والقموءة .

وروى الراوندىّ : « ودُيّث بالصغار والقَمَا » ، بالقصر ، وهو غير معروف .

وقوله عليه السلام : « وضُرِب على قلبه بالإسهاب » ، فالإسهاب هاهنا هو ذهاب العقل ؛ ويمكن أن يكون من الإسهاب الذى هو كثرة الكلام ؛ كأنه عوقب بأن يكثر كلامه فيما لا فائدة تحته .

قوله : « وأديل الحق منه بتضييع الجهاد » ، قد يظنّ ظانّ [3] أنه يريد عليه السلام : وأُدِيلَ الحق منه بأن أُضيعَ جهادُه ؛ كالباءات المتقدمة ، وهى قوله : « ودُيّث بالصغار » ، و « ضُرِب على قلبه بالإسهاب » . وليس كما ظنّ ، بل المراد : وأُديل الحقّ منه

---

(١) سورة الأعراف ٢٦ . (٢) الحجفة : ضرب من الترسة ، وقيل : هى من الجلود خاصة .

(٣) ب ، ج : « فلان » ، وما أثبته عن ا .

لأجل تضييعه الجهاد ، فالباء هاهنا للسببية ، كقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾[١] .

والنَّصَف : الإنصاف . وعُقْر دارهم ، بالضم : أصل دارهم ، والعُقْر : الأصل ، ومنه العَقَار للنخل ، كأنه أصل المال . وتواكلتم ، من وكلت الأمرَ إليك ووكلته إليّ ، أى لم يتوله أحد منا ، ولكن أحال به كلّ واحد على الآخر ، ومنه رجل وَكِل ، أى عاجز يَكِلُ أمرَه إلى غيره ، وكذلك وُكَلَة .

وتخاذلتم ، من الخِذْلان .

وشُنَّت عليكم الغارات : فُرِّقت ، وما كان من ذلك متفرقا نحو إرسال الماء على الوَجْه دَفْعة بعد دفعة ، فهو بالشين المعجمة ، وما كان أرسالا غيرَ متفرِّق ، فهو بالسين المهملة ؛ ويجوز شَنّ الغارة وأشنها .

والمسالح: جمع مَسْلحة ، وهى كالثغر والمرقب ، وفى الحديث: «كان أدنى مسالح فارس إلى العرب العُذَيب »[٢] . والمعاهِدة : ذات العَهْد ، وهى الذمّيّة . والحِجْل : الخلخال ، ومن هذا قيل للفرس محجّل ، وسمّى القيد حِجْلا ، لأنه يكون مكان الخلخال . ورُعُثها: شُنُوفها ، جمع رِعاث بكسر الراء ، ورِعاث : جمع رَعْثة ، فالأول مثلُ خِمار وخُمُر ، والثانى مثل جَفْنة وجِفان . والقُلُب : جمعُ قُلْب ، وهو السوار المصمَت . والاسترجاع ، قوله : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[٣] . والاسترحام : أن تناشدَه الرحم . وانصرفوا وافرين، أى تامين ، وَفَر الشىء نفسُه أى تمّ فهو وافر ، ووَفَرْتُ الشىء ، متعدّ ، أى أتممته .

وفى رواية المبرّد « موفورين » ، قال : من الوفر ، أى لم يَنَلْ أحدهم بأن يُرزأ[٤] فى بدن أو مال .

---

(١) سورة الأنعام ١٤٦ .
(٢) ذكره ابن الأثير فى النهاية ٢ : ١٧٤ .
(٣) سورة البقرة ١٥٦
(٤) لم يرزأ : من الرزء وهو المصيبة .

وفى رواية المبرد أيضا : « فنوا كلْم وتخاذلتم ، وثقل عليكم قولى ، واتخذتموه وراءكم ظِهريا » ، قال : أى رميتمُ به وراء ظهوركم ، أى لم تلتفتوا إليه ، يقال فى المثل : لا تجعَلْ حاجتى منك بظَهْر ، أى لا تطرحها غيرَ ناظر إليها ، قال الفرزدق :

تَمِيمَ بنَ مُرٍّ لا تكونَنَّ حاجَتِى بِظَهْرٍ ولا يَعْيَا عَلَيْكَ جَوَابُهَا[1]

والـكلْم : الجراح وفى رواية المبرد أيضا: « ماتمن دون هذا أسفا » ، والأسف : التحسر . وفى رواية المبرد أيضاً : « من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم » ، أى من تعاونهم وتظاهرهم . وفى رواية المبرد أيضا : « وَفَشَلكم عن حقكم » ، الفشل : الجبن والنُّكولُ عن الشىء . فقبحا لـكم وَتَرْحا ، دعاء بأن ينحِّيَهم الله عن الخير ، وأن يخزيهم ويسوءهم.

والغَرَض: الهدف وحَمَارَّة القيظ ، بتشديد الراء :شدةُ حَرِّه . وَيُسَبِّخ عنّا الحرَّ، أى يخفف ، وفى الحديث أنّ عائشة أكثرت من الدعاء على سارق سرق منها شيئا ، فقال لها النبى صلى الله عليه وآله : « لا تُسَبِّخى عنه بدعائك » .

وصبارّة الشتاء ، بتشديد الراء : شدّة برده ، ولم يرو المبرّد هذه اللفظة ، وروى: «إذا قلتُ لـكم اغزُوهم فى الشتاء قلتم هذا أوان قرّ وصِرّ ، وإن قلتُ لـكم اغزُوهم فى الصيف قلتم هـذه حَمَارَّة القيظ أنظِرْنا ينصرمْ عنّا الحر » . الصِّر : شدّة البرد قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾[2] .

ولم يروِ المبرّد : « حُلوم الأطفال » ، وروى عِوَضها : « ياطَغام الأحلام» ، وقال : الطَّغام : من لا معرفة عنده ، ومنه قولهم : « طغام أهل الشام » .

وربّاتِ الحِجال:النساء،[والحِجال]جمع حَجَلة ،وهى بيت يزيّن بالستور والثياب والأسرة

(١) اللسان ٦ : ١٩٥ وروايته : « تميم بن قيس » ، ورواية الديوان ٩٥ :

تميم بنَ زَيْدٍ لا تَهُونَنَّ حاجَتِى لَدَيْك ، وَلَا يَعْيَا عَلَىَّ جَوَابُهَا

وبهذه الرواية لاشاهد فيه لهذا الموضع .

(٢) سورة آل عمران ١١٧ .

والسَّدَم : الحزن والغيظ . والقَبِيح ما يكون في القُرْحة من صديدها .

وشحنتم : ملأتم .

والنُّغَب : جمع نُغْبة وهي الجُرْعة . والتَّهمام ، بفتح التاء : الهمّ ، وكذلك كلّ « تَفْعال » ، كالترداد ، والتَّكرار ، والتَّجوال ، إلا التِّبيان والتِّلقاء ، فإنهما بالكسر .

وأنفاساً ، أي جَرْعة بعد جَرْعة ، يقال : اكرع في الإناء نَفَسين أو ثلاثة .

وذَرّفت على الستين ، أي زدت . ورواها المبرد : « نَيّفت » .

وروى المبرد في آخرها . فقام إليه رجل ومعه أخوه فقال : يا أمير المؤمنين، إني وأخي هذا ، كما قال الله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾[1]، فمرنا بأمرك ، فوالله لننتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جَمْر الغضا وشوك القتاد . فدعا لهما بخير وقال : وأين تقعان مما أريد ! ثم نزل .

* * *

[استطراد بذكر كلام لابن نُباتة في الجهاد]

واعلم أنّ التحريض على الجهاد والحضّ عليه قد قال فيه الناس فأكثروا ، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ فمن جيّد ذلك ماقاله ابنُ نُباتة[2] الخطيب : أيها الناس ، إلى كم تَسْمعون الذِّكر فلا تَعُون ، وإلى كم تُقرعون بالزَّجر فلا تُقلِعون ! كأنّ أسماعَكم تمجُّ ودائع الوعظ ، وكأنّ قلوبَكم بها استكبارٌ عن الحفظ ، وعدوّكم يعمل

(١) سورة المائدة ٢٥ .

(٢) هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل الفارقي ؛ كان خطيب حلب ، وبها اجتمع مع أبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ؛ فكثرت خطبه في الجهاد لبعث الناس على نصر سيف الدولة ، توفي سنة ٣٧٤ . ونباتة ، بضم النون وفتح الباء . ابن خلكان ١ : ٢٨٣ — ٢٨٤ .

فى ديارِكم عَمَلَه ، ويبلغ بتخلُّفكم عن جهاده أمله ، وصرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقِّه فخالفتموه ، وهذه البهائمُ تناضلُ عن ذِمارِها ، وهذه الطير تموت حَمِيَّة دون أوكارها ، بلا كتاب أُنزل عليها ، ولا رسولٍ أُرسِل إليها . وأنتم أهلُ العقول والأفهام ، وأهلُ الشرائع والأحكام ، تنِدُّون من عدوِّكم نَدِيدَ الإبل ، وتدّرِعون له مدارع العجز والفشل ، وأنتم والله أَولى بالغزو إليهم ، وأحرى بالمُغار عليهم ، لأنكم أمناء الله على كتابه ، والمصدّقون بعقابه وثوابه ، خصّكم الله بالنجدة والبأس ، وجعلكم خيرَ أمة أخرِجتْ للناس ؛ فأين حَمِيَّة الإيمان ؟ وأين بصيرةُ الإيقان ؟ وأين الإشفاق من لهب النيران ؟ وأين الثقة بضمان الرحمن ؟ فقد قال الله عز وجل فى القرآن : ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾[1] ؛ فاشترط عليكم التقوى والصبر ، وضَمِن لكم المعونةَ والنصر ؛ أفتتهمونه فى ضمانه ! أم تشكُّون فى عدله وإحسانه ! فسابقوا رحمكم الله إلى الجهاد بقلوب نقية ، ونفوسٍ أبية ، وأعمال رضيّة ، ووجوه مُضِيئة ؛ وخذوا بعزائم التشمير ، واكشفوا عن رءوسكم عارَ التقصير ، وهبوا نفوسكم لمن هو أملكُ بها منكم ، ولا تركنوا إلى الجزَع فإنه لا يدفع الموت عنكم ، ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾[2] . فالجهادَ الجهادَ أيها الموقِنُون ، والظفرَ الظفرَ أيها الصابرون ! والجنة الجنة أيها الراغبون ! والنارَ النارَ أيها الراهبون ! فإن الجهاد أثبتُ قواعدِ الإيمان ، وأوسعُ أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجنان ، وإنَّ مَنْ ناصح الله لَبَيْنَ منزلتين مرغوبٍ فيهما ، مجمَع على تفضيلهما : إما السعادة بالظفر فى العاجل ، وإما الفوز بالشهادة فى الآجل ؛ وأكرهُ المنزلتين إليكم أعظمُهما نعمة

---

(١) سورة آل عمران ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٦ .

عليكم ، فانصروا الله فإنّ نصرَه حِرْزٌ من الهلكات حريز ، ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (١) ﴾ .

هذا آخر خطبة ابن نُباتة ، فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الإنصاف ، تجدها بالنسبة إليها كخنث بالنسبة إلى نخل ، أو كسيف من رصاص بالإضافة إلى سيف من حديد . وانظر ما عليها من أثر التوليد وشين التكلف وفجاجة كثير من الألفاظ ؛ ألا ترى إلى فجاجة قوله : « كأن أسماعكم تمجّ ودائع الوعظ ، وكأنّ قلوبكم بها استكبار عن الحفظ » ! وكذلك ليس يخفى نزول قوله : « تندُّون من عدوّكم ندبد الإبل ، وتدَّرعون له مدارع العجز والفشل » .

وفيها كثير من هذا الجنس ، إذا تأمله الخبير عرفه ، ومع هذا فهي مسروقة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ ألا ترى أن قوله عليه السلام : « أما بعد ، فإن الجهادَ باب من أبواب الجنة » ، قد سرقه ابن نُباتة . فقال : « فإنّ الجهاد أثبتُ قواعد الإيمان ، وأوسع أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجنان » ! وقوله عليه السلام : « من اجتماع هؤلاء على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم » ، سرقه أيضا ، فقال : « صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه » . وقوله عليه السلام « قد دعوتُكم إلى قتال هؤلاء القوم . . . . » إلى آخره ، سرقه أيضا فقال : « كم تسمعون الذِّكْر فلا تعون ! وتقرَّعون بالزجر فلا تقلعون » ! وقوله عليه السلام « حتى شُنَّتْ عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان » ، سرقه أيضا وقال : « وعدوّكم يعمل في دياركم عمله ، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله » . وأما باقي خطبة ابن نُباتة فمسروق من خُطَب لأمير المؤمنين عليه السلام أُخَر ، سيأتي ذكرها.

(١) سورة الحج ٤٠ .

واعلم أني أضرب لك مثلا تتخذه دستورا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وكلام الكتّاب والخطباء بعده كابن نُباتة والصابي وغيرهما؛ انظر نسبةَ شعر أبي تمام والبحتريّ وأبي نواس ومسلم، إلى شعر امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى؛ هل إذا تأملت أشعار هؤلاء وأشعار هؤلاء، تجد نفسك حاكمة بتساوي القبيلين أو بتفضيل أبي نواس وأصحابه عليهم ؟ ما أظن أنّ ذلك مما تقوله أنت ولا قاله غيرك ، ولا يقوله إلا مَنْ لا يعرف علم البيان ، وماهية الفصاحة ، وكُنْهَ البلاغة ، وفضيلة المطبوع على المصنوع ، ومزيّة المتقدم على المتأخر ، فإذا أقررتَ من نفسك بالفرق والفضل ، وعرفت فضلَ الفاضل ونقص الناقص ، فاعلم أنّ نسبة كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هؤلاء هذه النسبة ، بل أظهر ، لأنك تجدُ في شعر امرئ القيس وأصحابه من التعجرف والكلام الحُوشيّ ، واللفظ الغريب المستكرَه شيئا كثيرا ؛ ولا تجد من ذلك في كلام أمير المؤمنين عليه السلام شيئا ، وأ كثرُ فساد الكلام ونزوله إنما هو باستعمال ذلك .

فإن شئت أن تزدادَ استبصارا ، فانظر القرآن العزيز ، واعلم أنّ الناسَ قد اتفقوا على أنه في أعلى طبقات الفصاحة ، وتأمّله تأملا شافيا ، وانظر إلى ماخُصَّ به من مزية الفصاحة والبعد عن التقعير والتقعيب[1] والكلام الوحشيّ الغريب ، وانظر كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنك تجدهُ مشتقًا من ألفاظه ، ومقتضَبًا من معانيه ومذاهبه ، ومحذوًّا به حذْوَه ، ومسلوكا به في منهاجه ، فهو وإن لم يكن نظيرا ولا ندّا ، يصلُح أن يقال إنه ليس بعده كلامٌ أفصح منه ولا أجزل ، ولا أعلى ولا أفخم ولا أنبل ، إلا أن يكونَ كلام ابن عمه عليه السلام ، وهذا أمر لا يعلمه إلا مَنْ ثبتت له قدم راسخة في علم هذه الصناعة ، وليس كل الناس يصلح لانتقاد الجوهر ، بل ولا لانتقاد الذهب ، ولكل صناعة أهل ، ولكل عمل رجال .

* * *

ومن خطب ابن نُباتة التي يحرّض فيها على الجهاد :

---

(١) التقعير : التعمق في الكلام والتشدق به ، ومثله التقعيب .

«ألا وإنّ الجهاد كنزٌ وفّر الله منه أقسامكم، وحِرْزٌ طهّر الله به أجسامكم، وعزٌّ أظهرَ الله به إسلامكم، فإن تنصروا الله ينصركم ويثبّتْ أقدامكم، فانفروا رحمكم الله جميعا وثُباتٍ[1]، وشُدّوا على أعدائكم الغارات، وتمسّكوا بعِصَم الإقدام ومعاقل الثّبات، وأخلصوا في جهاد عدوكم حقائق النّيّات، فإنه والله ماغُزِي قوم في عُقْر دارهم إلا ذَلّوا، ولا صَدّوا عن صون ديارهم إلا اضمحلّوا. واعلموا أنّه لا يصلح الجهادُ بغير اجتهاد، كما لا يصلح السفر بغير زاد، فقدّموا مجاهدةَ القلوب، قبل مشاهدةِ الحروب، ومغالبة الأهواء قبل محاربة الأعداء، وبادروا بإصلاح السرائر؛ فإنها من أنفس العدد والذخائر، واعتاضوا من حياة لا بدّ من فنائها، بالحياة التي لا ريب في بقائها، وكونوا ممن أطاع الله وشمّر في مرضاته، وسابقوا بالجهاد إلى نَيْل جنّاته؛ فإن الجنة لها حُدوده تطهير الأعمال، وتشييده إنفاق الأموال، وساحتُه زحف الرجال، وطريقُه مَحَجَّة الأبطال، ومفتاحه الثبات في معترك القتال، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال».

فلينظر الناظر في هذا الكلام، فإنه وإن كانَ قد أخذَ من صناعة البديع بنصيب؛ إلا أنه في حضيض الأرض وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في أوْج السماء، فإنه لا يتكر لزومُه فيه لما لا يلزمه اقتدارا وقوة وكتابة، نحو قوله: «كنز» فإنّه بإزاء «حرز» و«عز»، وقوله: «مشاهدة» بإزاء قوله: «مجاهدة»، و«مغالبة» بإزاء «محاربة»، و«حدوده» بإزاء «تشييده»، لكن مثله بالقياس إلى كلام أمير المؤمنين عليه السلام كدارٍ مبنيّة من اللبن والطين، مموّهة الجدران بالنقوش والتصاوير، مزخرفة بالذهب من فوق الجص والإسفيداج[2]، بالقياس إلى دار مبنيّة بالصخر الأصمّ الصلد، المسبوك بينه عمد الرصاص والنحاس المذاب، وهي مكشوفة غير مموّهة ولا مزخرفة. فإن بين هاتين الدارين بَوْنًا بعيدا، وفرقا عظيما. وانظر قوله: «ماغُزِيَ قوم في عُقْر دارهم إلا ذلّوا»، كيف تَصِيحُ من بين الخطبة صياحا، وتنادى على نفسها نداء فصيحا، وتُعلِم سامعَها أنها ليست من المعدن

(١) ثبات: جماعة بعد جماعة.

(٢) الإسفيداج: رماد الرصاص.

الذى خرج باقى الكلام منه ، ولا من الخاطر الذى صدر ذلك السجع عنه ، ولسر الله لقد جَمّلت الخطبةَ وحسَّنَتْها وزانَتْها ، وما مثلُها فيها إلا كآية من الكتاب العزيز تُمثَّل بهافى رسالة أو خطبة ، فإنها تكون كالؤلؤة المضيئة تُزْهِر وتنير ،وتقوم بنفسها وتكتسى الرسالة بها رونقا ، وتكتسب بها ديباجة .

وإذا أردت تحقيق ذلك فانظر إلى السجعة الثانية التى تكلّفها ليوازنها بها ، وهى قوله : « ولا قعدوا عن صون ديارهم إلا اضمحلُّوا » ، فإنك إذا نظرت إليها وجدت عليها من التكلّف والغثاثة مايقوّى عندك صدق ماقلتُه لك .

على أنّ فى كلام ابن نُباتة فى هذا الفصل مالبس بجيّد ، وهو قوله : « وحرز طهّر الله به أجسامكم» فإنه لا يقال فى الحرز : إنه يُطهر الأجسام ، ولوقال عوض « طهّر » : حصّن الله به أجسامكم ، لكان أليق ، لكنه أراد أن يقول : « طهّر » ليكون بإزاء « وفّر » وبإزاء « أظهر » ، فأدّاه حبُّ التقابل إلى مالبس بجيّد .

[غارة سفيان بن عوف الغامدى على الأنبار]

فأما أخو غامد الذى وردتْ خيله الأنبار ، فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدىّ ، وغامد قبيلة من اليمن ، وهى من الأزد ؛ أزد شنوءة . واسم غامد عمر بن عبدالله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد . وسُمّى غامدا لأنه كان بين قومه شرّ فأصلحه وتغمّدهم بذلك .

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفى[1] فى كتاب « الغارات » ، عن أبى الكنود ، قال : حدّثنى سفيان بن عوف الغامدىّ ، قال : دعانى معاوية ، فقال : إنى باعثُك فى جيش كثيف ،ذى أداة وجَلادة ، فالزم لى جانب الفُرات ، حتى تمرّ بهيت[2]

(١) إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعد الثقفى ؛ من علماء أصبهان ، ذكره أبو نعيم فى تاريخه وقال : كان غاليا فى الرفض ، مات سنة ٢٨٠هـ . لسان الميزان ١ : ١٠٢ .

(٢) هيت : بلد على الفرات فوق الأنبار .

فقطعها ، فإن وجدت بها جندا فأغِرْ عليهم ؛ وإلا فامضِ حتى تُغير على الأنبار ، فإن لم تجد بها جندا فامضِ حتى تُوغل في المدائن ؛ ثم أقبل إليّ واتق أن تقرب الكوفة . واعلم أنك إن أغرتَ على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرْتَ على الكوفة ؛ إنّ هذه الغارات يا سُفيان على أهل العراق تُرْعِبُ قلوبهم ، وتُفْرِح كلّ مَنْ له فينا هوًى منهم ، وتدعو إلينا كلّ من خاف الدوائر ؛ فاقتل مَنْ لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك ، وأخرب كلّ مامررتَ به من القرى ، واحرُب الأموال ، فإنّ حَرَبَ الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب .

قال : فخرجتُ من عنده فعسكرت ، وقام معاوية في الناس فخطبهم ، فقال : أيها الناسُ ، انتدِبوا[1] مع سفيان بن عوف ، فإنه وجه عظيم فيه أجر ، سريعة فيه أوبتكم إن شاء الله . ثم نزل .

قال : فوالذي لا إله غيره مامرّتْ ثالثة حتى خرجت في ستة آلاف ، ثم لزمت شاطئ الفرات ، فأغذَذْتُ السير حتى أمُرّ بهيت ، فبلغهم أني قد غشيتهم فقطعوا الفرات ، فمررت بها وما بها عَرِيب ،[2] كأنها لم تُحلَلْ قطّ ، فوطئتُها حتى أمُرّ بصندوداء ،[3] ففرّوا فلم ألق بها أحدا ، فأمضي حتى أفتتحَ الأنبار ، وقد نَذِرُوا بي ، فخرجَ صاحب المسلّحة إليّ ، فوقف لي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلمانا من أهل القرية ، فقلت لهم : أخبروني ، كم بالأنبار من أصحاب علي عليه السلام ؟ قالوا : عدّة رجال المسلّحة خمسمائة ، ولكنهم قد تبدّدُوا ورجعوا إلى الكوفة ؛ ولا ندري الذي يكون فيها ، قد يكون مائتي رجل ؛ فنزلت فكتّبتُ أصحابي كتائب ، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبةً بعد كتيبة فيقاتلهم والله ويصبر لهم ، ويطاردهم ويطاردونه في الأزقة ، فلما رأيتُ ذلك أنزلتُ إليهم نحواً من مائتين ،

---

(١) انتدبوا : خفوا للقتال .

(٢) عريب : أي ما بها أحد .

(٣) صندوداء : قرية كانت في غربي الفرات فوق الأنبار .

وأتبعتُهم الخيل ، فلما حملت عليهم الخيل وأمامها الرجال تمشى ؛ لم يكن شىء حتى تفرّقوا ، وقُتِل صاحبهم فى نحو من ثلاثين رجـلا ، وحملنا ما كان فى الأنبار من الأموال ؛ ثم انصرفت ، فوالله ماغزوتُ غزاةً كانت أسلمَ ولا أقرّ للعيون ، ولا أسرّ للنفوس منها . وبلّغنى والله أنها أرعبت الناس ، فلما عدت إلى معاوية ؛ حدثته الحديث على وجهه ، فقال : كنتَ عند ظنّى بك ، لاتنزل فى بلد من بُلدانى إلا قضيتَ فيه مثل ماقضى فيه أميرُه ، وإن أحببت توليته ولّيتُك ، وليس لأحد من خلْق الله عليك أمر دونى .

قال : فوالله مالبثنا إلا يسيرا ، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننَا على الإبل هُرّابا من عسكر علىّ عليه السلام .

قال إبراهيم : كان اسم عامل علىّ عليه السلام على مسلحة الأنبار أشرس بن حسّان البكرىّ .

* * *

وروى إبراهيم عن عبدالله بن قيس ، عن حبيب بن عفيف ، قال : كنتُ مع أشرس بن حسّان البكرىّ بالأنبار على مسلحتها ، إذ صبّحنا سُفيان بن عوف فى كتائب تلمعُ الأبصارُ منها ، فهالُونا والله ، وعلمنا إذْ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم ولا يد ، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرّقنا فلم يلقهم نصفُنا ، وايمُ الله لقد قاتلناهم فأحسنّا قتالهم ؛ حتى كرهونا ، ثم نزل صاحبنا ، وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] . ثم قال لنا : مَنْ كان لا يريد لقاء الله ، ولا يطيب نفسا بالموت ، فليخرج عن القرية مادمنا نقاتلهم ، فإنّ قتالَنا إياهُمْ شاغل لهم عن طلب هارب ، ومن أراد ماعند الله فما عند الله خير للأبرار . ثم نزل فى ثلاثين رجُلاً ، فهممت بالنزول معه ، ثم أبتْ نفسى ، واستقدم هو وأصحابه ، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله ، وانصرفنا نحن منهزمين .

---

(١) سورة الأحزاب ٢٣ .

قال إبراهيم: وقَدِم[1] عِلْج من أهل الأنبار على عليّ عليه السلام ، فأخبره الخبر، فصعد المنبر فخطب الناس ، وقال :

إنّ أخا كم البكريّ قد أصيب بالأنبار ،وهو معتزّ لا يخاف ما كان ،واختار ما عند الله على الدنيا ، فانتدبوا إليهم حتى تلاقُوهم ، فإن أصبتم منهم طرفا أنْكَلْتُمُوهم عن العراق أبدا ما بَقُوا .

ثم سكت عنهم رَجاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم ، فلم ينبس أحدٌ منهم بكلمة ، فلما رأى صَمْتَهم نزل ، وخرج يمشي راجلا حتى أتى النُّخَيلة ، والناس يمشون خَلْفَه حتى أحاط به قوم من أشرافهم ، فقالوا : ارجع ياأميرَ المؤمنين ونحن نكفيك ، فقال : ماتَكْفُونني ولا تَكْفُون أنفسكم ! فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله ، فرجع وهو واجم كئيب ، ودعا سعيد بن قيس الهمدانيّ ،فبعثه من النُّخَيلة في ثمانية آلاف ، وذلك أنه أُخبر أن القوم جاءوا في جمع كثيف .

فخرج سعيد بن قيس على شاطئ الفُرات في طلب سفيان بن عوف ، حتى إذا بلغ عانات[2]، سرّح أمامه هانئ بن الخطاب الهمدانيّ، فاتّبع آثارهم حتى دخل أداني أرض قِنَّسرين وقد فاتوه ، فانصرف .

قال: ولبث عليّ عليه السلام ، تُرى فيه الكآبة والحزن ،حتى قدم عليه سعيد بن قيس، وكان تلك الأيام عليلا ، فلم يَقْوَ على القيام في الناس بما يريده من القول ، فجلس بباب السُّدّة التي تصل إلى المسجد ، ومعه ابناه حسن وحسين عليهما السلام ، وعبد الله بن جعفر، ودعا سعدا مولاه ، فدفع إليه الكتاب ، وأمره أن يقرأه على الناس ، فقام سعد بحيث يستمع عليّ عليه السلام صوته ، ويسمع مايردّ الناس عليه ، ثم قرأ هذه الخطبة التي نحن في شرحها .

* * *

(١) العلج : الرجل من كفار العجم .
(٢) عانات : بلد عند الرقة وهيت قريبة من الأنبار .

وذكر أنّ القائم إليه ، العارض نفسه عليه جندَب بن عفيف الأزدىّ ، هو وابن أخ له يقال له : عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف .

قال : ثم أمر الحارث الأعور الهمدانىّ ، فنادى فى الناس : أين مَنْ يشترى نفسه لربه ويبيع دنياه بآخرته ؟ أصبحوا غداً بالرَّحبة إن شاء الله ، ولا يحضُر إلا صادق النيّة فى السير معنا ، والجهاد لعدوّنا فأصبح وليس بالرَّحبة إلا دون ثلاثمائة ، فلما عرضهم ، قال : لو كانوا ألفاً كان لى فيهم رأى .

وأتاه قوم يعتذرون ، فقال : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ [1] ، وتخلف المكذّبون ، ومكث أياماً بادياً حزنه شديد الكآبة ، ثم جمع الناس فخطبهم فقال : أما بعد ، أيها الناس ، فوالله لأهلُ مصركم فى الأمصار أكثرُ من الأنصار فى العرب ، وما كانوا يوم أعطَوا رسول الله صلى الله عليه أن يمنعوه ومن معه من المهاجرين حتى يبلّغ رسالات ربّه إلا قبيلتين ، قريبا مولدهما ، ماهما بأقدَم العرب ميلاداً ، ولا بأكثرهم عدداً . فلما آووا النبى صلى الله عليه وأصحابه ، ونصروا الله ودينه ، رمتْهم العرب عن قوس واحدة ، فتحالفت عليهم اليهود ، وغزتهم القبائل قبيلةً بعد قبيلة ، فتجرّدوا لنصرة دين الله ، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل ، وما بينهم وبين اليهود من الحِلْف ، ونصبوا لأهل نجد وتِهامة وأهل مكة واليمامة ، وأهل الحَزْن والسهل ، وأقاموا قَناة الدين ، وصبروا تحت حماس الجلاد ، حتى دانت العرب لرسول الله صلى الله عليه ، ورأى منهم قرة العين قبل أن يقبضه الله عزّ وجل إليه ، وأنتم اليوم فى الناس أكثر من أولئك ذلك الزمان فى العرب .

فقـام إليـه رجُل آدمُ طُوال ، فقال : ما أنت بمحمد ، ولا نحن بأولئك الذين

---

(١) سورة التوبة ٩٠ .

ذكرتَ ، فقال عليه السلام: أحسبن سَمْعاً تُحسِنُ إجابة انكلفتكم الثواكل ! ماتزيدوننى إلا غَمًّا ! هل أخبرتُكم أنى محمد ، وأنكم الأنصار ! إنما ضربت لكم مثلا ، وإنما أرجو أن تتأسَّوْا بهم .

ثم قام رجل آخر ، فقال: ما أحوجَ أمير المؤمنين اليوم وأصحابه إلى أصحاب النَّهْرَوان.
ثم تكلم الناس من كل ناحية ولغطوا ، وقام رجل منهم فقال بأعلى صوته : استبان فَقْدُ الأشتر على أهل العراق ! أشهد لو كان حَيًّا لقلَّ اللَّغط ، ولعلم كلّ امرئ مايقول .

فقال علىّ عليه السلام : هبلتكم الهوابل ! أنا أوْجَبُ عليكم حقا من الأشتر ! وهل للأشتر عليكم من الحق إلا حق المسلم على المسلم ! .

فقام حُجْر بن عدىّ الكندىّ وسعيد بن قيس الهمْدَانىّ، فقالا : لايسوءك الله ياأمير المؤمنين ، مُرْنا بأمرك نتبعه ، فوالله مانُعظِم جزعا على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرنا إن قُتِلتْ فى طاعتك . فقال : تجهّزوا للمسير إلى عدوّنا.

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه ، قال لهم : أشيروا علىّ برجل صليب ناصح ، يحشر الناس من السّواد . فقال له سعيد بن قيس : يا أمير المؤمنين ، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب ، معقِل بن قيس التميمى ، قال : نعم .

ثم دعاه فوجهه ، فسار فلم يقدم حتى أصيب أمير المؤمنين عليه السلام .

(٢٨)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْلُ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ (١) ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارُ ، وَغَداً السِّبَاقُ ، وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ .

أَفَلَا تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ ! أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ !

أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ ، مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ ؛ فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ ، فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ ، وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ . وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ ، وَضَرَّهُ أَجَلُهُ .

أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ ، كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ .

أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا ، وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا .

أَلَا وَإِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى ، يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى .

أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ ، وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزَّادِ ؛ وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا مَا تُحْرِزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً .

* * *

(١) ا : « على اطلاع » .

قال الرضي رحمه الله :

وأقولُ : إنَّهُ لو كانَ كلامٌ يأخذ بالأعناقِ إلى الزُّهدِ في الدُّنيا ، ويَضطرُّ إلى عملِ الآخرةِ لكانَ هذا الكلامَ . وكفى بهِ قاطعاً لعلائقِ الآمال ، وقادحاً زنادَ الاتّعاظِ والازدجار . ومن أعجبِهِ قولُه عليه السّلام : « ألا وإنَّ اليومَ المِضمارَ وغداً السِّباقَ،والسَّبقَةُ الجنَّةُ والغايَةُ النّار » ، فإنَّ فيه مع فخامَةِ اللفظ ، وعِظَمِ قدرِ المعنى، وصادقِ التمثيل ، وواقعِ التّشبيه ، سِرّاً عجيباً ، ومعنىً لطيفاً ، وهو قولُه عليه السّلامُ « والسَّبقَةُ الجنَّةُ والغايَةُ النّار » ، فخالَفَ بينَ اللفظَيْنِ لاختلافِ المعنَيَيْن، ولَمْ يَقُلْ « السَّبقَةُ النّارُ » كما قالَ : « السَّبقَةُ الجنَّةُ » لأنَّ الاستباقَ إنّما يكونُ إلى أمرٍ محبوبٍ وغرضٍ مطلوب ، وهذه صِفةُ الجنَّة ، وليسَ هذا المعنى موجوداً في النّار ، نعوذُ باللهِ منها ! فلم يَجُزْ أنْ يقولَ : « والسَّبقَةُ النّارُ » بل قال: « والغايَةُ النّار » ،لأنَّ الغايةَ قد ينتهي إليها مَنْ لا يَسُرُّهُ الانتهاءُ إليها،ومَن يَسُرُّهُ ذلكَ فصلحَ أنْ يُعبَّرَ بها عن الأمرَيْنِ معاً، فهيَ في هذا الموضعِ كالمصيرِ والمآل، قالَ اللهُ تعالى :﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فإنَّ مَصيرَكُمْ إلى النّار﴾[1]،ولا يجوزُ في هذا الموضعِ أنْ يُقالَ : فإنَّ « سَبقَتَكُمْ إلى النّار » . فتأمَّلْ ذلكَ فباطِنُهُ عجيب ، وغَورُهُ بعيدٌ لطيف ، وكذلكَ أكثرُ كلامِه عليه السّلام .

***

وفي بعضِ النُّسَخ ، وقد جاء في روايةٍ أخرى «والسُّبقَةُ الجنَّةُ»[2] بضمِّ السّين، والسُّبقَةُ عندَهُمْ : اسمٌ لما يُجعَلُ للسّابقِ ، إذا سبقَ مِنْ مالٍ أو عَرَضٍ ؛ والمعنَيانِ متقاربانِ،لأنَّ ذلكَ لا يكونُ جزاءً على فعلِ الأمرِ المذموم،وإنّما يكونُ جزاءً على فعلِ الأمرِ المحمود.

(١) سورة إبراهيم ٣٠ .

(٢) وهي رواية مخطوطة النهج .

الشرح

آذنت : أعلمت . والمضمار : منصوب ؛ لأنه اسم « إن » . واليوم ظرف ، وموضعه رفع ، لأنه خبر « إن » ، وظرف الزمان يجوز أن يكون خبرا عن الحدث ، والمضمار : وهو الزمان الذى تضمر فيه الخيل للسباق ، والضمر : الهزال وخفة اللحم . وإعراب قوله : « وغدا السباق » ؛ على هذا الوجه أيضا .

ويجوز الرفع فى الموضعين على أن تجعلهما خبر « إن » بأنفسهما .

وقوله عليه السلام : « ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه » أخذه ابن نُباتة مصالتة[1] ، فقال فى بعض خطبه : « ألا عاملٌ لنفسه قبل حلول رَمْسِه » .

قوله : « ألا فاعملوا فى الرغبة » ، يقول : لا ريب أن أحدكم إذا مسه الضُّر من مرض شديد ، أو خوف مُقلِق ، من عدو قاهر ؛ فإنه يكون شديد الإخلاص والعبادة ، وهذه حال من يخاف الغرق فى سفينة تتلاعب بها الأمواج ، فهو عليه السلام أمر بأن يكون المكلّف عاملا أيام عدم الخوف ، مثل عمله وإخلاصه وانقطاعه إلى الله أيام هذه العوارض .

قوله : « لم أر كالجنة نام طالبها » ؛ يقول : إن من أعجب العجائب من يؤمن بالجنة كيف يطلبها وينام ! ومن أعجب العجائب من يوقن بالنار ، كيف لا يهرب منها وينام ! أى لا ينبغى أن ينام طالب هذه ولا الهارب من هذه .

وقد فسر الرضىّ رحمه الله تعالى معنى قوله : « والسبقة الجنة » .

[نبذ من أقوال الصالحين والحكماء]

ونحن نورد فى هذا الفصل نكتا من مواعظ الصالحين رحمهم الله تناسب هذا المأخذ .

فما يؤثر عن أبى حازم الأعرج ـ كان فى أيام بنى أمية ـ قوله لعمر بن عبد العزيز ،

(١) المصالتة عند الشعراء ، أن يأخذ الشاعر بيتا لغيره لفظا ومعنى ؛ وهى من أقبح السرقات الشعرية ، من الصلت بمعنى اللص .

وقد قال له : يا أبا حازم ، إنّي أخافُ الله مما قد دخلتُ فيه ، فقال : لست أخاف عليك أن تخاف ؛ وإنما أخاف عليك ألاّ تخاف .

وقيل له : كيف يكون الناسُ يوم القيامة ؟ قال : أما العاصي فآبقٌ قُدِم به على مولاه ، وأما المطيع فغائب قَدِم على أهله .

ومن كلامه : إنما بيني وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ، ولا أجد شدّتَه ، وأما غدا فإني وإياهم منه على خطر ؛ وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون !

ومن كلامه : إذا تتابعتْ عليك نِعَمُ ربك وأنت تعصيه فاحْذَره .

وقال له سليمان بن عبد الملك : عِظْني ، فقال : عَظِّم ربَّك أن يراك حيث نَهاك ، أو يفقِدك حيث أمرك .

وقيل له : ما مالك ؟ قال : شيئان لا عُدْم بي معهما : الرضا عن الله ، والغنى عن الناس .

ومن كلامه : عجبا لقوم يعملون لدارٍ يرْحلون عنها كلّ يوم مرحلة ، ويتركون أن يعملوا لدار يرحلون إليها كلّ يوم مرحلة !

ومن كلامه : إن عوفينا من شرّ ما أعطانا ، لم يضرّنا فَقْدُ ما زُوِيَ عنا .

ومن كلامه : نحن لا نريد أن نموتَ حتى نتوب ، ونحن لا نتوب حتى نموت .

ولما ثقلَ عبدُ الملك رأى غسالاً يلوي بيده ثوباً ، فقال : وددت أني كنت غسالا مثل هذا ، أعيش بما أكتسب يوما فيوما ! فذكرَ ذلك لأبي حازم ، فقال : الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يتمنَّوْن ما نحن فيه ، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه .

* * *

ومن كلام غيره من الصالحين : دخل سالم بن عبد الله بن عمر على هشام بن عبد الملك

فى الكعبة ، فكلمه هشام ، ثم قال له : سَلْ حاجتك ، قال : معاذ الله أن أسأل فى بيت الله غيرَ الله .

وقيل لرابعة القَيْسيّة : لو كلّمت أهلَك أن يشتروا لك خادما يكفيك مؤنة بيتك ! قالت : إنى لأستحى أن أسأل الدنيا مَنْ يملكها ، فكيف مَنْ لا يملكها !

وقال بكر بن عبد الله : أطفئوا نارَ الغضب بذكر نار جهنم .

عامر بن عبد القيس : الدّنيا والدة للموت ، ناقضة للمبْرَم ، مرتجعة للعطية ، وكلُّ مَنْ فيها يجرى إلى مالا يدرى ، وكلّ مستقرٌ فيها غير راضٍ بها ؛ وذلك شهيد على أنها ليست بدار قرار .

باع عتبة بن عبد الله بن مسعود أرضاً له بثمانين ألفاً ، فتصدّق بهـا ، فقيل له : لو جعلتَ هذا المال أو بعضه ذُخراً لولدك ! قال : بل أجعل هذا المال ذُخْراً لى ، وأجعل الله تعالى ذُخْراً لولدى .

رأى إياس بن قتادة شيبةً فى لحيته ، فقال : أرى الموت يطلُبنى ، وأرانى لا أفوته . فلزم بيتَه وترك الاكتساب . فقال له أهله : تموت هُزالا ! فقال : لأنْ أموتَ مؤمناً مهزولا أحبُّ إلىّ من أعيش منافقا سمينا .

بكر بن عبـد الله المزنىّ : ما الدّنيـا ليت شعرى ! أمّا مامَضَى منها فحُلْم ، وأما مابقِى فأمانىّ !

مُوَرّق العجلىّ : خَيْرٌ من العُجْب بالطاعة ألّا تأتىَ بالطاعة .

ومن كلامه : ضاحِكٌ معترف بذنبه ، خير من باكٍ مُدِلٍّ على ربه .

ومن كلامه : أوحى الله إلى الدنيـا : مَنْ خـدَمنى فاخـدُميه ، ومن خَدَمك فاستخدميه .

قيل لرابعة : هل عملتِ عملا ترين أنه يُقبل منك ؟ قالت : إن كان تخوفى أن يُرَدَّ علىّ .

نظر حبيب إلى مالك بن دينار ، وهو يقسم صدقته علانية ، فقال : يا أخى ، إنّ الكنوزَ لتُستَر ، فما بال هذا يُجهَرُ به !

قال عمرو بن عُبيد للمنصور : إن الله أعطاك الدنيا بأسْرِها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الذى أصبح اليوم فى يدك لو كان مما يبقى على الناس لبقى فى يد مَنْ كان قبلك ، ولم يصر إليك ، فاحذَرْ ليلة تمخض بيوم لا ترى بعده إلا يوم القيامة . فبكى المنصور ، وقال : ياأبا عثمان ، سلْ حاجة ، قال : حاجتى ألّا تعطينى حتى أسألك ، ولا تدعنى حتى أجيئك ، قال : إذن لا نلتقى أبدا ، قال : فذاك أريد .

كان يقال : الدنيا جاهلة ، ومِنْ جَهلها ، أنها لا تعطى أحداً ما يستحقه ؛ إما أن تزيدَه ، وإما أن تَنقُصَه .

قيل لخالد بن صفوان : مَنْ أبلغُ الناس ؟ قال : الحسَن ، لقوله : فضح الموتُ الدنيا .

قيل لبعض الزهاد : كيف سُخْط نفسك على الدنيا ؟ قال : أيقنت أنى خارج منها كرها ، فأحببت أن أخرُج منها طوعا .

مرّ إبراهيم بن أدهم بباب أبى جعفر المنصور ، فنظر السلاح والحرس ، فقال : المريب خائف .

قيل لزاهد : ما أصبرَك على الوحدة ! قال ، كلاّ أنا أجالسُ ربّى ، إذا شئت أن يناجيَنى قرأت كتابَه ، وإذا شئت أن أناجيَه صليت .

كان يقال : خف الله لقدرته عليك ، واستحِ منه لقربه منك .

قال الرشيد[1] للفُضَيل بن عياض : ما أزهدك ! قال : أنت ياهارون أزهدُ مني ، لأني زهدتُ في دنيا فانية ، وزهدتَ في آخرةٍ باقية .

وقال الفُضَيل : يارب ، إني لأستحيي أن أقول : توكلت عليك ؛ لو توكلت عليك ماخفتُ إلا منك ، ولا رجوتُ إلا إياك .

عوتب بعض الزهاد على كثرة التصدق بماله ، فقال : لو أراد رجل أن ينتقل من دارٍ إلى دارٍ ، ماأظنه كان يترك في الدار الأولى شيئا !

قال بعض الملوك لبعض الزهاد : مالك لاتغشى بابي وأنت عَبْدي ! قال : لو علمتَ أيها الملك ، لعلمتَ أنك عبدُ عبدي ، لأني أملِكُ الهوى والهوى يملِكُك .

دخل متظلمٌ على سليمان بن عبد الملك ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، اذكر يوم الأذان ، قال : ومايومُ الأذان ؟ قال : اليوم الذي قال تعالى فيه : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[2]، فبكى سليمان وأزال ظلامته .

سئل الفُضَيل بن عياض عن الزهد ، فقال : يجمعه حرفان في كتاب الله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[3].

كتب يحيى بن خالد من الحبس إلى الرشيد : مايمرُّ يومٌ من نعيمك إلا ويمرُّ يوم من بؤسي ، وكلاهما إلى نفاد .

قيل لحاتم الأصمّ : علام بنيتَ أمرك ؟ قال : على أربع خصال : علمتُ أنّ رزقي لايأكله غيري فلم أهتمّ به ، وعلمت أنّ عملي لايعمله غيري فأنا مشغول به ، وعلمت أنّ الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أني بعين الله في كلّ حال فاستحييت منه .

(١) ب : « قال بعض الملوك » ، وما أثبته من أ ، ج
(٢) سورة الأعراف ٤٤ .
(٣) سورة الحديد ٢٣ .

نظر بعضُ الصالحين إلى رجل يفحُش فى قوله ، فقال : ياهذا إنما تُملى على حافظيك كتابا إلى ربك ، فانظر ماتودعه .

كان يقال : مثلُ الدنيا والآخرة مثل ضَرّتَيْن لبعلٍ واحد ، إنْ أرضى هذه أسخط الأخرى .

قيل لبعضهم : مامَثَلُ الدنيا ؟ قال : هى أقلّ من أن يكون لها مَثَل .

دخل لصّ على بعض الزهاد الصالحين ، فلم يَرَ فى داره شيئاً ، فقال له : يا هذا ، أين متاعك ؟ قال : حوّلته إلى الدار الأخرى .

قيل الربيع بن خيثم : ياربيعُ ، ماتراك تذُمّ أحداً ؟ فقال : ما أنا عن نفسى براض ، فأتحوّل من ذمّى إلى ذَمّ الناس ، إنّ الناس خافوا الله على ذنوب العباد وأمنوه على ذنوبهم .

قال عيسى بن موسى لأبى شيبة القاضى : لم لاتأتينا ؟ قال : إن قرّبْتنى فتنْتَنى ، وإنْ أقصيتنى أحزنْتنى ، وليس عندى ما أخافك عليه ، ولا عندك ماأرجوك له .

من كلام بعض الزهاد : تأمّل ذا الغنى ، ما أشدّ نَصَبَه ، وأقل راحته ، وأخسّ من ماله حظَّه ، وأشدّ من الأيام حذره ! هو بين سلطانٍ يتهضّمه ، وعدوّ يبغى عليه ، وحقوق تلزمه ، وأكفاء يحسدونه ، وولد يودّ فراقَه ، قد بعث عليه غناه من سلطانه العَنَت ، ومن أكفائه الحسَد ، ومن أعدائه البغْى ، ومن ذوى الحقوق الذمّ ، ومن الولد الملالة .

ومن كلام سُفيانَ الثورىّ : يابن آدم ، جوارحك سلاح الله عليك ، بأيّها شاء قتلك .

ميمون بن مهران فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾[1] ، قال : إنها تعزية للمظلوم ، ووعيد للظالم .

---

(١) سورة إبراهيم ٤٢ .

دخل عبد الوارث بن سعيد على مريض يعوده ، فقال له : ما نمتُ منذ أربعين ليلة ، فقال : ياهذا ، أحصيت ليالىَ البلاء ، فهل أحصيت ليالى الرخاء !

بعضُهم : واعجباه لمن يفرح بالدنيا ، فإنما هى عقوبة ذنب !

ابن السّماك : خَفِ اللهَ حتّى كأنّك لم تُطِعْهُ قط ، وارْجُه حتى كأنك لم تعصه قطّ .

بعضهم : العلماء أطباء هذا الخلْق ، والدنيا داء هذا الخلق ؛ فإذا كان الطبيب يطلب الداء فمتى يبرئ غيره !

قيل لمحمد بن واسع : فلان زاهد ، قال : وما قَدْر الدنيا حتى يُحْمَدَ مَنْ يزهد فيها ؟

رُئىَ عبد الله بن المبارك واقفا بين مقبرة ومَزْبلة ، فقيل له : ما أوقفك ؟ قال : أنا بين كنزيْن من كنوز الدنيا فيهما عِبْرة : هذا كنز الأموال ، وهذا كنز الرجال .

قيل لبعضهم : أتعبتَ نفسك ؟ فقال : راحتَها أطلب .

دخل الإسكندرُ مدينة فتحها ، فسأل عمّن بقى من أولاد الملوك بها ، فقيل : رجل يسكن المقابر ، فدعا به ، فقال : ما دعاك إلى لزوم هذه المقابر ؟ فقال : أحببت أن أميّز بين عظام الملوك ، وعظام عبيدهم ، فوجدتُها سواء . فقال : هل لك أن تتْبعنى فأُحيىَ شرفك وشرف آبائك ، إن كانت لك همة ! قال : همّتى عظيمة ، قال : وما همتُك ؟ قال : حياة لا موت معها ، وشباب لا هرم معه ، وغنًى لا فقر معه ، وسرور لا مكروه معه ، فقال : ليس هذا عندى ، قال : فدعْنى ألتمسه ممن هو عنده .

مات ابنٌ لعمر بن ذرّ ، فقال : لقد شغلنى الحزنُ لك يابنىّ عن الحزن عليك .

كان يقال : مِنْ هَوَان الدنيا على الله ألا يُعْصَى إلا فيها ، ولا يُنال ما عنده إلّا بتركها .

ومن كلام عبد الله بن شداد : أرى دواعى الموت لاتُقلع ، وأرى مَنْ مَضَى لايرجع ،

فلا تزهدن فى معروف ، فإن الدّهر ذو صروف ، كم من راغب قد كان مرغوبا إليه ! والزمانُ ذُو ألوان ، من يصحب الزمان يرَ الهوان ، وإن غُلبتَ يوماً على المال فلا تُغلَبَنّ على الحيلة على كلّ حال ، وكن أحسن ما تكون فى الظاهر حالا ، أقلّ ماتكون فى الباطن مآلا .

كان يقال : إن مما يعجّل الله تعالى عقوبته : الأمانة تُخان ، والإحسان يُكفَّر ، والرّحم تُقطَع ، والبغى على الناس .

الربيع بن خيثم : لو كانت الذنوب تفوح روائحُها لم يجلس أحد إلى أحد .

قيل لبعضهم : كيف أصبحت ؟ قال : آسفاعلى أمسى ، كارها ليومى ، متّهماً لغدى .

وقيل لآخر : لم تركت الدنيا ؟ قال : أيقنتُ بنِ قليلها ، وأنِفتُ من كثيرها . وهذا كما قال بعضهم ، وقد قيل له : لم لا تقول الشعر ؟ قال : يأبانى جيّده ، وآبى رديئه .

بعض الصالحين : لو أنزل الله تعالى كتابا : « إنى معذّب رجلا واحدا» ، خِفتُ أن أكونه ، أوأنه راحم رجلا واحدا ، لرجوت أن أكونه .

مطرّف بن الشِّخِّير : خير الأمور أوساطها ، وشر السير الحَقْحَقة[1] . وهذا الكلام قد روى مرفوعا .

يحيى بن معاذ : إنّ لله عليك نعمتين : فى السراء التذكّر ، وفى الضّراء التصبّر ؛ فكن فى السرّاء عبدا شكورا ، وفى الضرّاء حرّا صبورا .

دخل ابن السمّاك على الرشيد ، فقال له : عظنى ، ثم دعا بماء ليشربه ، فقال له : ناشدتُك الله ؟ لومنعك الله من شربه ما كنت فاعلا ؟ قال : كنت أفتديه بنصف ملكى . قال : فاشربه ، فلما شرب ، قال : ناشدتك الله ! لومنعك الله من خروجه ما كنت فاعلا ؟ قال : كنت أفتديه بنصف ملكى ، قال : إنّ مُلكا يُفتدى به شربة ماء ، لخليق ألّا ينافَس عليه .

قال المنصور لعمرو بن عُبيد رحمه الله تعالى : عِظنى ، قال : بما رأيتُ أم بما سمعتُ ؟

---

(١) الحقحقة : أرفع السير وأتعبه للظهر .

قال : بما رأيت . قال : رأيتُ عمر بن عبد العزيز ، وقد مات ، فخلّف أحد عشراً ابنا ، وبلغت تركتُه سبعة عشر دينارا ، كُفّن منها بخمسة دنانير ، واشتُرِيَ موضع قبره بدينارين ، وأصاب كلّ واحد من ولده دون الدينار . ثم رأيتُ هشام بن عبد الملك ، وقد مات وخلّف عشرة ذكور ، فأصاب كلّ واحد من ولده ألف ألف دينار . ورأيت رجلا من ولد عمر بن عبد العزيز ، قد حمل فى يوم واحد على مائة فرس فى سبيل الله ، ورأيت رجلا من ولد هشام ، يسأل الناس ليتصدقوا عليه .

حسان بن أبى سنان : ما شىء أهونُ من وَرَع ؛ إذا رابك شىء فدعْه .

مورّق العِجْلىّ : لقد سألت الله حاجة أربعين سنة ، ما قضاها ولا يئست منها ، قيل : وما هى ؟ قال : ترْك ما لا يعنينى .

قَتادة : إنّ الله ليُعطِى العبد على نية الآخرة ما يسأله من الدنيا ، ولا يعطيه على نية الدنيا إلا الدنيا .

من كلام محمد بن واسع : ليس فى النار عذاب أشدّ على أهلها من علمهم بأنه ليس لكربهم تنفيس ، ولا لضيقتهم ترفيه ، ولا لعذابهم غاية ؛ وليس فى الجنّة نعيم أبلغ من علم أهلها بأن ذلك الملك لا يزول عنهم

قال بعض الملوك لبعض الزّهاد : اذْمُم لى الدنيا ، قال : أيّها الملك ، هى الآخذة لما تُعطِى ، المورّثة بعد ذلك الندم ، السّالبة ما تكسو ، المورّثة بعد ذلك الفضوح ، تسدّ بالأراذل مكان الأفاضل ، وبالعجزة مكان الحَزَمة ، تجد فى كلّ من كلّ خَلَفا ، وترضى بكلّ من كلّ بدلا ، تُسْكِن دارَ كل قَرْنٍ قرنا ، وتُطعِم سُؤْرَ كلّ قوم قوما .

ومن كلام الحجاج – وكان مع غَشْمِه وإلحاده واعظا بليغا مفوّها – خطب فقال : اللهمّ أرنى الغىّ غيّا فأجتنبَه ، وأرنى الهدى هدًى فأتّبعه ، ولا تكلْنى إلى نفسى فأضلّ

ضلالا بعيدا ؛ والله ما أحبّ أن ما مضى من الدنيا بعمامتى هذه ، ولَمَا بقىَ منها أشبه بما مضى من الماء بالماء .

وقال مالك بن دينار : غَدَوْتُ إلى الجمعة ، فجلست قريبا من المِنْبر ، فصَعِد الحجّاج ، فَسَمِعته يقول : امرؤ زَوَّرَ عمله ، امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ فكَّر فيما يقرؤه فى صحيفته ، ويراه فى ميزانه ، امرؤ كان عند قلبه زاجر ، وعند همّه آمر ، امرُؤ أخذ بعنان قلبه ، كما يأخذ الرجل بخطام جمله ، فإن قاده إلى طاعة الله تبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كفّه ؛ إننا والله ما خلقنا للفناء ؛ وإنّما خلقنا للبقاء ، وإنما ننتقل من دار إلى دار .

وخطب يوما[1] ، فقال : إن الله أمرَنا بطلب الآخرة ، وكفانا مئونة الدنيا ؛ فليتَه كفانا مئونة الآخرة ، وأمرنا بطلب الدنيا . فقال الحسنُ : ضالّة المؤمن خرجتْ من قلب المنافق .

ومن الكلام المنسوب إليه ، وأكثرُ الناس يروونه عن أمير المؤمنين عليه السلام : أيها الناس ، اقدعوا هذه الأنفس ؛ فإنها أسأل شىء إذا أعطيَت ، وأمنع لشىء إذا سُئِلَتْ ، فرَحِم الله امرأ جعل لنفسه خِطاما وزماما ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وعَطَفها بزمامها عن معصية الله ؛ فإنى رأيت الصبر عن محارم الله أيسرَ من الصبر على عذاب الله .

ومن كلامه : إن امرأ أتَتْ عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربَّه ، ويستغفر من ذنبه ، ويفكِّر فى معاده ، لجدير أن يطول حُزْنه ، ويتضاعف أسفُه . إن الله كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كُتِبَ عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه البقاء ؛ فلا يغرّنّكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقهَرُوا طولَ الأمل بقصَر الأجل .

(١) أى الحجاج .

ونقلت من " أمالي " أبي أحمد العسكريّ رحمه الله تعالى ؛ قال : خطب الحجاج يوما ، فقال : أيها الناس ، قد أصبحتم في أجلٍ منقوص ، وعمل محفوظ . ربّ دائب مُضيع، وساع لغيره . والموت في أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لما بين أيديكم ، فكأن ما قد مضى من الدّنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ؛ وكلّ ما ترونه فإنّه ذاهب. هذه شمس عاد وثمود وقرون كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التي طلعت على التبابعة والأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ! أين الملوكُ الأولون ! أين الجبابرةُ المتكبّرون ! المحاسبُ الله ، والصّراط منصوب ، وجهنم تَزْفِرُ وتتوقّد ، وأهل الجنة ينعَمون ، هم في روضة يُحْبَرون ، جعلنا الله وإياكم من الذين ، ﴿ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾[1] .

قال : فكان الحسن رحمه الله تعالى يقول : ألا تعجبون من هذا الفاجر ! يرقَى عَتَبات المنبر فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيفتك فتكَ الجبّارين ، يوافق الله في قوله ، ويخالفه في فعله !

* * *

[استطراد بلاغي في الكلام على المقابلة]

وأما ما ذكره الرضيّ رحمه الله تعالى من المقابلة بين السُّبْقَة والغاية ، فنكتة جيّدة من علم البيان ؛ ونحن نذكر فيها أبحاثا نافعة ، فنقول :

إمّا أن يُقابلَ الشيء ضدَّه أو ما ليس بضدّه .

فالأول كالسواد والبياض ؛ وهو قسمان :

أحدهما : مقابلة في اللفظ والمعنى .

(١) سورة الفرقان ٧٣ .

والثانى : مقابلة فى المعنى لا فى اللفظ .

أما الأول ، فكقوله تعالى : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾[1] ، فالضحك ضدّ البكاء ، والقليل ضدّ الكثير . وكذلك قوله تعالى : ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[2] . ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم : « خير المال عينٌ ساهرة لعين نائمة » . ومن كلام المؤمنين عليه السلام لعثمان : إن الحقّ ثقيلٌ مرىء ، وإن الباطل خفيف وبىء ؛ وأنت رجل إن صُدقتَ سَخِطت ، وإن كُذِبتَ رَضِيت .

وكذلك قوله عليه السلام لما قالت الخوارج : لا حكمَ إلا لله : « كلمة حق أريد بها باطل » .

وقال الحجاج لسعيد بن جُبَير لما أراد قتله : ما اسمك ؟ فقال : سعيد بنُ جُبَير ، فقال : بل شَقِىّ بن كُسَير .

• • •

وقال ابن الأثير فى كتابه المسمّى بـ « المثل السائر » : إن هذا النوع من المقابلة غيرُ مختصّ بلغة العرب ، فإنه لما مات قُباذ أحد ملوك الفرس ، قال وزيره : حرّكنا بسكونه .

وفى أول كتاب الفصول لبقراط فى الطبّ : العمر قصير والصناعة طويلة ، وهذا الكتاب على لغة اليونان[3] .

قلت : أىّ حاجة به إلى هذا التكلّف ! وهل هذه الدعوى من الأمور التى يجوز أن يعترىَ الشكّ والشبهة فيها ، لبأتىَ بحكاية مواضع من غير كلام العرب يحتج بها ! أليس كلّ قبيلة وكلُّ أمّة لها لغة تختص بها ! أليس الألفاظ دلالاتٍ على ما فى الأنفس

---

(١) سورة التوبة ٨٢ .
(٢) سورة الحديد ٢٣ .
(٣) المثل السائر ٢ : ٢٨٠ ، من فصل عقده للتناسب بين المعانى .

من المعانى ! فإذا خطر فى النفس كلام يتضمن أمرين ضدين فلا بد لصاحب ذلك الخاطر — سواء أكان عربيا أم فارسياً أم زنجياً أم حبشياً — أن ينطق بلفظ يدل على تلك المعانى المتضادة ، وهذا أمر يعم العقلاء كلهم ؛ على أن تلك اللفظة التى قالها ، ما قيلت فى موت قُباذ ، وإنما قيلت فى موت الإسكندر ، لما تكلمت الحكماء وهم حول تابوته بما تكلموا به من الحكم

* * *

ومما جاء من هذا القسم من المقابلة فى الكتاب العزيز قوله تعالى فى صفة الواقعة : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ [1] ؛ لأنها تخفض العاصين ، وترفع المطيعين .

وقوله تعالى : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [2] .

وقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [3] .

ومن هذا الباب قول النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » .

ومما جاء من ذلك فى الشعر قول الفرزدق يهجو قبيلة جرير :

يَسْتَيْقِظُونَ إِلَى نَهِيقِ حَمِيرِهِمْ ... وَتَنَامُ أَعْيُنُهُمْ عَنِ الْأَوْتَارِ [4]

وقال آخر :

فَلَا الْجُودُ يُفْنِى الْمَالَ وَالْجَدُّ مُقْبِلٌ ... وَلَا الْبُخْلُ يُبْقِى الْمَالَ وَالْجَدُّ مُدْبِرُ [5]

---

(١) سورة الواقعة ٣ .
(٢) سورة الحديد ١٣ .
(٣) سورة المائدة ٥٤ .
(٤) ديوانه : ٤٥ ، وروايته : « إلى نهاق حميرهم » .
(٥) فى المثل السائر ٢ : ٢٨٣ من غير نسبة .

وقال أبو تمام :

ما إنْ تَرَى الأحْسابَ بِيضاً وُضَّحاً   إلّا بحيثُ تَرَى المنَـايا سُودَا [١]

[وكذلك قال من هذه القصيدة أيضا] [٢] :

شَرَفٌ عَلَى أُولَى الزَّمَانِ وإنَّمَا   خَلَقُ المَنَاسِبِ مايكون جَـدِيدَا [٣]

وأما القسم الثانى من القسم الأول ؛ وهو مقابلةُ الشىء بضدِّه بالمعنى لا باللفظ ، فكقول المقنع الكندى :

لَهُمْ جُلُّ مَالِى إنْ تَتَابَعَ لِى غِنًى   وإنْ قَلَّ مَالِى لا أُكَلِّفُهُمْ رِفْدَا [٤]

فقوله : « إن تتابع لى غنًى » فى قوة قوله : « إن كَثُرَ مالى » ، والكثرة ضدُّ القلة، فهو إذنْ مقابل بالمعنى لا باللفظ بعينه .

ومن هذا الباب قول البحترى :

تَقَيَّضُ لِى مِنْ حَيْثُ لا أعلمُ النَّوَى   وَيَسْرِى إلَى الشوقُ مِنْ حَيْثُ أَعلمُ [٥]

فقوله : «لا أعلم » ليس ضدًّا لقوله : « أعلم » ؛ لكنه نقيضٌ له ؛ وفى قوة قوله: « أجهل » ، والجهل ضدُّ العلم .

ومن لطيف ماوقعت المقابلة به من هذا النوع قولُ أبى تمام :

مَهَا الوحْشِ إلّا أنَّ هَاتَا أوانِسٌ   قَنَا الخَطِّ إلا أنَّ تِلْكَ ذَوَابِلُ [٦]

---

(١) ديوانه ١ : ٤٢٢ .

(٢) تكملة من كتاب المثل السائر .

(٣) ديوانه ١ : ٤١٩ .

(٤) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٢ : ١١٨٠ .

(٥) ديوانه ٢ : ٢٢٩ .

(٦) ديوانه ٣ : ١١٦ ، قال الصولى فى شرحه يقول : « هن كمَهَا الوحش فى تهاديهن وحسن عيونهن ؛ وهن كقنا الخط فى القد ، إلا أن القنا ذوابل ؛ وهن طراء . وقيل للقنا: ذوابل ؛ لأنها تلين عند الطعن فلا تنكسر » .

تقابل بين « هاتا » وبين « تلك » ، وهي مقابلة معنوية لا لفظية ؛ لأن « هاتا » للحاضرة ، و « تلك » للغائبة ، والحضور ضد الغيبة .

وأما مقابلة الشيء لما ليس بضده ، فإما أن يكون مثلاً أو مخالفاً .

والأول على ضربين : مقابلة المفرد بالمفرد ، ومقابلة الجملة بالجملة .

مثال مقابلة المفرد بالمفرد قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾[2] ، هكذا قال نصر الله ابن الأثير[3] .

قال : وهذا مراعى في القرآن الكريم إذا كان جواباً كما تقدم من الآيتين ، وكقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[4] ، وقوله : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾[5] .

قال : وقد كان يجوز أن يقول : « من كفر فعليه ذنبه » ، لكن الأحسن هو إعادة اللفظ ، فأما إذا كان غير جواب لم تلزم فيه هذه المراعاة اللفظية ، بل قد تقابل اللفظة بلفظة تفيد معناها ، وإن لم تكن هي بعينها ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[6] ، فقال : « يفعلون » ولم يقل « يعملون » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾[7] ، ولم يقل : « قالوا لا تفزع » .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾[8] ، ولم يقل : « كنتم تخوضون وتلعبون » .

---

(١) سورة الحشر ١٩ .
(٢) سورة النمل ٥٠ .
(٣) المثل السائر ٢ : ٢٩٧ ، ٢٩٨ .
(٤) سورة الشورى ٤٠ .
(٥) سورة الروم ٤٤ .
(٦) سورة الزمر ٧٠ .
(٧) سورة ص ٢٢ .
(٨) سورة التوبة ٦٥ .

قال : ونحو ذلك من الأبيات الشعرية قولُ أبي تمام :

بَسَطَ الرَّجاءُ لَنا بِرَغْمِ نوائبٍ كَثُرَتْ بِهِنَّ مَصارِعُ الآمالِ[١]

فقال : « الآمال » عوض « الرجاء » ، قال أبو الطيب :

إنّي لأعْلَمُ واللَّبِيبُ خَبِيرُ أنّ الحياةَ ـ وإن حَرَصْتَ ـ غُرُورُ[٢]

فقال : « خبير » ولم يقل : « عليم » .

قال : وإنما حَسُن ذلك ، لأنه لَيس بجواب ؛ وإنما هو كلام مبتدأ .

قلت : الصّحيح أنّ هذه الآيات، وهي قوله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنساهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ وما شابهها ليست من باب المقابلة التي نحن في ذكرها ، وأنّها نوع آخر ؛ ولو سُمِّيت المماثلة أو المكافأة لكان أولى؛ والدليل على ذلك أنّ هذا الرجل حدّ المقابلة في أول الباب الذي ذُكِر هذا البحث فيه ، فقال : إنها ضدُّ التجنيس ؛ لأنّ التجنيس أن يكونَ اللفظُ واحداً مختلف المعنى ؛ وهذه لابدّ أن تتضمّن معنيين ضدّين ، وإن كان التضادّ مأخوذا في حدّها ، فقد خرجت هذه الآيات من باب المقابلة ، وكانت نوعا آخر .

وأيضاً فإنّ قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ ليس من سِلْك الآيات الأخرى؛ لأنه بالواو والآيات الأخرى بالفاء ، والفاء جواب، والواو ليست بجواب .

وأيضا ، فإنّا إذا تأملنا القرآن العزيز لم نجد ماذكره هذا الرجل مطّردا ، قال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾[٣]، فلم يقل في الثانية : « وأمّا من جاءك يسعى وهو فقير » .

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن

---

(١) ديوانه ٣ : ١٥١ .

(٢) ديوانه ٢ : ١٢٨ .

(٣) سورة عبس ٥ ـ ١٠ .

بَخِلَ وَاسْتَغْنَى • وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى »[1]، فقابل بين « أعطى » و« بخل » ولم يقابل بين « اتقى » و « استغنى » ، ومثل هـذا فى القرآن العزيز كثير ؛ وأ كثر من الكثير .

وقد بانَ الآن أنَّ التقسيمَ الأوَّل فاسد، وأنه لامقابلة إلا بين الأضداد وما يجرى مجراها.

وأمّا مقابلةُ الجملة بالجملة فى تقابل المتماثلين ، فإنه إذا كانتْ إحداهما فى معنى الأخرى وقعت المقابلة ؛ والأغلب أن تُقابَل الجملةُ الماضية بالماضية ، والمستقبلةُ بالمستقبلة .

وقد تُقابَل الجملة الماضية بالمستقبلة؛ فمن ذلك قوله تعالى: « قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي »[2]، فإن هذا تقابل من جهة المعنى؛ لأنه لو كان من جهة اللفظ لقال : « وإن اهتديت فإنما أهتدى لها » .

ووجه التقابلِ المعنوىّ، هو أن كلَّ ما هو للنفس فهو بها، أعنى كلَّ ما هو عليها وبالٌ وضرر فهو منها وبسببها ؛ لأنها الأمَّارة بالسوء ، وكلّ ما لها مما ينفعها فهو بهداية ربِّها وتوفيقه لها .

ومن ذلك قوله تعالى : « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا »[3]، فإنه لم يراع التقابلَ اللفظىّ ، ولو راعاه لقال : والنهار ليبصروا فيه، وإنما المراعاة لجانب المعنى ؛ لأنّ معنى « مبصرا » ليبصروا فيه طرق التقلّب فى الحاجات .

وأما مقابلةُ المخالف ؛ فهو على وجهين :

أحدهما : أن يكون بين المقابِل والمقابَل نوع مناسبة وتقابُل ، كقول القائل :

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أهلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إساءةِ أهْــلِ السُّوءِ إحْسَانَا[4]

---

(١) سورة الليل ٥ — ١٠ .
(٢) سورة سبأ ٥٠ .
(٣) سورة النمل ٨٦ .
(٤) لأنيف بن قريط العنبرى من أبيات فى ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ١ : ٢٢ .

فقابل الظلم بالمغفرة ، وهي مخالفة له ، ليست منه ولا ضدّه ، وإنما الظلم ضدّ العدل؛ إلا أنه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسُنت المقابلة بينها وبين الظلم ؛ ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1]، فإنّ الرحمة ليست ضدًّا للشدّة، وإنما ضدّ الشدة اللين ؛ إلا أنه لما كانت الرحمة سبباً للين حسُنت المقابلة بينها وبين الشدّة .

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا﴾[2]، فإنّ المصيبة أخصّ من السيئة ؛ فالتقابل هاهنا من جهة العموم والخصوص .

الوجه الثاني : ما كان بين المقابِل والمقابَل بُعْد؛ وذلك مما لا يحسُن استعماله ، كقول امرأة من العرب لابنها ، وقد تزوج بامرأة غير محمودة :

تَرَبَّصْ بِهَا الأَيَّامَ عَلَّ صُرُوفَهَا ... سَتَرْمِي بِهَا فِي جَاحِمٍ مُتَسَعِّرِ[3]

فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ قَدْ مَنَاهُ إِلَهُهُ ... بِمَذْمُومَةِ الأَخْلَاقِ وَاسِعَةِ الحِرِ

« مذمومة » ليست في مقابلة « واسعة »، ولو كانت قالت: « بضيّقة الأخلاق »، كانت المقابلة صحيحة ، والشعر مستقيماً . وكذلك قول المتنبي :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ مَسَاءَةَ مُجْرِمِ ![4]

فالمقابلة الصحيحة بين المحبّ والمبغض ؛ لا بين المحبّ والمجرم .

قلت : إنّ لقائلٍ أن يقول : هلّا قلت في هذا ما قلت في السيئة والمصيبة ! ألستَ القائل : إن التقابُل حسَنٌ بين المصيبة والسيئة ، لكنه تقابُل العموم والخصوص ! وهذا الموضع مثله أيضا ، لأنّ كل مبغض لك مجرم إليك ، لأنّ مجرد البغضة جُرْم ، فبينهما عموم وخصوص .

بل لقائل أن يقول : كلُّ مُجْرِمٍ مُبْغِض ، وكلُّ مُبْغِض مُجْرِم ، وهذا صحيح مطّرد.

---

(١) سورة الفتح ٢٩ .

(٢) سورة التوبة ٥٠ .

(٣) من أبيات نسبها أبو تمام في الحماسة بشرح التبريزي (٤ : ٣٤) إلى أم النحيف . والجاحم : النار الشديدة التأجج .

(٤) ديوانه ٤ : ١٤١ .

(٢٩)

الأصل:

ومن خطبة له عليه السلام:

أَيُّها النَّاسُ، الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُم، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ، كَلَامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلَابَ؛ وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْدَاءَ.

تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ! مَاعَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ. أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ؛ دِفَاعُ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ.

لَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ، وَلَا يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ.

أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ! وَمَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ! الْمَغْرُورُ وَاللهِ مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَقَدْ فَازَ وَاللهِ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ نَاصِلٍ.

أَصْبَحْتُ وَاللهِ لَا أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلَا أُوعِدُ الْعَدُوَّ بِكُمْ.

مَا بَالُكُمْ؟ مَا دَوَاؤُكُمْ؟ مَا طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجَالٌ أَمْثَالُكُمْ.

أَقَوْلاً بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ، وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ!

* * *

الشرح:

حِيدِي حَيَادِ، كلمة يقولها الهارب الفار، وهي نظيرة قولهم: «فيحي فَيَاحِ» [١]،

---

(١) في اللسان: فياح مثل قطام: اسم الغارة، وكان يقال الغارة في الجاهلية: فيحي فياح، وذلك إذا دفعت الخيل المغيرة فاتسعت.

أى اتَّسعى ، وصَمِّى صَمامِ ، للداهيـة[1] . وأصلُها من حاد عن الشىء ، أى انحرفَ ، وحَيادِ ، مبنيّةٌ على الـكسر ، وكذلك ما كان من بابهـا ، نحو قولهم : بَدَارِ ، أى ليأخذْ كلٌّ واحدٍ قِرْنَه . وقولهم : خَرَاجِ فى لعبة الصبيان ، أى اخرجوا .

والباء فى قوله : « بأضاليل » متعلقة بـ « أعاليل » نفسها ، أى يتعلّلون بالأضاليل التى لاجَدْوَى لها .

والسّهم الأفْوَق : المـكسور الفُوق ، وهو مَدْخَل الوتَر . والناصل : الذى لانَصْل فيه ؛ يخاطبهم فيقول لهم : أبدانـكم مجتمعة وأهواؤكم مختلفة ، متكلّمون بما هو فى الشدّة والقوة يُوهِى الجبال الصّمّ الصلبة ، وعند الحرب يظهر أنّ ذلك الـكلام لم يكن له ثمرة.

تقولون فى المجالس كَيْتَ وكَيْتَ ، أى سنفعل وسنفعل ، وكَيْتَ وكَيْتَ كناية عن الحديث ، كما كُنِىَ بفلان عن العَلَم ، ولا تستعمل إلا مكرَّرة ، وهما مخفّفان من « كَيّة » وقد استعملتْ على الأصـل ، وهى مبنيّة على الفتح . وقد رَوَى أئمة العربية فيهـا الضمّ والـكسر أيضا .

فإذا جاء القتال فررتم وقلتم : الفرارِ الفرارِ .

ثم أخذ فى الشكوى ، فقال : مَنْ دعاكم لم تعزّ دعوتُه ، ومَن قاساكم لم يسترِحْ قلبُه . دأبُـكم التعلّل بالأمور الباطلة ، والأمانىّ الـكاذبة . وسألتمونى الإرْجاء ، وتأخُّر الحرب كمن يطُل بدَين لازم له . والضَّيْم لايدفعه الذليل ، ولا يدرَك الحقّ إلا بالجدّ فيـه والاجتهاد وعدم الانكماش .

وباقى الفصل ظاهر المعنى .

---

(١) صمى صمام ، أى زيدى .

وقوله : « القوم رجال أمثالكم » مثل قول الشاعر :

قَاتِلوا القومَ يا خُـزَاعَ وَلَا يَدْخُلْكُمْ من قتالِهِمْ فَشَلُ
القومُ أمثالُكُمْ لَهُمْ شَعَرٌ في الرَّأْسِ لا يُنْشَرون إن قُتِلوا

* * *

وهذه الخطبة خطب بها أمير المؤمنين عليه السلام فى غارة الضحاك بن قيس ، ونحن نقصّها هنا :

* * *

[غارة الضحاك بن قيس ونتف من أخباره]

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الثقفيّ فى كتاب « الغارات » قال : كانت غارة الضّحاك بن قيس بعد الحكَمَين ، وقبل قتال النَّهْرَوَان ، وذلك أنّ معاوية لمّا بلغه أنّ عليًّا عليه السلام بعد واقعة الحكمين تحمّل إليه مُقبلًا ، هاله ذلك ، فخرج من دِمَشْق معسكراً ، وبعث إلى كُور الشام ، فصاح بها[1] : إنّ عليًّا قد سار إليكم . وكتب إليهم نسخة واحدة ، فقرِئتْ على الناس :

أمّا بعد ، فإنّا كنا كتبْنا كتابًا بيننا وبين علىّ ، وشرطْنا فيه شروطا ، وحكّمْنا رجُلين يحكُمان علينا وعليه بحُكْم الكتاب لا يعدوانه ، وجعلْنا عهدَ الله وميثاقَه على مَنْ نكث العهد ولم يُمضِ الحكْم ، وإنّ حَكَمِى الذى كنت حكّمْتُهُ أثبتنى ، وإنّ حكَمه خلعه ، وقد أقبل إليكم ظالما ، ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[2] ، تجهّزوا للحرب بأحسن الجهاز ، وأعدّوا آلة القتال ، وأقبلوا خِفافًا وثقالًا ، يسّرنا الله وإيّاكم لصالح الأعمال !

---

(١) ب : « فيها » .

(٢) سورة الفتح ١٠ .

فاجتمع إليه الناس من كل كُورة [1] وأرادوا المسيرَ إلى صِفين ، فاستشارهم ، وقال : إنّ عليًّا قد خرج من الكوفة ، وعَهْد العاهد به أنّه فارق النُّخَيْلة [2] .

فقال حبيب بن مسلمة : فإنّى أرى أن نخرج حتى ننزل منزلنا الذى كنّا فيه ، فإنّه منزل مبارك ، وقد متّعنا الله به وأعطانا من عدوّنا فيه النَّصَف .

وقال عمرو بن العاص : إنى أرى لك أن نسيرَ بالجنود حتى تُوغِلَها فى سلطانهم من أرض الجزيرة ، فإنّ ذلك أقوى لجندك ، وأذلّ لأهلِ حَرْبك . فقال معاوية : والله إنى لأعرف أنّ الذى تقول كما تقول ، ولكنّ الناس لا يطيقُون ذلك . قال عمرو : إنها أرضٌ رفيقة ، فقال معاوية : إنّ جهدَ الناس أن يَبْلُغوا منزلهم الذى كانوا به — يعنى صِفّين .

فمكثوا يُجِيلون الرأىَ يومين أو ثلاثة ، حتى قدِمت عليهم عيونُهم أن عليًّا اختلف عليه أصحابُه ففارقته منهم فرقة أنكرت أمر الحُكومة ، وأنه قد رجع عنكم إليهم . فكبّر الناس سُروراً لانصرافه عنهم ، وما ألقى الله عز وجل من الخلاف بينهم . فلم يَزَلْ معاوية مُعَسْكِراً فى مكانه ، منتظراً لما يكون من علىٍّ وأصحابه ، وهل يُقبل بالناس أم لا ؟ فما برح حتى جاء الخبر أن عليًّا قد قَتَل أولئك الخوارج ، وأنّه أراد بعد قتلهم أن يُقبل بالناس ، وأنهم استنظروه ودافعوه . فسُرّ بذلك هو ومَن قِبَله من الناس .

قال : ورَوى ابنُ أبى سيف [3] ، عن يزيد بن يزيد بن جابر ، عن عبد الرحمن بن مسعدة الفزارىّ ، قال : جاءنا كتاب عُمارة بن عُقْبة بن أبى مُعَيْط ، وكان بالكوفة مقيما ، ونحن معسكرون مع معاوية ، نتخوف أن يفرُغ علىٌّ من الخوارج ثم يُقبل إلينا ، ونحن نقول : إن أقبلَ إلينا كان أفضلُ المكانِ الذى نستقبله به المكانَ الذى لقيناه فيه العام الماضى . فكان فى كتاب عُمارة بن عُقْبة : أما بعد ! فإنّ عليًّا خرج عليه قرّاء

(١) الكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر ، يجمع اسمها . معجم البلدان ١ : ٣٦ .

(٢) النخيلة : موضع قرب الكوفة .

(٣) كذا فى أ ، ح ، وفى ب : « سفيان » .

أصحابه ونُسَّاكهم ، فخرج إليهم فقتلهم، وقد فسد عليه جندُه وأهلُ مصره ، ووقعت بينهم العداوة ، وتفرقوا أشدَّ الفرقة ، وأحببت إعلامَك لتحمَد الله ، والسلام .

قال عبد الرحمن بن مَسْعدة : فقرأه معاوية على وجه أخيه عُتْبة ، وعلى الوليد ابن عُقْبة ، وعلى أبي الأعور السُّلَمِيّ ؛ ثم نظر إلى أخيه عُتبة وإلى الوليد بن عُقبة ، وقال للوليد : لقد رَضِيَ أخوك أن يكونَ لنا عينا . فضحك الوليد وقال : إنّ في ذلك أيضاً لَنَفعًا .

وروى أبو جعفر الطبريّ ، قال : كان عُمارة مُقيما بالكوفة بعد قَتْل عثمان ، لم يهجْه علىّ عليه السلام ولم يَذْعَرْه ، وكان يكتب إلى معاوية بالأخبار سرًّا .

ومن شعر الوليد لأخيه عُمارة يحرّضه :

إنْ يَكُ ظَنّي في عُمارَةَ صادِقًا ... يَنَمْ ثُمّ لا يطلُبْ بذَحْلٍ ولا وِتْرِ [1]
يَبِيتُ وأوتارُ ابنِ عَفّانَ عِنْدَهُ ... مُخَيِّمةٌ بين الخَوَرْنَقِ فالقَصْرِ
تمشّى رَخِيَّ البالِ مُسْتَشْزِرَ القُوَى ... كأنّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِقَتْلِ أبي عَمْرو [2]
ألَا إنّ خيرَ النّاسِ بعد ثَلاثةٍ ... قتيلُ التُّجِيبيّ الّذي جاءَ مِنْ مِصْرِ [3]

قال : فأجابه الفضل بن العباس بن عتبة [4] :

أتَطْلُبُ ثأراً لستَ منه ولا لَهُ ... وما لابنِ ذَكْوانَ الصَّفُورِيّ والوِتْرِ [5]

---

(١) تاريخ الطبري ٤ : ٤٢٦ ؛ مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات . والوتر والذحل : الثأر .

(٢) لم يذكره في الطبري ، ومستشزر القوى : مستحكم ، وأصله في الحبل المفتول .

(٣) التجيبي ؛ هو كنانة بن بشر بن عتاب الرياحي ؛ أحد قتلة عثمان ؛ قال الطبري : « ضرب كنانة ابن بشر جبينه ومقدم رأسه بعمود حديد ، فخر لجبينه » (٦ : ١٣٢) .

(٤) في الأصول : « عبد المطلب » ، وهو خطأ .

(٥) الطبري :

* وأينَ ابنُ ذَكْوانَ الصَّفُورِيُّ مِنْ عَمْرِو *

كما افتخرتْ بنتُ الحمـــار بأمّها وتنسى أباها إذ تَسامى أولو الفَخْرِ [١]

ألا إنّ خيرَ النّاس بعـــــد نبيهمْ وصِيُّ النبي المصطفى عند ذِي الذِّكْرِ [٢]

وأولُ مَنْ صَـــلَّى وصِنْوُ نبيِّه وأولُ مَنْ أردَى الغُواةَ لدى بَدْرِ [٣]

أما معنى قوله : « وما لابن ذكوان الصَّفُّورِيِّ » ، فإنّ الوليدَ ، هو ابن عُقْبة ابن أبي مُعَيْط بن أبي عمرو ، واسمه ذَكْوان بن أمية بن عبد شمس . وقد ذكَرَ جماعة من النسّابين أنّ ذكوان كان مولًى لأمية بن عبد شمس ، فتبنّاه وكنّاه أبا عمرو ، فبنُوه مَوالٍ وليسوا من بني أمية لِصُلْبه . والصَّفُّوري : منسوب إلى صَفُّوريَة ؛ قرية من قرى الروم .

•••

قال إبراهيم بن هلال الثقفي : فبعد ذلك دعا معاوية الضَّحّاك بن قيس الفِهْرِيّ ، وقال له : سِرْ حتى تمرّ بناحية الكوفة وترتفعَ عنها ما استطعت ، فمَنْ وجدْتَه من الأعراب في طاعة عليّ فأغِرْ عليه ، وإن وجدتَ له مَسْلَحَةً [٤] أو خيلا فأغِرْ عليها ، وإذا أصبحتَ في بلدة فأمسِ في أخرى ، ولا تُقيمنّ لخيلٍ بلغك أنّها قد سُرّحت إليك لتلْقاها فتقاتلها . فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف .

فأقبل الضّحّاك ، فنهب الأموال وقتل مَنْ لقِيَ من الأعراب ، حتى مرّ بالثَّعْلَبِيَّة [٥]

---

(١) رواية الطبري :

كَمَا انْتَمَتْ بِنْتُ الحِمَارِ بِأُمِّهَا وَتَنْسَى أبَاهَا إذْ تُسَامِي أولي الفَخْرِ

(٢) الطبري : « بعد محمد » .

(٣) بعده في الطبري :

فَلَوْ رَأَتِ الأنصارُ ظُلْمَ ابْنِ عَمِّكُمْ لَكانُوا لَهُ مِنْ ظُلْمِهِ حاضِرِي النَّصْرِ

كَفَى ذَاكَ عَيْبًا أنْ يُشِيرُوا بِقَتْلِهِ وَأنْ يُسْلِمُوهُ لِلأحَابِيشِ مِنْ مِصْرِ

(٤) المسلحة هنا : القوم ذوو سلاح .

(٥) الثعلبية : من منازل طريق مكة إلى الكوفة .

فأغار على الحاجّ ، فأخذ أمتعتهم ، ثم أقبل فالتقى عمرو بن عُميس بن مسعود الهُذليّ ، وهو ابن أخي عبدالله بن مسعود ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقتله في طريق الحاجّ عند القُطْقُطانة [1] . وقتل معه ناسا من أصحابه .

قال : فروى إبراهيم بن مبارك البجليّ عن أبيه ، عن بكر بن عيسى ، عن أبي رَوْق ، قال : حدّثني أبي ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام ، وقد خرج إلى الناس ، وهو يقول على المنبر :

يا أهلَ الكوفة ، اخرُجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس ، وإلى جيوش لكم قد أُصيب منهم طَرَف ، اخرجوا فقاتلوا عدوّكم ، وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين .

فردّوا عليه ردًّا ضعيفاً ، ورأى منهم عجزاً وفشلا ، فقال : والله لوددت أنّ لي بكلّ ثمانية منكم رجلا منهم ! ويحكم اخرجوا معي ، ثم فِرّوا عنّي ما بدا لكم ! فوالله ما أكره لقاء ربّي على نيّتي وبصيرتي ، وفي ذلك رَوْح لي عظيم ، وفَرَج من مناجاتكم ومقاساتكم . ثم نزل .

فخرج يمشي حتى بلغ الغَرِيَّيْن ، ثم دعا حُجْر بن عديّ الكِنْديّ ، فعقد له على أربعة آلاف .

وروى محمد بن يعقوب الكُلَيْنيّ ، قال : استصرخ أمير المؤمنين عليه السلام الناسَ عَقِيبَ [1] غارة الضحاك بن قيس الفهريّ على أطراف أعماله ، فتقاعدوا عنه ، فخطبهم فقال : ما عزّتْ دعوةُ مَنْ دعاكم ، ولا استراح قلبُ مَنْ قاساكم . . . الفصل إلى آخره .

* * *

قال إبراهيم الثقفيّ : فخرج حُجْر بن عديّ حتى مرّ بالسَّماوة — وهي أرض كلب —

---

(١) قال في الصباح : « وأما عقيب مثال كريم فاسم فاعل من قولهم : عاقبه معاقبة وعقبه تعقيبا ، فهو معاقب ومعقب وعقيب » .

فلقىَ بها امرأ القيس بن عدىّ بن أوس بن جابر بن كعب بن عُلَيم الكلبىّ ـ وهو أصهارُ الحسين بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ـ فكانوا أدلاّءه فى الطريق وعلى المياه، فلم يزل مُغِذًّا فى أثر الضحّاك، حتى لقيَه بناحية تَدْمُر، فواقعه فاقتتلوا ساعة، فقتِل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلا، وقُتِل من أصحاب حُجر رجلان، وحجز الليل بينهم. فمضى الضّحاك، فلما أصبحوا لم يجدوا له ولأصحابه أثرا. وكان الضّحاك يقول بعد: أنا ابنُ قيس، أنا أبو أنيس! أنا قاتل عمرو بن عُمَيْس.

* * *

قال: وكتب فى أثر هذه الوقعة عَقِيل بن أبى طالب إلى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام، حين بلغه خِذْلان أهل الكوفة، وتقاعدهم به:

لعبد الله علىّ أمير المؤمنين عليه السلام من عَقيل بن أبى طالب. سلام عليك، فإنّى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد؛ فإنّ الله حارِسُك من كلّ سوء، وعاصمُك من كلّ مكروه، وعلى كلّ حال؛ إنى قد خرجت إلى مكة معتمرا، فلقيت عبدَ الله بن سعد بن أبى سَرْح فى نحو من أربعين شابًّا من أبناء الطُّلَقاء، فعرفتُ المنكرَ فى وجوههم، فقلت: إلى أين يا أبناء الشانئين! أبمعاوية تلحقون! عداوة والله منكم قديما غيرُ مستنكَرة! تريدُون بها إطفاء نور الله، وتبديلَ أمره. فأسمَعنى القومُ وأسمعتُهم، فلما قدِمتُ مكة، سمعت أهلَها يتحدثون أنّ الضّحاك بن قيس أغار على الحيرة، فاحتمل من أموالها ما شاء، ثم انكفأ راجعاً سالما. فأفٍّ لحياةٍ فى دهر جرّأ عليك الضّحاك! وما الضحاك! فَقعٌ بقَرقَر[1]! وقد توهّمت حيث بلغنى ذلك أنّ شيعتك وأنصارك خذلوك فاكتب إلىّ يابن أمّى برأيك، فإن كنتَ الموتَ تريد، تحمّلت إليك ببنى أخيك،

---

(١) القرقر: الأرض المستوية، والفقع: ضرب من أردأ الكمأة، يقال للرجل الذليل: هو فقع قرقر؛ لأن الدواب تنجله بأرجلها.

وولد أبيك ، فعِشنا معك ما عشت ، ومِتْنا معك إذا متّ ؛ فوالله ما أحبّ أن أبقى في الدنيا بعدك فُوَاقاً[1] .

وأقسم بالأعزّ الأجلّ ، إنّ عيشاً نعيشه بعدك في الحياة لغير هنيء ، ولا مريء ، ولا نجيع ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته[2] .

* * *

فكتب إليه عليه السلام : من عبد الله علي أمير المؤمنين : إلى عقيل بن أبي طالب . سلام الله عليك ، فإني أحمَدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أمّا بعد : كلأنا الله وإياك كلاءة مَنْ يخشاه بالغيب ، إنه حميد مجيد . قد وصل إليّ كتابُك مع عبد الرحمن بن عبيد الأزدي ، تذكر فيه أنك لقيتَ عبد الله بن سَعْد بن أبي سَرْح مقبلا من قُدَيْد[3] في نحو من أربعين فارساً من أبناء الطلقاء ، متوجِّهين إلى جهة الغرب . وإنّ ابن أبي سَرْح طالما كاد الله ورسوله وكتابه ، وصدّ عن سبيله وبغاها عِوَجاً ؛ فدع ابنَ أبي سرح ، ودعْ عنكَ قريشاً ، وخلِّهم وترْكاضَهم في الضلال ، وتجوالهم في الشقاق . ألا وإنّ العرب قد أجمعتْ على حرب أخيك اليوم إجماعَها على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله قبل اليوم ، فأصبحوا قد جهلوا حقّه ، وجحدوا فضله ، وبادروه العداوة ، ونصبوا له الحرب ، وجهدوا عليه كلّ الجهد ، وجرُّوا إليه جيش الأحزاب . اللهمّ فاجز قريشاً عنّي الجوازي[4] ! فقد قطعتْ رَحِمي ، وتظاهرَتْ عليّ ، ودفعتني عن حقّي ، وسلبتني سلطانَ ابن أمّي ، وسلّمت ذلك إلى مَنْ ليس مثلي في قرابتي من الرسول ، وسابقتي في الإسلام ؛ إلاّ أنْ يَدَّعيَ مدّعٍ ما لا أعرفه ، ولا أظنّ الله يعرفه ، والحمد لله على كل حال .

فأمّا ما ذكرتَه من غارة الضّحاك على أهل الحيرة ، فهو أقلّ وأزلّ من أن يلمّ بها

(١) الفواق : قدر ما بين الحلبتين . (٢) الأغاني ١٦ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ — بيروت .

(٣) ...

(٣) الجوازي : جمع جازية ؛ وهي المكافأة على الشيء .

أو يدنُو منها؛ ولكنّه قد كان أقبل فى جريدة خيل ، فأخذ على السَّماوة ، حتى مرّ بواقِصة [١] وشَرَاف [٢] والقُطْقُطانة ؛ مما والى ذلك الصُّقْع ، فوجهت إليه جندا كثيفاً من المسلمين ، فلما بلغه ذلك فرّ هاربا ، فاتّبعوه فلحقوه ببعض الطريق وقد أمعن ، وكان ذلك حين طفّلت [٣] الشمس للإياب ، فتناوشوا القتال قليلا كلا ولا [٤] ، فلم يصبر لوقع المشرفيّة [٥] وولّى هاربا ، وقتل من أصحابه بضعة عشر رجلا ، ونجا جَرِيضا [٦] بعد ما أخذ منه بالمخنق ، فلأيا بلأيٍ ما نجا . فأمّا ما سألتنى أن أكتبَ لك برأيى فيما أنا فيه ، فإنّ رأيى جهادُ المحلّين حتى ألقى الله ، لا يزيدنى كثرةُ الناس معى عِزّة ، ولا تفرّقُهم عنّى وَحشة ، لأنى محقّ والله مع المحقّ ؛ ووالله ما أكره الموت على الحقّ وما الخيرُ كلّه إلا بعد الموت لمن كان محقًّا.

وأما ما عرضت به من مَسيرك إلىّ ببنيك وبنى أبيك فلا حاجة لى فى ذلك ؛ فأقم راشداً محموداً ، فوالله ما أحبّ أن تهلكوا معى إن هلكت ، ولا تحسَبَنّ ابنَ أمك — ولو أسلمه الناس — متخشّعا ولا متضرّعا ، إنه لكما قال أخو بنى سُلَيم [٧] :

فإنْ تسأليني كيفَ أنتَ فإنّني ... صَبورٌ على رَيْبِ الزمان صَليبُ

يعزّ علىّ أنْ تُرَى بى كآبةٌ ... فيشمتَ عادٍ أو يُساء حَبيبُ

• • •

قال إبراهيم بن هلال الثقفىّ : وذكر محمد بن مخنف أنه سمع الضّحّاك بن قيس بعد ذلك بزمان يخطُب على منبر الكوفة ، وقد كان بلغه أنّ قوما من أهلها يشتِمون عثمان

---

(١) واقصة : منزل فى طريق مكة .

(٢) شراف ، بفتح أوله : موضع قريب من واقصة فى طريق مكة أيضاً .

(٣) طفلت الشمس : مالت إلى المغيب .

(٤) قال فى اللسان : العرب إذا أرادوا تقليل مدة فعل قالوا : كان فعله كلا ، وربما كرروا فقالوا : كلا ولا (٢٠ : ٣٧٥) .

(٥) المشرفية : السيوف ؛ منسوبة إلى مشارف الشام ، قرى من أرض العرب تدنو من الريف .

(٦) جريضا : مجهودا يكاد يقضى .

(٧) هو صخر بن العمريد السلمى .

ويبرءون منه ، قال : فسمعتُه يقول : بلغنى أنّ رجالا منكم ضُلّالا يشتِمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافَنا الصالحين ؛ أما والّذى ليس له نِدّ ولا شريك ؛ لئن لم تنتهوا عمّا يبلغنى عنكم ، لأضعَنّ فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدونى ضعيف السَّوْرة[1] ، ولا كليلَ الشَّفْرة. أما إنى لصاحبُكم الّذى أغرتُ على بلادكم ، فكنتُ أوّلَ مَنْ غزاها فى الإسلام، وشرب من ماء الثّعْلَبِيّة ومن شاطئ الفرات ، أعاقِب مَنْ شِئت ، وأعفو عمن شئت ؛ لقد ذعَرتُ المخدّراتِ[2] فى خُدورِهِنّ ، وإن كانت المرأة ليبكى ابنُها فلا تُرْهِبُه ولا تسكّته إلا بذكر اسمى. فاتّقوا الله يا أهلَ العراق ؛ أنا الضّحاك بن قيس ، أنا أبو أُنَيس ، أنا قاتل عمرو بن عُميس!

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : صدقَ الأمير وأحسن القول ، ما أعرَفَنا والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك بغربِىّ تَدْمُر ، فوجدناك شجاعا مجرّبا صبورا . ثم جلس وقال : أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أوّل ما قدِم ! وايمُ الله لأذكّرنه أبغضَ مواطنه إليه. قال . فسكتَ الضحاك قليلا ، وكأنه خَزِىَ واستحيا ، ثم قال : نعم كان ذلك اليوم! فأخذه بكلام ثقيل ، ثم نزل .

قال محمد بن مِخْنف : فقلت لعبد الرحمن بن عبيد ـ أو قيل له : لقد اجترأتَ حين تذكّره هذا اليوم ، وتُخبره أنك كنت فيمن لقيه ! فقال : لَنْ يُصيبنا إلّا ما كتبَ الله لنا .

قال : وسأل الضّحاك عبدَ الرحمن بن عبيد حين قدم الكوفة ، فقال : لقد رأيتُ منكم بغربى تدْمُر رجلا ما كنت أرى أنّ فى الناس مثلَه ، حمل علينا ، فما كذب حتى ضرب الكتيبة التى أنا فيها ، فلما ذهب ليولّى حملت عليه ، فطعنتُه ، فوقع ثم قام

---

(١) السورة : الحدة .

(٢) المخدرة : المرأة فى الخدر ؛ وهو ستر يمد فى ناحية البيت .

فلم يضرّه شيئاً ، ثم لم يلبث أن حمَل علينا فى الكتيبة التى أنا فيها ، فصرع رجلا ثم ذهب لينصرف ، فحملتُ عليه فضربته على رأسه بالسيف ، فخيِّل إلىّ أنْ سيفى قد ثبت فى عظْم رأسه فضربنى ؛ فوالله ما صنع سيفُه شيئاً ، ثم ذهب فظننت أنّه لن يعود ، فوالله ما راعنى إلّا وقد عصب رأسه بعمامة ، ثم أقبل نحو فقلت: ثكلتك أمُّك ! أما نهتك الأوليان عن الإقدام علينا ! قال : إنهما لم تنهيانى ، إنما أحتسب هذا فى سبيل الله . ثم حمل ليطعننى ، فطعنتُه وحمل أصحابُه علينا ، فانفصلنا ، وحال الليل بيننا ، فقال له عبد الرحمن : هذا يوم شهده هذا ـ يعنى وبيعة بن ماجد ـ وهو فارس الحىّ ، وما أظنه يخفَى أمرُ هذا الرجل . فقال له : أتعرفُه ؟ قال : نعم ، قال : مَنْ هو ؟ قال : أنا ، قال : فأرنى الضربةَ التى برأسك ، فأراه فإذا هى ضَرْبةٌ قَدْ بَرَتِ العظم مُنكَرة ، فقال له : فما رأيُك اليوم ؟ أهو كرأيك يومئذ ؟ قال : رأيى اليوم رأيُ الجماعة ، قال : فما عليكم من بأس ، أنتم آمنون مالم تُظهِروا خلافا ، ولكن العجب كيف نجوت من زياد لم يقتلك فيمن قتل ، أو يُسيّرك فيمن سيّر ! فقال : أما التسيير فقد سيّرنى ، وأما القتل فقد عافانا الله منه !

• • •

قال إبراهيم الثّقفى : وأصاب الضحاكَ فى هَرَبه من حُجْر عطش شديد ، وذلك لأنّ الجمل الذى كان عليه ماؤه ضلّ فعطش ، وخفَق برأسه خفْقتين لنُعاس أصابه ، فترك الطريق وانتبه ، وليس معه إلا نفر يسير من أصحابه ، وليس منهم أحد معه ماء ، فبعث رجالا منهم فى جانب يلتمسون الماء ، ولا أنيس ، فكان الضحاك بعد ذلك يحكى ، قال : فرأيت جادّة فلزمتُها ، فسمعت قائلا يقول :

دَعَانِى الْهَوَى فَازْدَدْتُ شَوْقًا وَرُبّما ... دَعَانِى الهَوَى مِنْ سَاعَةٍ فَأُجِيبُ

وَأَرَّقَنِى بَعْدَ المَنامِ وَرُبَّمَا ... أَرِقْتُ لِسَارِى الهَمّ حِينَ يَئُوبُ

فإن الله قد أحببكُم ورأيتكُم   فإني بدارى عامر لغريبُ

قال: وأشرف على رجل ، فقلت :ياعبد الله ، اسقني ماء ، فقال :لاوالله ،حتى تعطيني ثمنه ، قلت : ومائمنُهُ ؟ قال : دينُك ، قلت : أماترى عليك من الحق أن تقرِىَ الضيف ، فتطعمهُ وتسقيه ! قال : ربّما فعلنا وربما بخلنا ، قال : فقلت : والله ماأراك فعلت خيراً قط ، اسقني ، قال : ماأطيق ،قلت : فإنّي أحسِنُ إليك وأكسوك ، قال :لا والله لاأنقص شَرْبَةً من مائة دينار ، فقلت له : وَيْحَكَ ! اسقني ! فقال: وَيْحَكَ ! أعطني ، قلت : لا والله ماهى معى ، ولكنك تسقيني ، ثم تنطلق معى أعطيكها ، قال : لا والله ، قلت: اسقني وأرهَنُكَ فرسى حتى أوفيَكها ، قال : نعم ،ثم خرج بين يدى واتبعته ، فأشرفنا على أُخبية وناس على ماء فقال لى : مكانَكَ حتى آتيَك ، فقلت : بل أجيء معك ، قال : وساءه حيث رأيت الناس والماء ،فذهب يشتد حتى دخل بيتاً ، ثم جاء بماء فى إناء ،فقال :اشرَبْ،فقلت: لاحاجةَ لى فيه . ثم دنوت من القوم ، فقلت : اسقونى ماء ، فقال شيخ لابنته : اسقيه ، فقامت ابنتُهُ فجاءت بماء ولبن ، فقال ذلك الرجل : نجيبُكَ من العطش ، وتذهب بحقى ! والله لا أفارقك حتى أستوفىَ منك حَقّى ، فقلت : اجلس حتى أُوفّيَك . فجلس : فنزلت فأخذت الماء واللبن من يد الفتاة ، فشربت واجتمع إلىّ أهلُ الماء ، فقلت لهم : هذا ألأم الناس ! فعل بى كذا وكذا ! وهذا الشيخ خيرٌ منه وأسدى ، استسقيتُه فلم يكلمنى وأمر ابنته فسقتْنى ،وهو الآن يُلزمنى بمائة دينار .فشتمه أهلُ الحىِّ ، ووقعوا به ، ولم يكن بأسرع من أن لحِقنى قوم من أصحابى ، فسلّموا علىّ بالإمْرة ، فارتاب الرجل وجزع ، وذهب يريد أن يقوم ، فقلت : والله لاتبرح حتى أوفّيَكَ المائة ، فجلس مايدرى ماالذى أريد به ! فلما كثُر جندى عندى سرّحتُ إلى ثقَلى[1] ، فأُتيت به ، ثم أمرت بالرجل فجُلِد مائة جلدة ، ودعوتُ الشيخ وابنته فأمرتُ لها بمائة دينار وكسوتُهما ، وكسوت أهلَ الماء

(١) الثقل : متاع المسافر .

ثوبا ثوبا ، وحرمتهُ . فقال أهل الماء : كان أيها الأمير أهلا لذلك . وكنتَ لما أتيت من خير أهلا .

فلما رجعتُ إلى معاوية ، وحدّثته عَجِب ، وقال : لقد رأيتَ في سفرك هذا عجبا .

ويَذْكُر أهلُ النَّسب أنَّ قيسا أبا الضحاك بن قيس كان يبيع عَسْب الفحول[1] في الجاهلية .

* * *

ورووا أن عَقيلا رحمه الله تعالى ، قدم على أمير المؤمنين ، فوجده جالسا في صحن المسجد بالكوفة ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته — وكان عَقيل قد كُفَّ بصره — فقال : وعليك السلام يا أبا يزيد ، ثم التفت إلى ابنه الحسن عليه السلام ، فقال : قم فأنْزِل عمّك ، فقام فأنزله ، ثم عاد فقال : اذهب فاشترِ لعمّك قميصا جديدا ، ورداء جديدا وإزارا جديدا ونعلا جديدا ، فذهب فاشترى له ، فغدا عَقيل على عليّ عليه السلام في الثّياب ، فقال : السلام عليك يا أميرَ المؤمنين ، قال : وعليك السلام يا أبا يزيد ، قال : يا أمير المؤمنين ، ما أراك أصبتَ من الدنيا شيئا ، وإني لا ترضى نفسي من خلافتك بما رضيتَ به لنفسك ، فقال : يا أبا يزيد ، يخرج عطائي فأدفعه إليك .

فلما ارتحل عن أمير المؤمنين عليه السلام أتى معاويةَ فنُصبت له كراسيُّه ، وأجلَس جلساءه حوله ، فلما وَردَ عليه أمر له بمائة ألف فقبَضها ، ثم غدا عليه يوما بعد ذلك ، وبعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، وبيعة الحسن لمعاوية ، وجلساء معاوية حوله ، فقال : يا أبا يزيد ، أخبرْني عن عسكري وعسكر أخيك ، فقد وردتَ عليهما ، قال : أخْبِرك ، مررت والله

(١) العسب هنا : ماء الفحل .

بعسكر أخي ، فإذا ليلٌ كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم ؛ ما رأيتُ إلا مصليا ، ولا سمعت إلا قارئا . ومررت بعسكرك ، فاستقبلني قومٌ من المنافقين ممن نفر برسول الله ليلة العقبة ، ثم قال : مَنْ هذا عن يمينك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذي اختصم فيه ستة نفر ، فغلب عليه جزّار قريش ! فمن الآخر ؟ قال : الضحاك بن قيس الفِهْري قال : أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ لعسب التيوس ؟ فمن هذا الآخر ؟ قال : أبو موسى الأشعري ، قال : هذا ابنُ السَّرّاقة ، فلما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ، علم أنه إن استخبره عن نفسه ، قال فيه سوءاً ، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يعلمه من السوء ، فيذهب بذلك غضبُ جلسائه ، قال : يا أبا يزيد ، فما تقول فيَّ ؟ قال : دعني من هذا ! قال : لتقولَنّ ، قال : أتعرف حمامة ؟ قال : ومَنْ حمامة يا أبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتُك ، ثم قام فمضى ، فأرسل معاوية إلى النسابة ، فدعاه ، فقال : مَنْ حمامة ؟ قال : ولي الأمان ؟ قال : نعم ، قال : حمامةُ جدتك أم أبي سفيان ، كانت بَغِيًّا في الجاهلية صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد ساويتُكم وزدت عليكم فلا تغضبوا .

---

(٣٠)

ومن خطبة له عليه السلام في معنى قتل عثمان .

الأصل :

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً ، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً ؛ غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ : نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي ؛ وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ ؛ اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ ، وَلِلَّهِ حُكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَازِعِ .

الشرح :

هذا الكلام بظاهره يقتضي أنه ما أمر بقتله ، ولا نهى عنه ، فيكون دمُه عنده في حكم الأمور المباحة التي لا يؤمر بها ، ولا ينهى عنها . غير أنه لا يجوز أن يحمل الكلام على ظاهره ، لما ثبت من عِصْمة دم عثمان . وأيضاً فقد ثبت في السِّيَر والأخبار أنه كان عليه السلام ينهَى الناس عن قَتْله ؛ فإذن يجب أن يُحمَل لفظ النهي على المنع كما يقال : الأمير ينهى عن نهب أموال الرعية ، أي يمنع ، وحينئذ يستقيم الكلام ؛ لأنه عليه السلام ما أمر بقتله ولا منع عن قتله ، وإنما كان ينهى عنه باللسان ولا يمنع عنه باليد .

فإن قيل : فالنهيُ عن المنكر واجب ، فهلا منعَ مِنْ قتله باليد ؟

قيل : إنما يجب المنع باليد عن المنكر إذا كان حسنا ؛ وإنما يكون الإنكار حسنا

إذا لم يغلب على ظنّ الناهى عن المنكر أن نهيَه لا يؤثر ، فإن غلب على ظنه أن نهيَه لا يؤثر قبُح إنكار المنكر ، لأنه إن كان الغرض تعريضَ فاعل القبيح قبحَ ما أقدم عليه ؛ فذلك حاصل من دون الإنكار ؛ وإن كان الغرضُ ألا يقع المنكَر ، فذلك غير حاصل ؛ لأنه قد غلب على ظنه أن نهيَه وإنكاره لا يؤثر ؛ ولذلك لا يحسُن من الإنسان الإنكار على أصحاب المآصر[1] ما هم عليه من أخذ المكُوس ، لما غلب على الظن أن الإنكار لا يؤثر ؛ وهذا يقتضى أن يكونَ أمير المؤمنين عليه السلام قد غلب على ظنه أن إنكاره لا يؤثر ؛ فلذلك لم ينكر .

ولأجل اشتباه هذا الكلام على السامعين ، قال كعب بن جُعَيل ، شاعر أهل الشام الأبيات التى منها[2] :

أرَى الشّامَ تكرهُ أهلَ العِراقِ ... وأهلُ العِرَاقِ لَهمْ كَارِهُونَا[3]
وَكُلٌّ لصاحبِــــهِ مبغِضٌ ... يرى كل ما كان من ذاكَ دِينَا
إذا مارَمَوْنا رَمَيْنَــــاهُمُ ... ودِنّاهُمُ مِثْلَ ما يُقرِضُونَا[4]
وَقَالُوا : عَلِيٌّ إمامٌ لَنــــا ... فقلنا : رضِينا ابنَ هِنْدٍ رَضِينَا
وَقَالُوا : نَرَى أن تدينُوا لنا ... فقلنا : ألا لا نَرَى أن نَدِينَا[5]
وَمِنْ دُونِ ذلكَ خَرْطُ القَتادِ ... وَطَعْنٌ وَضَرْبٌ يُفرِّ الشُّيُونَا[6]

---

(١) المآصر : المواضع المعدة لحبس المارة من السير لأخذ العشور .

(٢) الأبيات فى وقعة صفين ٦٣ ، ٦٤ ، وأورد المبرد فى الكامل (٤ - ٢١٢ - بشرح المرصفى) الستة الأبيات الأول منها ؛ وقال : « وفى آخر هـذا الشعر ذم لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه أمسكنا من ذكره » .

(٣) وقعة صفين « والكامل » : « ملك العراق » .

(٤) دناهم : من الدين ، وهو القرض ؛ ويقرضونا ، حذفت النون من غير ناصب ولا جازم ، وهو جائز فى العربية ؛ وانظر خزانة الأدب (٣ : ٥٢٥ - ٥٢٦) .

(٥) هذه رواية ابن أبى الحديد ؛ وهى توافق رواية المبرد ؛ وفى صفين :

وَقُلْنَا نَرَى أن تَدِينُــــوا لَنَا ... فقالوا لَنَا : لا نَرَى أنْ نَدِينَا

(٦) قال المبرد : « وأحسن الروايتين : يفلى الشئونا » .

وَكُلٌّ يُسَرُّ بِمَا عِنْدَهُ … يَرَى غَثَّ مَا فِي يَدَيْهِ سَمِينَا
وَمَا فِي عَلِيٍّ لِمُسْتَعْتِبٍ … مَقَالٌ سِوَى ضَمِّهِ الْمُحْدِثِينَا
وَإِيثَارِهِ الْيَوْمَ أَهْلَ الذُّنُوبِ … وَرَفْعِ الْقِصَاصِ عَنِ الْقَاتِلِينَا
إِذَا سِيلَ عَنْهُ حَذَا شُبْهَةً … وَعَمَّى الْجَوَابَ عَلَى السَّائِلِينَا[1]
فَلَيْسَ بِرَاضٍ وَلَا سَاخِطٍ … وَلَا فِي النُّهَاةِ وَلَا الْآمِرِينَا
وَلَا هُوَ سَاءَهُ وَلَا سَرَّهُ … وَلَا بُدَّ مِنْ بَعْضِ ذَا أَنْ يَكُونَا

وهذا شعر خبيث مُنكَر ، ومقصد عميق ، وما قال هذا الشعر إلاّ بعد أن نُقِل إلى أهل الشام كلامٌ كثيرٌ لأمير المؤمنين عليه السلام في عثمان يجرى هذا المجرى ، نحو قوله : ما سرّنى ولاَ ساءنى . وقيل له : أرضيتَ بقتله ؟ فقال : لم أرضَ ، فقيل له : أسخِطْتَ قتلَه ؟ فقال : لم أسخط . وقوله تارة : الله قتله وأنا معه ، وقوله تارة أخرى : ما قتلت عثمان ولا مالأتُ في قتله . وقوله تارة أخرى : كنتُ رجلا من المسلمين أوردتُ إذ أوْرَدُوا ، وأصدرت إذ أصدروا .

ولكل شيء من كلامه إذا صحّ عنه تأويل يعرفه أولو الألباب .

فأمّا قوله : « غير أنّ مَنْ نصره » ، فكلام معناه أنّ خاذِليه كانوا خيرا من ناصريه ؛ لأنّ الذين نصروه كان أكثرُهم فُسّاقا ، كمَرْوان بن الحكم وأضرابه ، وخذله المهاجرون والأنصار .

فأما قوله : « وأنا جامع لكم أمره ... » إلى آخر الفصل ؛ فمعناه أنه فَعَل ما لا يجوز ، وفعلتم ما لا يجوز ، أما هو فاستأثر فأساء الأثرة ، أى استبدّ بالأمور فأساء في الاستبداد ، وأمّا أنتم فجزِعتم مما فعل أى حزنتم فأسأتم الجزع ، لأنكم قتلتموه ، وقد كان الواجب عليه أن

(١) حذا : أعطى ، وفى مقتضب : « حدا » ، أى ساق .

يرجع عن استئثاره ، وكان الواجب عليكم ألّا تجعلوا جزاءه عما أذنب القتل ، بل الخلع والحبس وترتيب غيره فى الإمامة .

ثم قال : ولله حُكْم سيحكم به فيه وفيكم .

* * *

[اضطراب الأمر على عثمان ثم أخبار مقتله]

ويجب أن نذكر فى هذا الموضع ابتداء اضطراب الأمر على عثمان إلى أن قتل .

وأصح ما ذكر فى ذلك ما أورده أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى " التاريخ "[1] .

وخلاصة ذلك أن عثمان أحدث أحداثا مشهورة نَقِمها النّاس عليه ، من تأمير بنى أمية ، ولا سيّما الفُسّاقُ منهم وأربابُ السَّفَه وقلّة الدّين ، وإخراج مال الفىء إليهم ، وماجرى فى أمر عَمّار وأبى ذرّ وعبدالله بن مسعود ، وغير ذلك من الأمور التى جرتْ فى أواخر خلافته. ثم اتفق أنّ الوليد بن عُقْبة لمّا كان عاملَه على الكوفة وشُهد عليه بشرب الخمر ، صرفه وولّى سعيد بن العاص مكانه ، فقدم سعيد الكوفة ، واستخلص من أهلها قوما يسمُرون عنده ، فقال سعيد يوما : إنّ السواد بستان لقُرَيْش وبنى أمية. فقال الأشتر النّخعىّ : وتزعمُ أنّ السوادَ الذى أفاءه الله على المسلمين بأسيافنا بستان لك ولقومك ! فقال صاحب شُرْطته: أتردّ على الأمير مقالته ! وأغلظ له ، فقال الأشتر لمن كان حوله من النَّخَع وغيرهم من أشراف الكوفة : ألا تسمعون ! فوثبوا عليه بحضْرَة سعيد فوطِئوه وطأ عنيفا ، وجَرّوا برجْله ، فغلُظ ذلك على سعيد، وأبعد سُمّاره فلم يأذن بعدُ لهم ، فجعلوا يشتمون سعيدا فى مجالسهم ، ثم تعدّوا ذلك إلى شتم عثمان ، واجتمع إليهم ناس كثير ، حتى غلُظ أمرُهم ، فكتبَ سعيد إلى عثمان فى أمرهم ، فكتب إليه أن يسيِّرَهم إلى الشام؛ لئلاّ يُفْسِدوا أهلَ الكوفة، وكتب إلى معاوية وهو والى الشام: إنّ نفرا من أهل الكوفة

(١) فى حوادث سنة ٣٣ — ٣٥ ، مع تصرف واختصار فى جميع ما أورده فى هذا الفصل .

قد هَمُّوا بإثارة الفتنة، وقد سيرتُهم إليك، فانههم ؛ فإن آنستَ منهم رُشْداً فأحسن إليهم، واردُدْهم إلى بلادهم .

فلما قدموا على معاوية ـ وكانوا : الأشتر ، ومالك بن كعب الأرْحَبِىّ ، والأسود بن يزيد النَّخَعىّ، وعلقمة بن قيس النخعىّ ، وصعصعة بن صُوحان العبدىّ، وغيرهم ـ جمَعهم يوما ، وقال لهم : إنكم قوم من العَرب، ذوو أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شَرَفاً، وغلبتم الأمم ، وحويتم مواريثهم ؛ وقد بلغنى أنكم ذممتم قريشا ، ونقمتم على الولاة فيها ؛ ولولا قريشٌ لكنتمْ أذلة ؛ إنّ أئمتَكم لكم جُنَّة ، فلا تفرَّقُوا عن جُنّتكم ، إنّ أئمتكم لَيَصبِرُون لكم على الجوْر ، ويحتملون منكم[1] العِتاب ؛ والله لتنتهنّ أو ليبتلينَّكم الله بمن يسومُكم الخسف، ولا يحمَدكم على الصبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم ، وبعد وفاتكم .

فقال له صعصعة بن صُوحان : أما قريش فإنها لم تكن أكثرَ العرب ولا أمنَعها فى الجاهلية ، وإنّ غيرَها من العرب لأكثرُ منها كان وأمنع .

فقال معاوية : إنك لخطيب القوم ، ولا أرى لك عقلا ، وقد عرفتُكم الآن، وعلمتُ أنّ الذى أغراكم قلةُ العقول . أُعظِّمُ عليكم أمر الإسلام فتذكّرنى الجاهلية ! أخزَى الله قوماً عظّموا أمرَكم ! افقهوا عنّى ولا أظنكم تفقهون ؛ إنّ قريشا لم تعِزّ فى جاهلية ولا إسلام إلا بالله وحده ؛ لم تكن بأكثرِ العرب ولا أشدِّها ، ولكنهم كانوا أكرمَهم أحسابا ، وأمحضَهم[2] أنسابا ، وأكملهم مروءة ؛ ولم يمتنعوا فى الجاهلية ـ والناس يأكل بعضُهم بعضا ـ إلّا بالله ، فبوّأهم حَرَماً آمنا يُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حوله . هل تعرفون عربا أو عجما ، أو سودا أو حمرا إلا وقد أصابهم الدهر فى بلدهم وحرمهم، إلّا ما كان من قريش ؛ فإنه لم يُرِدْهم أحدٌ من الناس بكيد إلّا جعل الله خدّه الأسفل ؛ حتى أراد الله تعالى أن يستنقِذ مَنْ أكرمه باتباع دينه من هوان الدنيا، وسوء مردّ الآخرة ، فارتضى لذلك خَيْرَ

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « فيكم » .

(٢) يقال : عرق محض ؛ أى خالص النسب .

خلقه ، ثم ارتضى له أصحابا ، وكان خيارُهم قريشا . ثم بنى هذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخلافة فيهم،فلا يصلُح الأمرُ إلا بهم؛وقد كان الله يحوطهم فى الجاهلية وهم على كفرهم؛ أفتراه لايحوطهم وهم على دينه ! أفٍّ لك ولأصحابك ! أما أنتَ ياصعصعة،فإنّ قريتك شرُّ القرى ؛ أنتنُها نَبْتاً وأعمقُها واديا ، وألأمها جيرانا ، وأعرفها بالشر ؛ لم يسكنها شريف قطّ ولا وضيع إلا سُبّ بها ، نُزّاع الأمم وعبيد فارس وأنت شرُّ قومك . أحين أبرزك الإسلام ، وخلطك بالناس ، أقبلت تبغى دينَ الله عوجا ، وتنزع إلى الغواية ! إنه لن يضرّ ذلك قريشا ولا يضعهم ، ولا يمنعهم من تأدية ماعليهم ؛ إنّ الشيطانَ عنكم غير غافل ، قد عرَفكم بالشرّ ، فأغرى بكم الناس ، وهو صارعكم ؛ وإنكم لا تُدْرِكون بالشرّ أمراً إلا فُتِح عليكم شرٌّ منه وأخزى . قد أذِنتُ لكم فاذهبوا حيث شئتم ، لا ينفع الله بكم أحداً أبدا ولا يضرّه ، ولستم برجال منفعة ولا مضرة . فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا تُبطِرنكم النعمة ؛ فإن البَطَر لا يجرّ خيرا . اذهبوا حيث شئتم ، فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم .

وكتب إلى عثمان :

إنه قَدِم علىّ قوم ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدل،لا يريدون الله بشىء، ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنة ، والله مبتليهم ثم فاضحهم ، وليسوا بالذين نخاف نكايتهم ، وليسوا بأكثر ممن له شَغْب ونكير .

ثم أخرجهم من الشام [١] .

* * *

وروى أبو الحسن المدائنىّ أنه كان لهم مع معاوية بالشام مجالس طالت فيها المحاورات والمخاطبات بينهم ، وأنّ معاوية قال لهم فى جملة ماقاله : إنّ قريشا قد عرفتْ أنّ أبا سفيان

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٣٣ — ٣٣٥

كان أكرمَها وابنَ أكرمِها ، إلاّ ماجعل الله لنبيه صلى الله عليه ، فإنه انتجبه [1] وأكرمه ، ولو أنّ أبا سفيان ولد الناس كلّهم لكانوا حلماء [2] .

فقال له صعصعة بن صُوحان : كذبتَ ! قد ولدهم خيرٌ من أبي سفيان ! مَنْ خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمرَ الملائكة فسجدوا له ، فكان فيهم البرّ والفاجر ، والكيّس والأحمق .

• • •

قال : ومن المجالس التي دارت بينهم أن معاوية قال لهم : أيها القومُ رُدُّوا خيرا أو اسكتوا ؛ وتفكّروا وانظروا فيما ينفعكم والمسلمين ، فاطلبوه وأطيعوني .

فقال له صعصعة : لستَ بأهل ذاك ، ولا كرامةَ لك أنْ تُطاع في معصية الله .

فقال : إنّ أوّلَ كلام ابتدأتُ به أن أمرتُكم بتقوى الله وطاعة رسوله ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا .

فقالوا [3] : بل أمرتَ بالفُرْقة وخلاف ماجاء به النبي صلى الله عليه وآله .

فقال : إن كنتُ فعلتُ فإني الآن أتوب ، وآمرُكم بتقوى الله وطاعته ، ولزوم الجماعة ، وأنْ توقّروا أئمتكم وتُطيعوهم .

فقال صعصعة : إن كنتَ تبتَ فإنا نأمرُك أن تعتزل عملك [4] فإنّ في المسلمين مَنْ هو أحقُّ به منك ، ممّن كان أبوه أحسنَ أثرا في الإسلام من أبيك ، وهو أحسنُ قَدَمًا في الإسلام منك .

فقال معاوية : إنّ لي في الإسلام لَقَدَمًا ، وإن كان غيري أحسنَ قَدَمًا مني ؛ لكنّه

---

(١) انتجبه : اصطفاه واختاره ، وفي الطبري : « انتخبه » .

(٢) عبارة الطبري : « ولو ولد الناس لم يلد إلا حازما » .

(٣) في الأصول : « فقال » وصوابه من الطبري .

(٤) كذا في ا ، ج ، وفي ب : « أمرك » .

ليس فى زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منّى ، ولقد رأى عمر بن الخطاب ذلك ، فلو كان غيرى أقوى منّى لم يكن عند عمر هَوادة لى ولا لغيرى ، ولم أحدِث [1] ماينبغى له أن أعتزل عملى ، فلو رأى ذلك أميرُ المؤمنين لكتب إلىّ [بخط يده] [2] فاعتزلت عمله ؛ فمهلا فإنّ فى دون ما أنتم فيه ما يأمرُ فيه الشيطان وينهَى . ولَعَمْرى لو كانت الأمور تُقضَى على رأيكم وأهوائكم مااستقام الأمر لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة ؛ فعاودوا الخيرَ وقولوه ؛ فإنّ الله ذو سَطَوات ؛ وإنى خائف عليكم أن تَتَتابعوا إلى مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن ، فيُحِلّكم ذلك دارَ الهون فى العاجل والآجل .

فوثبوا على معاوية فأخذوا برأسه ولحيته فقال : مه ! إنّ هذه ليست بأرض الكوفة ، والله لو رأى أهلُ الشام ماصنعتم بى [وأنا إمامهم] [2] ماملكتُ أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم ؛ فلَعَمْرى إنّ صنيعَكم يُشبه بعضه بعضاً .

ثم قام من عندهم ، وكتب إلى عثمان فى أمرهم [3] ، فكتب إليه أن رُدّهم إلى سعيد ابن العاص بالكوفة . فردّهم ، فأطلقوا ألسنتهم فى ذمّه وذمّ عثمان وعيبهما . فكتب إليه عثمان أن يسيّرهم إلى حِمْص ، إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فسيّرهم إليها .

* * *

(١) ب . « ولا – ث » .

(٢) من الطبرى .

(٣) ذكر الطبرى كتاب معاوية إلى عثمان ، وهذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبى سفيان ؛ أما بعد يا أمير المؤمنين ؛ فإنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم ، ويأتون الناس ـ زعموا ـ من قبل القرآن ، فيشبهون على الناس ، وليس كل الناس يعلم ما يريدون ؛ وإنما يريدون فرقة ، ويقربون فتنة ، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم ، وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم ؛ فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة ، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم ؛ فارددهم إلى مصرهم ؛ فلتكن دارهم فى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم ، والسلام » .

وروى الوقديّ ، قال : لما سيِّرَ بالنفر الذين طردهم عثمان عن الكوفة إلى حِمْص ـ وهم : الأشتر، وثابت بن قيس الهمْدانيّ ، وكُمَيل بن زياد النَّخَعيّ ، وزيد بن صُوحان ، وأخوه صعصعة، وجندَب [١] بن زهير الغامديّ، وجندب [١] بن كعب الأزْديّ وعروة بن الجَعْد، وعمرو بن الحِمِق الخزاعيّ ، وابن الكَوّاء ـ جمعهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، بعد أن أنزلهم أياما ، وفرض لهم طعاما ، ثم قال لهم يا بني الشَّيْطان ، لا مرحبا بكم ولا أهلا! قد رجع الشيطان محسورا . وأنتم بَعْدُ في بساط ضلالكم وغَيِّكم ! جزى الله عبد الرحمن إن لم يؤذكم! يا معشر مَنْ لا أدري أعرب هم أم عجم ! أتراكم تقولون لي ماقلتم لمعاوية! أنا ابن خالد ابن الوليد ! أنا ابن مَنْ عَجَمَتْه العاجمات ، أنا ابن فاقئ عين الرِّدّة ؛ والله يابن صُوحان لأطيرن بك طَيْرَة بعيدة المهوى إن بلغني أن أحداً ممن معي دق أنفك فأقنعت [٢] رأسك.

قال : فأقاموا عنده شهرا ؛ كلّما ركب أمشاهم معه ، ويقول لصعصعة : يابن الحطيئة، إنّ مَنْ لم يُصلحه الخيرُ أصلحه الشرّ ؛ مالك لا تقول كما كنتَ تقول لسعيد ومعاوية ! فيقولون : سنتوب إلى الله ، أقِلْنا أقالك الله ! فما زال ذاك دأبه ودأبهم ، حتى قال : تاب الله عليكم . فكتب إلى عثمان يسترضيه عنهم ، ويسأله فيهم ، فردّهم إلى الكوفة .

* * *

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ رحمه الله تعالى : ثم إنّ سعيد بن العاص قَدِم على عثمان سنة إحدى عشرة من خلافته . فلمّا دخل المدينة اجتمع قومٌ من الصحابة ، فذكروا سعيدا وأعماله ، وذكروا قرابات عثمان وما سوّغهم من مال المسلمين ، وعابوا أفعالَ عثمان ، فأرسلوا إليه عامرَ بن عبد القيس ـ وكان متألِّها [٣] ، واسم أبيه عبد الله ، وهو من تميم ، ثم من بني العَنْبَر ـ فدخلَ على عثمان ، فقال له : إنّ ناساً من الصحابة

---

(١) ا ، ج : « حبيب » ، وما أثبته من ب والطبري .
(٢) أقنعت رأسك : رفعتها .
(٣) المتألّه : المتعبد المتنسك .

اجتمعوا ونظروا فى أعمالك ، فوجدوك قد رَكِبْتَ أمورا عِظاما ، فاتّقِ الله وتبْ إليه.
فقال عثمان : انظروا إلى هذا ، تزعم الناس أنه قارئ ، ثم هو يجئ إلىّ فيكلّمنى فيما لا يعلمه ! والله ماتدرِى أين الله ! فقال عامر : بلَى والله إنى لأدْرِى أنّ الله لَبِالْمِرصاد[(١)].

فأخرجه عثمان ، وأرسل إلى عبد الله بن سعْد بن سَرْح ، وإلى معاوية وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص وعبد الله بن عامر ـ وكان قد استقدم الأمراء من أعمالم ـ فشاورهم ، وقال : إنّ لكلّ أميرٍ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونُصَحائى وأهل ثقتى، وقد صنع الناسُ ماقد رأيتم ، وطلبوا إلىّ أنْ أعزِلَ عُمّالى وأن أرجعَ عن جميع مايكرهون إلى مايحبون ، فاجتهدُوا رأيكم .

فقال عبد الله بن عامر : أرَى لكَ يا أمير المؤمنين أن تَشْغَلَهم عنك بالجهاد حتى يَذِلّوا لك ، ولا تكون همّةُ أحدِهم إلّا فى نفسه ، وما هو فيه من دَبَرِ دابته[(٢)] وقَمْلِ فَرْوته .

وقال سعيد بن العاص : احْسِم عنك الداء واقطعْ عنك الذى تخاف ؛ إنّ لكلّ قوم قادة متى يَهْلِكوا يتفرّقوا ولا يجتمعْ لهم أمر .

فقال عثمان : إنّ هذا لهو الرأىُ لولا مافيه .

وقال معاوية : أشيرُ عليك أن تأمُرَ أمراء الأجناد ، فيكفيكَ كلّ رجل منهم ما قِبَله ، فأنا أكفيكَ أهلَ الشام .

وقال عبد الله بن سعد : إنّ الناسَ أهلُ طَمَع ، فأعطِهم مِنْ هذا المال تعطِفْ عليك قلوبهم .

فقال عمرو بن العاص : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنك قد ركِبْتَ الناس[(٣)] ببنى أمية ، فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدِلْ أو اعتزِل ، فإن أبيتَ فاعزِمْ عزما ، وامض قُدُما .

---

(١) فى الطبرى : « فإن ربك بالمرصاد لك ؛ فأرسل عثمان إلى معاوية بن أبى سفيان . . . » .
(٢) الدبرة ، بالتحريك : قرحة الدابة والبعير ، وجمعها دبر ، بفتحتين .
(٣) عبارة الطبرى : « قد ركبت الناس بما يكرهون » .

فقال له عثمان : مالكَ قَبِلَ قُرُوكَ ! أهذا بجدّ[1] منك !

فسكت عمرو حتى تفرّقوا ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ، لأنتَ أكرمُ عليَّ من ذلك ؛ ولكني علمت أنَّ بالباب مَنْ يبلّغ الناس قول كلِّ رجل منّا فأردت أن يبلّغهم قولى ، فيثقوا بى ، فأقود إليك خيراً ، وأدفع عنك شرّاً .

فردّ عثمان عُمّاله إلى أعمالهم ، وأمرهم بتجهيز النّاس فى البُعوث ، وعزّم على أن يحرّمهم أعطياتهم ليُطيعوه ، وردّ سعيدَ بن العاص إلى الكوفة ، فتلقاه أهلها بالجرَعة[2] — وكانوا قد كرِهوا إمارته ، وذمّوا سيرتَه — فقالوا له : ارجع إلى صاحبك ، فلا حاجة لنا فيك . فهمّ بأن يَمضىَ لوجهه ولا يرجع ، فكثُر الناس عليه ، فقال له قائل : ماهذا ! أتردّ السيلَ عن أدراجه ! والله لا يُسكِّن الغوغاء إلا المَشْرَفيّة[3] ، ويوشِكُ أنْ تُنتَضى بعد اليوم ، ثمّ يتمنّوْن ماهم اليوم فيه فلا يردُّ عليهم . فارجع إلى المدينة ، فإنّ الكوفة ليست لك بدار .

فرجع إلى عثمان ، فأخبره بما فعلوا . فأنفذ أبا موسى الأشعرىّ أميراً على الكوفة ، وكتب إليهم : أما بعد ، فقد أرسلتُ إليكم أبا موسى الأشعرىّ أميراً ، وأعفيتُكم من سعيد ، ووالله لأفرِّضنّكم عِرْضى ، ولأبذلنّ لكم صَبْرى ، ولأستصلحنّكم بجهدى ، فلا تَدَعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصَى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ؛ لأكونَ فيه عندما أحببتُم وكرهتم ؛ حتى لا يكونَ لكم على الله حجة ، والله لنصبرنّ كما أُمِرْنا ، وسيجزى الله الصابرين .

* * *

---

(١) الطبرى : « أهذا الجد منك ! »

(٢) الجرعة ، بالتحريك — وقيل بسكون الراء : موضع قرب الكوفة ، بين النجف والحيرة .

(٣) المشرفية : السيوف المنسوبة إلى مشارف ، قرى قرب حوران .

قال أبو جعفر : فلمّا دخلت سنةُ خمسٍ وثلاثين ، تكاتب أعداء عثمان وبنى أمية فى البلاد ، وحرّض بعضُهم بعضا على خَلع عثمان عن الخلافة ، وعَزْل عمّاله عن الأمصار ، واتصل ذلك بعثمان ، فكتب إلى أهل الأمصار :

أمّا بعد ، فإنه رُفِع إلىّ أنّ أقواما منكم يَشْتِمهم عمّالى ويضربونهم ، فمن أصابه شىء من ذلك فليوافِ الموسمَ بمكة ، فليأخذ بحقه منّى أو من عمّالى فإنى قد استقدمتهم ، أو تصدّقوا فإن الله يجزى المتصدّقين .

ثم كاتب عمّاله واستقدمهم ، فلما قَدِموا عليه جمعهم ، وقال : ماشِكايةُ الناس منكم؟ إنّى لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ، ومايُعْصَبُ هذا الأمرُ إلا بى . فقالوا له : والله ماصدَق مَنْ رفَعَ إليك ولا برّ ، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا . فقال عثمان : فأشيروا علىّ ، فقال سعيد بن العاص : هذه أمورٌ مصنوعة تُلقَى فى السرّ فيتحدّث بها الناس ، ودواء ذلك السيف .

وقال عبدُ الله بن سعد : خُذْ من الناس الذى عليهم إذا أعطيتَهم الذى لهم .

وقال معاوية : الرأىُ حسنُ الأدب .

وقال عمرو بن العاص : أرى لك أن تلزَم طريقَ صاحبيْك ، فتلينَ [فى][١] موضع اللين ، وتشتدَّ [فى][١] موضع الشدة .

فقال عثمان : قد سمعتُ ماقلتم ؛ إنّ الأمرَ الذى يُخاف على هذه الأمة كائن لابدّ منه ، وإنّ بابه الذى يُغلَق عليه ليُفتحَنّ ؛ فكفكفوهم[٢] باللين والمدارة إلا فى حدود الله ، فقد علِم الله أنى لم آلُ الناسَ خيرا ، وإنّ رحا الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرّكها ! سكّنوا الناسَ وهبوا لهم حقوقَهم[٣] ، فإذا تُعوطيت حقوقُ الله فلا تدهنوا فيها[٤] .

---

(١) تكملة من الطبرى . (٢) كفكفوهم : اصرفوهم .

(٣) المداهنة : المصانعة ، وفى الطبرى وح : « فلا تدهنوا » ، والإدهان : المصانعة .

(٤) فى الأصول : « حقوقكم » ، وما أثبته عن الطبرى .

ثم نفرَ مُقدِم المدينة ، فدعا عليًّا وطلحةَ والزبير ، فحضروا وعنده معاوية ، فسكت عثمان ولم يتكلّم ، وتكلّمَ معاوية ، فحمِد الله ، وقال :

أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وخيرتُه من خَلْقه ، وولاةُ أمرِ هذه الأمة ، لايطمع فيه أحدٌ غيرُكم ، اخترتم صاحبَكم عن غير غَلَبة ولا طمع ؛ وقد كَبِر[1] ووَلى عمرُه ، فلو انتظرتُم به الهرَم كان قريبا ؛ مع أنى أرجو أن يكونَ أكرمَ على الله أن يبلّغه ذلك ، وقد فَشَتْ مقالةٌ خِفْتُها عليكم ، فما عِبْتم فيه من شىء فهذه يدى لكم به رَهْنًا[2] ، فلا تُطمِعوا الناسَ فى أمركم ؛ فوالله إن أطمَعْتُموهم لارأيتمْ أبدا منها إلا إدبارا .

فقال علىّ عليه السلام : ومالَكَ وذاك لاأمَّ لك ! فقال : دعْ أمّى فإنّها ليست بشر أمّهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبى صلى الله عليه ، وأجبنى عمّا أقول لك .

فقال عثمان : صدق ابنُ أخى ، أنا أخبركم عنّى وعمّا وليت ؛ إن صاحبىَّ اللَّذين كانا قبلى ، ظلَمَا أنفسهما ومَنْ كان منهما بسبيل احتسابا . وإنّ رسول الله صلى الله عليه كان يعطى قرابته ، وأنا فى رهطٍ أهل عَيْلة وقلّة معاش ، فبسطتُ يدى فى شىء من ذلك لما أقومُ به فيه ؛ فإن رأيتُم ذلك خطأ فردُّوه ، فأمرى لأمركم تَبَع .

قالوا : أصبتَ وأحسنتَ ؛ إنّك أعطيت عبدَ الله بن خالد بن أسيد خمسين ألفا ، وأعطيتَ مَرْوانَ خمسة عشر ألفا ، فاستعدْها منهما . فاستعادها ، فخرجوا راضين .

* * *

قال أبو جعفر : وقال معاويةُ لعثمان : اخرُجْ معى إلى الشأم ، فإنّهم على الطاعة

---

(١) الطبرى : « كبرت سنه » .
(٢) كلمة « رهنا » ساقطة من الطبرى .

قبل أن يهجُم عليك ما لا قِبَل لك به ، فقال : لا أبيعُ جوارَ رسول الله صلى الله عليه بشيء ، وإن كان فيه [قطع][1] خيط عنقى . قال : فأبعثُ إليك جُندا من الشام يُقيم معك لنائبة إن نابت [المدينة أو إياك][1] . فقال : لا أضيِّقُ على جيران رسول الله صلى الله عليه ، فقال : والله لتُغْتالَنّ ، فقال : حسبى الله ونعم الوكيل .

* * *

قال أبو جعفر : وخرج معاوية من عند عثمان ، فمرّ على نفر من المهاجرين ، فيهم علىّ عليه السلام وطلحة والزبير ، وعلى معاوية ثيابُ سفره ، وهو خارج إلى الشام ، فقام عليهم ، فقال : إنكم تعلمون أن هذا الأمر كان الناس يتغالبون عليه ، حتى بعث الله نبيَّه ، فتفاضلوا بالسابقة والقِدْمة والجهاد ، فإن أخذوا بذلك فالأمر أمرهم ، والناسُ لهم تَبَع ، وإن طلبوا الدّنيا بالتغالب سُلِبوا ذلك ، ورده الله إلى غيرهم ، وإن الله على البَدَل لقادر . وإنى قد خلّفت فيكم شيخًا ، فاستوصوا به خيرا وكانفوه ، تكونوا أسعد منه بذلك . ثم ودّعهم ومضى . فقال علىّ عليه السلام : كنت أرى فى هذا خيرا . فقال الزبير : والله ما كان أعظمَ قطّ فى صدرك وصدورنا منه اليوم .

* * *

قلت : مِنْ هذا اليوم أنشبَ معاوية أظفارَه فى الخلافة ؛ لأنه غلب على ظنّه قتلُ عثمان ، ورأى أنّ الشام بيده ، وأن أهلَها يطيعونه ، وأنّ له حجةً يحتجّ بها عليهم ، ويجعلُها ذريعةً إلى غرضه ؛ وهى قتلُ عثمان إذا قُتِل ، وأنّه ليس فى أمراء عثمان أقوى منه ولا أقدر على تدبير الجيوش ، واستمالة العرب ، فبقِىَ أمرُه من هذا اليوم على الطّمع فى الخلافة . ألا ترى إلى قوله لصعصعة من قبل : إنّه ليس أحدٌ أقوى منّى على الإمارة ، وإن عمر

---

(١) تكملة من الطبرى .

استعملني ورضيَ سيرتي ! أوَ لا ترى إلى قوله للمهاجرين الأولين : إن شرعتم في أخذها بالتغالُب ، وملتم على هذا الشيخ ، أخرجها الله منكم إلى غيركم وهو على الاستبدال قادر ، وإنما كان يعني نفسه ، وهو يَكْنِي عنها ، ولهذا تربّص[1] بنصرة عثمان لما استنصره ولم يبعث إليه أحداً .

* * *

وروى محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى ، قال : لما أجلَب الناسُ عَلَى عثمان ، وكثُرت القالة فيه ، خرج ناس من مِصْر ؛ منهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوي ، وكنانة ابن بِشْر الليثي ، وسُودان بن حُمْران السَّكُوني ، وقتيرة بن وهب السَّكْسَكِي ؛ وعليهم جميعاً أبو حرب الغافقي ، وكانوا في ألفين . وخرج ناس من الكوفة ، منهم زيد بن صُوحان العبدي ، ومالك الأشتر النَّخَعي ، وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصم العامري ، في ألفين . وخرج ناسٌ من أهل البصرة ، منهم حُكَيم بن جَبَلة العبدي ، وجماعة من أمرائهم ، وعليهم حُرْقُوص بن زهير السَّعدي ؛ وذلك في شوال من سنة خمس وثلاثين ، وأظهروا أنهم يُريدون الحج . فلما كانوا من المدينة عَلَى ثلاث ، تقدّم أهلُ البصرة ، فنزلوا ذا خُشُب[2] — وكان هواهم في طلحة — وتقدم أهلُ الكوفة ، فنزلوا الأعوَص[3] — وكان هواهم في الزبير — وجاء أهلُ مصر فنزلوا المرْوَة[4] — وكان هواهم في عليّ عليه السلام — ودخل ناسٌ منهم إلى المدينة يُخْبِرُون ما في قلوب الناس لعثمان ، فلقُوا جماعةً من المهاجرين والأنصار ، ولقُوا أزواج النبي صلى الله عليه وآله ، وقالوا : إنما نريد الحجّ ، ونستعفي من عمالنا .

ثم لقيَ جماعة من المصريين عليّاً عليه السلام ، وهو متقلّد سيفَه عند أحجار الزَّيْت[5] ،

---

(١) تربص : قعد ولم ينصره . (٢) ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة .
(٣) أعوص : موضع قرب المدينة على أميال منها . (٤) المروة : جبل بمكة ينتهي إليه السعي من الصفا .
(٥) أحجار الزيت : موضع بالمدينة .

سلموا عليه ، وعرَضوا عليه أمرَهم ، فصاح بهم وطردهم ، وقال : لقد عَلِم الصالحون أن جَيْشَ المَرْوَة وذى خُشُب والأعوص مَلعونون على لسان محمد صلى الله عليه .
فانصرفوا عنه .

وأتى البصريون طلحةَ ؟ فقال لهم مثلَ ذلك ، وأتى الكوفيون الزبيرَ ، فقال لهم مثلَ ذلك . فتفرّقوا وخرجوا عن المدينة إلى أصحابهم .

فلما أمِنَ أهلُ المدينة منهم واطمأنّوا إلى رُجُوعهم لم يشعروا إلّا والتكبيرُ فى نواحى المدينة ، وقد نزلوها ، وأحاطوا بعثمان ، ونادى مناديهم : يأهلَ المدينة ، مَنْ كَفَّ يده عن الحرب فهو آمن . فحصَرُوه فى منزله ، إلّا أنّهم لم يمنعوا الناسَ من كلامه ولقائه ، فجاءهم جماعة من رؤساء المهاجرين ، وسألوهم ، ما شأنُهم ؟ فقالوا : لا حاجةَ لنا فى هذا الرجل ، لِيَعْتَزِلنا لِنُوَلِّيَ غيرَه ، لم يزيدوهم على ذلك .

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار ، يستنجدهُم ويأمرُهم بتعجيل الشخوص إليه للمنع عنه ، ويعرّفهم ما النّاس فيه . فخرج أهل الأمصار على الصَّعْب والذَّلول ، فبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهريّ ، وبعث عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح معاوية بن حُدَيْج ، وخرج من الكوفة القَعْقاع بن عمرو ؟ بعثه أبو موسى .

وقام بالكوفة نفرٌ يحرّضون الناسَ على نصر عثمان وإعانة أهل المدينة ، منهم عُقْبة ابن عمر ، وعبد الله بن أبى أوْفى ، وحنظلة الكاتب ، وكلّ هؤلاء من الصحابة ، ومن التابعين مَسْروق ، والأسود ، وشُرَيح ، وغيرهم .

وقام بالبصرة عِمران بن الحُصين وأنس بن مالك ، وغيرهما من الصحابة . ومن التابعين كعب بن سُور[1] ، وهَرِم بن حَيّان وغيرهما .

---

(١) فى الأصول : « شور » ، وصوابه من الطبرى والقاموس .

وقام بالشام ومصر جماعة من الصحابة والتابعين .

وخرج عثمان يوم الجمعة ، فصلى بالناس ، وقام على المنبر ، فقال : ياهؤلاء ، الله الله؛ فوالله إنّ أهلَ المدينة يَعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه ، فامحوا الخطأ بالصواب .

فقام محمد بن مَسْلَمة الأنصاريّ ، فقال : نعم أنا أعلم ذلك ، فأقعده حُكَيْم بن جَبَلة. وقام زيد بن ثابت فأقعده قُتَيرة بن وهب . وثار القوم فحصَبُوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد ، وحصبوا عثمان حتى صُرِع عن المنبر مغشيا عليه ؛ فأُدخِل دارَه ؛ واستقتل نفر من أهل المدينة مع عثمان ؛ منهم سعد بن أبي وَقّاص ، والحسن بن عليّ عليه السلام، وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ؛ فأرسل إليهم عثمان : عزمت عليكم أن تنصرفوا ؛ فانصرفوا .

وأقبلَ علي وطلحة والزّبير ، فدخلوا على عثمان يعودونه من صَرْعته،ويشكون إليه مايجدُون لأجله ؛ وعند عثمان نفر من بني أميّة ، منهم مَرْوان بن الحكم ، فقالوا لعليّ عليه السلام:أهلكتنا وصنعت هذا الذي صنعت ! والله إن بلغتَ هذا الأمر الذي تريده لَتُمِرّنّ عليك الدنيا ؛ فقام مغضبًا ، وخرج الجماعة الذين حضروا معه إلى منازلهم .

***

وروى الواقديّ ، قال : صلى عثمان بعد ماوثبوا به في المسجد شهرا كاملا ، ثم منعوه الصلاة ، وصلّى بالناس أميرُهم الغافقيّ .

وروى المدائنيّ ، قال : كان عثمان محصوراً محاطا به ، وهو يصلّي بالناس في المسجد ، وأهلُ مصر والكوفة والبصرة الحاضرون له يصلون خَلْفه ، وهم أدقّ في عينه من التراب .

***

قال أبو جعفر فى التاريخ : ثم إنّ أهل المدينة تفرّقوا عنه ، ولزموا بيوتهم،لايخرج أحد منهم إلا بسيفه يمتنع به ؛ فكان حصاره أربعين يوما .

وروى الكلبىّ والواقدىّ والمدائنىّ أنّ محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حُذيفة كانا بمصر يحرّضان الناس على عثمان ، فسار محمد بن أبى بكر مع مَنْ سار إلى عثمان، وأقام محمد بن أبى حذيفة بمصر ، ثم غلّب عليها لما سار عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح عامل عثمان عنها إلى المدينة فى أثر المصريين ، بإذن عثمان له ، فلما كان بأيْلة ، بلغه أنّ المصريين قد أحاطوا بعثمان وأنه مقتول ، وأنّ محمد بن أبى حذيفة قد غلب على مصر ، فعاد عبدالله إلى مصر ، فمُنع عنها ، فأتى فلسطين ، فأقام بها حتى قُتِل عثمان .

وروى الكلبىّ،قال : بعث عبدالله بن سعد بن أبى سَرْح رسولاً من مصر إلى عثمان يخبره بنهوض مَنْ نهض من مصر إليه،وأنهم قد أظهروا العُمْرة ، وقصدُهم خلْعُه أو قتله، فخطب عثمان الناس ، وأعلمهم حالهم،وقال : إنهم قد أسرعوا إلى الفتنة واستطالوا عُمْرى، والله إن فارقتُهم ليتمنَّيَنّ كلٌّ منهم أن عمرى كان طال عليهم مكان كلّ يوم سَنَة؛ مما يرون من الدماء المسفوكة والإحَن والأثَرة الظاهرة ، والأحكام المغيرة .

* * *

وروى أبو جعفر ، قال : كان عمرو بن العاص ممن يحرّض على عثمان ويُغْرى به ، ولقد خطب عثمان يوما فى أواخر خلافته ، فصاح به عمرو بن العاص : اتق الله ياعثمان ، فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك ، فتب إلى الله نَتُبْ . فناداه عثمان : وإنك هاهنا يابن النابغة ! قَمِلَتْ والله جُبّتُك منذ نزعتك عن العمل . فنودى من ناحية أخرى : تب إلى الله . ونودى من أخرى مثل ذلك ، فرفع يديْهِ إلى السماء ، وقال : اللّهمّ إنى أول التائبين . ثم نزل .

* * *

وروى أبو جعفر ، قال : كان عمرو بن العاص شديدَ التحريض والتأليب على عثمان ، وكان يقول:والله إن كنتُ لألْقَى الراعي فأحرّضه على عثمان،فضلا عن الرؤساء والوجوه. فلما سُعِّرَ الشرّ بالمدينة ، خرج إلى منزله بفلسطين ، فبينا هو بقصره ومعه ابناه : عبد الله ومحمد ؛ وعندهم سَلاَمة بن روح الجذاميّ،إذ مرّ بهم راكب من المدينة فسألوه عن عثمان، فقال:محصور،فقال عمرو : أنا أبو عبدالله قد يضرط العَيْر والمكواة في النار.ثم مرّ بهم راكب آخر،فسألوه ، فقال : قُتِل عثمان فقال عمرو : أنا أبو عبد الله،إذا نكأتُ قَرْحةً أدميتُها [1] . فقال سلامة بن روح : يامعشرَ قريش ! إنما كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه ، فقال : نعم أردنا أن نخرجَ الحقّ من حَافِرَةِ الباطل ، ليكون الناس في الأمر شَرْعاً سواء .

وروى أبو جعفر ، قال : لما نزل القوم ذا خُشُب يريدون قتلَ عثمان إن لم ينزِعْ عمّا يكرهون،وعلم عثمان ذلك، جاء إلى منزل عليّ عليه السلام،فدخل وقال:يابنَ عمّ ، إنّ قرابتي قريبة ، ولي عليك حقّ ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مُصَبِّحِيّ ، ولك عند الناس قَدْر ، وهمْ يسمعون منك ، وأحبُّ أنْ تركب إليهم فتردّهم عنّي ، فإنّ في دخولهم عليّ وهْناً لأمري ، وجُرْأةً عليّ . فقال عليه السلام : على أي شيء أردّهم ؟ قال : على أنْ أصيرَ إلى ما أشرتَ به ، ورأيتَه لي . فقال عليّ عليه السلام : إني قد كلّمتك مَرة بعد أخْرَى ، فكل ذلك تخرج وتقول ، وتَعِد ثم ترجع ! وهذا من فعل مَرْوان ومعاوية وابن عامر وعبد الله بن سعد ؛ فإنك أطعتَهم وعصيتَني ! قال عثمان : فإني أعصيهم وأطيعُك .

فأمر عليّ عليه السلام الناسَ أن يركبوا معه ، فركب ثلاثون رجلا من المهاجرين

---

(١) الطبري : « نكأت قرحة أدميتها » .

والأنصار ، منهم سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وأبو جَهْم العدوىّ ، وجُبَير بن مُطعِم، وحَكيم بن حِزام ، ومَرْوان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن عتّاب ابن أُسيد .

ومن الأنصار أبو أُسَيد الساعدىّ ، وزيد بن ثابت ، وحسان بن ثابت ، وكعب ابن مالك ، وغيرهم .

فأتوا المصريين فكلموهم ،فكان[1] الذى يكلمهم علىّ ومحمد بن مَسْلمة ، فسمعوا منهما، ورجعوا بأصحابهم يطلبون مصر ، ورجع علىّ عليه السلام حتى دخل على عثمان ، فأشار عليه أن يتكلم بكلام يسمعه الناسُ منه ، ليسكنوا إلى مايعدهم به من النزوع[2] . وقال له : إنّ البلاد قد تمخضت عليك ، ولا آمن أن يجيء ركب من جهة أخرى ، فتقول لى : ياعلىّ ، اركب إليهم ؛ فإن لم أفعل رأيتنى قد قطعتُ رحمك ، واستخففت بحقك .

فخرج عثمان ، فخطب الخطبة التى نزع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة ، وقال لهم : أنا أولُ مَن اتعظ ، وأستغفر الله عما فعلت وأتوب إليه ، فمثلى نزع وتاب ؛فإذا نزلت فليأتنى أشرافكم فليرونى رأيهم ، وليذكر كلّ واحدٍ ظُلامته ؛ لأكشفها ،وحاجته لأقضيَها ، فوالله لئن ردنى الحقّ عبداً لأستنّ بسنة العبيد ، ولأذلّنّ ذُلّ العبيد ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، والله لأعطينكم الرضا ، ولأنحّينّ مروانَ وذويه ، ولا أحتجب عنكم .

فرَقّ الناسُ له وبكَوا حتى خضلُوا لحاهم ، وبكى هو أيضاً ، فلما نزل وجد مَروان وسعيداً[3] ونفراً من بنى أمية فى منزله قعوداً لم يكونوا شهدوا خطبته؛ ولكنها بلغتهم؛ فلما جلس ، قال مَروان : ياأمير المؤمنين ، أأتكلم أم أسكتُ ؟ فقالت نائلةُ ابنة الفَرافصة امرأة عثمان : لا بل تسكت ، فأنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله ؛ إنه قد قال مقالة لا ينبغى له

(١) أ ، ج : « وكان » . (٢) نزع من الأمر نزوعاً : انتهى منه . (٣) هو سعيد بن العاص.

أن ينزع عنها . فقال لها مَرْوان : وما أنت وذاك ! والله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ ! فقالت : مهلا يا مَرْوان عن ذكر أبي إلا بخير ؛ والله لولا أنّ أباك عمّ عثمان، وأنه يناله غمّه وعيبه ، لأخبرتُك مِنْ أمره بما لا أكذب فيه عليه .

فأعرض عنه عثمان ، ثم عاد فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أأتكلّم أم أسكت ؟ فقال : تكلم ، فقال : بأبي أنت وأمّي ! والله لوَدِدْتُ أنْ مقالتك هـذه كانت وأنت ممتنع ، فكنتُ أولَ مَنْ رَضِيَ بها وأعان عليها ؛ ولكنك قلت ما قلت ، وقد بلغ الحزامُ الطُّبْيَيْن ، وجاوز السَّيلُ الزُّبَى[1] ، وحين أعطى الخطةَ الذليلةَ الذليل ؛ والله لإقامةٌ على خطيئة تستغفر الله منها ، أجملُ من توبة تُخوَّف عليها ، ماازددتَ على أن جرّأْتَ عليك الناس .

فقال عثمان : قد كان من قوْلي ما كان ، وإنّ الفائتَ لا يُرَدّ ، ولم آلُ خيرا .

فقال مروان : إنّ الناسَ قد اجتمعوا ببابك أمثالَ الجبال ، قال : ماشأنهم ؟ قال : أنتَ دعوتَهم إلى نفسك ، فهذا يذكر مظلمة ، وهذا يطلب مالا ، وهذا يسأل نزع عامل من عُمّالك عنه ، وهذا ماجَنيْتَ على خلافتك ، ولو استمسكتَ وصبرتَ كانَ خيراً لك. قال : فاخرُجْ أنت إلى الناس فكلّمهم فإنّي أستحيي أنْ أكلّمهم وأردّهم .

فخرج مَرْوانُ إلى الناس ، وقد رَكِبَ بعضُهم بعضا ، فقال : ماشأنُكم ؟ قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهْب ؟ شاهت الوجوه[2] ! أتريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ! اعزُبوا عنّا ! والله إنْ رُمْتمونا لنُمِرَّنّ عليكم ما حلا ، ولنُحِلّنّ بكم مالا يسركم ، ولاتحمدوا فيه غِبّ[3] رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله غيرُ مغلوبين على ما في أيدينا .

---

(١) جاوز الحزام الطبيين ؛ مثل ؛ يقال لمواضع الأخلاف من الثلاثة أطباء ؛ واحدها طبي ؛ بضم الطاء وكسرها ، فإذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى في المكروه . ومثله جاوز السيل الزبى ؛ والزبى جمع زبية ؛ وهي مصيدة الأسد ؛ ولا تتخذ إلا في قلة أو هضبة أو رابية .

(٢) شاهت الوجوه : قبحت .

(٣) غب رأيكم ، أي عاقبة رأيكم .

فرجع الناس خائبين يشتمون عثمان ومَرْوان، وأتى بعضُهم عليًّا عليه السلام فأخبره الخبر ، فأقبل علىٌّ عليه السلام عَلَى عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزُهرىّ ، فقال : أحَضرتَ خطبة عثمان ؟ قال : نعم ، قال : أحَضرتَ مقالة مروان الناس ؟ قال : نعم ، فقال : أى عبادَ الله ، يالله للمسلمين ! إنّى إن قعدتُ فى بيتى ، قال لى : تركتَنى وخذلتنى ! وإن تكلّمت فبلّغت له ما يريد ، جاء مَرْوان فتلعّب به حتى قد صار سَيِّقة[1] له ؛ يسوقه حيث يشاء ، بعد كِبَر السنّ وصحبة الرسول صلى الله عليه . وقام مغضبًا من فَوْرِه حتى دخل عَلَى عثمان ، فقال له : أما يرضى مَرْوان منك إلّا أن يحرفك عن دينك وعقلك ! فأنتَ معه كجمل الظّعينة ، يُقاد حيث يُسارُ به ، والله ما مرْوان بذى رأىٍ فى دينه ولا عقله ، وإنى لأراه يُورِدك ثم لا يُصْدِرك ، وما أنا عائدٌ بعد مقامى هذا لمعاتبتك ؛ أفسدتَ شرفَك ، وغُلِبت عَلَى رأيك . ثم نَهَض .

فدخلت نائلة بنت الفَرافصة ، فقالت : قد سمعتُ قول علىّ لك ، وإنه ليس براجعٍ إليك ولا معاودٍ لك ، وقد أطعتَ مَرْوان يقودُك حيث يشاء . قال : فما أصنعُ ؟ قالت : تتقِى الله وتتبع سنة صاحبيك ، فإنك متى أطعتَ مَرْوان قتلَك ، وليس لمرْوان عند الناس قَدْر ولا هيبة ولا محبّة ، وإنما تركَك الناس لمكانه ، وإنما رجع عنك أهلُ مصر لقول علىّ ؛ فأرسِلْ إليه فاستصلِحْه ؛ فإنّ له عند الناس قَدَمًا ، وإنّه لا يُعصى .

فأرسل إلى علىّ فلم يأته وقال : قد أعلمتُه أنّى غير عائد .

قال أبو جعفر : فجاء عثمانُ إلى علىّ بمنزله ليلا ، فاعتذرَ إليه ، ووعد من نفسه الجميل ، وقال : إنى فاعل ، وإنى غير فاعل ؛ فقال له علىّ عليه السلام : أبعدَ ما تكلّمت على منبر رسول الله صلى الله عليه ، وأعطيتَ من نفسك ، ثم دخلتَ بيتك ، وخرج مَرْوان

(١) سيقة له : أى سوقاً .

إلى النّاس يشتمهم على بابك ! فخرج عثمان من عنده ، وهو يقول : خذلتَنى يا أبا الحسن ! وجرّأت الناس علىّ ! فقال علىّ عليه السلام : والله إنى لأكثرُ الناس ذَبًّا عنك ؛ ولكنّى كلّما جئتُ بشىء أظنه لك رضا ، جاء مَرْوان بغيره فسمعتَ قوله ، وتركتَ قولى .

ولم يفدْ علىّ إلى نَصْر عثمان ؛ إلى أن مُنِع الماء لمّا اشتد الحصار عليه ، فغضب علىّ من ذلك غضبا شديداً ، وقال لطلحة : أدخلوا عليه الرّوايا ، فكره طلحة ذلك وساءه ، فلم يزل علىّ عليه السلام حتى أدخل الماء إليه .

• • •

وروى أبو جعفر أيضاً أنّ عليًّا عليه السلام كان فى ماله بخيبر لمّا حُصِر عثمان ، فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحة ، وكان لطلحة فى حصار عثمان أثر ، فلما قدِم علىّ عليه السلام أتاه عثمان ، وقال له : أما بعدُ ؛ فإن لى حقّ الإسلام وحقّ الإخاء ، والقرابة والصِّهر ، ولو لم يكن من ذلك شىء وكنّا فى جاهلية ، لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتزّ بنو تَيْم أمرَهم — يعنى طلحة — فقال له علىّ : أنا أكفيك ، فاذهب أنت .

ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة بن زيد ، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهى تعاوة من الناس ، فقال له : يا طلحة ، ما هذا الأمر الذى صنعتَ بعثمان ؟ فقال : يا أبا حسن ، أبعد أن مسّ الحزام الطُّبْيَيْن ! فانصرف علىّ عليه السلام حتى أتى بيتَ المال ، فقال : افتحوه ، فلم يجدوا المفاتيح ، فكسّر الباب ، وفرّق ما فيه على النّاس ؛ فانصرف الناس من عند طلحة حتى بَقِىَ وحده ، وسُرّ عثمان بذلك ؛ وجاء طلحة فدخل على عثمان ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّى أردت أمراً فحال اللهُ بينى وبينه ، وقد جئتك تائباً ، فقال : والله ما جئتَ تائباً ولكن جئت مغلوباً ؛ الله حسيبُك ياطلحة !

• • •

قال أبو جعفر : كان عثمان مستضعفا ، طمع فيه الناس ، وأعان على نفسه بأفعاله وباستيلاء بنى أمية عليه ، وكان ابتداء الجرأة عليه أنّ إبلا من إبل الصّدقة قُدِم بها عليه ؛ فوهبها لبعض ولد الحكم بن أبى العاص ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف ، فأخذها وقسّمها بين الناس وعثمان فى داره ، فكان ذلك أوّل وَهْن دخل على خلافة عثمان .

وقيل : بل كان أول وَهْن دخل عليه ، أن عثمان مرّ بجبلة بن عمرو الساعدىّ ، وهو فى نادى قومه ، وفى يده جامعة ، فسلّم ، فردّ القوم عليه ، فقال جبلة : لِمَ تردّون على رَجُل فعل كذا وفعل كذا ؟ ثم قال لعثمان : والله لأطرحنّ هذه الجامعة فى عُنُقك أو لتتركنّ بطانتك هذه الخبيثة ؛ مروان وابن عامر وابن أبى سرح ، فمنهم من نزّل القرآن بذمّه ، ومنهم من أباح رسول الله صلى الله عليه دمه .

وقيل : إنه خطب يوما وبيده عصا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وأبو بكر وعمر يخطبون عليها ، فأخذها جهجاه الغفارىّ من يده ، وكسرها على ركبته ، فلما تكاثرت أحداثه ، وتكاثر طمعُ الناس فيه ، كتب جَمْعٌ من أهل المدينة من الصّحابة وغيرهم إلى مَنْ بالآفاق : إن كنتم تُريدون الجهاد ، فهلمّوا إليه؛ فإن دين محمد قد أفسده خليفتكم فاخلعوه ، فاختلفت عليه القلوب ، وجاء المصريون وغيرهم إلى المدينة حتى حدث ما حدث .

* * *

وروى الواقدىّ والمدائنىّ وابن الكلبىّ وغيرهم ، وذكره أبو جعفر فى التاريخ ؛ وذكره غيرُه من جميع المؤرخين : أن عليا عليه السلام لما ردّ المصريّين ، رجعوا بعد ثلاثة أيام ، فأخرجوا صحيفة فى أنبوبة رَصاص ، وقالوا : وجدنا غلام عثمان بالموضع المعروف

بالبُوَيْب[1] على بعير من إبل الصدقة ، ففتشنا متاعه ؛ لأنا استربْنا أمره ، فوجدنا فيه هذه الصحيفة ، مضمونها أمرُ عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح بجلد عبد الرحمن بن عُدَيس وعمرو بن الحمِق ، وحَلْق رءوسهما ولحاهما وحبْسهما ، وصلب قوم آخرين من أهل مصر .

وقيل : إنّ الذى أخذَتْ منه الصحيفة أبو الأعور السلمىّ ، وإنهم لما رأوه وسألوه عن مسيره ، وهل معه كتاب ؟ فقال : لا ، فسألوه : فى أى شىء هو ؟ فتغير كلامه ، فأخذوه وفتشوه وأخذوا الكتاب منه ، وعادوا إلى المدينة . وجاء الناس إلى علىّ عليه السلام ، وسألوه أن يدخل إلى عثمان فيسأله عن هذه الحال ، فقام فجاء إليه فسأله ، فأقسم بالله ما كتبتُه ولا علمتُه ، ولا أمرت به ، فقال محمد بن مسلمة : صدق ، هذا من عمل مَرْوان ، فقال : لا أدرى — وكان أهل مصر حضورا — فقالوا : أفيجترأ عليك ويبعثُ غلامُك على جمل من إبل الصدقة ؛ وينقش على خاتمك ، ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمة ، وأنت لا تدرى ! قال : نعم ، قالوا : إنك إمّا صادق أو كاذب ، فإن كنت كاذبا فقد استحققتَ الخلع ؛ لما أمرتَ به من قتلنا وعقوبتنا بغير حق ، وإن كنتَ صادقا فقد استحققْتَ الخلع ، لضعفك من هذا الأمر وغفلتك ، وخبث بطانتك ، ولا ينبغى لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته ، فاخلع نفسك منه . فقال : لا أنزع قميصا ألبسنيه الله ، ولكنى أتوب وأنزع ، قالوا : لو كان هذا أول ذنب تبت منه لقبلنا ، ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ، ولسنا بمنصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله ، وإن منعك أصحابُك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك . فقال : أمّا أن أبرأ من خلافة الله فالقتلُ أحبُّ إلىّ من ذلك ؛ وأما قتالُكم مَنْ يمنعُ عنى ، فإنى لا آمر أحدا بقتالكم ، فمن قاتلكم فبغير أمرى قاتَلَ ، ولو أردتُ قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا

---

(١) البويب : مدخل أهل الحجاز إلى مصر .

علىٌّ أو لخفتُ ببعض الأطراف . وكثرت الأصوات واللغط ، فقام علىٌّ فأخرج أهل مصر معه ، وخرج إلى منزله .

***

قال أبو جعفر : وكتبَ عثمان إلى معاويةَ وابنِ عامر وأمراء الأجناد يستنجدهم ، ويأمر بالعَجَل والبِدار وإرسال الجنود إليه ، فتربّص به معاوية ، فقام فى أهل الشام يزيد ابن أسد القَسْرى جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق ، فتبعه خَلْقٌ كثير ، فسار بهم إلى عثمان ، فلما كانوا بوادى القُرَى بلَغهم قتلُ عثمان ، فرجعوا .

وقيل : بل أشخص معاويةُ من الشام حبيبَ بن مسلمة الفِهرىّ ، وسار من البصرة مجاشع بن مسعود السُّلَمىّ ، فلما وصلوا الرَّبَذة[١] ، ونزلت مقدمتهم الموضع المسمى صِرارا[٢] بناحية المدينة ، أتاهم قتلُ عثمان ، فرجعوا . وكان عثمان قد استشار نُصَحاءه فى أمره ، فأشاروا أن يرسل إلى علىّ عليه السلام ، يطلب إليه أن يردّ الناس ويعطيَهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى تأتيه الأمداد ، فقال : إنهم لا يقبلون التعليل ، وقد كان منّى فى المرة الأولى ما كان ، فقال مَرْوان : أعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك ، فإنهم قوم قد بغَوْا عليك ، ولا عهد لهم .

فدعا عليا عليه السلام ، وقال له : قد ترى ما كان من الناس ، ولستُ آمَنُهم على دمى ، فارددْهم عنّى ، فإنى أُعطيهم ما يُريدون من الحق من نفسى ومن غيرى .

فقال علىّ : إن الناسَ إلى عَدْلِك أحوجُ منهم إلى قتلك ، وإنهم لا يرضَوْن إلا

---

(١) الربذة : من قرى المدينة ، على ثلاثة أميال منها ، بها قبر أبى ذر الغفارى .

(٢) صرار : موضع قريب من المدينة ، على طريق العراق .

بالرضا ، وقد كنتَ أعطيتَهم مِنْ قبلُ عهداً فلم تفِ به ، فلا تغرّر فى هذه المرة ، فإنى معطيهم عنك الحقّ ، قال : أعطهم فو الله لأفِيَنّ لهم .

فخرج علىّ عليه السلام إلى الناس ، فقال : إنكم إنما تطلبون الحقّ وقد أعطيتموه ، وإنه منصفكم من نفسه ، فسأله الناس أن يستوثقَ لهم ، وقالوا : إنا لا نرضى بقول دون فعل ، فدخل عليه فأعلمه ، فقال : اضرب بينى وبين الناس أجلاً ، فإنى لا أقدر على تبديل ما كرهوا فى يوم واحد ، فقال علىّ عليه السلام : أما ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه ، وأما ما غاب فأجلُه وصولُ أمرك ، قال : نعم ، فأجّلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . فأجابه إلى ذلك ، وكتب بينه وبين الناس كتاباً على ردّ كلّ مظلمة ، وعزل كلّ عامل كرهوه . فكفّ الناس عنه ، وجعل يتأهّب سرّاً للقتال ، ويستعدّ بالسلاح ، واتخذ جُنداً ، فلما مضت الأيام الثلاثة ولم يغيّر شيئاً ثار به الناسُ ، وخرج قوم إلى مَنْ بذى خُشُب من المصريين ، فأعلموهم الحال ، فقدموا المدينة ، وتكاثر الناس عليه ، وطلبوا منه عزْلَ عماله وردّ مظالمهم ؛ فكان جوابُه لهم : إنى إن كنت أستعمِل مَنْ تريدون لا مَنْ أريد ، فلست إذن فى شىء من الخلافة ، والأمر أمرُكم . فقالوا : والله لتفعلنّ أو لتُخلعنّ أو لنقتلنّك . فأبى عليهم وقال : لا أنزع سِرْبالاً سربلنيه الله . فحصروه وضيّقوا الحصار عليه .

• • •

وروى أبو جعفر : لما اشتدّ على عثمان الحِصار ، أشرفَ على الناس ، فقال : يأهل المدينة ، أستودِعكم الله وأسأله أن يُحْسِن عليكم الخلافة من بعدى ، ثم قال : أنشُدكم الله ، هل تعلمون أنكم دعوتُم الله عند مصاب عُمَرَ أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم ! أفتقولون : إن الله لم يستجِبْ لكم ، وهُنتم عليه ، وأنتم أهلُ حَقِّه وأنصار نبيّه[1] ، أم تقولون : هان على الله

(١) ب : « دينه » .

دينهُ فلم يبالِ من وَلى ، والدين لم يتفرق أهله بعد ! أم تقولون: لم يكن أخذعن مشورة ، إنما كان مكابرة ، فوكل الله الأمة - إذ عصَتْه ولم يتشاوروا فى الإمامة - إلى أنفسها ! أم تقولون: إن الله لم يَعلمْ عاقبة أمرى! فمهلا مهلا ! لاتقتلونى مونه لايحلّ إلا قتل ثلاثة : زانٍ بعد إحصان ،أو كافر بعد إيمان ،أوقاتل نفس بغير حق.أمّا إنكم إن قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لايرفعه الله عنكم أبداً . فقالوا : أما ماذكرت من استخلاف الناس بعد عمر، فإن كلّ مايصنعه الله الخيرة ، ولكنّ الله جعلك بلية ابتلى بها عبادَه،ولقد كانت لك قدَم وسابقة ، وكنتَ أهلاً للولاية ، ولكن أحدثتَ ماتعلمُه ، ولا نترك اليوم إقامةَ الحق عليك مخافة الفتنة عاماً قابلاً . وأما قولك : لايحلّ دم إلا بإحدى ثلاث :فا نا نجد فى كتاب الله إباحة دم غير الثلاثة : دم مَنْ سَعَى فى الأرض بالفساد ، ودم مَنْ بغى ثم قاتل على بغيه ، ودم مَنْ حال دون شئ من الحق ومنعه وقاتل دونه ؛ وقد بغيتَ ومنَعْتَ الحقَ ، وحُلْتَ دونه ، وكابرتَ عليه ، ولم تُقِد من نفسك مَنْ ظلمتَه ، ولا مِنْ عُمّالك ، وقد تمسّكتَ بالإمارة علينا . والذين يقومون دونك ويمنعونك، إنما يمنعونك ويقاتلوننا لتسميتك بالإمارة ؛ فلو خلعتَ نفسك لانصرفوا عن القتال معك .

فسكت عثمان ولزم الدار ، وأمر أهلَ المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا ، إلّا الحسن بن علىّ ، ومحمد بن طلحة ، وعبد الله بن الزّبير وأشباها لهم ، وكانت مدة الحصار أربعين يوما .

* * *

قال أبو جعفر : ثم إنّ محاصرى عثمان أشفقوا مِنْ وصول أجناد من الشام والبصرة تمنعه ، فحالوا بين عثمان وبين الناس ، ومنعُوه كلّ شيء حتى الماء ، فأرسل عثمان سراً إلى علىّ عليه السلام ، وإلى أزواج النبىّ صلى الله عليه أنهم قد منعونا الماء ، فإن قدرتم أن

تُرسلوا إليهـا ماء فاقتلوا . فجاء علىّ عليه السلام فى الغَلَس وأمّ حبيبة بنتُ أبى سفيان ، فوقف علىّ عليـه السلام على النـاس فوعظهم ، وقال : أيّهـا الناس ؛ إنّ الذى تفعلون لايشبِـهُ أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الـكافرين ؛ إنّ فارس والروم لَتـأسِر فتُطْعِم وتَسْقِى ، فالله الله ! لاتقطعُوا المـاء عن الرجـل ؛ فأغلظوا له وقالوا : لانَعَمَ ولا نَعْمَة عين[1]. فلما رأى منهم الجدّ نزعَ عمامته عن رأسه ، ورمى بها إلى دار عثمان ، يُعلِمه أنه قد نهض وعاد .

وأما أمّ حبيبة ـ وكانت مشتملة على إداوة ـ فضربوا وجه بَغْلتها ، فقالت : إنّ وصايا أيتام بنى أمية عند هذا الرجل ، فأحببتُ أن أسأله عنها لئلا تَهْلِك أموالُ اليتامى ، فشتموهـا ، وقالوا : أنت كاذبة ، وقطعوا حبل[2] البغلة بالسيف ، فنفَرَت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها الناس فحملوها إلى منزلها .

• • •

وروى أبو جعفر ، قال : أشرف عثمان عليهم يوما فقال : أنشُدُكم الله ، هل تعلمون أنّى اشتريتُ بئر رُومة[3] بمالى ، أستعذب بهـا ، وجعلت رِشائى فيها كرجل من المسلمين ! قالوا : نعم ، قال : فلِم تمنعونى أن أشرب منها حتى أُفطِرَ على ماء البحر ! ثم قال : أنشُدُكم الله ، هل تعلمون أنى اشتريتُ أرضَ كذا ، فزدتُها فى المسجد ؟ قالوا : نعم ، قال : فهل علمتُم أنّ أحداً مُنِع أن يُصَلّىَ فيه قبلى !

---

(١) نعمة العين : قرتها .

(٢) الحبل الغابة : رسنها .

(٣) بئر رومة فى عقيق المدينة ، روى عن بشير الأسلمى ، قال : لما قدم المهاجرون المدينة استنكروا الماء ، وكانت لرجل من بنى غفار بئر يقال لها بئر رومة ، كان يبيع منها القربة بالمد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعنيها بعين فى الجنة ، فقال : يارسول الله ، ليس لى ولا لعيالى غيرها ، لا أستطيع ذلك ، فبلغ ذلك عثمان ، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم . . وتصدق بها كلها . (معجم البلدان ١ : ٤)

وروى أبو جعفر عن عبد الله بن عيّاش بن أبى ربيعة المخزومى ، قال : دخلتُ على عثمان ، فأخذ بيدى فأسمعنى كلامَ مَنْ على بابه من الناس ،فمنهم مَنْ يقول : ماتنتظرون به ؟ ومنهم مَنْ يقول : لاتعجلوا ، فعسأه ينزع ويراجع ؟ فبينا نحن إذ مرّ طلحة ، فقام إليه ابنُ عُدَيْس البلوىّ ، فناجاه ، ثم رجع ابنُ عُدَيس ، فقال لأصحابه : لاتتركوا أحدا يدخل إلى عثمان ، ولا يخرج من عنده ، قال لى عثمان : هذا ماأمر به طلحة ، اللهمّ اكفنى طلحة ، فإنه حَمَل هؤلاء القوم وألّبهم علىّ ، والله إنى لأرجو أن يكونَ مِنْها صِفْرا ،وأن يُسفَكَ دمه ! قال : فأردت أن أخرج ، فمنعونى حتى أمرهم محمد بن أبى بكر ، فتركونى أخرج[1].

* * *

قال أبو جعفر : فلما طال الأمرُ وعلم المصريون أنهم قدأجرموا إليه جرماً كجُرم القتل، وأنه لافرق بين قتله وبين ماأتوا إليه ، وخافوا على نفوسهم من تَرْكه حيّاً ، راموا الدخولَ عليه من باب داره ، فأغلقوا الباب ، ومانعهم الحسنُ بن علىّ ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن طلحة ، ومَرْوان ، وسعيد بن العاص ، وجماعة معهم من أبناء الأنصار، فزجرَهم عثمان ، وقال : أنتم فى حِلٍّ من نُصْرتى ، فأبوْا ولم يرجعوا .

وقام رجل من أسْلَمَ يقال له نيار بن عياض ــ وكان من الصّحابة ــ فنادى عثمان ، وأمره أن يخلَعَ نفسه ، فبينا هو يُناشِده ويسومُه خَلْع نفسه ، رماه كَثِير بن الصّلت الكِنْدِىّ ــ وكان من أصحاب عثمان من أهل الدار ــ بسَهْم فقتله ، فصاح المصريون وغيرهم عند ذلك : ادفعوا إلينا قاتلَ ابن عياض لنقتله به ، فقال عثمان : لم أكن لأدفعَ إليكم رجلا نَصَرنى وأنتم تريدون قتلى ! فثاروا إلى البــاب ، فأغلق دونهم ، فجاءوا بنار فأحرقوه وأحرقوا السّقيفة التى عليه ، فقال لمن عنده من أنصاره : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد

---

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

إلىّ عَهْدًا فأنا صابر عليه ، فأحَرِّج على رجل يقاتل دونى ! ثم قال للحسن : إنّ أباك الآن لَفِى أمر عظيم مِنْ أجلك ، فاخرج إليه ، أقسمت عليك لمّا خرجت إليه ! فلم يفعل، ووقف محاميا عنه .

وخرج مروان بسيفه يجالد الناس ، فضرَبه رجل من بنى لَيْث على رقبته ، فأثبته[1] وقطع إحدى عِلْبَاوَيه[2] ، فعاش مَرْوان بعد ذلك أَوْقَص[3] ، وقام إليه عُبَيد بن رفاعة الزُّرَقىّ ليُذَفِّف عليه[4] ، فقامت دونه فاطمة أمّ إبراهيم بن عدىّ ـ وكانت أرضعت مروان وأرضعت له ـ فقالت له : إن كنت تُريد قتله فقد قُتِل ، وإن كنت إنما تريد أن تتلعّب بلحمه فأقبح بذلك ! فتركه، فخلّصته وأدخلته بيتها ، فعرف لها بنوه ذلك بعد ، واستعملوا ابنها إبراهيم ، وكان له منهم خاصة[5] .

وقُتِلَ المغيرة بن الأخنس بن شَرِيق ، وهو يحامى عن عثمان بالسيف ، واقتحَم القومُ الدّار ، ودخل كثير منهم الدُّور المجاورة لها ، وتسوّروا من دار عمرو بن حزم إليها حتى ملئوها ، وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلا لقتله ، فدخل إليه البيت ، فقال له : اخلعها وندَعك ، فقال : ويحك ! والله ما كشفتُ عن امرأة فى جاهلية ولا إسلام ، ولا تغنّيت[6] ولا تمنّيت ، ولا وضعت يمينى على عورتى مذ بايعت رسول الله ، ولست بخالع قميصا كسانيه الله ، حتى يكرم أهل السعادة ، ويهين أهل الشقاوة .

فخرجَ عنه فقالوا له : ما صنعت ؟ قال : إنّى لم أستحلّ قتله ، فأدخلوا إليه رجلا من الصحابة ، فقال له : لستَ بصاحبى ؛ إن النبىّ صلى الله عليه دعا لك أن يحفظك يوم كذا، ولن تَضيع ؛ فرجع عنه .

(١) أثبته : جعله ثابتاً فى مكانه لا يتحرك من أثر الجراحة .
(٢) علباوان : مثنى علباء ؛ وهى عصب العنق .
(٣) الوقص : قصر العنق .
(٤) يذفف على الجريح : يجهز عليه .
(٥) والخاصة : من تخصه بنفسك .
(٦) تغنى الرجل : تأتى ليصيب شيئاً يحبه .

فأدخلوا إليه رجلا من قريش، فقال له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لك يوم كذا ، فلن تُقارِف دما حراما ، فرجع عنه .

فدخل عليه محمد بن أبي بكر، فقال له عثمان : ويحك ! أعلى الله تغضب ! هل لي إليك جُرْم إلا أني أخذت حقَّ الله منك ؟ فأخذ محمد بلحيته ، وقال : أخزاك الله يا نعثل[1] ! قال : لست بنعثل ، ولكني عثمان وأمير المؤمنين ! فقال : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان ! فقال عثمان : يابن أخي ، دَعْها من يدك ، فما كان أبوك ليقبض عليها ، فقال : لو علمَ ما عملت في حياة أبي لقبض عليها ، والذي أريد بك أشدُّ من قبضي عليها ، فقال : أستنصر الله عليك وأستعين به ، فتركه وخرج .

وقيل : بل طَعن جبينه بمِشْقَصٍ[2] كان في يده ، فثار سُودان بن حُمْران ، وأبو حرب الغافقيّ وقُتيرة بن وهب السَّكسكيّ ، فضربه الغافقيّ بعمود كان في يده ، وضرب المصحف برجله ـ وكان في حجره ـ فنزل بين يديه وسال عليه الدمُ . وجاء سُودان ليضربه بالسيف ، فأ كبَّتْ عليه امرأته نائلة بنت الفَرافصة[3] الكلْبية ، واتقت السيف بيدها وهي تَصْرخُ ، فنفح أصابعها فأطنّها[4] ، فولّت ، فغمز بعضُهم أوراكها ، وقال : إنّها لكبيرة العجُز ، وضرب سُودان عثمان فقتله .

وقيل : بل قتَلَهُ كنانة بن بشر التُّجيبيّ وقيل : بل قتيرة بن وهب . ودخل غلمان عثمان ومواليه ، فضرَب أحدُهم عنقَ سودان فقتله ، فوثب قُتَيْرة بن وهب على ذلك الغلام

---

(١) نعثل : رجل من أهل مصر كان طويل اللحية ؛ قيل : إنه كان يشبه عثمان ، قال أبو عبيد : وشاتمو عثمان رضي الله عنه يسمونه نعثلا (اللسان) .

(٢) المشقص ، كمنبر : نصل عريض .

(٣) الفرافصة ؛ قال في اللسان : ليس في العرب من يسمى الفرافصة بالألف واللام غيره ، ونقل ابن برى عن القالى عن ابن الأنبارى عن أبيه عن شيوخه ، قال : كل ما في العرب فرافصة ، بضم الفاء إلا فرافصة أبا نائلة امرأة عثمان رضي الله عنه . بفتح الفاء لاغير . تاج العروس ٤ : ٤٩٥ .

(٤) أطنها : قطعها .

فقتله ، فوثب غلام آخر على قتيرة فقتله ، ونهبت دار عثمان ، وأخذ ماعلى نسائه وما كان في بيت المال ، وكان فيه غرارتان دراهم . ووثب عمرو بن الحمِق على صدر عثمان وبه رَمَق فطعنه تسع طعنات ، وقال : أما ثلاثٌ منها فإني طعنتهنّ لله تعالى ، وأما ستٌّ منها فلِما كان في صدري عليه . وأرادوا قطعَ رأسه ، فوقعت عليه زوجتاه : نائلة بنت الفرافصة وأمّ البنين ، ابنة عُيينة بن حِصْن الفَزارىّ ، فصِحْن وضربن الوجوه ، فقال ابن عُدَيس : اتركوه ، وأقبل عمير بن ضابئ البُرْجُمِىّ فوثب عليه ، فكسر ضِلعين من أضلاعه، وقال له : سجنت أبي حتى مات في السجن ! وكان قتله يوم الثامن عَشَر من ذى الحِجّة من سنة خمس وثلاثين . وقيل : بل في أيام التشريق ، وكان عمره ستا وثمانين سنة .

قال أبو جعفر : وبقىَ عثمان ثلاثة أيام لا يدفن . ثم إنّ حكيم بن حزام وجُبَير بن مُطعِم كلّما عليا عليه السلام في أن يأذن في دفنه ففعل ، فلما سمع الناس بذلك قعَدَ له قوم في الطريق بالحجارة ، وخرج به ناس يسير من أهله ، ومعهم الحسن بن علىّ وابن الزّبير ، وأبو جهم بن حُذيفة بين المغرب والعشاء ، فأتوا به حائطا من حيطان المدينة يعرف بحَشّ كوكب[1] وهو خارج البَقِيع ، فصلّوا عليه . وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ، فأرسل علىّ عليه السلام ، فمَنعَ مَنْ رجم سريره ، وكفّ الذين راموا منْع الصلاة عليه ، ودفن في حَشّ كوكب ، فلما ظهر معاوية على الأمر ، أمر بذلك الحائط فهُدِم ، وأدخِل في البَقِيع ، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره ؛ حتى اتّصل بمقابر المسلمين بالبقيع .

وقيل : إن عثمان لم يغسّل ، وإنه كُفّن في ثيابه التي قتل فيها .

---

(١) حش كوكب : موضع بجانب البقيع ، اشتراه عثمان وزاد فيه (مراصد الاطلاع) .

قال أبو جعفر : وروىَ عن عامر الشعبيّ أنه قال : ماقُتِل عمر بن الخطاب حتى ملّته قريش واستطالت خلافته ، وقد كان يعلم فتنتهم،فحصرهم فى المدينة وقال لهم : إنّ أخوَف ما أخاف على هذه الأمّة انتشارُكم فى البلاد . وإن كان الرجل ليَستأذِنه فى الغزو، فيقول: إنّ لك فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه مايكفيك، وهو خير لك من غَزْوك اليوم، وخيرٌ لك من الغَزْو ألّا ترى الدنيا ولا تراك . فكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش ، ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكّة ، فلما ولِيَ عثمان الخلافة خلّى عنهم فانتشروا فى البلاد، وخالطهم الناس ، وأفضى الأمر إلى ما أفضى إليه ، وكان عثمان أحبَّ إلى الرعيّة من عمر .

•••

قال أبو جعفر : وكان أوّلَ منكَر ظهر بالمدينة فى خلافة عثمان حين فاضت الدنيا على العرب والمسلمين طيرانُ الحمام والمسابقة بها ، والرمى عن الجُلاهقات — وهى قسىّ البندق — فاستعمل عثمان عليها رجلا من بنى ليث فى سنة ثمان من خلافته ، فقصّ الطيور وكسر الجُلاهقات .

•••

وروى أبو جعفر ، قال : سأل رجل سعيدَ بن المسيّب عن محمد بن أبى حُذيفة:مادعاه إلى الخروج على عثمان ؟ فقال : كان يتيما فى حجرعثمان ، وكان والىَ أيتام أهل بيته ومحتمِل كلّهم ، فسأل عثمانَ العمل ، فقال : "(يابُنىّ لوكنت رضًا لاستعملتُك ، قال : فأذَنْ لى فأخرج فأطلب الرزق)" ، قال:اذهب حيث شئت ، وجهزه من عنده ، وحمله وأعطاه،فلما وقع إلى مصر كان فيمن أعان عليه ؛ لأنّه منعه الإمارة.. فقيل له : عمّار بن ياسر ؟ قال :

(١ ــ ١) عبارة الطبرى . يابنى ، لوكنت رضاً ، ثم سألتنى العمل لاستعملتك ، ولكن لست هناك، قال : فأذن لى ، فلأخرج فلأطلب مايقوتنى » .

كان بينه وبين العباس بن عُتْبة بن أبي لهب كلام فضربهما عثمان ، فأورث ذلك تمادياً بين عمّار وعثمان . وقد كان تقاذفا قبلَ ذلك[1] .

قال أبو جعفر : وسئل سالم بن عبد الله عن محمد بن أبي بكر : مادعاه إلى ركوب عثمان ؟ فقال : لزمَه حَقٌّ ، فأخذ عثمان من ظهره ، فنضب ، وغرّه أقوام فطمع لأنه كان من الإسلام بمكان ، وكانت له دالّة ، فصار مذمّماً بعد أنْ كان محمّداً ، وكان كعب ابن ذي الحَبَكة النهديّ يلعب بالنَّيرنجات[2] بالكوفة ، فكتب عثمان إلى الوليد أن يوجعه ضرباً ، فضربه وسيّره إلى دُنباوند[3] .

وكان ممن خرج إليه وسار إليه ، وحُبس ضابئ بن الحارث البُرْجمي ، لأنه هجا قوماً فنسبهم إلى أنّ كلبَهمْ يأتي أمّهم ، فقال لهم :

فأُمَّكُمْ لَا تَتْرُكوها وَكَلْبَكُمْ فإنَّ عُقُوقَ الوالدين كَبِيرُ[4]

(١) تاريخ الطبرى ٤ : ٣٩٩ .

(٢) النيرنجات : أخذٌ كالسحر ، وليست بحقيقة .

(٣) دنباوند : جبل بنواحي الري ، ويقال له : دباوند .

(٤) ذكر الطبرى ٤ : ٤٠٢ أن ضابئ بن الحارث البرجمي استعار في زمان الوليد بن عقبة كلباً من قوم من الأنصار ، يدعى قرحان ، لصيد الظباء ، فحبسه منهم ، فنافره الأنصاريون ، واستغاثوا عليه بقومه ، فكاثروه فانتزعوه منه ، وردوه على الأنصار ، فهجاهم وقال في ذلك :

تَجَشَّمَ دُونِي وَفْدُ قُرحانَ خُطَّةً تَضِلُّ لَهَا الْوَجْنَاءُ وَهِيَ حَسِيرُ

فَباتُوا شِباعاً نَاعِمِينَ كَأَنَّمَا حَبَاهُمْ بِبَيْتِ الْمَرْزُبَانِ أَمِيرُ

فَكَلْبَكُمْ لاتَتْرُكوا فَهْوَ أُمُّكُمْ فَإِنَّ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ كَبِيرُ

فاستعدوا عليه عثمان ، فأرسل إليه ، فعزره وحبسه ، كما كان يصنع بالمسلمين ، فاستثقل ذلك ، فما زال في الحبس حتى مات فيه ، وقال في الفتك يعتذر إلى أصحابه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَائِلُهْ

وَقَائِلَةٍ قَدْ مَاتَ فِي السِّجْنِ ضَابِئٌ أَلَا مَنْ لِخَصْمٍ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُجَادِلُهْ !

وَقَائِلَةٍ لَا يُبْعِدُ اللهُ ضَابِئاً فَنِعْمَ الْفَتَى تَخْلُو بِهِ وَتُحَاوِلُهْ

فاستعدَوْا عليه عثمان ، فحبسه فمات في السجن ، فلذلك حقد ابنه عُمَير عليه وكسر أضلاعه بعد قتله .

* * *

قال أبو جعفر : وكان لعثمان عَلَى طلحة بن عُبيد الله خمسون ألفاً، فقال طلحة له يوماً: قد تهيأ مالُك فاقبِضه، فقال : هو لك معونة على مروءتك، فلما حُصِر عثمان ، قال عليّ عليه السلام لطلحة: أنشُدك الله إلا كففتَ عن عثمان! فقال : لا والله حتى تُعْطِيَ بنو أمية الحقَّ من أنفسها . فكان عليّ عليه السلام يقول : لحا الله ابن الصّعبة ! أعطاه عثمان ما أعطاه وفعل به مافعل !

* * *



(٣١)

ومن كلام له عليه السلام لما أنفذ عبد الله بن عباس إلى الزبير قبل وقوع الحرب يوم الجمل ليستفيئه إلى طاعته [١] :

الأصل :

لَا تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ : هُوَ الذَّلُولُ ؛ وَلَـكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ ، فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً ، فَقُلْ لَهُ : يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ : عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ ، وَأَنْـكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ ؛ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا !

قال الرضيّ [٢] رحمه الله :

وهو عليه السّلام أوّلُ مَنْ سُمِعت منه هذه الـكلمة ـ أعنى : « فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا » .

* * *

الشرح :

ليستفيئه إلى طاعته ، أى يسترجعه ؛ فاء ، أى رجع ، ومنه سُمّىَ الفىء الظلَّ بعد الزوال. وجاء فى رواية : « فإنك إن تَلْقَه تُلْفِه » أى تجده ، ألفيتُه على كذا ، أى وجدته.

وعاقصاً قَرْنه ، أى قد عطفه ؛ تَيْس أعقص ، أى قد التوى قرناه على أذنيه ، والفعل منه عَقَص الثور قرنه ، بالفتح . وقال القطب الراونديّ : عَقِص ؛ بالـكسر ؛ وليس بصحيح ، وإنّما يقال : عَقِص الرجلُ ، بالـكسر ، إذا شحّ وساء خلقه ، فهو عقِص .

وقوله : « يركب الصّعب » ، أى يستهين بالمستصعَب من الأمور ، يصفه بشراسة

---

(١) ا ، ج بعد هذه الـكلمة : « قال عليه السلام » .
(٢) مخطوطة النهج : « السيد » .

الخُلُق والبَأْو[١]، وكذلك كان طلحة ، وقد وصفه عمر بذلك . ويقال: إنّ طلحة أحدثَ يومَ أُحُدٍ عنده كِبْراً شديداً لم يكن ، وذلك لأنه أغنَى[٢] في ذلك اليوم ، وأبلى بلاء حسناً .

والعريكة هاهنا : الطبيعة ، يقال : فلان لَيِّن العريكة ، إذا كان سَلِساً .

وقال الراوندي: العريكة : بقية السَّنام ؛ وقد صدق، ولكن ليس هذا موضع ذاك .

وقوله عليه السلام لابن عباس : « قل له يقول لك ابن خالك » لطيف جداً ، وهو من باب الاستمالة والإذكار بالنَّسب والرحِم ، ألا ترى أنّ له في القلب من الموقع الداعي إلى الانقياد ماليس لقوله : « يقول لك أمير المؤمنين » ؛ ومن هذا الباب قوله تعالى في ذكر موسى وهارون : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ﴾[٣]، لما رأى هارون غضب موسى واحتدامه، شرع معه في الاستمالة والملاطفة، فقال له : ﴿ ابْنَ أُمَّ ﴾ ، وأذكره حقّ الأخوّة ، وذلك أدعَى إلى عَطْفه عليه من أن يقول له : « ياموسى » ، أو « يأيها النبيّ » .

فأمّا قوله : « فما عَدَا مما بدا » ، فعدَا بمعنى صرَف ؛ قال الشاعر :

وإنّي عَدَاني أن أزورَك مُحكَمٌ ... مَتَى ما أُحرِّكْ فيه سَاقِيَ يَصخَبِ

و « من » هاهنا بمعنى « عن » ؛ وقد جاءت في كثير من كلامهم كذلك ، قال ابنُ قتيبة في " أدب الكاتب " : قالوا : حدّثني فلان من فلان، أي عن فلان، ولهيت من كذا ، أي عنه[٤] ؛ ويصير ترتيبُ الكلام وتقديره : فما صرَفك ممّا بدا منك ! أي

---

(١) البأو : الفخر والادعاء .
(٢) أغنى ، أي صرف الأعداء وكفهم .
(٣) سورة الأعراف ١٥٠ .
(٤) أدب الكاتب ص ٥٠٥ مع اختلاف في العبارة .

ظهر ، والمعنى: ما الذى صدّك عن طاعتى بعد إظهارك لها ! وَحَذْفُ الضمير المفعول المنصوب كثير جدا ، كقوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾[1] ،أى أرسلناه، ولابدّ من تقديره ؛ كى لا يبقى الموصولُ بلا عائد .

وقال القطب الراونديّ: قوله : « فما عَدَا مِمّا بَدَا » له معنيان؛ أحدهما : ماالذى منعك ممّا كان قد بَدَا منك من البَيْعة قبل هذه الحالة ؟ والثانى: ما الّذى عاقك ؟ ويكون المفعول الثانى لـ « عدا » محذوفا ، يدلّ عليه الـكلام ، أى ماعداك ؛ يريد ما شغلك وما منعك ممّا كان بَدَا لك مِنْ نُصْرَتى ؛ من البَدا الذى يبدُو للإنسان . والقائل أن يقول : ليس فى الوجه الثانى زيادة على الوجه الأول إلا زيادة فاسدة ؛ أما إنه ليس فيه زيادة ، فلأنّه فسّر فى الوجه الأول « عدا » بمعنى منع ، ثم فسّره فى الوجه الثانى بمعنى عاقَ ، وفسر عاق بمنع وشغل ، فصار « عدا » فى الوجه الثانى مثل « عدا » فى الوجه الأول.

وقوله : « ممّا كان بدا منك » ، فسّره فى الأول والثانى بتفسير واحد،فلم يبق بين الوجهين تفاوت.وأما الزيادة الفاسدة فظنه أنّ «عدا» يتعدى إلى مفعولين،وأنّه قد حذف الثانى، وهذا غير صحيح ، لأنّ « عدا » ليس من الأفعال التى تتعدّى إلى مفعولين بإجماع النحاة،ومن العجب تفسيره المفعول الثانى المحذوف على زعمه بقوله : أى ماعَداك ، وهذا المفعول المحذوف هاهنا هو مفعول «عدا» الذى لا مفعول لها غيره ، فلا يجوز أن يقال إنه أول ولا ثان .

ثم حكى القطب الراونديّ حكاية معناها أنّ صفية بنت عبد المطلب أعتقت عبيدا، [2]ثم ماتت[2]،ثم مات العبيد ولم يخلّفوا وارثا إلّا مواليهم، وطلب علىّ عليه السلام ميراثَ العبيد بحقّ التعصيب ، وطلبه الزبير بحق الإرثِ من أمه . وتحاكما إلى عُمَر ، فقضى عمر بالميراث للزبير .

(١) سورة الزخرف ٤٥ .
(٢ ـ ٢) ساقط من ب .

قال القطب الراوندي رحمه الله تعالى ، حكاية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: هذا خلافُ الشَّرْع ، لأنَّ وَلَاء ، مُعْتَقِ المرأة ـ إذا كانت ميتة ـ يكونُ لعَصَبتها ، وهم العاقلة ، لا لأولادها .

قلت : هذه المسألة مختلَف فيها بين الإمامية ، فأبو عبد الله بن النعمان المعروف بالمفيد[1] ، يقول : إنّ الولاء لولدها ، ولا يُصحّح هذا الخبرَ ، ويطعن في راويه ؛ وغيرُه من فقهاء الإمامية كأبي جعفر الطوسي[2] ومن قال بقوله يذهبون إلى أنّ الولاء لعصبتها لا لولدها ، ويصحّحون الخبر ، ويزعمون أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام سكَت ولم ينازِع ، على قاعدته في التقيّة ، واستعمال المجاملة مع القوم .

فأمّا مذاهبُ الفقهاء غير الإمامية فإنها متفقة على أنّ الولاء للولد لا للعَصَبة ، كما هو قولُ المفيد رحمه الله تعالى .

وروى جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه عن جدّه ، عليهم السلام ، قال : سألتُ ابنَ عباس رضى الله عنه عن ذلك ، فقال : إنّي قد أتيت الزُّبير ، فقلت له ، فقال : فلِ له : إني أريد ما تريد ـ كأنه يقول : الملك ـ لم يَزِدْني على ذلك . فرجعت إلى علىّ عليه السلام فأخبرته .

وروى محمد بن إسحاق والكلبي ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قلت الكلمة للزبير فلم يزدني على أن قال : قُلْ له :

• إنّا مع الخوفِ الشديد لَنطمَعُ •

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام البغدادي المعروف بالمفيد ؛ أحد أعيان الشيعة وعلمائهم ؛ انتهت إليه رياسة الإمامية في وقته . وله قريب من مائتي مصنف ؛ وفيها حفظت أقوال الشيعة وآراؤهم وشرحهم وتفصيل مذاهبهم ؛ وعنه تلقى الشريف المرتضى الفقه والتفسير وعلم الكلام ، وتوفى سنة ٤١٣ . روضات الجنات ٥٣٦ .

(٢) هو أبو جعفر محمد بن على بن محمد الطوسي المشهدي ؛ أحد تلاميذ الشيخ المفيد ، ثم الشريف المرتضى من بعده . وكان إماماً واعظاً ؛ ألف الوسيلة والواسطة والفتاوى على مذهب الشيعة ، وغيرها . توفى سنة ٤٠٦ . روضات الجنات ٥٦٧ .

قال : وسئل ابنُ عباس عمّا يَعني بقوله هذا ، فقال: يقول : إنّا على الخوف لنطمع أن نَلِيَ من الأمر ما وليتم .

وقد فسره قوم تفسيراً[1] آخر ، وقالوا: أراد : إنّا مع الخوف من الله لنَطمع أن يُغفر لنا هذا الذنب .

قلت : وعلى كلا التفسيرين لم يحصل جواب المسألة .

* * *

[من أخبار الزبير وابنه عبد الله]

كان عبدُ الله بن الزبير هو الذى يصلّى بالناس فى أيام الجمل ، لأنّ طلحة والزبير تدافعا الصلاة ، فأمرت عائشة عبدَ الله أن يصلّىَ قطعاً لتنازعهما ، فإن ظهروا كان الأمر إلى عائشة ، تستخلف مَنْ شاءت .

وكان عبدُ الله بن الزُّبير يدّعى أنه أحقُّ بالخلافة من أبيه ومن طلحة ، ويزعم أنّ عثمان يوم الدار أوصى بها إليه .

واختلفت الرواية فى كيفية السّلام على الزبير وطلحة،فرُوىَ أنه كان يسلّمُ على الزبير وحدَه بالإمْرة ، فيقال : السّلام عليك أيها الأمير ؛ لأن عائشةَ ولّته أمْرَ الحرب ورُوِى أنه كان يسلّمُ على كلٍّ واحدٍ منهما بذلك .

لما نزل علىّ عليه السلام بالبصرة ووقف جيشُه بإزاء جيش عائشة قال الزبير : والله ما كان أمرٌ قطّ إلا عرفتُ أين أضعُ قدَمىَ فيه إلا هذا الأمرَ ، فإنى لا أدرى : أمقبلٌ أنا فيه أم مُدْبِرٌ ! فقال له ابنُه عبدُ الله : كلاّ ولكنّك فَرِقْتَ[2] سيوفَ ابن أبى طالب، وعرفتَ أنّ الموت الناقع تحت راياته . فقال الزبير : مالك أخزاكَ اللهُ من ولد ! ما أشأمك!

---

(١) كذا فى ا ، ج . وفى ب : « يفسير » . (٢) فرقت : خفت .

كان أميرُ المؤمنين عليه السلام ، يقول : ما زالَ الزُّبَيْر مِنّا أهلَ البيت ، حتى شبّ ابنهُ عبدُالله .

برزَ عليّ عليه السلام بينَ الصّفين حاسرا ، وقال : لِيَبْرُزْ إليَّ الزبير ، فبرز إليه مُدَجّجاً ؛ فقيل لعائشة : قد بَرَزَ الزُّبير إلى عليّ عليه السلام ، فصاحت : وازبيراه ! فقيل لها : لا بأسَ عليه منه ، إنه حاسر والزبير دارع[1] ــ فقال له : ما حملك يا أبا عبدالله على ماصنعت ؟ قال : أطلب بدم عثمان ، قال : أنت وطلحة وليتُماه ، وإنّما توْبتُك من ذلك أن تُقيدَ به نفْسَك وتُسلّمها إلى وَرَثته ، ثم قال : نَشَدْتُكَ الله ! أتذكُر يومَ مررتَ بي ورسول الله صلى الله عليه وسلّم متكىء على يدِك ، وهو جاء من بني عَمْرو بن عَوْف ، فسلّمَ عليّ وضحِك في وجهي ، فضحكتُ إليه ، لم أزِدْهُ على ذلك ، فقلتَ : لايترك ابنُ أبي طالب يارسول الله زَهْوَه ! فقال لك : « مَهْ إنّه ليس بذي زَهْو ، أما إنّك ستقاتله وأنت له ظالم » ! فاسترجَع الزبير وقال : لقد كان ذلك ! ولكنّ الدهرَ أنسانيه ، ولأنصرِفَنّ عنك ، فرجع ، فأعتقَ عبدَه سرجِس تَحَلُّلاً[2] من يمين لزمته في القتال ، ثم أتى عائشة ، فقال لها : إنّي ما وقفت موقِفاً قطّ ، ولا شهدتُ حَرْباً إلا ولي فيه رأيٌ وبصيرة إلا هذه الحرب ، وإنّي لَعَلَى شَكّ من أمري ، وما أكاد أبصر موضع قدمي . فقالت له : يا أبا عبدالله ، أخِفْتَ سيوفَ ابن أبي طالب ؟ إنّها والله سيوف حِداد ، مُعَدَّة للجلاد ، تحملها فتية أنجاد ! ولئن فَرِقْتَها لقد فَرِقها الرجال قَبْلَك ، قال : كلاّ ، ولكنّه ما قلتُ لكِ .

ثم انصرف .

* * *

وروى فَرْوَة بن الحارث التميميّ ، قال : كنتُ فيمن اعتزل عن الحرب بوادي السّباع[3] مع الأحنف بن قيس ، وخرج ابنُ عمٍّ لي يقال له الجَوْن ، مع عسكر البصرة ، فنهيتُه ،

---

(١) الحاسر : من لادرع له ولا جنة ، والدارع : لابس الدرع .

(٢) كذا في ا ، ج ، وفي ب : « علا » .

(٣) وادي السباع : موضع بين البصرة ومكة .

فقال : لا أرغبُ بنفسي عن نُصْرَة أمّ المؤمنين وحواريّ رسول الله . فخرج معهم ، وإنّي لجالس مع الأحنف ، يستنبئ الأخبار ، إذا بالجون بن قتادة ، ابن عمّي مُقبِلا ، فقمتُ إليه واعتنقتهُ ، وسألتهُ عن الخبر ، فقال : أخبرُكَ العَجَب ، خرجت وأنا لا أريد أن أبرحَ الحرب حتى يحكم الله بين الفريقين ، فبينا أنا واقف مع الزُّبير ، إذ جاءه رجل فقال : أبشِرْ أيها الأمير ، فإنَّ عليًّا لمّا رأى ما أعدّ الله له من هذا الجمع ، نكَصَ على عَقِبيه ، وتفرّق عنه أصحابه . وأتاه آخر ، فقال له مثل ذلك ، فقال الزُّبير : ويحكُم ! أبو حسن يرجع ! والله لو لم يجدْ إلّا العَرْفج لدبّ إلينا فيه . ثم أقبل رجل آخر ، فقال : أيها الأمير ، إنّ نفراً من أصحاب عليّ فارقوه ليدخلوا معنا ، منهم عمّار بن ياسر ، فقال الزبير : كلا وربِّ الكعبة ؛ إنّ عمّاراً لا يفارقه أبدا ، فقال الرجل : بَلَى والله ، مرارا.

فلمّا رأى الزُّبير أنّ الرجلَ ليس براجع عن قوله ، بعث معه رجلا آخر ، وقال : اذهَبا فانظرا ، فعادا وقالا : إنّ عمّاراً قد أتاك رسولاً من عند صاحبه ، قال جون : فسمعتُ والله الزبير يقول : واانقطاعَ ظهراه ! واجدْعَ أنفاه ! واسوادوجهاه ! ويكرّر ذلك مراراً ، ثم أخذته رعدة شديدة ، فقلت : والله إنّ الزبير ليس بجبان ، وإنّه لمِن فُرسان قريش المذكورين ، وإنّ لهذا الكلام لشأناً ، ولا أريد أن أشهدَ مشهداً يقولُ أميرُه هذه المقالة ، فرجعتُ إليكم ؛ فلم يكن إلا قليلاً حتى مرّ الزبير بنا مُتاركاً للقوم ، فأتبعه عمير ابن جُرْموز فقتله .

* * *

أكثرُ الروايات على أنّ ابن جُرْموز قتِل مع أصحاب النهر ، وجاء في بعضها أنّه عاش إلى أيام ولاية مُصْعب بن الزبير العراق ، وأنّه لما قدم مصعب البصرة خافه ابن جُرْموز فهرب ، فقال مصعب : لِيَظهر سالما ، وليأخُذ عطاءه موفوراً ، أيَظُنّ أنى أقتله بأبي عبدالله وأجعله فداء له ! فكان هذا من الكِبْر المستحسَن .

كان ابن جُرْموز يدعو لدنياه، فقيل له: هلا دعوتَ لآخرتك! فقال: أيستُ من الجنة .

الزبير أوّلُ مَنْ شهرَ سيفَه فى سبيل الله ، قيل له فى أول الدعوة : قد قُتِل رسول الله ، فخرج وهو غلام يسعى بسيفه مشهوراً .

وروى الزّبير بن بكار فى " الموفقيات[1] " قال : لما سارَ علىّ عليه السلام إلى البصرة ، بعثَ ابن عباس فقال : ائت الزّبير ، فاقرأ عليه السلام ، وقل له : ياأبا عبد الله ، كيف عرفتنا بالمدينة وأنكرتَنا بالبصرة ! فقال ابنُ عباس : أفلا آتى طلحة ؟ قال : لا ؛ إذاً تجده عاقصاً قَرْنه فى حَزَن ، يقول : هذا سهل .

قال : فأتيتُ الزبير ، فوجدته فى بيت يتروّح فى يوم حارّ وعبد الله ابنه عنده ، فقال : مرحباً بك يابن لُبابة ! أجئت زائراً أم سفيراً ؟ قلت : كلاّ ، إنّ ابن خالك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : ياأبا عبد الله ، كيف عرفتنا بالمدينة ، وأنكرتنا بالبصرة ! فقال :

عَلِقتهمْ أنى خُلِقتُ عُصبهْ ... قَتادةً تعلقتْ بنُشْبَهْ[2]

لن أدَعَهم حتى أؤلّف بينهم ! قال : فأردتُ منه جوابا غيرَ ذلك ، فقال لى ابنهُ عبد الله : قل له : بيننا وبينك دَمُ خليفة ووصيّة خليفة ، واجتماع اثنين ، وانفرادُ واحد ، وأمّ مبرورة ، ومشاورة العشيرة . قال : فعلمتُ أنه ليس وراء هذا الكلام إلا الحرب ؛ فرجعت إلى علىّ عليه السلام فأخبرته .

---

(١) كتاب الموفقيات فى الأخبار ؛ ألفه الزبير بن بكار للموفق بالله ؛ وكان الزبير بن بكار علامة نسابة أخبارياً ؛ وكتبه فى الأنساب عليها الاعتماد . توفى سنة ٢٥٦ . معجم الأدباء ١١ : ١٦١ .

(٢) فى اللسان : « وفى حديث الزبير بن العوام لما أقبل نحو البصرة وسئل عن وجهه فقال :

عَلِقتهمْ أنى خُلِقتُ عُصبهْ ... قَتادةً مَلْوِيةً بِنُشَبَهْ

قال شمر : وبلغنى أن بعض العرب قال :

غَلَبتُهمْ إنى خُلِقتُ عُصْبَهْ ... قَتادةً مَلْويّةً بِنُشَبَهْ

قال : والعصبة نبات يتلوى على الشجر ؛ وهو اللبلاب ، والنشبة من الرجال : الذى إذا علق بشىء لم يكد يفارقه . ويقال للرجل الشديد المراس : قتادة لويت بعصبه ، والمعنى : خلقت عصبة لخصومى ، فوضع العصبة موضع العلقة ، ثم شبه نفسه فى فرط تعلقه وتشبثه بهم بالقتادة إذا استظهرت فى تعلقها واستمسكت بشبة ، أى شديد النشوب .

قال الزبير بنُ بكار : هذا الحديث كان يرويه عن مصعب ، ثم تركه ، وقال : إنى رأيت جدّى أبا عبد الله الزُّبير بن العوَّام فى المنام ، وهو يعتذر من يوم الجمل ، فقلت له : كيف تعتذرُ منه ، وأنت القائل :

عَلِقْتُهُمُ أنى خُلِقْتُ عُصْبَةً   قتادةً تعلّقتْ بنُشْبَـــهْ

لن أدعَهم حتى أؤلف بينهم ! فقال : لم أقله .

* * *

[استطراد بلاغىّ فى الكلام على الاستدراج]

واعلم أن فى علم البيان باباً يسمى باب الخداع والاستدراج ، يناسب ما يذكره فيه علماء البيان قولَ أمير المؤمنين عليه السلام : « يقول لك ابنُ خالك : عرفْتَنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق » !

قالوا : ومن ذلك قولُ الله تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [(١)] ، فإنه أخذ معهم فى الاحتجاج بطريق التقسيم ، فقال : هذا الرجلُ إما أن يكون كاذباً فكَذِبُه يعودُ عليه ولا يتعداه، وإمّا أن يكون صادقاً فيصيبَكم بعضُ ما يعِدُكم به ، ولم يقل : « كلّ ما يَعِدُكم به » مخادعةً لهم وتلطفاً ، واستمالةً لقلوبهم كى لا ينفروا منه لو أغلظ فى القول ، وأظهرَ لهم أنه يهضمه بعضَ حقه .

وكذلك تقديمُ قِسْم الكذب على قسم الصدق ، كأنه رشّاهم ذلك ، وجعله بِرْطِيلاً [(٢)] لهم ، ليطمئنوا إلى نصحه .

(١) سورة غافر ٢٨ .

(٢) البرطيل هنا : الرشوة .

ومن ذلك قول إبراهيم على ماحكاه تعالى عنه فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا • يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا • يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا • يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾[1] ، فطلب منه فى مبدأ الأمر السَّبب فى عبادته الصَّنم والعلَّة فى ذلك ، ونبَّهه على أنَّ عبادة مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنه شيئاً قبيحة ، ثم لم يقل له : إنّى قد تبحّرت فى العلوم ، بل قال له : قد حصَّل عندى نوعٌ من العلم لم يحصل عندك . وهذا من باب الأدب فى الخطاب ، ثم نبَّهَه على أنّ الشيطانَ عاصٍ لله ، فلا يجوز اتباعه ، ثم خوَّفه من عذاب الله إن اتبع الشيطان ، وخاطبه فى جميع ذلك بقوله : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ ؛ استعطافاً واستدراجاً ، كقول علىّ عليه السلام : « يقول لك ابنُ خالك » ، فلم يُجبه أبوه إلى ما أراد ، ولا قال له : « يابنىّ » بل قال : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، فخاطبه بالاسم ، وأتاه بهمزة الاستفهام المتضمّنة للإنكار ، ثم توعّده فقال : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ .

قالوا : ومن هذا الباب ما رُوِى أنّ الحسينَ بن علىّ عليهما السلام كلّم معاوية فى أمر ابنه يزيد ، ونهاه عن أن يَعْهَد إليه ، فأبى عليه معاوية حتى أغضب كلٌّ واحد منهما صاحبَه ، فقال الحسين عليه السلام فى غضون كلامه : أبى خيرٌ من أبيه وأمّى خيرٌ من أمّه ، فقال معاوية : يابن أخى ؛ أمّا أمُّك فخيرٌ من أمّه ، وكيف تُقاس امرأةٌ من كَلْب بابنةِ رسول الله[2] صلى الله عليه ! وأما أبوه فحاكَمَ أباك إلى الله تعالى ، فحكم لأبيه على أبيك .

---

(١) سورة مريم ٤٢ – ٤٥ .

(٢) فى المثل السائر : « وبنت رسول الله صلى الله عليه وسلم خير من امرأة من كلب » .

قالوا : وهـذا من باب الاستدراج اللطيف ، لأن معاوية علم أنه إن أجابه بجواب يتضمن الدعوى لكونه خيراً من علىّ عليه السلام لم يلتفت أحدٌ إليه ، ولم يكن له كلام يتعلق به ، لأن آثارَ علىّ عليه السلام في الإسلام ، وشرفَه وفضيلته تجلّ أن يُغاص بها أحدٌ ، فعدَل عن ذكر ذلك إلى التعلق بما تعلّق به ، فكان الفَلج له .

ذكر هذا الخبر نصرُ الله بن الأثير في كتابه المسمى بـ «المثل السائر» في باب الاستدراج[1] .

وعندي أنّ هذا خارج عن باب الاستدراج ، وأنّه من باب الجوابات الإقناعيّة التي تسمّيها الحكماء الجدَليّات والخطابيات ، وهي أجوبة إذا بحث عنها لم يكن وراءها تحقيق ، وكانت ببادئ النظر مُسْكتةً للخصم ، صالحة لمصادمته في مقام المجادلة .

ومثل ذلك قولُ معاوية لأهل الشام حيث التحق به عَقيل بنُ أبي طالب : يأهلَ الشام ، ماظنّكم برجل لم يصلح لأخيه !

وقوله لأهل الشام : إنّ أبا لهب المذموم في القرآن باسمه عمّ علىّ بن أبي طالب . فارتاع أهل الشام لذلك ، وشتموا علياً ولعنوه .

ومن ذلك قول عمر يوم السّقيفة : أيّكم تطيبُ نفساً أن يتقدّم قدَمَيْن قدّمهما رسول الله صلى الله عليه الصلاة !

ومن ذلك قول علىّ عليه السلام مجيباً لمن سأله : كم بينَ السماء والأرض؟ فقال : دَعْوة مستجابة .

---

(١) المثل السائر ٢ : ٦٨ — ٧١ .

وجوابه أيضاً لمن قال له : كم بين المشرق والمغرب ؟ فقال : مسيرة يوم الشمس .

ومن ذلك قول أبي بكر - وقد قال له عمر : أَقِدْ خالداً بمالك بن نُوَيْرة - : سيف الله فلا أُغمِده .

وكقوله - وقد أشير عليه أيضاً بأن يُقيد من بعض أمرائه - : أنا أُقيد من وَزَعَةِ[1] الله !

ذكر ذلك صاحب " الصحاح " في باب « وزع »[2] .

والجوابات الإقناعية كثيرة ، ولعلّها جمهورُ ما جداوله الناس ، ويُسْكِتُ به بعضهم بعضا .



(١) الوزعة : جمع وازع ، وهو الذي يتقدم الصف فيصلحه ، ويقدم ويؤخر .
(٢) الصحاح ١٢٩٦ .

(٣٢)

ومن خطبة له عليه السلام:

الأصل:

أيُّها النَّاسُ، إنَّا قدْ أصبحْنا في دَهْرٍ عَنُودٍ، وزَمَنٍ شَديدٍ[1]، يُعَدُّ فيهِ المُحْسِنُ مُسيئاً، ويَزْدادُ الظَّالِمُ فيهِ عُتُوّاً، لا نَنْتَفِعُ بِما عَلِمْنا، ولا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنا، ولا نَتَخَوَّفُ قارِعَةً حتَّى تَحُلَّ بِنا. والنَّاسُ على أرْبَعَةِ أصْنافٍ:

مِنْهُمْ مَنْ لا يَمْنَعُهُ الفَسادَ في الأرْضِ إلا مَهانَةُ نَفْسِهِ، وكَلالَةُ حَدِّهِ، ونَضيضُ وَفْرِهِ.

ومِنْهُمُ المُصْلِتُ بِسَيْفِهِ، والمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، والمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ ورَجِلِهِ، قدْ أشْرَطَ نَفْسَهُ، وأوْبَقَ دِينَهُ، لِحُطامٍ يَنْتَهِزُهُ، أوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ، ولَبِئْسَ المَتْجَرُ أنْ تَرَى الدُّنْيا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، ومِمَّا لَكَ عِنْدَ اللهِ عِوَضاً!

ومِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، ولا يَطْلُبُ الآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيا، قدْ طامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وقارَبَ مِنْ خَطْوِهِ، وشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلأمانَةِ، واتَّخَذَ سِتْرَ اللهِ ذَريعَةً إلى المَعْصِيَةِ.

ومِنْهُمْ مَنْ أبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ المُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ، وانْقِطاعُ سَبَبِهِ، فَقَصَرَتْهُ الحالُ على حالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ القَناعَةِ، وتَزَيَّنَ بِلِباسِ أهْلِ الزَّهادَةِ، ولَيْسَ مِنْ ذلِكَ في مَراحٍ ولا مَغْدىً.

---

(١) ج: «كنود».

وَهِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ ، وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ ؛ فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ ، وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ ، وَدَاعٍ مُخْلِصٍ ، وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ ، وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ ، فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا ، وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا ، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا .

فَلْتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَظِ ، وَقُرَاضَةِ الْجَلَمِ . وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً ، فَإِنَّهَا قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كَانَ أَشْغَفَ بِهَا مِنْكُمْ .

•••



قال الرضى رحمه الله :

وهذه الخُطبةُ رُبَّمَا نسبها مَنْ لا عِلْمَ له إلى معاوية ؛ وَهِيَ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الَّذِي لَا يُشَكُّ فيه . وأين الذَّهبُ من الرَّغامِ! وأين العذبُ من الأُجاجِ! وقد دَلَّ على ذلك الدَّليلُ الخِرِّيتُ ، ونقدهُ النَّاقِدُ البَصِيرُ ، عَمْرُو بن بحرٍ الجاحظ ، فإنهُ ذَكر هذه الخطبة في كتاب « البيان والتبيين »[1] وذكرَ من نَسَبَهَا إلى مُعاوية . ثمَّ تكلَّم من بعدها بكلام في معناها ، جملته أنه قال : وهذا الكلام بكلام عليٍّ عليه السلامُ

---

(١) البيان والتبيين ٢ : ٥٩ ــ ٦١ ؛ عن شعيب بن صفوان ؛ وقال : « وزادنيها اليقطرى وغيره » ، وقال : « لما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ، فقال : ويحك ! ولم ؟ قال : لا أدرى ؛ قال : فوالله مالهم بعدى إلا الذى يسوءهم ؛ وأذن للناس فدخلوا » . ثم أورد الخطبة بروايته ؛ وقال فى آخرها : « وفى هذه الخطبة : ــ أبقاك الله ــ ضروب من العجب ؛ منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذى من أجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب فى تصنيف الناس ، وفى الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف أشبه بكلام على وبمعانيه وبحاله منه بحال معاوية ، ومنها أنا لم نجد معاوية فى حال من الحالات يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ؛ وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ؛ والله أعلم بأصحاب الأخبار ، وبكثير منهم » .

أشبهُ وَ بمذهبه في تصنيف النَّاس، وفي الإخبارِ عمَّا هُمْ عليه من القَهرِ وَالإذْلالِ، ومن التَّقيَّةِ والخوفِ ألْيقُ . قالَ: ومتى وجدنا معاويةَ في حال من الأحوال يسلكُ في كلامه مسلكَ الزُّهَّاد، ومذاهبَ العُبَّاد !

* * *

الشَّـرْحُ :

دهر عَنود : جائر، عَنَد عن الطريق ؛ يعنُد بالضم، أي عَدَل وجار . ويمكن أن يكون من عَنَدَ يَعْنِد بالكسر ، أي خالف وردّ الحق وهو يعرفه ؛ إلّا أنّ اسم الفاعل المشهور في ذلك عاند وعَنِيد ؛ وأما عَنُود فهو اسم فاعل ؛ من عَنَد يعنُد بالضم .

قوله: « وزمن شديد »، أي بخيل، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾،[1] أي وإنه لبخيل لأجل حُبِّ الخير، والخير: المال. وقد روي : « وزمن كنود » وهو الكفور، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [2] .

والقارعة : الخطب الذي يَقْرَع ، أي يصيب بشدة .

قوله: « وتضيض وفره »، أي قلة ماله، وكان الأصل « ونضاضة وفره » ليكون المصدرُ في مقابلة المصدر الأول، وهو « كلالة حدّه »؛ لكنه أخرجه على باب إضافة الصفة إلى الموصوف، كقولهم : عليه سَحْقُ عمامة ، وجَرْد قطيفة ، وأخلاق ثياب .

قوله : « والمجلب بخيله ورجله » ، المجلب : اسم فاعل من أجلَب عليهم ، أي أعان عليهم .

والرَّجْل: جمع راجل ، كالرَّكْب جمع راكب، والشَّرْب جمع شارب؛ وهذا من ألفاظ الكتاب العزيز : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ [3] .

(١) سورة العاديات ٨ .
(٢) سورة العاديات ٦ .
(٣) سورة الإسراء ٦٤ وقراءة حفص بكسر الجيم في « رجلك » ، وباقي القراءات بسكون الجيم . إتحاف فضلاء البشر ٢٨٠ .

وأشرط نفسه ؛ أى هَيَّأها وأعدها للفساد فى الأرض .

وأوبق دينه : أهلكه . والحطام : المال ؛ وأصله ما تَكَسَّرَ من اليَبيس .

ينتهزه : يختلسه .

والمِقْنَب : خيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين .

ويَفْرَعُه : يعلوه . وطامَن من شخصه ، أى خَفَّض . وقارب مِنْ خَطْوه : لم يسرع ومشى رويدا .

وشمّر من ثوبه : قَصَّره . وزخرف من نفسه : حَسَّن ونمّق وزين ، والزُّخرف : الذهب فى الأصل .

وضُئولة نفسه : حقارتها . والشاذّ : المنفرد . والمكْعوم ، من كعمت البعير ، إذا شددتَ فمه . والأُجاجُ : الملح .

وأفواههم ضامزة ، بالزاى ؛ أى ساكنة ، قال بشر بن أبى خازم :

لَقَدْ ضَمَزَتْ بِجِرَّتِها سُلَيْمٌ مَخافَتَنا كما ضَمَزَ الحِمارُ [(١)]

والقرظ : ورق السَّلَم ، يُدْبَغ به ، وحُثالتُه : ما يسقط منه .

والجَلَم : المقصّ يُجَزُّ به أوبارُ الإبل . وقراضته : ما يقع من قَرْضه وقطعه .

فإن قيل : بَيِّنوا لنا تفصيلَ هذه الأقسام الأربعة .

قيل : القسم الأول مَنْ يقعدُ به عن طلب الإمْرة قلّة ماله وحقارتُه فى نفسه .

والقسم الثانى : مَنْ يُشَمِّر ويطلب الإمارة ويُفْسد فى الأرض ويكاشف .

والقسم الثالث : مَنْ يُظْهِر ناموس الدين ويطلب به الدنيا .

والقسم الرابع : مَنْ لا مال له أصلا ، ولا يكاشف ، ويطلب المُلْك ولا يطلب الدّنيا

---

(١) ديوانه ٧٠ ، واللسان (٧ : ٢٣٢) ، ونسبه إلى ابن مقبل ؛ وقال فى شرحه : « معناه قد خضعت وذلت كما ضمز الحمار ؛ لأن الحمار لا يجترّ ؛ وإنما قال : ضمزت بجرتها على جهة المثل ، أى سكتوا فما يتحركون ولا ينطقون » .

بالرياء والناموس ، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلى القناعة ، ويتحلى بحلية الزهادة في اللذات الدنيوية ، لا طلبا للدنيا بل عجزاً عن الحركة فيها ، وليس بزاهد على الحقيقة .

فإن قيل : فهاهنا قسم خامس ، قد ذكره عليه السلام ؛ وهم الأبرار الأتقياء الذين أراق دموعهم خوف الآخرة .

قيل : إنه عليه السلام إنما قال : «إن الناس على أربعة أصناف» ، وهؤلاء من عدا المتقين ؛ ولهذا قال لما انقضى التقسيم : « وبقى رجال غض أبصارهم ذكر المرجع » ، فأبان بذلك عن أن هؤلاء خارجون عن الأقسام الأربعة .

* * *

[فصل في ذكر الآيات والأخبار الواردة في ذم الرياء والشهرة]

واعلم أن هذه الخطبة تتضمن الذم لكثير لمن يدعي الآخرة من أهل زماننا ، وهم أهل الرياء والنفاق ، ولابسو الصوف والثياب المرقوعة لغير وجه الله .

وقد ورد في ذم الرياء شيء كثير ، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما تقدم .

ومن الآيات الواردة في ذلك قوله تعالى : ﴿ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء ١٤٢ .
(٢) سورة الكهف ١١٠ .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (١) .

ومنها قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٢) .

ومن الأخبار النبوية قوله صلى الله عليه وآله ، وقد سأله رجل : يارسولَ الله ، فيم النجاة ؟ فقال : « ألّا تعمل بطاعة الله وتريد بها الناس » .

وفي الحديث : « مَنْ راءى راءى اللهُ به ، ومَنْ سمّع سمّع اللهُ به » .

وفي الحديث : « إن الله تعالى يقول للملائكة : إنّ هـذا العمل لم يردْ صاحبُه به وجهي ، فاجعلوه في سجّين » (٣) .

وقال صلى الله عليه وآله : « إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشِّركُ الأصغر » ، قالوا : وما الشركُ الأصغر يارسول الله ؟ قال : « الرياء ، يقول الله تعالى إذا جازى العبادَ بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءونهم في الدنيا ، فاطلبوا جزاءكم منهم » .

وفي حديث شدّاد بن أوْس : رأيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلّم يبكي ، فقلت : يارسولَ الله ، مايبكيك ؟ فقال : « إنّي تخوّفت على أمتي الشرك ، أما إنّهم لايعبدون صنما ولا شمسا ولا قمرا ، ولكنهم يراءون بأعمالهم » .

ورأى عمرُ رجلًا يتخشّع ، ويُطَأطئ رقبته في مشيته ، فقال له : ياصاحبَ الرقبة ، ارفع رقبَتك ، ليس الخشوع في الرقاب .

ورأى أبو أمامة رجلا في المسجد يبكي في سجوده ، فقال له : أنت أنت لو كان هذا في بيتك !

---

(١) سورة الإنسان ٩ .
(٢) سورة الماعون ٥ ـ ٧ .
(٣) سجين : واد في جهنم .

وقال على عليه السلام : للمرائى أربع علامات : يكسلُ إذا كان وحدَه ، وينشطَ إذا كان فى الناس ، ويزيد فى العمل إذا أُثنِيَ عليه ، وينقُص منه إذا لم يُثْنَ عليه .

وقال رجل لعبادة بن الصامت : أقاتل بسيفى فى سبيل الله أريد به وجهَه ومَحْمَدة الناس ، قال : لاشىء لك ، فسأله ثلاث مرات ، كلَّ ذلك يقول : لاشىء لك ! ثم قال فى الثالثة : يقول الله تعالى : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك . . . الحديث .

وضرب عُمر رجلاً بالدِّرَّة ، ثم ظهر له أنه لم يأتِ جُرْما ، فقال له : اقتصَّ منى ، فقال : بل أدَعُها لله ولك ، قال : ماصنعتَ شيئا ؛ إما أن تدَعها لى فأعرف ذلك لك ، أو تَدَعها لله وحده .

وقال الحسن : لقد صحبتُ أقواماً ، إن كان أحدُهم لتَعرِضُ له الكلمة لو نطق بها لنفعتْه ونفعت أصحابه ، مايمنعه منها إلا مخافة الشهرة ؛ وإن كان أحدُهم ليرَى فيرَى الأذى على الطريق فما يمنعه أن يُنحيَه إلا مخافة الشهرة .

وقال الفُضَيل : كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لايعملون .

وقال عِكرمة : إن الله تعالى يُعطِى العبد على نيته مالا يُعطيه على عمله ؛ لأنّ النية لارياء فيها .

وقال الحسن : المرائى يريد أن يَغلِبَ قدَرَ الله تعالى ، هو رجل سَوْء ، يريدأن يقول الناس : هـذا صالح ؛ وكيف يقولون وقد حلَّ من ربه محلَّ الأردئاء (١) ، فلا بدَّ لقلوب المؤمنين أن تعرفَه .

وقال قتادة : إذا راءى العبدُ ، قال الله تعالى لملائكته : انظروا إلى عبدى يستهزئ بى .

وقال الفُضَيل : مَن أراد أن ينظُر مُرائيا فلينظر إلىّ .

(١) أردئاء : جمع ردىء .

وقال محمد بن المبارك الصُّوري : أظهر السَّمْت⁽¹⁾ بالليل ، فإنه أشرفُ من سَمْتِك بالنهار ؛ فإنّ سَمْتَ النهار للمخلوقين ، وسَمْتَ الليل لربِّ العالمين .

وقال إبراهيمُ بن أدهم : ما صدق اللهَ مَنْ أحبَّ أن يُشتهر .

ومن الكلام المعزيّ إلى عيسى بن مريم عليه السلام : إذا كان يومُ صوم أحدكم فَلْيَدْهُنْ رأسه ولحيته ، وليمسحْ شفتيه ، لئلا يعلم الناس أنه صائم . وإذا أعطى بيمينه ، فليُخْفِ عن شماله ، وإذا صلّى فَلْيُرْخِ سِتْر بابه ، فإنّ الله يَقْسِم الثناء كما يَقْسِم الرزق .

ومن كلام بعض الصالحين : آخِرُ ما يخرج من رُءوس الصدِّيقين حبُّ الرياسة .

وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « بحسْب المرء من الشّرّ - إلّا مَنْ عصمه الله من السوء - أن يُشيرَ الناسُ إليه بالأصابع في دينه ودنياه ؛ إنّ الله لا ينظر إلى صُوَركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وقال عليّ عليه السلام : تَبَذَّلْ لا تَشْتَهِرْ ، ولا ترفعْ شخصَك لتُذْكَر بعلم ، واسكُتْ واصمت تَسْلَم ، تَسُرّ الأبرار ، وتَغيظ الفجّار .

وكان خالد بن مَعْدان إذا كَثُرَتْ حَلْقَتُه قام مخافة الشهرة .

ورأى طلحة بن مصرِّف قوماً يَمشون معه نحو عشرة ، فقال : فَرَاش نار ، وذِبّان طمع .

وقال سليمان بن حَنْظلة : بينا نحنُ حوالَى أُبيّ بن كعب نمشي ، إذ رآه عُمر فعلاه بالدِّرّة ، وقال له : انظُرْ مَنْ حولك ! إنّ الذي أنت فيه ذِلّة للتابع ، فتنة للمتبوع .

وخرج عبد الله بن مسعود من منزله ، فاتبعه قوم ، فالتفت إليهم وقال : عَلامَ تتبعونني ؟ فوالله لو تعلمون مِنِّي ما أُغْلِقُ عليه بابي لما تبِعني منكم اثنان .

وقال الحسن : خَفْقُ النعال حولَ الرِّجال مما يُثَبِّت عليهم قلوبَ الحمْقى .

---

(1) السمت : حسن المذهب في الدين .

وروى أنّ رجلا صَحِبَ الحسن فى طَريق ، فلما فارقه قال : أوصنى رَحِمك الله ! قال : إن استطعتَ أن تَعرِفَ ولا تُعرَف ، وتَمشِىَ ولا يُمشَى إليك ، وتَسأل ولا تُسأل ، فافعل .

وخرج أيوب السَّختيانىّ فى سَفَر ، فشيعه قوم ، فقال : لولا أنّى أعلمُ أنّ الله يعلم مِنْ قلبى أنى لهذا كاره ، لَخَشِيتُ المقتَ من الله .

وعوتب أيوب على تطويل قَميصه ، فقال : إنّ الشهرة كانت فيما مَضَى فى طوله، وهى اليومَ فى قِصَره .

وقال بعضهم : كنت مع أبى قِلَابة ، إذْ دخل رجل عليه كِساء ، فقال : إيا كم وهذا الحمار النّاهق ـ يشير به إلى طالب شهرة .

وقال رجل لبِشْر بن الحارث : أوصِنى ، فقال : أخمِل ذِكْرَك ، وطَيِّب مَطعمك .

وكان حَوْشب يبكى ويقول : بلغ اسمى المسجد الجامع .

وقال بشر : ما أعرف رجلاً أحبّ أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح .

وقال أيضاً : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس .

فهذه الآثار قليل مما ورد عن الصالحين رحمهم الله فى ذم الرياء وكون الشهرة طريقاً إلى الفتنة .

* * *

[فصل فى مدح الخمول والجنوح إلى العزلة]

وقد صرح أميرُ المؤمنين عليه السلام فى مَدْح الأبرار ـ وهو القسم الخامس ـ بمدح الخمول ، فقال : « قد أخملتْهم التّقيَة » ـ يعنى الخوف .

وقد ورد فى الأخبار والآثار شىء كثير فى مَدْح الخمول .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ربّ أشعثَ أغبَرَ ذى طِمْرَيْن لا يُؤْبَهُ له ،

لو أقسم على الله لأبرّ قسمه » . وفي رواية ابن مسعود : « ربّ ذي طِمْرَين لا يُؤْبَه له ، ولو سأل الجنّة لأعطيها » .

وفي الحديث أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلّكم على أهل الجنة ؟ كلُّ ضعيف مستضعَف ، لو أقسم على الله لأبرّه ؛ ألا أدلّكم على أهل النار ؟ كلّ متكبّر جوّاظ »[١] .

وعنه صلى الله عليه وسلم : « إنّ أهل الجنة الشُّعْثُ الغُبْر ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذَنْ لهم ، وإذا خَطَبوا لم يُنْكَحوا ، وإذا قالوا لم يُنْصَتْ لهم ؛ حوائج أحدهم تتلجلجُ في صدره ، لو قُسِمَ نورهم يوم القيامة على الناس لوسعهم » .

وروى أنّ عمر دخل المسجد ، فإذا بمعاذ بن جَبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّ اليسيرَ من الرياء شِرْكٌ ، وإنّ الله يحبّ الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا لم يُفتقَدُوا ، وإذا حضَروا لم يُعْرَفوا ، قلوبُهُم مصابيح الهدَى ، ينجُون من كلّ غبراءَ مُظلمة » .

وقال ابن مسعود : كونوا ينابيعَ العلم ، مصابيح الهُدَى ، أحلاسَ البيوت ، سُرُجَ الليل ، جُدُدَ القلوب ، خُلقانَ الثياب ، تُعْرَفون عند أهل السماء ، وتَخْفَوْن عند أهل الأرض .

وفي حديث أبي أمامة ، برفعه : « قال الله تعالى : إنّ أغْبَط أوليائي عبدٌ مؤمن ، خفيف الحاذ[٢] ، ذو حظّ من صلاة ، وقد أحسنَ عبادة ربِّه ، وأطاعه في السرّ ، وكان غامضاً في الناس ، لا يُشار إليه بالأصابع » .

وفي الحديث : « السعيد من خَمَلَ صيته ، وقلّ تُراثه ، وسَهلت منيّتُه ، وقلّت بواكيه » .

---

(١) الجواظ : الجموع المنوع .

(٢) الحاذ والحال واحد ، وأصل الحاذ طريقة الفخذ ، وهو ما يقع عليه اللبد من ظهر الفرس ؛ أي خفيف الظهر من العيال . نهاية ابن الأثير .

وقال الفُضَيل : رُوى لى أن الله تعالى يقول فى بعض ما يمنّ به على عبده : ألم أنعم عليك ! ألم أسترك ! ألم أُخمِل ذكرك !

وكان الخليل بن أحمد يقول فى دعائه : اللهم اجعلْنى عندك من أرْفَع خَلْقك ، واجعلنى عند نفسى من أوْضَع خَلْقك ، واجعلْنى عِندَ الناس من أوْسَطِ خلقك .

وقال إبراهيم بن أدهم : ما قرت عينى ليلة قطّ فى الدنيا إلا مرّة ، بتُّ ليلة فى بعض مساجد قُرى الشام ، وكان بى علة البطن ، فجرّنى المؤذن برِجْلى حتى أخرجنى من المسجد .

وقال الفُضَيْل : إن قَدَرْتَ على ألا تُعرف ، فافْعل ، وما عليك ألا تعرف ! وما عليك ألاّ يُثْنَى عليك ! وما عليك أن تكونَ مذموما عند الناس ؛ إذا كنت محموداً عند الله تعالى !

فإن قيل: فما قولك فى شهرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام وأكابر الفقهاء المجتهدين ؟ قيـل : إنّ المذمومَ طلبُ الشهرة ؛ فأمّا وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد ولا طلب فليس بمذموم ؛ بل لا بُدّ من وجود إنسان يَشتهر أمره ؛ فإنّ بطريقه يَتصليح العالم ؛ ومثال ذلك الغرقَى الذين بينهم غريقٌ ضعيف ، الأَوْلى به ألاّ يعرفه أحد منهم ، لئلا يتعلق به فيهلك ويهلكوا معه ؛ فإن كان بينهم سابح قوىّ مشهور بالقوة ، فالأَولى ألا يكون مجهولا ، بل ينبغى أن يُعرف ليتعلقوا به ، فينجُو هو ويتخلّصوا من الغرق بطريقه .

---

(٣٣)

ومن خطبة له عليه السلام عند خروجه لقتال أهل البصرة :

الأصل :

قال عبد الله بنُ العباس : دخلت على أمير المؤمنين بذى قار وهو يخصف نعله ، فقال لى : ما قيمة هذا النعل ؟ فقلت : لا قيمةَ لها ، فقال : والله لَهِيَ أحبُّ إلىَّ من إمْرَتكم ؛ إلا أن أقيم حقًّا ، أو أدفعَ باطلا ، ثم خرج فخطب الناس فقال :

إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صلَّى اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتاباً وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً ؛ فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ ، وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ ، وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ .

أَما وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا ، حَتَّى وَلَّتْ بِحَذَافِيرِها ؛ مَا ضَعُفْتُ وَلَا جَبُنْتُ ، وَإِنَّ مَسِيرِي هٰذَا لِمِثْلِهَا ؛ فَلَأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ .

مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ ! وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ ، وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ ؛ وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ . وَاللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا ، فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ الْمَحْضَ صَابِحاً وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرَا[1]
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ عَلِيًّا ، وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا

• • •

(١) المحض : اللبن الخالص بلا رغوة .

الشرح :

ذو قار : موضع قريبٌ من البَصْرة ، وهو المكان الذى كانت فيه الحربُ بين العرب والفرس ، ونُصِرت العرب على الفرس قبل الإسلام .

ويخصِف نعله ، أى يخرِزها .

ويؤأم مُحلّتهم : أسكنهم مَنْزلهم ، أى ضرب الناس بسيفه على الإسلام حتى أوصلهم إليه ، ومثله « وبلّغهم منجاتهم » إلّا أن فى هذه الفاصلة ذِكر النَّجاة مصرَّحا به .

فاستقامتْ قناتُهم : استقاموا على الإسلام ، أى كانت قناتهم معوجّة فاستقامت .

واطمأنت صَفاتُهم : كانت متقلقلة متزلزلة ، فاطمأنّت واستقرّت .

وهذه كلّها استعارات .

ثم أقسم أنه كان فى ساقتها حتى تولّت بحذافيرها ؛ الأصل فى « ساقتها » أن يكون جمع سائق كحائِض وحاضة ، وحائك وحاكة ، ثم استعملت لفظة « الساقة » للأخير ، لأن السائق إنما يكون فى آخر الرَّكْب أو الجيش .

وشبّه عليه السلام أمرَ الجاهلية ؛ إمّا بعَجاجة ثائرة ، أو بكتيبة مُقْبلة للحرب ، فقال : إنّى طردتُها فولّت بين يدىّ ، ولم أزل فى ساقتها أنا أطرُدها وهى تنطرد أمامى ؛ حتى تولّتْ بأسْرها ولم يبق منها شىء ، ما عجزت عنها ، ولا جَبُنْتُ منها .

ثم قال : وإنّ مسيرى هذا لمِثْلها ، فَلَأَنقُبَنَّ الباطل ؛ كأنه جعل الباطل كشىء قد اشتمل على الحق ، واحتوى عليه ، وصار الحقُّ فى طَيّه ، كالشىء الكامن المستتر فيه ، فأقسم لينقبنّ ذلك الباطل إلى أن يخرُج الحقُّ من جنبه .

وهذا من باب الاستعارة أيضاً .

ثم قال : « لقدْ قاتلتُ قريشا كافرين ، وَلَأقاتلنَّهُم مفتونين » ؛ لأنّ الباغيَ على الإمام مفتون فاسق .

وهذا الكلام يؤكد قول أصحابنا : إنّ أصحاب صفّين والجمل ليسوا بكفار ؛ خلافاً للإمامية ، فإنهم يزعمون أنهم كفار .

* * *

[خبر يوم ذى قار]

روى أبو مِخْنف عن الكلبيّ ، عن أبى صالح ، عن زيد بن علىّ ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلنا مع علىّ عليه السلام ذا قار ، قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ ! فقال : والله ليأتيني منهم ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا ؛ لا يزيدون ولا ينقصون .

قال ابن عباس : فدخلنى والله من ذلك شك شديد فى قوله ، وقلت فى نفسى : والله إن قدِمُوا لأعُدَّنّهم .

قال أبو مِخْنف : فحدث ابن إسحاق ، عن عمه عبد الرحمن بن يسار ، قال : نفَرَ إلى علىّ عليه السلام إلى ذِى قار من الكوفة فى البحر والبرّ ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً ؛ أقام علىّ بذى قار خمسة عشر يوما ، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله .

قال : فلما سار بهم منقلة[1] ، قال ابنُ عباس : والله لأعُدّنّهم ، فإن كانوا كما قال ، وإلا أتممتُهم من غيرهم ؛ فإنّ الناس قد كانوا سمعوا قوله . قال : فعرضْتُهم فو الله ما وجدْتهم يزيدون رجلا ، ولا ينقصون رجلا ، فقلت : الله أكبر ! صدق الله ورسوله ! ثم سرنا .

قال أبو مِخْنف : ولما بلغ حُذَيفةَ بن اليَمان أنّ عليا قد قدِم ذا قار ، واستنفرَ الناس ، دعا

---

(١) المنقلة : مرحلة السفر .

أصحابه فوعظهم وذكَّرهم الله وزهدهم فى الدنيا ، ورغبهم فى الآخرة ، وقال لهم : الحقُوا بأمير المؤمنين ووصىّ سيد المرسلين ، فإنّ من الحقّ أنْ تنصروه ؛ وهذا الحسن ابنُه وعمّار قد قدما الكوفة يستنفران الناس ، فانفروا .

قال : فنفر أصحابُ حذيفة إلى أمير المؤمنين ، ومكث حُذَيفة بعد ذلك خمس عشرة ليلة ، وتوفى رحمه الله تعالى .

قال أبو مِخْنف : وقال هاشم بن عُتْبة المِرْقال ، يذكُر نفورهم إلى علىّ عليه السلام :

وَسِرْنَا إلى خَـــيْرِ البَرِيَّةِ كُلِّها ... عَلَى عِلْمِنا أنّا إلَى اللهِ نَرْجِعُ
نُوَقِّرُهُ فى فَضْــــلِهِ وَنُجِلُّهُ ... وفى الله مانَرْجُو وما نَتوقَّعُ
وَنَخْصِفُ أخفافَ المطِىّ عَلَى الوجا ... وَفِى اللهِ مانَرْجِى وَفِى اللهِ نُوضِعُ
دَلَفْنا بجَمْعٍ آثَرُوا الحقَّ والهُدَى ... إلى ذِى تُقًى فى نَصْرِهِ نَتَسَرَّعُ
نُـكافِحُ عنه والسُّيوفُ شهيرةٌ ... نصافح أعناقَ الرِّجال فتقطعُ

قال أبو مخنف : فلما قدم أهلُ الكوفة على علىّ عليه السلام ، سلموا عليه ، وقالوا : الحمدُ لله يا أمير المؤمنين الّذى اختصَّنا بموازرتك ، وأكرَمَنا بنصرتك ؛ قد أجبناك طائعين غيرَ مكرهين ، فَرُنا بأمرك .

قال : فقام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال :

مرحباً بأهل الكوفة ، بيوتاتِ العربِ ووجُوهها ، وأهل الفضل وفرسانها ، وأشدّ العرب مودّة لرسول الله صلى الله عليه ولأهل بيته ؛ ولذلك بعثتُ إليكم واستصرخْتُكم عند نَقْض طلحة والزبير بَيْعتى ، عن غَيْر جَوْر منى ولا حَدَث ؛ ولَعمرى لو لم تنصرُونى يأهلَ الكوفة ؛ لرجوت أن يكْفِيَنى الله غوغاء الناس ، وطَغَام أهل البصرة ، مع أنّ عامّة مَن بها ووجوهها وأهل الفضل والدين قد اعتزلوها ، ورغبوا عنها .

فقام رءوس القبائل فخطبوا وبذلوا له النصر ، فأمرهم بالرحيل إلى البصرة .

(٣٤)

ومن خطبة له عليه السلام في استنفار الناس إلى أهل الشام :

الأصل :

أُفٍّ لَكُمْ ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ . أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عِوَضاً ،
وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً ! إِذَا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ ؛ كَأَنَّكُمْ
مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ .

يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَوَارِي فَتَعْمَهُونَ ؛ فَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ ، فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ .
مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي ، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمَالُ بِكُمْ ، وَلَا زَوَافِرُ عِزٍّ
يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ . مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ، فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ .

لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللهِ سُعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ ! تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ ، وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ
فَلَا تَمْتَعِضُونَ ؛ لَا يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ . غُلِبَ وَاللهِ الْمُتَخَاذِلُونَ !

وَايْمُ اللهِ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى ، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ .

وَاللهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ ، يَعْرُقُ لَحْمَهُ ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ، وَيَفْرِي جِلْدَهُ ،
لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ .

أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ ؛ فَأَمَّا أَنَا فَوَاللهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ
تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ ، وَيَفْعَلُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً ، وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ فَالنَّصِيحَةُ

لَكُمْ ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلَا تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا. وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ ، وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ ، وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ .

* * *

الشَّرْحُ :

أُفٍّ لكم : كلة استقذار ومَهانة ؛ وفيها لغات . ورتج : يغلق . والحوار : المحاورة والمخاطبة . وتَعْمَهون ؛ من العَمَه وهو التحير والتردد ، الماضي عَمِه بالكسر .

وقوله : «دارت أعينكم» من قوله تعالى: ﴿ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [1] ، ومن قوله : ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [2] .

وقلوبكم مألوسة ، من الألْس ، بسكون اللام ، وهو الجنون واختلاط العقل .

قوله : «مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي» كلة تقال للأبد،تقول:لا أفعله سَجِيسَ اللَّيالي ، وسَجِيسَ عُجَيْسٍ ، وسَجِيسَ الأَوْجَسِ ،بمعنى ذلك كله الدهر ، والزمان، وأبداً.

قوله : « ما أنتم بركن يُمَالُ بكم » ، أي لستم بركن يُسْتَنَد إليكم ، ويُمال على العدوّ بعزّكم وقوّتكم .

قوله : «ولا زوافر عزّ»،جمع زافرة،وزافرة الرجل:أنصاره وعشيرته؛ويجوزأن يكون زَوافر عِزّ ، أي حوامل عِزّ ، زفرتُ الحِمْلَ أزفره زفرا ، أي حملته .

قوله : «سُعْر نار الحرب» جمع ساعر ، كقولك : قوم كُظّمٌ للغيظ ، جمع كاظم ،

---

(١) سورة محمد ٢٠ .
(٢) سورة الأحزاب ١٩ .

وتمتعضون : تأنفون وتَغْضَبُون. وحَمِس الوَغَى: اشتدّ ، وأصلُ الوغَى الصوتُ والجَلَبة،ثم سُمّيت الحربُ نفسها وَغى ، لما فيها من الأصوات والجَلَبة . واستحرّ الموت، أى اشتدّ .

وقوله : « انفرجتم انفراج الرأس » ، أى كما ينفلق الرأس فيذهب نصفه يَمْنَةً ونصفه شأمَة . والمشرفيّة : السيوف المنسوبة إلى مشارِف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، ولا يقال : مشارِفىّ ، كما لا يقال : جعافرىّ ، لمن ينسب إلى جعافر .

وفراش الهام : العظام الخفيفة تلى القِحْف

وقال الراوندىّ فى تفسير قوله « انفراج الرأس » أراد به انفرجْتُمْ عَنّى رأساً ، أى قطعاً ، وعرّفه بالألف واللام ، وهذا غير صحيح لأنّ « رأسا » لا يعرّف . قال: وله تفسير آخر ؛ أن يكون المعنى انفراج رأس من أدْنى رأسه إلى غيره ، ثم حرّف رأسه عنه .

وهذا أيضا غيرُ صحيح ، لأنه لا خصوصيّة للرأس فى ذلك ، فإنّ اليدَ والرِّجْل إذا أدنيتَهما من شخص ، ثم حرّفتهما عنه فقد انفرج مابين ذلك العضو وبينه ، فأىّ معنى لتخصيص الرأس بالذِّكْر !

فأما قوله : « أنت فكن ذاك » فإنه إنّما خاطب مَنْ يُمكّن عدوَّه من نفسه كائنا مَنْ كان ؛ غير معيّن ولا مخصّص ؛ ولكن الرواية وردت بأنه خاطب بذلك الأشعث بن قيس ، فإنه روى أنه قال له عليه السلام وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم : هلّا فَعَلْتَ فِعْلَ ابن عفان ! فقال له : « إنّ فعل ابن عفان لمخزاة على مَن لا دين له، ولا وثيقة معه ، إنّ امرأً أمكن عدوّه من نفسه يهشِمُ عظمه ، ويفرى جلده ، لضعيفٌ رأيه مأفونٌ عقله . أنت فكن ذاك إن أحببتَ ، فأما أنا فدُون أن أعطِىَ ذاك ضَرْبٌ بالمشرفيّة . . . » الفصل .

ويمكن أن تكون الرواية صحيحة ، والخطاب عام لكلّ من أمكن من نفسه ، فلا منافاة بينهما .

وقد نظمتُ أنا هذه الألفاظ فى أبيات كتبتها إلى صاحب لى فى ضمن مكتوب اقتضاها ، وهى :

إنّ امرأً أمكنَ من نفسه ... عدوَّه يجدعُ آرابَه[(١)]

لا يدفعُ الضيمَ ولا ينكرُ الذ ... لَّ ولا يحمِى جنابَه

لفائلُ الرأيِ ضعيفُ القُوَى ... قدْ صرم الخذلانُ أسبابَه

أنت فكن ذاكَ فإنى امرؤ ... لا يرهبُ الخطبَ إذا نابَه

إنْ قال دهرٌ لم يُطِعْ أو شحا ... ه فمّ أدردَ أنيابَه[(٢)]

أو سامه الخسفَ أبَى وانتضَى ... دونَ مرام الخسف قرضابَه[(٣)]

أخزَرُ غضبانُ شديدُ السطا ... يقدرُ أنْ يتركَ ما رابَه

خطب أميرُ المؤمنين عليه السلام بهذه الخطبة ، بعد فراغه من أمر الخوارج ، وقد كان قام بالنهروان ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، وقال :

أمّا بعد ، فإنّ اللهَ قد أحسنَ نصرَكم ، فتوجّهوا من فورِكم هذا إلى عدوِّكم من أهل الشام .

فقاموا إليه ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، نفِدت نِبالُنا ، وكلّت سيوفُنا ، وانصلتَتْ[(٤)] أسِنّةُ رماحنا ، وعاد أكثرُها قِصَداً[(٥)] . ارجع بنا إلى مِصرنا ، نستعدّ بأحسن عُدّتنا ؛ ولعلّ أميرَ المؤمنين يزيد فى عَدَدِنا مثل مَنْ هلَكَ منّا ، فإنه أقوى لنا على عدونا .

---

(١) آرابه : جمع إرب ؛ وهو العضو .

(٢) شحاه : فتحه . والدرد : سقوط الأسنان .

(٣) القرضاب : السيف .

(٤) انصلتت : انجردت .

(٥) قصد : جمع قصدة ؛ وهى القطعة من القناة أو الرمح .

فكان جوابه عليه السلام : ﴿ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾[1].

فتلكئوا عليه ، وقالوا إن البردَ شديد .

فقال : إنهم يجدون البَرْد كما تجدُون فتلكئوا وأبوْا ، فقال : أفٍّ لكم إنها سُنّة جرت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾[2].

فقام منهم ناس فقالوا : ياأميرَ المؤمنين، الجراحُ[3] فاشيةٌ في الناس ـ وكانَ أهلُ النّهروان قد أكثروا الجراح في عسكر أمير المؤمنين عليه السلام ـ فارجع إلى الكوفة ، فأقم بها أياما ثم اخرج ، خار الله لك !

فرجع إلى الكُوفة عَنْ غير رضا .

* * *

[أمر الناس بعد وقعة النهروان]

وروى نصر بن مزاحم ، عن عمر بن سعد ، عن نُمَير بن وَعْلة ، عن أبي وَدّاك ، قال : لما كره القومُ المسيرَ إلى الشام عَقيب واقعة النهروان ، أقبل بهم أمير المؤمنين ، فأنزلهم النُّخيلة ، وأمرَ الناس أن يَلْزموا معسكرهم ، ويوطّنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يُقِلّوا زيارةَ النساء وأبنائهم ؛ حتى يسيرَ بهم إلى عَدُوّهم ؛ وكان ذلك هو الرأي لو فعلوه ؛ لكنهم لم يفعلوا ، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة فتركوه عليه السلام وما معه من الناس إلا رجالٌ من وجوههم قليل ، وبَقِيَ المعسكر خاليا ، فلا مَنْ دخل الكوفة خرج إليه ، ولا مَنْ أقام معه صَبَر . فلما رأى ذلك دخل الكوفة .

(١) سورة المائدة ٢١ . (٢) سورة المائدة ٢٢

(٣) الجراح : جمع جراحة .

قال نصر بن مزاحم : فخطب الناس بالكوفة ، وهى أولُ خطبة خطبها بعدقدومه من حرب الخوارج ، فقال :

أيها الناس ! استعدُّوا لقتال عدوّ فى جهادهم القربةُ إلى الله عزّ وجَلّ ، ودَرْكُ الوسيلة عنده ! قوم حيارَى عن الحقّ لايُبصرونه ، مُوزَعين[1] بالجور والظلم لايعدلون به ، جفاة عن الكتاب ، نُكُبٌ عن الدِّين ، يَعْمَهُون فى الطغيان ، ويتسكّعون فى غمرة الضلال ، فأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ، وتوكّلوا على الله ، وكفى بالله وكيلا .

قال : فلم ينفِرُوا ولم يُنْشِروا[2] ، فتركهم أياما ، ثم خطبهم ، فقال : أُفٍّ لكم لقد سئمتُ عتابَكم . أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا . الفصل الذى شرحناه آنفا إلى آخره . وزاد فيه : « أنتم أسودُ الشَّرى فى الدَّعة ، وثعالبُ رَوّاغة حين البأس . إنّ أخا الحرْب اليقظان ! ألا إنّ المغلوبَ مقهور ومسلوب » .

* * *

وروى الأعمش عن الحكم بن عتيبة ، عن قيس بن أبى حازم ، قال : سمعتُ عليًّا عليه السلام على مِنْبَر الكوفة ، وهو يقول :

ياأبناء المهاجرين ! انفروا إلى أئمة الكُفْر ، وبقية الأحزاب ، وأولياء الشيطان . انفِرُوا إلى مَنْ يقاتل على دم حَمّال الخطايا ، فوالله الذى فلق الحبّة ، وبرأ النَّسَمة ! إنه ليَحْمِل خطاياهم إلى يوم القيامة لاينقص من أوزارهم شيئا .

قلت : هذا قيس بن أبى حازم ! وهو الذى روى حديث : « إنكم لترون ربّكم يوم القيامة ، كما ترون القمر ليلة البَدْر لاتُضامون فى رؤيته » . وقدطعن مشايخنا المتكلّمون فيه ، وقالوا : إنه فاسق ، ولا تُقْبَلُ روايته ؛ لأنه قال : إنّى سمعت عليا يخطُب على منبر الكوفة ،

(١) يقال : أوزعه بالشىء ؛ إذا أغراه به .
(٢) لم ينشروا : أى لم يتفرقوا .

ويقول : انفروا إلى بقية الأحزاب ؛ فأبغضته ، ودخل بغضه فى قلبى ، ومن يبغض عليا عليه السلام لاتقبل روايته .

فإن قيل : فما يقول مشايخكم فى قوله عليه السلام : « انفروا إلى من يقاتل على دم حمّال الخطايا » ؟ أليس هذا طعنا منه عليه السلام فى عثمان !

قيل : الأشهر الأكثر فى الرواية صدر الحديث ، وأما عجز الحديث فليس بمشهور تلك الشهرة ، وإن صح حملناه على أنه أراد به معاوية ؛ وسمّى ناصريه مقاتلين على دمه، لأنهم يحامون عن دمه ، ومن حامَى عن دم إنسان فقد قاتل عليه .

وروى أبو نعيم الحافظ ، قال : حدثنا أبو عاصم الثقفى ، قال . جاءت امرأة من بنى عبس إلى على عليه السلام ، وهو يخطب بهذه الخطبة على منبر الكوفة ، فقالت : ياأمير المؤمنين ، ثلاث يُبلبلن القلوب عليك ، قال : وما هن ويحك ! قالت : رضاك بالقضية، وأخذك بالدنية ، وجزعك عند البلية . فقال : إنما أنت امرأة ، فاذهبى فاجلسى على ذيلك ، فقالت : لا والله مامن جلوس إلا تحت ظلال السيوف .

وروى عمرو بن شمر الجعفى ، عن جابر ، عن رُفيع بن فرقد البجلى ، قال : سمعت عليا عليه السلام ، يقول :

ياأهل الكوفة ، لقد ضربتكم بالدرة التى أعظ بها السفهاء فما أراكم تنتهون ، ولقد ضربتكم بالسياط التى أقيم بها الحدود ، فما أراكم ترعوون ، فلم يبق إلا أن أضربكم بسيفى ؛ وإنى لأعلم مايقومكم ؛ ولكنى لا أحب أن ألى ذلك منكم . واعجبا لكم ولأهل الشام ! أميرهم يعصى الله وهم يطيعونه ، وأميركم يطيع الله وأنتم تعصونه ! والله لوضربت خيشوم المؤمن بسيفى هذا على أن يبغضنى ماأبغضنى ؛ ولو سقت الدنيا بحذافيرها إلى الكافر لما أحبنى ؛ وذلك أنه قضى ماقضى على لسان النبى الأمى أنه لايبغضنى

مؤمن ، ولا يُجبَى كافر ؛ وقد خاب مَنْ حَمَل ظلْمًا . والله لتَصْبِرُنّ بأهل الكوفة على قتال عدوّكم أو ليُسَلِّطَنّ الله عليكم قوما أنتم أولى بالحق منهم فليعذبُنكم أفَبِنْ قتلة بالسيف تحيدون إلى مَوْتةٍ على الفراش ! والله لمَوْتةٌ على الفِراش أشدُّ من ضَرْبة ألفِ سيف .

قلت : ما أحسن قول أبى العيناء ، وقد قال له المتوكل : إلى متى تمدح الناس وتهجوهم ! فقال : ما أحسنوا وأساءوا . وهذا أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وهو سَيّدُ البشر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، يمدح الكوفة وأهلها عقيبَ الانتصار على أصحاب الجمل ، بما قد ذكرنا بعضَه وسنذكر باقيَه ، مدْحًا ليس باليسير ولا بالمستصغر ، ويقول الكوفة عند نظره إليها : أهلاً بك وبأهلِك ! ما أرادك جبّارٌ بكيدٍ إلا قصَمه الله . ويُثْنِي عليها وعلى أهلِها حَسْبَ دمّه البَصْرة وعيبه لها ودعائه عليها وعلى أهلها ، فلما خذله أهلُ الكوفة يومَ التحكيم ، وتقاعدوا عن نَصْره على أهل الشام ، وخرجَ منهم الخوارج ، ومَرَق منهم المُرّاق ، ثم استنفرَهم بَعْدُ فلم ينفروا ، واستصْرَخهم فلم يُصرِخوا[1] ، ورأى منهم دلائلَ الوَهَن وأمارات الفشل ، انقلبَ ذلك المدح ذمًّا ؛ وذلك الثناء استزادةً وتقريعا وتهجينا .

وهذا أمرٌ مركوز فى طبيعة البشر ، وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، والقرآن العزيز أيضًا كذلك ، أثنى على الأنصار لما نَهَضُوا ، وذَمّهم لما قعدوا فى غزاة تبوك ، فقال : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾[2] الآيات ، إلى أن رضى الله عنهم ، فقال : ﴿وَعَلَى

---

(١) لم يصرخوا : لم يغيثوا .
(٢) سورة التوبة ٨١ .

الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ أى من رسول الله ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ . . . ﴾[1] الآية .

***

[مناقب على وذكر طُرَف من أخباره فى عدله وزهده]

روى علىُّ بن محمد بن أبى سيف[2] المدائنىُّ عن فُضَيل بن الجعد ، قال : آكدُ الأسباب فى تقاعد العرب عن أمير المؤمنين عليه السلام أمْرُ المال ، فإنه لم يكُنْ يُفَضِّلُ شريفاً على مشروف ، ولا عربيًّا على عَجَمىّ ، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل كما يصنع الملوك ، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه . وكان معاوية بخلاف ذلك ، فترك الناس عليا والتحقوا بمعاوية ؛ فشكا علىٌّ عليه السلام إلى الأشتر تخاذُلَ أصحابه ، وفرار بعضهم إلى معاوية ، فقال الأشتر : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّا قاتلنا أهل البَصْرة بأهل البصرة وأهل الكوفة ، ورأىُ الناس واحد ، وقد اختلفوا بعد ، وتعادَوْا وضعفت النية ، وقلَّ العدد ، وأنت تأخُذُهم بالعدل ، وتعمل فيهم بالحق ، وتُنْصِف الوضيع من الشريف ؛ فليس للشريف عندك فَضْلُ مَنزلة على الوضيع ، فضجّت طائفة ممّن معك من الحقّ إذ عُمُّوا به ، واغتمّوا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغَناء والشرف ، فتاقتْ أنفُس الناس إلى الدنيا ، وقلَّ مَنْ ليس للدنيا بصاحب ، وأكثرهم يَجتوى الحقّ ويشترى الباطل ، ويؤثِر الدنيا ، فإن تبذُلِ المال يا أميرَ المؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرجال ، وتَصْفُ نصيحتُهم لك ، وتَستخلِصْ وُدَّهم ، صنع اللهُ لك يا أمير المؤمنين ! وكَبَتَ أعداءك ، وفضَّ جمعهم ، وأوهن كيدَهم ، وشتّت أمورَهم ، إنه بما يعملون خبير .

فقال علىٌّ عليه السلام :

---

(١) سورة التوبة ١١٨ .

(٢) ب : « يوسف » ؛ والصواب ما أثبته من فهرس ابن النديم ١٠٠ ، وانظر ص ٢٠٣ من هذا الجزء .

أمّا ماذكرت من عملنا وسيرتنا بالعدل ؛ فإنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾[1] ؛ وأنا من أن أكون مُقصّرًا فيا ذكرتَ أخوفُ .

وأما ماذكرت من أنّ الحق ثَقُل عليهم ففارقونا لذلك ، فقد علم الله أنّهم لم يفارقونا من جَوْر ، ولا لجئوا إذ فارقونا إلى عَدْل ، ولم يلتمسوا إلا دنيا زائلة عنهم كأن قد فارقوها ؛ وَلَيُسْأَلُنّ يوم القيامة : ألدنيا أرادوا أم لله عملوا ؟

وأمّا ماذكرتَ من بَذْل الأموال واصطناع الرجال ، فإنّا لا يَسَعُنا أن نؤتي امرأً من الفيء أكثرَ من حقّه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى وقوله الحق : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصّابِرِينَ ﴾[2] وقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وحْدَه ، فكثّره بعد القلة ، وأعزّ فئته بعد الذّلة ، وإن يُرِد الله أنْ يولّينا هذا الأمرَ يذلّل لنا صَعْبَه ، ويُسهّل لنا حَزْنه ، وأنا قابل من رأيك ما كان لله عزّ وجل رضًا ، وأنت من آمنِ الناس عندى ، وأنصحِهم لى ، وأوثقِهم فى نفسى إنْ شاء الله .

* * *

وذكر الشَّعْبىّ ، قال : دخلت الرَّحبة بالكوفة ـ وأنا غلام ـ فى غلمان ؛ فإذا أنا بعلىّ عليه السلام قائما على صُبرتين[3] من ذهب وفضة ، ومعه مِخْفَقة ، وهو يطرد الناس بمخفقته ثم يرجع إلى المال فيقسمه بين الناس ؛ حتى لم يبق منه شيء ، ثم انصرف ولم يحمل إلى بيته قليلا ولا كثيرا . فرجعت إلى أبى فقلت له : لقد رأيتُ اليوم خيرَ الناس أو أحمق الناس ، قال : مَنْ هُوَ يابُنَىّ ؟ قلت : علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين ، رأيته يصنع كذا ، فقصصت عليه ، فبكى ، وقال : يابنىّ ، بل رأيتَ خيرَ الناس .

* * *

(١) سورة فصلت ٤٦ . (٢) سورة البقرة ٢٤٩ .
(٣) الصبرة ، بالضم : ماجمع من الطعام بلا كيل ولا وزن .

وروى محمد بن فُضَيْل عن هارون بن عنترة ، عن زاذان ، قال : انطلقتُ مع قَنبَر غلام علىّ عليه السلام ، فإذاهو يقول : قم يأمير المؤمنين ، فقد خبأتُ لك خبيئاً ، قال: وما هو ويحك ؟ قال : قُمْ معى ، فانطلق به إلى بيته ، وإذا بغرارة مملوءة من جامات ذهباً وفضة ، فقال : يأمير المؤمنين ، رأيتَك لا تتركُ شيئاً إلا قسَمْتَه ، فادّخرتُ لك هذا من بيت المال ، فقال علىّ عليه السلام : ويحك يا قنبر ! لقد أحببتَ أن تُدْخِل بيتى ناراً عظيمة . ثم سلّ سيفَه وضربه ضَرَبات كثيرة ، فانتثرت من بين إناء مقطوع نصفه ، وآخر ثلثه ، ونحو ذلك ، ثم دعا بالناس ، فقال : اقسموه بالحصص، ثم قام إلى بيت المال، فقسم ماوجَد فيه ، ثم رأى فى البيت إبَرًا وَمَسالّ ، فقال : وَلْتَقسِموا هذا ، فقالوا : لا حاجة لنا فيه ـ وقدكان علىّ عليه السلام يأخذُ من كلّ عامل مما يَعْمَل ـ فضحك ، وقال : ليُؤْخَذَنّ شرّه مع خيره .

وروى عبدُالرّحمن بن عَجْلان ، قال : كان علىّ عليه السلام يَقْسِم بين الناس الأبزارَ والحُرْف[1] والكمُّون ، وكذا وكذا .

وروى مجمع التيمى ، قال : كان علىّ عليه السلام يكنس بيتَ المال كلّ جُمعة، ويصلّى فيه ركعتين ، ويقول : ليشهدْ لى يوم القيامة .

وروى بكر بن عيسى عن عاصم بن كُلَيب الجرْمىّ ، عن أبيه ، قال : شهدتُ عليًّا عليه السلام وقد جاءه مال من الجَبَل ، فقام وقمنا معه ، وجاء الناس يزدحمون ، فأخذ حبالا فوصلها بيده ، وعقَد بعضَها إلى بعض ، ثم أدارها حول المال ، وقال : لا أُحِلّ لأحدٍ أن يجاوز هذا الحَبْل ، قال : فقعدالناسُ كلُّهم من وراء الحبل ، ودخل هو، فقال: أين رءوسُ الأسْبَاع ؟ وكانت الكوفة يومئذ أسباعا ـ فجعلوا يحملون هذه الجُوالق إلى هذه الجُوالق ، وهذا إلى هذا ، حتى استوت القسمة سبعة أجزاء ، ووُجِد مع المتاع

(١) الحرف ، بالضم : الخردل .

رغيف ، فقال : اكسروه سَبْعَ كِسَر ، وضعوا على كل جزء كِسْرة ، ثم قال :

هَذَا جَنَايَ وَخِيَارُهُ فِيهِ ۞ إِذْ كُلُّ جَانٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ[1]

ثم أقرع عليهـا ودفعها إلى رءوس الأسباع ، فجعل كلّ رجل منهم يدعو قومَه فيحملون الجوالِيق .

* * *

وروى مُجَمِّع ، عن أبي رَجَاء ، قال : أخرج عليّ عليه السلام سيفاً إلى السُّوق ، فقال : مَنْ يشترى منِّي هذا ؟ فوالذى نفسُ عليّ بيده ، لو كان عندى ثمن إزار مابعتُه ، فقلت له : أنا أبيعُك إزاراً وأنسئُك ثَمنَه إلى عطائك ، فدفعت إليه إزاراً إلى عطائه ، فلما قبض عطاءه دفع إلىّ ثمن الإزار .

وروى هارون بن سعيد ، قال : قال عبـدُ الله بن جعفر بن أبي طالب لعلىّ عليه السلام : يا أميرَ المؤمنين ، لو أمرتَ لى بمعونة أو نفقة ! فوالله ما لى نفقة إلّا أن أبيعَ دابّتى ، فقال : لا والله ما أجدُ لك شيئاً إلّا أن تأمُرَ عمَّك أن يسرقَ فيعطيَك .

وروى بكر بن عيسى ، قال : كانَ علىّ عليـه السلام يقول : يا أهلَ الـكوفة ، إذا أنا خرجتُ من عندكم بغير راحلتى ورحلى وغلامى فلان ؛ فأنا خائن . فـكانتْ نفقتُه تأتيه من غَلّته بالمدينـة بينبُع ، وكان يُطعم الناسَ منهـا الخبز واللحم ، ويأكل هو الثَّريد بالزيت .

وروى أبو إسحاق الهَمْدانى أن امرأتين أتَتا عليّاً عليه السلام : إحداهما من العرب والأخرى من الموالى ، فسألتاه ، فدفع إليهما دراهمَ وطعاماً بالسَّواء ، فقالت إحداهما :

---

(١) البيت أنشده عمرو بن عدى حين كان غلاما ، وكان يخرج مع الخدم يجتنون للملك (جـذيمة بن الأبرش) الـكمأة ؛ فـكانوا إذا وجدوا كمأة خيارا أكلوها وأتوا بالباقى إلى الملك ، وكان عمرو لايأكل منه ، ويأتى به كما هو وينشد البيت . وانظر القاموس ٣ : ٢٥٩ — ٢٦٠ ؛ وحديث على ورد مفصلا فى حلية الأولياء ١ : ٨١ .

إنّى امرأة من العرب، وهذه من العجم ؛ فقال: إنى والله لا أجدُ لبنى إسماعيل فى هذا الفَىْء فضلا على بنى إسحاق .

وروى معاوية بن عمّار عن جعفر بن محمد عليهما السلام ، قال : ما اعتَلَج على علىّ عليه السلام أمران فى ذات الله ، إلا أخذ بأشدّهما ، ولقد علمتم أنه كان يأ كل ـ يأهل الكوفة ـ عندكم من ماله بالمدينة ؛ وأنْ كان ليأخذُ السَّويق فيجعلُه فى جراب ، ويختم عليه مخافة أن يُزاد عليه من غيره ؛ وَمَنْ كان أزهد فى الدنيا من علىّ عليه السلام !

وروى النّضْر بن منصور ، عن عُقْبة بن علقمة ، قال : دخلتُ على علىّ عليه السلام، فإذا بين يديه لبن حامض ، آذتْنِى حُموضته، وكِسَرٌ يابسة ، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأ كلُ مثل هذا ! فقال لى : يا أبا الجنُوب ، كان رسول الله يأ كل أيْبَس من هـذا ، ويلبَسُ أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإنْ أنا لم آخذ بما أخذ به خفت ألّا ألحق به .

• • •

وروى عمران بن مسلمة ، عن سُوَيْد بن غَفَلة ، قال : دخلت على علىّ عليه السلام بالكوفة ، وإذا بين يديه قَعْب لبن أجدُ ريحه من شدة حموضته ، وفى يده رغيف ، ترى قُشار الشّعير على وجهه وهو يكسره ، ويستعين أحيانا بِرُكبته ، وإذا جاريتهُ فِضّة قائمة عَلَى رأسه ، فقلت : يا فضّة ، أما تتقون الله فى هـذا الشيخ ! ألا نخلتم دقيقه ؟ فقالت : إنّا نكره أن نُؤجَر وَيأثَمَ ، نحن قد أخذ علينا ألّا ننخُلَ له دقيقا ماصَحِبْناه ـ قال : وعلىّ عليه السلام لا يسمع ما نقول ـ فالتفت إليها فقال : ماتقولين ؟ قالت : سَلْه ، فقال لى : ماقلتَ لها ؟ قال : فقلت إنى قلت لها : لو نخلْتم دقيقه ! فبكى ، ثم قال : بأبى وأمّى مَن لم يشبع ثلاثامتوالية [من] خبز بُرّ حتى فارق الدنيا ، ولم يُنْخَل دقيقه ! قال : يعنى رسول الله صلى الله عليه وآله .

وروى يوسف بن يعقوب ، عن صالح بياع الأكسية ، أنّ جدّته لقيتْ علياً عليه السلام بالكوفة ، ومعه تمرٌ يحمله ، فسلّمت عليه ، وقالت له : اعطني يا أمير المؤمنين هذا التمر أحمله عنك إلى بيتك ، فقال : أبو العيال أحقُّ بحمله ، قالت : ثم قال لي : ألا تأكلين منه ؟ فقلت : لا أريد ، قالت . فانطلق به إلى منزله ثم رجع مُرتدياً بتلك الشّملة ، وفيها قشور التمر ؛ فصلّى بالناس فيها الجمعة .

وروى محمد بن فُضيل بن غزْوان ، قال : قيل لعليّ عليه السلام : كم تتصدّق ! كم تُخرجُ مالك ! ألا تُمسك ! قال : إني والله لو أعلم أنّ الله تعالى قَبِلَ مِنّي فرضاً واحداً لأمسكت ؛ ولكني والله ما أدرى ؛ أقبل مِنّي سبحانه شيئاً أم لا !

وروى عَنبسة العابد ، عن عبد الله بن الحسين بن الحسن ، قال : أعتق عليّ عليه السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله ألف مملوك مما مَجِلت[1] يداه ، وعرق جبينه ؛ ولقد وَلِيَ الخلافة ، وأتته الأموال ، فما كان حَلْواه إلا التمر ، ولا ثيابه إلا الكرابيس .

وروى العوام بن حَوْشب ، عن أبي صادق ، قال : تزوج عليّ عليه السلام ليلىٰ بنت مسعود النهشلية ، فضربت له في داره حَجَلة ، فجاء فهتكها ، وقال : حَسْبُ أهل عليّ ما هم فيه !

وروى حاتم بن إسمعيل المدنيّ ، عن جعفر بن محمد عليه السلام ، قال : ابتاع عليّ عليه السلام في خلافته قميصاً سَمَلاً[2] بأربعة دراهم ، ثم دعا الخيّاط ، فمدّ كُمّ القميص ، وأمره بقطع ما جاوز الأصابع .

• • •

وإنما ذكرنا هذه الأخبار والروايات — وإن كانت خارجة عن مقصد الفصل — لأن الحال اقتضى ذكرها ، من حيث أردنا أن نبيِّن أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يكنْ

(١) مجلت يده : عملت .
(٢) السمل : الخلق من الثياب .

يذهب فى خلافته مذهب الملوك الذين يُصانعون بالأموال ويصرّفونها فى مصالح ملكهم وملاذّ أنفسهم ، وأنه لم يكنْ من أهل الدنيا ، وإنما كان رجلا متألّهاً صاحب حَقّ ، لا يريد بالله ورسوله بدلا .

* * *

وروى علىّ بن محمد بن أبى يوسف المدائنىّ أنّ طائفة من أصحاب علىّ عليه السلام مَشَوْا إليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أعطِ هذه الأموال وفضِّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم ، واستمل مَنْ تخاف خلافه من الناس وفِراره ، وإنما قالوا له ذلك لِما كان معاوية يَصْنَع فى المال ، فقال لهم : أتأمُرونّى أن أطلبَ النَّصْر بالجوْر ! لا والله لا أفعلُ ما طلعتْ شمس ، وما لاح فى السماء نجم ، والله لو كان المالُ لى لواسيتُ بينهم ، فكيف وإنما هى أموالهم ! ثم سكت طويلا واجما ، ثم قال : الأمرُ أسرعُ من ذلك ؛ قالها ثلاثا .

(٣٥)

ومن خطبة له عليه السلام بعد التحكيم :

الأصل :

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ ، وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَيْسَ مَعَهُ إِلٰهٌ غَيْرُهُ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ ، تُورِثُ الْحَسْرَةَ ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ ، وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هٰذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي ، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي ؛ لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ ! فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ :

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى ... فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ

* * *

الشرح :

الخطب الفادح : الثقيل . ونخلت لكم ، أى أخلصته ، من نخلتُ الدقيق بالمنخل .

وقوله : «الحمد لله وإن أتى الدهر» ، أى أحمده على كلّ حال من السَّرّاء والضراء .

وقوله : «لو كان يطاع لقصير أمر» ، فهو قصير صاحب جَذيمة ، وحديثه مع جَذيمة ومع الزَّبّاء مشهورٌ ، فضرب المثل لكلّ ناصح يُعصى بقصير .

وقوله : « حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقَدْحه » ، يشير إلى نفسه ؛ يقول : خالفتمونى حتى ظننت أن النصح الذى نصحتكم به غيرُ نصح ، لإطباقكم وإجماعكم على خلافى ؛ وهذا حقّ ؛ لأن ذا الرأى الصواب إذا كثر مخالفوه يَشُكُّ فى نفسه .

وأما ضَنّ الزّند بقَدْحه ، فمعناه أنه لم يقدح لى بعد ذلك رأى صالح ، لشدّة مالقيت منكم من الإباء والخلاف والعصيان ؛ وهذا أيضاً حقّ ، لأنّ المشيرَ الناصح إذا اتُّهِم واستُغِشّ عَمِيَ قلبُهُ وفسد رأيُه .

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دُرَيْد بن الصِّمّة ، والأبيات مذكورة فى الحماسة ، وأولها :

نَصَحْتُ لِعارِضٍ وَأَصْحابِ عارِضٍ ... وَرَهْطِ بَنِى السَّوْداءِ ، والقومُ شُهَّدِى[1]

فقلت لم ظُنّوا بألفَىْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُمُ فى الفارسىّ المُسَرَّدِ[2]

أَمَرْتُهُمُ أمرى بمنعرَجِ اللِّوَى ... فلم يستبينوا النُّصْحَ إلّا ضُحَى الغَدِ[3]

فلمّا عَصَوْنِى كنتُ منهم وقد أرى ... غَوايَتَهُم وأنّنى غيرُ مُهْتَدِ

وما أنا إلّا مِنْ غَزِيّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيّةُ أَرْشُدِ[4]

---

(١) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى (٢ : ٨١٣) ، وكان من خبر هذا الشعر أن عبد الله ــ وهو آخر لعارض وهو أخو دريد ــ كان أسود إخوته ، فغزا بنى جشم وبنى نصر ابنى معاوية بن بكر بن هوازن ؛ وغنم ، فلما كانوا بمنعرج اللوى ؛ فنهه دريد عن اللبث ، وقال : إن غطفان ليست بغافلة عنا ؛ فحلف أنه لا يريم حتى ينتقم ، وأوقعوا بعبد الله وأصحابه ، وقتل عبد الله ، وجعل دريد يذب عنه وهو جريح . شرح التبريزى (٢ : ٣٠٤) .

(٢) ظنوا : قال المرزوقى : يجوز أن يكون معناه : ظنوا كل ظن قبيح بهم إذا غزوكم فى أرضكم وعقر داركم . ويجوز أن يكون معنى ظنوا أيقنوا ؛ لأن الظن يستعمل فى اليقين ؛ على حد قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ . والمدجج : التام السلاح ؛ من الدجة ؛ وهى الظلمة . وسراتهم : خيارهم ؛ وعنى بالفارسى المسرد ، الدروع .

(٣) فى الحماسة ذكر هذا البيت بعد تاليه .

(٤) فى الحماسة : وهل أنا إلا من غزية رهطه .

وهذه الألفاظ من خطبة خطب بها عليه السلام بعد خديعة ابن العاص لأبي موسى وافتراقهما، وقَبلَ وقعة النَّهْرَوان.

* * *

[قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج]

ويجبُ أن نذكُر في هذا الفصل أمْرَ التحكيم؛ كيف كان، وما الذي دعا إليه؟ فنقول:

إنّ الذي دَعا إليه طَلبُ أهل الشام له، واعتصامُهم به من سيوف أهل العراق؛ فقد كانت أماراتُ القهر والغَلَبة لاحتْ، ودلائل النصر والظَفَر وضحت، فعدلَ أهلُ الشام عن القراع إلى الخداع؛ وكان ذلك برأي عمرو بن العاص.

وهــذه الحــال وقعتْ عَقيب ليلة الهرير[1]، وهي الليلةُ العظيمة التي يُضرب بها المثل.

ونحن نذكر ماأورده نصر بن مُزاحم في كتاب صِفّين في هــذا المعنى، فهو ثِقَة ثَبْت، صحيح النقل، غير منسوب إلى هوًى ولا إدْغال؛ وهو من رجال أصحاب الحديث.

قال نصر:

حدّثنا عمرو بن شَمِر، قال: حدّثني أبو ضِرار، قال: حدّثني عمّار بن ربيعة، قال: غَلَّس عليّ عليه السلام بالناس صَلاة الغداة يوم الثلاثاء، عاشرَ شهر ربيع الأول، سنة سبع وثلاثين — وقيل: عاشر شهر صفر — ثم زحف إلى أهل الشام بعسكر العراق، والناسُ على راياتهم وأعلامهم، وزَحَف إليهم أهلُ الشام، وقد كانت الحرب أكلتِ الفريقين؛ ولكنّها

---

(١) من هرير الفرسان بعضهم على بعض كما تهر السباع؛ وهو صوت دون النباح.

فى أهلِ الشام أشدُّ نِكاية ، وأعظمَ وَقْعا ، فقد ملُّوا الحربَ ، وكرِهوا القتال ، وتضعضعت أركانُهم .

قال : فخرج رجلٌ من أهلِ العراق ، على فرس كُمَيْت ذَنوبٍ[1] ، عليه السلاحُ لايُرى منه إلا عيناه ؛ وبيده الرُّمح . فجعل يضرب رءوسَ أهلِ العراق بالقناة ، ويقول: سوُّوا صفوفَكم رحمكم الله ! حتى إذا عدَّلَ الصفوف والرايات ، استقبلهم بوجهه ، وولَّى أهلَ الشام ظهره ، ثم حمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

الحمدُ لله الذى جعل فينا ابنَ عَمِّ نبيّه ، أقدمَهم هجرة ، وأوَّلَهم إسلاما ، سيفٌ من سيوف الله على أعدائه ، فانظروا إذا حَمِيَ الوطيسُ[2] ، وثار القَتام[3] ، وتكسَّر المُرّان[4] ، وجالت الخيلُ بالأبطال ، فلا أسمعُ إلا غمغمة أو همهمة ؛ فاتبعونى وكونوا فى أثرى .

ثم حمل على أهلِ الشام فكسَّر فيهم رمحه ، ثم رجع فإذا هو الأشتر .

قال : وخرج رجلٌ من أهلِ الشام ، فنادَى بين الصفَّين : ياأبا الحسن ، ياعلىّ ، ابرُزْ إلىّ . فخرج إليه علىّ عليه‌السلام ، حتى اختلفت أعناقُ دابتيهما بين الصفّين ، فقال: إنّ لك ياعلىّ لقَدَماً فى الإسلام والهجرة[5] ، فهل لك فى أمرٍ أعرِضُه عليك ، يكون فيه حَقْنُ هذه الدماء ، وتأخُّرُ[6] هذه الحروب ؛ حتى ترى رأيك؟ قال: وماهو؟ قال :ترجع إلى

---

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب .

(٢) الوطيس فى الأصل : التنور ، أو حفرة تختمر ويختبز فيها ويشوى . وقيل :الوطيس : شىء يتخذ مثل التنور يختبز به ؛ وقيل : هى تنور من حديد وبه شبه حر الحرب . وحمى الوطيس ، مثل يضرب للأمر إذا اشتد . اللسان (٨ : ١٤٢) .

(٣) القتام : الغبار .

(٤) المران : جمع مرانة ؛ وهى الرماح الصلبة اللدنة .

(٥) وقعة صفين : « وهجرة » .

(٦) وقعة صفين : « تأخير » .

عِرَاقِك ، فتخلَّ بينك وبين العراق ، ونرجع نحنُ إلى شامنا فتُخلِّ بيننا وبين الشام[١] .

فقال على عليه السلام : « قد عرفتُ ما عرضت ، إن هذه لنصيحةٌ وشفقة[٢] ، ولقد أهمّني هذا الأمر وأسهرنى ، وضربتُ أنفه وعينه فلم أجِدْ إلا القتال أو الكفرَ بما أنزل الله على محمد . إن الله تعالى ذِكْرُه لم يرضَ من أوليائه أن يُعْصَى في الأرض وهم سكوت مُذعنون ؛ لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهوْن عن منكر ؛ فوجدتُ القتالَ أهونَ علىّ من معالجة في الأغلال في جهنم .

قال : فرجع الرّجلُ[٣] وهو يسترجع ، وزحف النّاس بعضُهم إلى بعض فارتموْا بالنَّبْل والحجارة حتى فَنِيتْ ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسّرت واندقّت . ثم مشى القومُ بعضُهم إلى بعض بالسيوف وعُمُد الحديد ، فلم يسمع السامعون إلا وقع الحديد بعضه على بعض ؛ لَهو أشدُّ هولاً في صدور الرجال من الصّواعق ، ومن جبال تِهامَة يدكّ بعضُها بعضا ، وانكسفت الشمس بالنَّقع ، وثار القَتام والقسطل[٤] ، وضلّت الألوية والرّايات ، وأخذ الأشتر يسير فيما بين الميمنة والميسرة ، فيأمر كلّ قبيلة أو كَتِيبة من القرّاء بالإقدام على التى تليها[٥] ؛ فاجتلدُوا بالسيوف وعُمُد الحديد ؛ من صلاة الغَداة من اليوم المذكور إلى نصف الليل ، لم يصلّوا لله صلاةً . فلم يزل الأشتر يفعلُ ذلك حتى أصبح والمعركة خَلْف ظهره ، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل في ذلك اليوم ، وتلك الليلة وهى ليلة الهرير المشهورة . وكان الأشترُ في ميمنة الناس وابنُ عباس في الميسرة ، وعلىّ عليه السلام في القلب ، والناس يقتتلون .

ثم استمرّ القتالُ من نصف الليل الثانى إلى ارتفاع الضُّحى ، والأشتر يقول لأصحابه:

---

(١) صفين : « شامنا » .

(٢ ـ ٢) صفين : « لقد عرفت ، إنما عرضت هذه النصيحة شفقة » .

(٣) صفين « الشامى » .

(٤) القسطل : الغبار . (٥) كذا فى ح ، وفى ب : « بينها » .

وهو يَزْحَفُ بهم نحو أهل الشام: ازحَفُوا قِيدَ رمحي هذا ، ويُلْقِي رمحَه ، فإذا فعلوا ذلك، قال : ازحفوا قابَ هذا القوس[١] ، فإذا فعلوا ذلك[٢] سألهم مثل ذلك[٢] ، حتى ملَّ أكثرُ الناس من الإقدام، فلما رأى ذلك قال : أعيذكم بالله أن تَرْضَعُوا الغنم سائر اليوم . ثم دعا بفرسه، وركَز رايته — وكانت مع حيّان بن هوذة النَّخَعِي — وسار بين الكتائب، وهو يقول: ألا مَنْ يشترِي نفسه لله ويقاتل مع الأشتر ؛ حتى يظهر أو يَلْحَق بالله ! فلا يزالُ الرجلُ من الناس يخرج إليه فيقاتل معه[٣] .

• • •

قال نصر : وحدثني عمرو قال : حدثني أبو ضرار ، قال : حدثني عمّار بن ربيعة ، قال : مرّ بي الأشتر ، فأقبلتُ معه حتى رجع إلى المكان الذي كان به ، فقام في أصحابه، فقال : شُدُّوا — فِداً لكم عمّي وخالي — شدّة تُرْضُون بها الله، وتُعِزّونَ بها الدين. [٤] إذا أنا حملت فاحملوا [٤] ثم نزل ، وضرَب وَجْهَ دابته ، وقال لصاحب رايته : أقْدِم فتقدّم[٥] بها ، ثم شدّ على القوم ، وشدّ معه أصحابه ، فضرب أهلَ الشام حتى انتهى بهم إلى معسكرهم ، فقاتلوا عند المعسكر قتالا شديدا ، وقُتِل صاحبُ رايتهم ، وأخذ عليّ عليه السلام — لما رأى الظفر قد جاء من قِبَله — يَمُدُّه بالرجال[٦]

• • •

ورَوَى نصر عن رجاله ، قال : لمّا بلغ القومُ إلى ما بلغوا إليه ، قام عليّ عليه السلام خطيبا ، فحمِد الله وأثنى عليه ، وقال :

(١) القاب : ما بين المقبض والسية ، والقوس : يذكر ويؤنث
(٢ — ٢) ساقط من ب ، وأثبته من ا ، ج .
(٣) وقعة صفين ٥٤٠ — ٥٤٤ .
(٤ — ٤) وقعة صفين : « فإذا شدت فشدوا » .
(٥) صفين : « فأقدم بها »
(٦) وقعة صفين ٥٤٤

أيّها الناس ، قد بلغ بكم الأمر وبعدوّكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمورَ إذا أقبلت اعتُبِر آخرُها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا ، وأنا غادٍ عليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله .

قال : فبلغ ذلك معاوية،فدعا عمرو بن العاص ، وقال : يا عمرو ؛ إنما هي الليلة ، حتى يغدُوَ علىٌّ علينا بالفيْصَل [1] ؛ فما ترى ؟

قال : إنّ رجالك لا يقومون لرجاله ، ولستَ مثله ، هو يقاتلُك على أمر وأنت تقاتلُه على غيره ، أنت تريد البقاء ، وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهلُ الشام لا يخافون عليًّا إن ظفر بهم ؛ ولكن ألقِ إلى القوم أمرا إنْ قَبِلوه اختلفُوا ، وإن ردّوه اختلفوا ادعُهم إلى كتاب الله حَكَمًا فيما بينك وبينهم ؛ فإنك بالغٌ به حاجتك فى القوم ؛ وإنى لم أزل أؤخّر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه

فعرف معاوية ذلك وقال له : صدقت [2] .

• • •

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمر عن جابر بن عمير [3] الأنصارىّ ، قال : والله لكأنّى أسمع عليًّا يوم الهرير ، وذلك بعد ما طحنت رحا مَذْحِج ، فيما بينها وبين عَكّ ولَخْم وجُذام والأشعريّين بأمر عظيم تشيبُ منه النواصى ، حتى [4] استقلّت الشمس وقام قائم الظهر [4] ، وعلىٌّ عليه السلام يقول لأصحابه : حتّى متى نُخَلِّى بين هذين الحيّين ! قد فَنِيا وأنتم وقوف تنظرون ! أما تخافُون مَقْتَ الله ! ثم انفتل [5] إلى القِبْلة ، ورفع

---

(١) ب : « بالفصل » ، وما أثبته من أ ، ح .
(٢) وقعة صفين ٥٤٥ .
(٣) فى الأصول : « غير » ، وصوابه من كتاب صفين .
(٤ـ٤) صفين : « من حيث استقلت الشمس حتى قام قائم الظهيرة » . واستقلت الشمس : ارتفعت .
(٥) ب : « استقبل » ، والصواب ما أثبته من أ ، ح .

يديه إلى الله عزّ وجل، ونادى : يا ألله ، يا رحمن، يا رحيم ، يا واحد ، يا أحد ، يا صمد ! يا ألله، يا إله محمد ! اللهم إليك نُقِلت الأقدام ، وأفضت القلوب ، ورُفِعت الأيدى ، ومُدّت الأعناق، وشَخَصت الأبصار، وطُلِبت الحوائج ! اللّهم إنّا نشـكو إليك غيبة نبيّنا، وكثرة عـدوّنا ، وتشتّت أهوائنا ، ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (١) سيروا على بركة الله .

ثم نادى : لا إله إلا الله والله أكبر ، كلة التقوى .

قال : فلا والّذى بعث محمّدًا بالحقّ نبيًّا ، ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السّموات والأرض أصاب بيده فى يوم واحـد ما أصاب ؛ إنه قتل ـ فيما ذكر العادّون ـ زيادة على خمسمائة من أعلام العرب ؛ يخرج بسيفه مُنْحنيا ، فيقول : معذرة إلى الله وإليكم من هـذا . لقد هممت أن أفلقه (٢) ؛ ولـكن يحجزنى عنه أنى سمعت رسول الله صلى الله عليـه وآله ، يقول : « لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على » . وأنا أقاتل به دونه صلى الله عليه .

قال : فـكنا نأخذه فنقوّمه ، ثم يتناوله من أيدينا فيتقحم به فى عرض الصّفّ ، فلا والله ماليّثٌ بأشدّ نـكاية منه فى عدوه ، عليه السـلام (٣) .

* * *

قال نصر : فحدثنا عمرو بن شمر ، عن جابر ،قال : سمعت تميم بن حُذَيْم ، يقول : لما أصبحنا من ليلة الهرير ، نظرنا فإذا أشباهُ الرايات ، أمام أهل الشام فى وسط الفَيْلق ،

---

(١) سورة الأعراف ٨٩.
(٢) صفين : « أصقله » .
(٣) كتاب صفين ٥٤٥ ـ ٥٤٦

حيال موقف علي ومعاوية ، فلما أسفرنا إذا هي المصاحف قد رُبطت في أطراف الرّماح ، وهي عظام مصاحف العسكر ، وقد شدّوا ثلاثة أرماح جميعا ، وربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم ، يمسكه عشرة رهط .

قال نصر : وقال أبو جعفر وأبو الطفيل : استقبلوا عليا بمائة مصحف ، ووضعوا في كلّ مُجَنّبة[1] مائتي مصحف ، فكان جميعها خمسمائة مصحف .

قال أبو جعفر : ثم قام الطفيل بن أدهم حيال عليّ عليه السلام ، وقام أبو شريح الجذاميّ حيال الميمنة ، وقام ورقاء بن المعتمر حيال الميسرة ، ثم نادوا : يامعشر العرب ، الله الله في النساء والبنات والأبناء من الروم والأتراك وأهل فارس غدا إذا فنيتم ! الله الله في دينكم ! هذا كتابُ الله بيننا وبينكم .

فقال عليّ عليه السلام : اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتابَ يريدون ، فاحكُم بيننا وبينهم إنك أنت الحكَم الحقّ المبين .

فاختلف أصحاب عليّ عليه السلام في الرأي ؛ فطائفة قالت القتال ، وطائفة قالت المحاكمة إلى الكتاب ، ولا يحلّ لنا الحرب ، وقد دُعينا إلى حُكم الكتاب ؛ فعند ذلك بَطَلَت الحرب ووضعت أوزارها[2] .

* * *

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شمِر ، عن جابر ، قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن عليّ ابن الحسين ، قال : لما كانَ اليوم الأعظم ، قال أصحابُ معاوية : والله لا نَبْرَحُ اليوم العَرْصَة حتّى نموتَ أو يُفتح لنا ، وقال أصحاب عليّ عليه السلام : لانبرَحُ اليوم العَرْصة حتى نموتَ أو يُفْتَحَ لنا ، فبادروا القتال غُدْوَةً في يوم من أيام الشّعْرَى[3] طويل، شديد

(١) المجنبة ، بكسر النون المشددة : ميمنة الجيش وميسرته .

(٢) وقعة صفين ٥٤٦ – ٥٤٧ .

(٣) الشعرى : كوكب نير يقال له المرزم يطلع بعد الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر (اللسان) .

الحرّ فتراموا حتى فَنِيت النّبال ، وتطاعنُوا حتّى تقصّفتِ الرماح ، ثم نزل القومُ عن خُيُولهم ، ومشى بعضُهم إلى بعض بالسيوف حتى كُسِّرتْ جفونُها ، وقام الفُرْسان في الرُّكب ، ثم اضطربوا بالسُّيوف وبعَمَدِ الحديد ، فلم يَسمع السامعون إلا تغمْغُمَ القوم ، وصليلَ الحديد في الهام ، وتكادُمَ الأفْواه وكُسِفتِ الشمس ، وثار القتَام ، وضلّتِ الألْوِية والرايات ، ومرّتْ مواقيتُ أربع صلوات ، مايُسْجَدُ فيهنّ لله إلا تكبيراً ، ونادتِ المشيَخةُ في تلك الغَمَرات : يامعشرَ العرب ! اللهَ اللهَ في الحُرُماتِ من النّساء والبنات !

قال جابر : فبكى أبو جعفر وهو يحدّثنا بهذا الحديث .

قال نصر : وأقبل الأشترُ على فَرَسٍ كُمَيْتٍ مَحْذُوفٍ ، وقد وَضع مِغفَرَه على قَرَبُوس السَّرْج ، وهو ينادي : اصبروا يامعشرَ المؤمنين ، فقد حَمِيَ الوطيسُ ، ورجعتِ الشمسُ من الكسوف ، واشتدَّ القتال ، وأخذتِ السِّباعُ بعضها بعضا ، فهم كما قال الشاعر[(١)] :

مَضَتْ واستأخَرَ القُرَعاءُ عَنها وَخلّى بَيْنَهُمْ إلّا الوَرِيعُ[(٢)]

قال : يقول واحدٌ لصاحبه في تلك الحال : أيّ رجل هذا لو كانت له نية! فيقول له صاحبه : وأيّ نية أعظمُ من هذه تَكِلَتْكَ أمّك وهبِلتك ! إنّ رجُلا كما ترى قد سَبَح في الدّم ، وما أضجرتْه الحرب ، وقد غَلَتْ هامُ الكُماة من الحرّ ، وبلغت القلوبُ الحناجر ، وهو كما تراه جزّءا يقول هذه المقالة ! اللهم لا تُبقِنا بعد هذا !

قلت : لله أمّ قامت عن الأشتر ! لو أنّ إنسانا يُقسِم أنّ الله تعالى ماخلق في العرب

---

(١) هو عمرو بن معدى كرب ، من الأصمعية التي مطلعها :

أمِنْ رَيْحانَةَ الدّاعِي السَّمِيعُ يُؤرِّقُنِي وَأصْحَابِي هُجُوعُ

وهي في الأصمعيات ١٩٨ — ٢٠٢ وخزانة الأدب ٣ : ٤٦٢ — ٤٦٣ .

(٢) القرعاء : جمع قزيع ، وهو المغلوب المهزوم . وفي الخزانة والأصمعيات : « الأوغال » جمع وغل وهو الضعيف . والوريع : الضعيف الذي لاغناء عنده .

ولا فى النجم أشجعَ منه إلا أستاذه عليه السلام لَمَا خشِيتُ عليه الإثم ! ولله درّ القائل،
وقد سُئل عن الأشتر : ما أقول فى رجلٍ هَزَمَتْ حياتُه أهلَ الشام ، وهَزَم موتُه
أهلَ العراق !

وبحقّ ما قال فيه أمير المؤمنين عليه السلام : كان الأشترُ لى كما كنتُ لرسول الله
صلى الله عليه[1] .

* * *

قال نصر : ورَوَى الشّعبيّ عن صَعْصعة ، قال : وقد كانَ الأشعثُ بن قيس بَدَر منه
قولٌ ليلةَ الهرير ، نقله النّاقلون إلى معاوية ، فاغتنمه وبَنَى عليه تدبيرَه ؛ وذلك أنّ الأشعث
خطب أصحابَه من كِندة تلك الليلة ، فقال : الحمدُ لله ، أحمَدُه ، وأستعينه ، وأومِنُ به
وأتوكّل عليه ، وأستنصره وأستغفره ، وأستخيره ، وأستهديه ، وأستشيره ، وأستشهدُه ؛ فإنّ
مَنْ هداه[2] الله فلا مضلّ له ، ومن يُضلِل الله فلا هاديَ له ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله
وحدَه لا شريكَ له ، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسوله صلى الله عليه .

ثم قال : قد رأيتم يامعشرَ المسلمين ماقد كانَ فى يومكم هذا الماضى ، وماقد فَنِيَ فيه
من العرب ؛ فوالله لقد بَلَغْتُ من السِّنّ ماشاء الله أن أبلُغ ، فما رأيت مثلَ هذا اليوم
قطّ . ألا فليبلِّغ الشاهدُ الغائب ؛ إنا نحن إن تواقَفْنا غداً ، إنه لفناء العرب وضَيْعة
الحُرُمات[3] ! أما والله ما أقولُ هذه المقالة جَزَعاً من الحرب ، ولكنّى رجلٌ مُسِنٌّ
أخاف على النساء والذرارىّ غداً إذا فَنِينا ، اللهم إنك تعلم أنى قد نظرتُ لقومى ولأهل
دينى فلم آلُ ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، والرأىُ يُخطِئ ويُصيب ،

---

(١) وقعة صفين ٤٧ — ٥٤٩ .

(٢) صفين : « من يهد الله » .

(٣) فى ب : « لفنيت العرب وضيعت الحرمات » وما أثبته عن كتاب صفين .

وإذا قضى الله أمراً أمضاه عَلَى ما أحبَّ العباد أو كرهوا ، أقولُ قولى هذا وأستغفر الله العظيمَ لى ولكم !

قال الشعبيُّ : قال صَعصعة : فانطلقت عيونُ معاوية إليه بخطبة الأشعث ، فقال : أصابَ وربِّ الكعبة ! لَئِنْ نحن التقينا غداً لَتَميلَنّ على ذَرَارِىّ أهلِ الشام ونسائهم ، ولَتَميلَنّ فارسُ عَلَى ذَرَارِىّ أهلِ العراق ونسائهم ! إنّما يبصر هذا ذَوُو الأحلام والنُّهى ؛ ثم قال لأصحابه : اربطوا المصاحفَ عَلَى أطراف القَنا .

فثار أهل الشام فى سَوَاد الليل ينادون عن قول معاوية وأمره : يأهلَ العِراق ، مَنْ لذرارينا إن قتلتمونا ! ومَنْ لذراريكم إذا قتلناكم ! الله الله فى البقية ! وأصبَحُوا وقد رفعوا المصاحف على رءوس الرِّماح ، وقد قلّدوها الخيل [والناس على الرايات قد اشتهوْا ما دُعوا إليه][1] ، ومصحفُ دمشقَ الأعظم يحمله عشرة رجال عَلَى رءوس الرِّماح ، وهم ينادون : كتاب الله بيننا وبينكم .

وأقبل أبو الأعور السُّلَمىّ على بِرْذَونٍ أبيض ، وقد وَضَع المصحفَ عَلَى رأسه ، ينادى : يأهلَ العِراق ، كتاب الله بيننا وبينكم .

قال : فجاء عدىّ بن حاتم الطائىّ ، فقال : يأميرَ المؤمنين ، إنه لم يُصَبْ مِنّا عُصْبة إلا وقد أُصيبَ منهم مثلها[2] ، وكلٌّ مقروح ؛ ولكنّا أمثلُ بقيةً منهم ، وقد جَزِع القومُ ، وليس بعد الجَزَع إلا ماتحب ، فناجِزْهم[3] .

- وقام الأشتر ، فقال : يأميرَ المؤمنين ! إنّ معاوية لا خَلَفَ له من رجاله ؛ ولكنْ

---

(١) من كتاب صفين .

(٢) كتاب صفين : « إن كان أهل الباطل لا يقومون بأهل الحق ، فإنه لم يصب ... » .

(٣) فى كتاب صفين : « ناجز القوم » ، والمناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ؛ وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه ، أو يقتل أحدهما .

بحمدِ الله لك الخَلَف ، ولو كان لهم مثلُ رجالك لم يكن له مثلُ صَبْرك ولا نصرك ، فاقرعِ الحديدَ بالحديد ، واستعِنْ بالله الحميد .

ثم قام عمرو بن الحمِق ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّا والله ما أجَبْناك ولا نصرناك عَلَى الباطل ، ولا أجَبْنا إلا الله ، ولا طَلَبْنا إلا الحقّ ، ولو دعانا غيرُك إلى مادعوتنا إليه لاستَشْرى[1] فيه اللَّجاج ، وطالت فيه النَّجْوى ، وقد بلغ الحقُّ مقطَعه ، وليس لنا معك رأْىٌ .

فقام الأشعث بن قيس مُغْضَباً ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنّا لك اليوم عَلَى ما كنّا عليه أمس ، وليس آخرُ أمرِنا كأوّله ، وما من القوم أحدٌ أحْنَى عَلَى أهل العراق ولا أوتَرَ لأهلِ الشام مِنّى ! فأجِبِ القومَ إلى كتاب الله عزّ وجلّ ، فإنك أحقُّ بهمنهم ، وقد أحبّ الناسُ البقاء ، وكرهوا القتال .

فقال علىّ عليه السلام : هذا أمر يُنظر فيه

فتنادَى الناسُ من كلِّ جانب : الموادعة .

فقال علىّ عليه السلام : أيّها الناسُ ، إنّى أحقُّ مَن أجاب إلى كتاب الله ، ولكنّ مُعاوية وعَمْرو بن العاص وابن أبى مُعيط وابن أبى سَرْح وابن مَسْلَمة ليسوا بأصحابِ دين ولا قرآن ، إنّى أعرَفُ بهم منكم ، صحِبتُهم صغارا ورجالا ، فكانوا شرَّ صِغار ، وشرّ رجال . وَيْحَكم إنّها كلمة حَقٍّ يُراد بها باطل ! إنهم مارفعوها أنّهم يعرفونَها ويعملون بها ، ولكنّها الخديعة والوَهن والمكيدة ! أعيرونى سواعدَكُم وجَماجِمكم ساعة واحدة ، فقد بَلغ الحقُّ مقطَعه ، ولم يبق إلّا أن يُقْطَع دابرُ الذين ظلموا .

فجاءه من أصحابه زُهاءَ عشرين ألفا مُقنَّعين فى الحديد ، شاكى السلاح ، سُيوفُهم عَلَى

---

(١) استشرى : اشتد .

عواتقهم ، وقد اسودّت جباههم من السُّجود ، يتقدمهم مِسْعَر بن فَدَكِيّ وزيد بن حُصين وعِصابة من القرّاء الذين صاروا خوارج من بعد ، فنادوه باسمه لا بإمْرَة المؤمنين : يا عليّ ، أجب القوم إلى كتاب الله إذ دُعيت إليه ، وإلّا قتلناك كما قتلنا ابنَ عفان ، فو الله لنفعلَنّها إن لم تُجِبهم !

فقال لهم : وَيْحَكم ! أنا أوّلُ مَنْ دعا إلى كتاب الله ، وأوّلُ مَنْ أجاب إليه ؛ وليس يحلّ لي ، ولا يسَعُني في ديني أن أُدْعَى إلى كتاب الله فلا أقبلَه ، إني إنما قاتلتُهم ليَدِينوا بحكم القرآن ؛ فإنهم قد عصوا الله فيما أمرَهم ، ونقضُوا عهدَه ، ونبذوا كتابه ، ولكنّي قد أعلمتكم أنّهم قد كادوكم ؛ وأنهم ليس العملَ بالقرآن يريدون .

قالوا : فابعَث إلى الأشتر ليأتينّك ، وقد كان الأشتر صبيحةَ ليلة الهرير أشرف على عَسْكر معاوية ليدخله .

* * *

قال نصر : فحدثني فُضَيل بن خَدِيج [عن رجل من النخَع][1] قال : سأل مصعب [2] إبراهيم بن الأشتر [2] عن الحال كيف كانت ؟ فقال : كنت عند عليّ عليه السلام حين بعث إلى الأشتر ليأتيَه ، وقد كان الأشتر أشرَف على مُعَسْكَر معاوية ليدخله ، فأرسل إليه عليّ عليه السلام يزيدَ بن هانىء : أن ائتني ، فأتاه فأبلغه[3] ، فقال الأشتر : ائته فقل له : ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تُزيلَني عن موقفي ؛

(١) من كتاب صفين .
(٢ — ٢) ب : « سأل مصعب بن إبراهيم » ، وصوابه من ا ، ج .
(٣) كتاب صفين : « فبلغه » .

إنى قد رجوت[1] الفتح فلا تُعجلْنى . فرجع يزيد بن هانئ إلى علىّ عليه السلام فأخبره ؛ فما هو إلا أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرَّهج ، وعلت الأصوات من قِبَل الأشتر ، وظهرت دلائلُ الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخِذْلان والإدبار على أهل الشام ، فقال القوم لعلىّ : والله ما نراك أمرتَه إلا بالقتال ! قال : أرأيتمونى ساررت[2] رسولى إليه ! أليس إنما كلّمته على رءوسكم علانية وأنتم تسمعون ! قالوا : فابعثْ إليه فليأتك ؛ وإلا فو الله اعتزلناك ! فقال : وَيحك يا يزيد ! قل له : أَقبِلْ إلىّ ، فإن الفتنة قد وقعت . فأتاه فأخبره ، فقال الأشتر : أبرفع[3] هذه المصاحف ؟ قال : نعم ، قال : أما والله لقد ظننتُ أنّها حين رُفِعتْ ستُوقع خلافا وفرقة ؛ إنها مشورة ابن النّابغة[4] ! ثم قال ليزيد بن هانئ : وَيحك ! ألا ترى إلى الفتح ؟ ألا ترى إلى ما يلقون ! ألا ترى إلى الذى يَصْنَعُ الله لنا ؟ أينبغى أن نَدعَ هذا وننصرف عنه ! فقال له يزيد : أتحبّ أنك ظفِرتَ ها هنا وأنّ أميرَ المؤمنين بمكانه الذى هو فيه يُفرَّج عنه ، ويُسْلَم إلى عدوّه ! قال : سُبحان الله ! لا والله لا أحبُّ ذلك ، قال : فإنهم قد قالوا له ، وحلَفوا عليه ، لتُرْسِلَنّ إلى الأشتر فليأتيَنّك ، أو لنقتلنّك بأسيافنا كما قتلنا عثمان ، أو لنُسْلِمنّك إلى عدوّك .

فأقبل الأشترُ حتى انتهى إليهم ، فصاح : يأهلَ الذلّ والوهن ، أحِينَ علَوْتم القومَ ، وظنّوا أنكم لهم قاهرون رفعوا[5] المصاحف يدعونكم إلى ما فيها ! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها ، وتركوا سُنّةَ مَنْ أُنزلت عليه ، فلا تجيبوهم ! أمهلونى فُوَاقًا[6] فإنى

(١) كتاب صفين : « إنى قد رجوت الله أن يفتح لى » .
(٢) ب : « شاورت » ، وصوابه من أ ، ج ، وكتاب صفين .
(٣) كتاب صفين : « ألرفع » .
(٤) كتاب صفين : « يعنى عمرو بن العاص » .
(٥) كذا فى الأصول وتاريخ الطبرى ٦ : ٢٧ ، وفى كتاب صفين : « ورفعوا » .
(٦) الفواق : ما بين الحلبتين ؛ يقال : انتظرتك فواق ناقة .

قد أحسستُ بالفتح ، قالوا : لا نمهلك ، قال : فأمهلوني عَدْوةَ الفَرَس ؛ فإني قد طمعتُ في النصر ، قالوا : إذَنْ ندخلُ معك في خطيئتك .

قال : لحدِّثونى عنكم ، وقد قُتِل أماثلُكم ، وبقى أراذلُكم ؛ متى كنتم محقِّين ! أحين كنتم تقتُلون أهلَ الشام ! فأنتم الآن حين أمسكتم عن قتالهم مبطلون ! أم أنتم الآن في إمساككم عن القتال محقون ! فقتلاكم إذَن الذين لا تنكرون فضلهم ، وأنهم خيرٌ منكم في النار ، قالوا : دَعْنا منك يا أشتر ، قاتلناهم في الله وندَعُ قتالهم في الله ؛ إنا لسنا نطيعُك فاجتنِبْنا ، فقال : خُدِعتم والله فانخدعتم ، ودُعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم ؛ يا أصحاب الجباه السود ، كنا نظنُّ صلاتَكم زهادةً في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله ! فلا أرى فرارَكم إلا إلى الدنيا من الموت ؛ ألا قبحاً يا أشباه النِّيب[1] الجلّالة ، ما أنتم برائين بعدها عزًّا أبداً ، فابْعَدُوا كما بعِدَ القومُ الظالمون .

فسبُّوه وسبَّهم ، وضربُوا بسياطِهم وجهَ دابّته ، وضرب بسوطه وجوه دوابِّهم ، وصاح بهم عليٌّ عليه السلام ، فكفُّوا . وقال الأشتر : يا أمير المؤمنين ، احمِل الصفَّ على الصفِّ نصْرَع القوم . فتصايحوا : إنَّ أمير المؤمنين قد قَبِلَ الحكومة ، ورضى بحكم القرآن . فقال الأشتر : إنْ كان أمير المؤمنين قد قَبِل ورضىَ ، فقد رضيت بما رضى به أمير المؤمنين ، فأقبل الناسُ يقولون : قد رَضِيَ أميرُ المؤمنين ، قد قَبِل أميرُ المؤمنين ، وهو ساكت لا يَبِضُّ[2] بكلمة ، مُطْرِقٌ إلى الأرض .

ثم قام فسكت الناس كلهم ، فقال : أيها الناس ، إن أمرى لم يزَلْ معكم على ما أحبّ إلى أن أخذَتْ منكم الحرب ، وقد والله أخذَتْ منكم وتركَتْ ، وأخذَتْ من عدوِّكم فلم تترك ، وإنها فيهم أنكى وأنْهَك ، ألا إني كنتُ أمسِ أميرَ المؤمنين فأصبحت اليوم

(١) النيب : جمع ناب ؛ وهي الناقة المسنة .
(٢) لا يبض بكلمة : لا يتكلم .

مأموراً ، وكنت ناهياً فأصبحت منهياً ، وقد أحببتم البقاء ، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون .
ثم قعد .

قال نصر : ثم تكلم رؤساء القبائل ، فكلٌّ قال ما يراه ويهواه ، إمّا من الحرب أو من السلم ، فقام كُردوس بن هانئ البكري ، فقال : أيها الناس ؛ إنّا والله ما تولّينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من عليّ منذ توليناه ، وإنّ قتلانا لشهداء ، وإن أحياءنا لأبرار ؛ وإنّ عليا لَعلى بينة من ربه ، وما أحدث إلا الإنصاف ، فمن سلّم له نجا ، ومن خالفه هلك .
ثم قام شقيق بن ثور البكريّ ، فقال : أيها الناس ، إنا دعونا أهلَ الشام إلى كتاب الله ، فردوه علينا ، فقاتلناهم عليه ؛ وإنهم قد دعونا اليوم إليه[1] ؛ فإن رَدَدْناه عليهم حلّ لهم منّا ما حلّ لنا منهم ، ولسنا نخاف أن يحيفَ اللهُ علينا ورسوله ، ألا إنّ عليًّا ليس بالراجع الناكس ، ولا الشاكّ الواقف ؛ وهو اليوم على ما كان عليه أمس ؛ وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلّا في الموادعة[2] .

* * *

قال نصر : ثم إنّ أهلَ الشام لما أبطأ عنهم عِلْمُ حالِ أهل العراق : هل أجابوا إلى الموادعة أم لا ؟ جَزِعوا فقالوا : يامعاوية ، ما نرى أهلَ العراق أجابوا إلى ما دعوناهم إليه ، فأعِدْها جَذَعة[3] ، فإنّك قد غَمَرْت بدعائك القوم ، وأطمعتَهم فيك .
فدعا معاوية عبدَ الله بن عَمْرو بن العاص ، فأمره أنْ يكلّمَ أهلَ العراق ، ويستعلِم له ما عندهم ، فأقبل حتى إذا كان بين الصَّفّين نادى : ياأهلَ العراق ، أنا عبدُ الله بن

---

(١) كتاب وقعة صفين : « إلى كتاب الله » .
(٢) كتاب صفين ٥٦١ ـ ٥٦٤ ، ثم ٥٥٣ ـ ٥٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٢٧ ، بسنده عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه .
(٣) أعدها جذعة ؛ أي ابدأ بها مرة أخرى . وفي اللسان : « وإذا طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم : إن شئتم أعدناها جذعة ، أي أول ما يبتدأ منها » . وفي الأصول « خدعة » والصواب ما أثبته من كتاب صفين .

عمرو بن العاص : إنه قد كانت بيننا وبينكم أمورٌ للدين أو الدنيا[1] فإن تكن للدِّين فقد والله أعذرْنا وأعذرتم ، وإن تكن للدنيا فقد والله أسرَفْنا وأسرفتم ؛ وقد دعوناكم إلى أمرلو دعوتمونا إليه لأجبناكم ، فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذاك من الله . فاغتنموا هذه الفُرصة ، عسى أن يعيش فيها المحترف[2] ويُنْسَى فيها القتيل ؛ فإن بقاء المهلك بعد المالك قليل .

فأجابه سعد بن قيس الهَمْدانيّ ، فقال : أمّا بعدُ يأهل الشام ، إنه قد كانت بيننا وبينكم أمور حامَيْنا فيها على الدين والدنيا ، وسمّيتُموها غَدْراً وسَرَفاً ، وقد دعوتُمونا اليوم إلى ماقاتلناكم عليه أمس ، ولم يكن ليرجعَ أهلُ العراق إلى عراقهم ، وأهلُ الشام إلى شامهم ، بأمرٍ أجمل من أن يحكم فيه بما أنزل الله سبحانه ؛ [فالأمر في أيدينا دونكم ؛ وإلا فنحن نحن وأنتم أنتم][3] .

فقام النّاس إلى علي عليه السلام ، فقالوا له : "[4] أجِبِ القوم إلى المحاكمة ، قال : ونادى إنسان من أهل الشام في جوف الليل بشعر سمعه الناسُ ، وهو"[4] :

رُءوسَ العِراقِ أجِيبُوا الدُّعاء ... فَقَدْ بَلَغَتْ غَايَةَ الشِّدَّهْ
وقَدْ أوْدَتِ الحربُ بالعالَمِينَ ... وأهلِ الحَفائظِ والنَّجْدَهْ
فَلَسْنا وَلَسْتُم مِنَ المُشْرِكِينَ ... وَلا المُجْمِعِينَ عَلَى الرِّدَّهْ
وَلَكِنْ أُناسٌ لَقُوا مِثْلَهُمْ ... لَنا عِدَّةٌ وَلَكُمْ عِدَّهْ[5]

(١) كتاب وقعة صفين : « للدين والدنيا » .
(٢) في ج : « المحترق » وفي حواشيها : « المترف ، محركة : الدهش من الخوف » .
(٣) تكملة من كتاب صفين .
(٤—٤) في كتاب صفين : « أجب القوم إلى ما دعوناك إليه ؛ فإنا قد فنينا ، ونادى إنسان من أهل الشام في سواد الليل بشعر سمعه الناس ، وهو » .
(٥) كتاب وقعة صفين : « ولهم عده » .

[فَقَاتَلَ كُلٌّ عَلَى وَجْهِهِ ... بُغْضُهُ الجِدُّ والجِدَّه][1]
فَإِنْ تَقْبَلُوهَا فَفِيهَا البَقَاء ... وَأَمْنُ الفَرِيقَيْنِ وَالبَلْدَهْ
وَإِنْ تَدْفَعُوهَا فَفِيهَا الفَنَاء ... وَكُلُّ بَلَاءٍ إِلَى مُدَّهْ
فَحَتَّى مَتَى تَمْخَضُ هَذَا السِّقَاء ... وَلَابُدَّ أَنْ تَخْرُجَ الزُّبْدَهْ
ثَلَاثَةُ رَهْطٍ هُمُ أَهْلُهَا ... وَإِنْ يَسْكُتُوا تَخْمُدِ الوَقْدَهْ
سَعِيدُ بنُ قَيْسٍ وَكَبْشُ العِرَاقِ ... وذاكَ المُسَوَّدُ مِنْ كِنْدَهْ

قال : فأما المسوّد من كِندة ، وهو الأشعث ؛ فإنه لم يرضَ بالسكوت ، بل كان من أعظم الناس قولاً فى إطفاء الحرب والركون إلى الموادعة . وأما كبش العِراق ، وهو الأشتر ، فلم يكن يرى إلا الحرب ، ولكنه سكت على مَضَضٍ . وأما سعيد بن قيس ، فكان تارة هكذا وتارة هكذا[2] .

• • •

وذكر ابن ديزيل[3] الهَمْدانىّ فى كتاب " صفّين " قال :

خرج عبدالرحمن بن خالد بن الوليد ومعه لواء معاوية ، فارتجز فخرج إليه جارية بن قدامة السعدىّ ، فارتجز أيضاً مجيباً له ثم اطّعنا[4] فلم يصنعا شيئاً ، وانصرف كلٌّ واحد منهما عن صاحبه ، فقال عمرو بن العاص لعبدالرحمن : اقْحُمْ يابن سيفِ الله ، فتقدم عبدُ الرحمن بلوائه ، وتقدم أصحابه ، فأقبل علىّ عليه السلام على الأشتر ، فقال له : قد بلغَ لواء معاوية حيث

---

(١) تكملة من كتاب صفين .
(٢) كتاب وقعة صفين : ٥٥١ — ٥٥٢ .
(٣) ابن ديزيل ، هو إبراهيم بن الحسين بن على بن مهران بن ديزيل الكسائى الهمذانى ، أحد كبار الحفاظ ومتكلميهم ؛ ذكره ابن حجر فى لسان الميزان (١ : ٤٩) ، وقال : « مات فى آخر يوم من شعبان سنة إحدى وثمانين ومائتين » .
(٤) اطّعنا : أى تطاعنا .

ترى ، فدونَكَ القوم . فأخذ الأشتر لواء عليّ عليه السلام ، وقال[1] :

إنّي أنا الأشترُ معروفُ الشَّتَرْ[2]   إنّي أنا الأفعى العِراقيُّ الذَّكَرْ

لستُ رَبيعيًّا ولَستُ مِن مُضَرْ[3]   لـكِنّني مِنْ مَذْحِجَ الشُّمِّ الغُرَرْ

فضارب القومَ حتّى ردّهم ، فانتدب[4] له همام بن قَبيصة الطائيّ — وكان مع معاوية — فشدّ عليه في مَذْحِج ، فانتصر عديُّ بن حاتم الطائيّ للأشتر ، فحمل عليه في طيِّئٍ ، فاشتدّ القتال جدًّا ، فدعا عليّ ببغلة رسول الله صلى الله عليه وآله فركبها ، ثم تعصّب بعمامة رسول الله ، ونادى : أيّها الناس ، مَنْ يَشري نفسه لله ! إنّ هذا يومٌ له ما بعده ، فانتدب معه ما بين عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألفا ! فتقدّمهم عليّ عليه السلام ، وقال :

دُبُّوا دَبيبَ النَّمْلِ لَا تَفُوتُوا   وأَصْبِحُوا أَمرَكُمُ أوْ بِيتُوا[5]

• حَتَّى تَنَالُوا الثَّأرَ أوْ تَمُوتوا •

وحمل وحمل الناسُ كلهم حَمْلةً واحدة ، فلم يبق لأهل الشام صَفٌّ إلا أزالوه ، حتى أفضَوْا إلى معاوية ، فدعا معاوية بفرسه ليفرَّ عليه .

وكان معاوية بعد ذلك يحدّث فيقول : لمّا وضعتُ رجلي في الرّكاب ، ذكرت قول عَمرو بن الإطنابة[6] :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بَلَائِي   وَأَخْذِي الحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ

---

(١) الأبيات ذكرها نصر بن مزاحم في وقعة صفين ٤٥١ ، والمسعودي في تاريخه ٢ : ٣٩٠ .

(٢) الشتر : انقلاب جفن العين من أعلى وأسفل وتشنجه .

(٣) رواية المسعودي :

• لَسْتُ مِنَ أَهْلِ رَبِيعٍ أَوْ مُضَرْ •

(٤) انتدب له : خف له .

(٥) في وقعة صفين ٥٥٩ المنقرى : « وأصبحوا بحربكم » ، وفيما يأتي من شرح النهج (٢ : ٢٨٦) : « وأصبحوا في حربكم » .

(٦) الخبر والأبيات في الكامل (٨ : ٢١٥) — بشرح المرصفي ، وأمالي القالي (١ : ٢٥٨) ، وعيون الأخبار (١ : ١٢٦) ، والإطنابة : اسم أمه ؛ وهو عمرو بن عامر من بني الحارث بن الخزرج .

وإقدامى عَلَى المكروهِ نفسى وَضَرْبى هامَةَ البَطَلِ المُشِيحِ[1]
وَقَولى كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجاشَتَ : مَكانَكِ تُحْمَدِى أوْ تَسْتَرِيحى[2]

فأخرجتُ رِجلى من الرِّكاب وأقبلت ، ونظرت إلى عمرو فقلت له : اليومَ صَبْرٌ وغداً فَخْر ، فقال : صدقت .

قال إبراهيم بن ديزيل : وروى عبدُ الله بن أبى بكر ، عن عبد الرحمن بن حاطب ، من معاوية ، قال : أخذتُ بمَعْرَفةِ فرسى ، ووضعت رِجلِى فى الركاب الهَرَب ، حتى ذكرت شعرَ ابن الإطنابة ، فعدت إلى مقعدى ، فأصبتُ خير الدُّنيا ، وإنى لَرَاجٍ أنْ أصيب خير الآخرة .

قال إبراهيم بن ديزيل : فكان ذلك يومَ الهرير ، ثم رفعت المصاحف بعده .

وروى إبراهيم ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن ربيعة بن لَقِيط ، قال : شَهِدنا صِفِّين ، فطرتِ السماء علينا دماً عبيطاً .

وقال : وفى حديث اللّيث بن سعد أنْ كانوا ليَأخذونه بالصِّحاف والآنية . وفى حديث ابن لهيعة : حتى إنّ الصِّحاف والآنية لتمتلئُ ونُهَرِيقُها .

قال إبراهيم : وروى عبدُ الرحمن بن زياد ، عن الليث بن سعد ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عمن حدثه ممن حضر صِفِّين أنهم مطروا دما عبيطا ، فتلقّاه الناس بالقِصاع والآنية ، وذلك فى يوم الهرير ، وفَزِع أهلُ الشام وهمُّوا أن يتفرّقوا ، فقام عمرو بن العاص فيهم فقال : أيها الناس ، إنما هذه آيةٌ من آيات الله ، فأصلح امرؤٌ ما بينه وبين الله ، ثمّ لا عليه أن ينتطح هذان الجبلان . فأخذوا فى القتال .

---

(١) فى الكامل : «وإجشامى على المكروه نفسى» ، والمشيح : المقبل على عدوه ، المانع لما وراء ظهره .
(٢) جشأت وجاشت ، أى ارتفعت من الفزع .

قال إبراهيم : وروى أبو عبد الله المكيّ ، قال : حدّثنا سُفيان بن عاصم بن كُلَيب الحارثيّ عن أبيه ، قال : أخبرني ابنُ عباس قال : لقد حدّثني معاوية أنّه كان يومئذ قد قرّب إليه فرساً له أنثى ، بعيدة البطن من الأرض ، ليهرُب عليها ؛ حتى أتاه آتٍ من أهل العراق ، فقال له : إنّي تركتُ أصحاب عليٍّ في مثل ليلة الصَّدَر[1] من مِنًى ، فأقمتُ ، قال : فقلنا له : فأخبِرْنا مَنْ هو ذلك الرجل ؟ فأبى وقال : لا أخبرُكم مَنْ هو .

* * *

قال نصر وإبراهيم أيضاً : وكتب معاويةُ إلى عليّ عليه السلام :

أما بعد ، فإنّ هذا الأمرَ قد طال بيننا وبينك ، وكلُّ واحدٍ منّا يرى أنه على الحق فيما يطلبُ من صاحبه ، ولن يُعطِيَ واحدٌ منّا الطاعة للآخر ، وقد قُتِلَ فيما بيننا بشرٌ كثير ، وأنا أتخوّف أن يكون ما بقِيَ أشدّ مما مضى ؛ وإنّا سوف نُسألُ عن ذلك الموطن ، ولا يحاسَبُ [به][2] غيري وغيرُك ، وقد دعوتُك إلى أمرٍ لنا ولك فيه حياة وعُذْر ، وبَراءة وصلاح للأمّة ، وحَقْن الدماء ، وألفة الدِّين ، وذهاب الضغائن والفِتن ، أن نحكِّمَ بيني وبينكم حكَمَيْن مَرْضِيّيْن ، أحدهما من أصحابي ، والآخر من أصحابك ، فيحكمان بيننا بما أنزل الله ، فهو خيرٌ لي ولك ، وأقطَع لهذه الفِتَن ؛ فاتّقِ اللهَ فيما دُعِيت إليه ، وارض بحُكْم القرآن إن كنت من أهله ، والسلام .

فكتب إليه عليّ عليه السلام :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإنّ أفضل ما شَغَل به المرء نفسه اتّباع ما حَسُن به[3] فعلُه ، واستوجب فضلَه ، وسَلِم من عيبه[3] ،

(١) الصدر : اليوم الرابع من أيام منى .

(٢) تكملة من وقعة صفين للمنقري .

(٣-٣) وقعة صفين : « ما يحسن به فعله ، ويستوجب فضله ، ويسلم من عيبه » .

وإنّ البغيَ والزورَ يُزريان بالمرء فى دينه ودنياه ، فاحذر الدنيا ، فإنّه لا فرح فى شىء وصلت إليه منها ؛ ولقد علمتَ أنّك غيرُ مدركٍ ماقضى فواته ، وقد رام قومٌ أمراً بغير الحقّ ، وتأوّلوه [1] على الله جلّ وعزّ ، فأكذبَهم ومتّعهم قليلا ، ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ ، فاحذَرْ يوماً يَغتبِط فيه مَنْ حَمِد عاقبة عمله ، ويندَم فيه مَنْ أمكن الشيطانَ من قياده [ولم يحادّه] [2] ، وغرّته الدنيا واطمأنّ إليها . ثم إنّك قد دَعَوْتنى إلى حكم القرآن،ولقد علمتَ أنّك لستَ من أهلِ القرآن ولاحكمَه تريد؛والله المستعان، فقد أجبنا القرآن إلى حكمه ، ولسْنا إيّاك أجَبْنا ؛ ومَنْ لم يرضَ بحُكم القرآن فقد ضلّ ضلالا بعيدا [3] .

فكتب معاوية إلى علىّ عليه السلام :

أما بعدُ ؛ عافانا الله وإيّاك ، فقد آنَ لك أن تُجيب إلى مافيه صلاحُنا وألفة بيننا ، وقد فعلتُ الذى فعلتُ وأنا أعرفُ حقّى ، ولكنى اشتريتُ بالعفو صلاحَ الأمّة،ولم أُكثر فرحا بشىء جاء ولا ذهب ؛ وإنّما أدخَلَنى فى هذا الأمر القيام بالحقّ فيما بين الباغى والمبغىّ عليه ، والأمر بالمعروف والنّهى عن المُنكر ؛ فدعوتُ إلى كتاب الله فيما بيننا وبينك ؛ فإنّه لا يجمعُنا وإيّاك إلا هو ، نحيى ما أحيا القرآن ، ونُميت ما أمات القرآن ، والسلام [4] .

* * *

قال نصر : فكتَب علىّ عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، يعظه ويُرشده .

---

(١) وقعة صفين : « فتأولوا على الله » .
(٢) تكملة من وقعة صفين للمنقرى .
(٣) وقعة صفين للمنقرى ٤٦٥ ـ ٤٦٦ .
(٤) وقعة صفين للمنقرى ٤٧٠ .

أما بعد ؛ فإنّ الدنيا مَشغلة عَنْ غيرها ، ولن يصيبَ صاحبُها منها شيئاً إلا فتحَتْ له حِرْصاً يزيدُه فيها رغبة ، ولن يستغنيَ صاحبُها بما نَالَ عمّا لم يبلُغ [١] ، ومِنْ وراء ذلك فراقُ ماجَمع ، والسعيدُ مَنْ وُعظ بغيره ؛ فلا تُحْبِطْ أبا عبد الله أجرَكَ ، ولا تُجارِ معاوية فى باطله ، والسلام .

فكتب إليه عمرو الجواب :

أما بعد أقول ، فالذى [٢] فيه صلاحنا وألفتُنا الإنابةُ إلى الحق ، وقد جعلْنا القرآن بيننا حكما ، وأجَبْنا إليه ، فصبرَ الرّجلُ منّا نفسَه على ماحكم عليه القرآن ، وعذَرَه النّاسُ بعد المحاجزة ، والسلام .

فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أما بعدُ ؛ فإنّ الذى أعجبَك من الدنيا ممّا نازعتْك إليه نفسُك ، ووثقتَ به منها لمُنقلِب عنك ، ومفارقٌ لك ؛ فلا تطمئِنَّ إلى الدنيا فإنّها غَرّارة ، ولو اعتبرتَ بما مضى لحفظتَ مابقى ، وانتفعْتَ منها بما وعظت به . والسلام .

فأجابه عمرو :

أما بعد ، فقد أنصفَ مَنْ جعل القرآن إماما ، ودعا الناس إلى أحكامه ، فاصبِرْ أبا حسن ، فإنّا غير مُنِيليك إلا ما أنالك القرآن ، والسلام [٣] .

* * *

قال نصر : وجاء الأشعث إلى علىّ عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ ما أرى النّاس إلا قد رَضُوا ، وسرّهم أن يجيبوا القوم إلى مادعَوْهم إليه من حكم القرآن ؛

(١) وقعة صفين : « لم يبلغه » .
(٢) وقعة صفين : « فإن ما فيه صلاحنا » .
(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٠ - ٥٧١ .

فإنْ شِئْتَ أتيتُ معاوية فسألتُه مايريد ، ونظرت ما الذى يسأل ؛ قال : فأتِه إن شئت ؛ فأتاه ، فسأله : يامعاوية : لأىّ شىء رفعتم هذه المصاحف ؟ قال : لنَرْجِع نحنُ وأنتم إلى ما أمر الله به فيها [1] ، فابعثوا رجلا منكم تَرْضَوْن به ، ونبعث منّا رجلا ، ونأخذ عليهما أن يَعْمَلا بما فى كتاب الله ولا يَعْدُوانه ، ثم نتّبع ما اتفقا عليه . فقال الأشعث : هذا هو الحق .

وانصرف إلى علىّ عليه السلام ، فأخبره ، فبعث علىّ عليه السلام قُرّاء من أهل العراق ، وبعث معاوية قُرّاء من أهل الشام ، فاجتمعوا بين الصَّفّين ، ومعهم المصحف ، فنظروا فيه وتدارسوا [2] واجتمعوا على أن يُحْيُوا ما أحيا القرآن ، ويُميتوا ما أمات القرآن ، ورجع كلُّ فريق إلى صاحبه ، فقال أهلُ الشام : إنّا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص ، وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد : قد رَضِينا نحن واخترنا أبا موسى الأشعرىّ ، فقال لهم علىّ عليه السلام : فإنى لا أرضى بأبى موسى ولا أرى أن أوليّه ، فقال الأشعث وزيد بن حصين ومِسْعَر بن فدكىّ فى عصابة من القراء : إنّا لا نرضى إلا به ، فإنه قد كان حذّرَنا ماوقعنا فيه . فقال علىّ عليه السلام : فإنه ليس لى برضًا ، وقد فارقنى وخَذّل الناس عنى ، وهرب منى حتى أمّنتُه بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس أوليّه ذلك . قالوا : والله مانُبالى ، أكنت أنت أو ابن عباس ! ولا نُريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر . قال علىّ عليه السلام : فإنى أجعلُ الأشتر ، فقال الأشعث : وهل سَعّر الأرض علينا إلا الأشتر ! وهل نحن إلا فى حُكْم الأشتر ! قال علىّ عليه السلام : وماحكمه ؟ قال : حكمُه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردتَ وما أراد [3] .

* * *

(١) وقعة صفين : « فى كتابه » .
(٢) صفين : « وتدارسوه » .
(٣) وقعة صفين للمنقرى ٥٧٢ .

قال نصر : وحدّثنا عمرو بن شَمِر ، عن جابر ، عن أبي جعفر محمد بن علىّ ، قال : لما أرادَ الناس عليًّا أن تضَع الحَكَمَيْن ، قال لهم : إنّ معاوية لم يكن لِيَضَعَ لهذا الأمر أحداً هو أوثقُ برأيه ونظره من عمرو بن العاص ؛ وإنّه لا يصلح للقرشىّ إلا مثله ، فعليكم بعبد الله بن العباس فارمُوه به ؛ فإن عمرًا لا يَعقِدُ عُقدةً إلّا حلّها عبد الله ، ولا يحلُّ عُقدةً إلا عقدها ، ولا يُبرمُ أمراً إلا نقضه ، ولا يَنقُضُ أمراً إلا أبرمه ، فقال الأشعث : لا والله ، لا يحكم فينا مُضَرِيّان حتّى تقومَ الساعة ، ولكن اجعل رجلًا من أهل اليمن إذ جَعَلُوا رجلا من مُضَر ، فقال علىّ عليه السلام : إنّى أخافُ أن يُخدَعَ يمنيُّكم ، فإنّ عمرًا ليس من الله فى شىء إذا كانَ له فى أمرٍ هوى . فقال الأشعث : والله لأن يحكما ببعض ما نكره ، وأحدُهما من أهل اليمَن ، أحبُّ إلينا من أن يكون بعض ما نحبّ فى حكمهما وهما مُضَرِيَّان .

قال : وذكر الشعبىّ أيضاً مثل ذلك[1] .

* * *

قال نصر : فقال علىّ عليه السلام : قد أبَيْتُم إلا أبا موسى ! قالوا : نعم ، قال : فاصنَعوا ما شئتم ، فبعثوا إلى أبى موسى — وهو بأرضٍ من أرض الشام يقال لها عُرْض[2] قد اعتزل القتال — فأتاه مولًى له ، فقال : إنّ الناس قد اصطلحوا ، فقال : الحمد لله ربّ العالمين ، قال : وقد جعلوك حكمًا ، فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

فجاء أبو موسى حتّى دخل عسكر علىّ عليه السلام ، وجاء الأشتر عليًّا فقال : يا أميرَ المؤمنين ألِزَّنى[3] بعمرو بن العاص ، فوالذى لا إله غيره ، لئن ملأتُ عينى منه لأقتلنّه .

---

(١) وقعة صفين للمنقرى ٥٠٢ .

(٢) عرض : بلد بين تدمر ورصافة الشام .

(٣) ألزّه به : ألزمه إياه .

وجاء الأحنفُ بن قيس عليا ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، إنّك قد رُميت بحجرِ[1] الأرض ؛ ومَنْ حاربَ اللهَ ورسولَه أنفَ[2] الإسلام ، وإنى قد عجمتُ هـذا الرجل ـ يعنى أبا موسى ـ وحلبتُ أشطُرَه ، فوجدته كليلَ الشَّفْرة قريبَ القَعْر ؛ وإنه لا يصلُح لهؤلاء القوم إلا رجلٌ يدنُو منهم حتى يكونَ فى أكفّهم ، ويتباعدُ منهم حتى يكونَ بمنزلة النَّجْم منهم ،[3] فإن شئتَ أن تجعلَنى حَكَمًا فاجعلنى ، وإنْ شئت أن تجعلَنى ثانيا أو ثالثا[3]، فإنَّ عمراً لا يعقد عقدة إلا حللتُها ، ولا يُحلّ عقدة إلا عقدتُ لك أشدَّ منها .

فعرَض علىٌّ عليه السلام ذلك على الناس فأبَوْه ، وقالوا : لا يكونُ إلا أباموسى[4] .

•••

قال نصر : مال الأحنف إلىَّ علىّ عليه السلام ، فقال : ياأمير المؤمنين ؛ إنى خيّرتُكَ يومَ الجمل أن آتيَك فيمنْ أطاعنى ، أو أكفَّ عنك بنى سعد ، فقلت : كفَّ قومك ، فكفَى بكفّك نصيرا ، فأقمتُ بأمرك ، وإنَّ عبد الله بن قيس[5] رجل قد حلبتُ أشطره ، فوجدتهُ قريبَ القعر ، كليلَ المُدْيَة ، وهو رجلٌ يمانٍ وقومه مع معاوية ، وقد رُميتَ بحجرَ الأرض ، وبمَنْ حارب الله ورسوله ، وإنَّ صاحب القوم مَنْ ينأى حتى يكونَ مع النجم ، ويدنُو حتى يكون فى أكفّهم ، فابعثنى ، فوالله لا يحلُّ عنك عقدةً إلا عقدتُ لك أشدَّ منها ، فإن قلت : إنّى لست من أصحاب رسول الله ، فابعثْ رجلاً من أصحاب رسول الله ، وابعثنى معه .

---

(١) فى اللسان ٥ : ٢٣٧ : « ويقال : رمى فلان بحجر الأرض ؛ إذا رمى بداهية من الرجال ؛ وفى حديث الأحنف بن قيس : أنه قال لعلى حين سمى معاوية أحد الحكمين عمرو بن العاص : إنك قد رميت بحجر الأرض . . . . » .

(٢) أنف كل شىء : أوله ؛ يقال : سار فى أنف النهار ؛ أى أوله .

(٣ـ٣) وقعة صفين : « فإن شئت أن تجعلنى حكما فاجعلنى ، وإن أبيت أن تجعلنى حكما فاجعلنى ثانيا أو ثالثا » .

(٤) وقعة صفين ٥٧٤ .

(٥) عبد الله بن قيس هو أبو موسى الأشعرى .

فقال عليّ عليه السلام : إنّ القومَ أتونى بعبد الله بن قيس مُبَرْنِساً ، فقالوا : ابعث هذا ، رَضينا به والله بالغ أمره[١] .

* * *

قال نصر : وروى أنّ ابن الكوّاء ، قام إلى عليّ عليه السلام ، فقال :هذا عبدالله ابن قيس وافد أهل اليمن إلى رسول الله صلى الله عليه وصاحب مَقاسم أبى بكر[٢] وعامل عمر ، وقد رضى به القوم ، وعرضْنا عليهم ابنَ عباس ، فزعموا أنه قريب القرابة منك ، ظَنُون[٣] فى أمرك .

فبلغ ذلك أهلَ الشام ، فبعث أيمن بن خُرَيم الأسديّ ، وكان معتزلاً لمعاوية بهذه الأبيات ، وكان هواه أن يكون الأمر لأهل العراق :

لَوْ كَانَ لِلقَوْمِ رَأْىٌ يُعْصَمُونَ بِهِ ... مِنَ الضَّلَالِ رَمَوْكُمْ بِابْنِ عَبَّاسِ
لِلهِ دَرُّ أَبِيهِ أَيُّمَا رَجُلٍ ... مَا مِثْلُهُ لِفِصَالِ الخَطْبِ فِى النَّاسِ !
لَكِنْ رَمَوْكُمْ بِشَيْخٍ مِنْ ذَوِى يَمَنٍ ... لَا يَهْتَدِى ضَرْبَ أَخْمَاسٍ لِأَسْدَاسِ[٤]
إنْ يَخْلُ عمرو بِهِ يَقْذِفْهُ فى لُجَجٍ ... يَهْوِى به النَّجْمُ تَيْساً بين أتياسِ
أَبْلِغْ لَدَيْكَ عليّاً غيرَ عاتبِهِ[٥] ... قولَ امرئٍ لا يرى بالحقّ من بأسِ
ما الأشعرىُّ بمأمونٍ أبا حَسَنٍ ... فاعْلَمْ هُدِيتَ وليس العَجْزُ كالرَّاسِ
فاصْدِمْ بصاحبك الأدنى زعيمَهُمُ ... إنّ ابن عمّك عباسٍ هو الآسى

فلما بلغ الناسَ هذا الشعر ، طارت أهواء قومٍ من أولياء عليّ عليه السلام وشيعته إلى ابن عباس ، وأبتِ القُرّاء إلا أبا موسى[٦] .

---

(١) وقعة صفين ٥٧٥ .
(٢) صاحب المقاسم : الذى يتولى أمر قسمة المغانم ونحوها .
(٣) الظنون : المتهم ، كالظنين .
(٤) وقعة صفين والمسعودى ٢ : ٤١٠ : « لم يدر ما ضرب أخماس » .
(٥) صفين : « عاتبه » .
(٦) وقعة صفين : ٥٧٥ – ٥٧٦ .

قال نصر : وكان أيمن بن خُرَيْم رجـلًا عابدا مجتهدا ، وقد كان معاوية جعل له فلسطين ، على أن يُتابعه ويشايعه على قتال عليّ عليه السلام ، فقال أيمن ، وبعث بها إليه :

وَلَسْتُ مُقَاتِلاً رجلًا يُصَلِّي على سلطانِ آخَرَ مِنْ قُرَيْشِ
له سلطانُه وَعَلَيَّ إثمِي معاذَ الله من سفهٍ وَطَيْشِ
أَأَقتُلُ مُسْلِماً فِي غَيْرِ جُرْمٍ فَلَيْسَ بنافِعِي مَاعِشْتُ عَيْشِي !

قال نصر : فلما رضِيَ أهلُ الشام بعمرو ، وأهل العراق بأبي موسى ، أخذوا في سَطْرِ كتاب الموادعة ، وكانت صورته :

« هذا ما تقاضى عليه عليّ أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان » . فقال معاوية : بئسَ الرجلُ أنا إن أقررتُ أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته ! وقال عمرو : بل نكتُب اسمه واسم أبيه ؟ إنما هو أميرُكم ، فأما أميرنا فلا . فلما أُعيد إليه الكتابُ أمرَ بمحوه ، فقال الأحنف : لا تمحُ اسمَ أمير المؤمنين عنك ؛ فإني أتخوّفُ إن محوتَها ألّا ترجع إليك أبدا ، فلا تمحُها . فقال عليّ عليه السلام : إنّ هذا اليوم كيوم الحُدَيْبِيَة حين كتب الكُتَّاب عن رسول الله صلى الله عليه : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سُهَيْل بن عمرو ، فقال سُهَيْل : لو أعلم أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولم أخالفك ، إني إذاً لظالم لك إن منعتك أن تطوفَ ببيت الله الحرام وأنت رسوله ؟ ولكن اكتب : « من محمد بن عبد الله » ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه : « يا عليّ ، إني لرسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله ، ولن يمحوَ عني الرسالةَ كتابي لهم من محمد بن عبد الله ، فاكتبها وامحُ ما أراد محوه ، أما إنّ لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهَد » .

قال نصر : وقد رُوِي أنّ عمرو بن العاص عاد بالكتاب إلى عليّ عليه السلام ، فطلب منه أن يمحوَ اسمَه من إمْرَة المؤمنين فقصّ عليه وعلى مَنْ حضر قِصّةَ صلح الحُدَيْبِيَة ،

قال : إنّ ذلك الكتاب أنا كتبتُه بيننا وبين المشركين ، واليوم أكتبُه إلى أبنائهم ، كما كان رسول الله صلى الله عليه كتبه إلى آبائهم شِبْها[1] ومِثْلا ، فقال عمرو : سبحان الله ! أتشبِّهنا[2] بالكفار ، ونحن مسلمون ! فقال علىّ عليه السلام : يابن النابغة ، ومتى لم تكنْ للكافرين وليًّا وللمسلمين عدوًّا ! فقام عمرو ، وقال : والله لا يجمع بينى وبينك مجلسٌ بعد اليوم . فقال علىّ : أمَا والله إنى لأرجو أن يُظهِر الله عليك وعلى أصحابك .

وجاءت عِصابة قد وضعتْ سيوفها على عواتقها ، فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ، مُرْنا بما شئتَ ، فقال لهم سهل بن حُنَيف : أيها الناس ، اتَّهموا رأيكم ، فلقد شَهِدْنا صُلْحَ رسول الله صلى الله عليه يوم الحديبية ، ولو نرى قتالا لقاتلنا[3] .

وزاد إبراهيم بن ديزيل: لقد رأيتُنى يومَ أبى جَنْدَل ـ يعنى الحديبية ـ ولو أستطيع أن أردّ أمر رسول الله صلى الله عليه لرددته ، ثم لم أرَ فى ذلك الصلح إلا خيرا .

قال نصر : وقد روى أبو إسحاق الشيبانىّ ، قال : قرأتُ كتاب الصلح عند سعيد ابن أبى بُردة فى صحيفة صفراء ، عليها خاتمان : خاتم من أسفلها وخاتم من أعلاها ، على خاتم علىّ عليه السلام : « محمد رسول الله » ، وعلى خاتم معاوية « محمد رسول الله » . وقيل لعلىّ عليه السلام ، حين أراد أن يكتب الكتابُ بينه وبين معاوية وأهل الشام : أتُقرّ أنهم مؤمنون مسلمون ! فقال علىّ عليه السلام : ما أقرّ لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون ؛ ولكن يكتب معاوية ما شاء بما شاء ، ويقرّ بما شاء لنفسه ولأصحابه ، ويسمِّى نفسه بما شاء وأصحابه ، فكتبوا :

هذا ماتقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان قاضى علىّ بن أبى طالب

---

(١) وقعة صفين : « سنة ومثلا » .
(٢) صفين : « شبهتنا بالكفار ونحن مؤمنون » !
(٣) كتاب صفين ٥٨٢ ـ ٥٨٣ .

على أهـل العراق ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومَنْ كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، إننا ننزل عند حُكْم الله تعالى وكتابه ، ولا يجمع بيننا إلا إياه . وإن كتاب الله سبحانه وتعالى بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحْيى ما أحيا القرآن ، ونميت ما أمات القرآن ، فإن وَجَد الحكَمان ذلك فى كتاب الله اتبعاه ، وإن لم يجداه أخذا بالسنّة العادلة غير المفرقة . والحكَمان : عَبْدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد أخذ الحكَمان من علىّ ومعاوية ومن الجندين أنهما آمنان على أنفسهما وأموالهما وأهلهما ، والأمة لهما أنصار ؛ وعلى الذى يقضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين عَهْدُ الله أن يعملوا بمـا يقضيان عليه ؛ مما وافق الكتاب والسُّنة ، وإن الأمْن والموادعة ووضع السلاح متفَّق عليه بين الطائفتين ؛ إلى أن يقع الحكم ، وعلى كلّ واحد من الحكَمين عَهْدُ الله ، ليحكُمَنْ بين الأمة بالحق ، لا بالهوى . وأَجَلُ الموادعة سنة كاملة ؛ فإن أحبّ الحكَمان أن يُعجِّلا الحُكم عجّلاه ، وإن تُوفّىَ أحدُهما فلأمير شيعته أن يختار مكانه رجلاً ؛ لا يألو الحق والعدل ، وإن تُوفّىَ أحدُ الأميرين كان نَصْبُ غيره إلى أصحابه ممن يرضَوْن أمره ، ويحمدُون طريقته . اللهم إنا نستنصرُك على مَنْ ترك ما فى هذه الصحيفة ، وأراد فيها إلحاداً وظلماً .

قال نصر : هذه رواية محمد بن علىّ بن الحسين والشعبىّ ، وروى جابر عن زيد بن الحسن بن الحسن زيادات على هذه النسخة :

هذا ماتقاضى عليه ابن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وشيعتُهما فيما تراضيا به من الحُكم بكتاب الله وسنة رسوله ؛ قضيةُ علىّ على أهل العراق ومَنْ كان من شيعته مِنْ شاهد أو غائب ، وقضيّة معاوية على أهل الشام ومَنْ كان من شيعته مِنْ شاهد أو غائب ؛ إننا رضينا أن ننزل عند حُكم القرآن فيما حكَم ، وأن نقفَ عند أمره فيما أمَرَ ؛ فإنه لا يجمع بيننا إلا ذلك ، وإنا جعلْنا كتاب الله سبحانه حَكَماً بيننا فيما اختلفنا فيه ، من فاتحته إلى

خاتمته ، نحيي ما أحيا القرآن ، ونميت ما أماته ؛ على ذلك تقاضينا ، وبه تراضينا . وإن عليا وشيعته رضُوا أن يبعثوا عبدَ الله بن قيس ناظرا ومُحاكما ؛ ورضِيَ معاويةُ وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص ناظرا ومحاكما ؛ على أنهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خَلْقه لَيَتّخِذان الكتاب إماما فيما بعثا إليه ، لا يعدُوانه إلى غيره ما وجداه فيه مسطورا ، وما لم يجداه مسمًّى فى الكتاب ردّاه إلى سنة رسول الله صلى الله عليه الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافا ، ولا يتّبعان هوى ، ولا يدخلان فى شبهة ؛ وقد أخذ عبدُ الله بن قيس وعمرو بن العاص على علىّ ومعاوية عهدَ الله وميثاقه بالرِّضا بما حكَما به من كتاب الله وسنّة نبيه ، وليس لهما أن ينقُضَا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره ؛ وأنهما آمنان فى حُكْمهما على دمائهما وأموالهما وأهلهما ، ما لم يعْدُوَا الحق ؛ رضى بذلك راضٍ أو أنكره مُنْكِر . وإنّ الأمة أنصارٌ لهما على ماقضيا به من العَدْل ، فإن تُوُفّى أحدُ الحكمين قبل انقضاء الحكومة فأمير شيعته وأصحابه يختارون مكانه رجلا ، لا يألون من أهل المَعْدلة والإقساط على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكْم بكتاب الله وسنة رسوله ، وله مِثلُ شرط صاحبه ، وإن مات أحد الأميرين قبل القضاء ، فلشيعته أن يولُّوا مكانه رجلاً يرضون عَدْله . وقد وقعت هذه القضيّة ، ومعها الأمن والتفاوض ، ووضع السلاح والسلام والموادعة ، وعلى الحكَمَيْن عهد الله وميثاقُه ألّا يألُوَا اجتهادا ، ولا يتعمّدا جَوْراً ، ولا يدخلا فى شبهة ، ولا يعدُوَا حُكْم الكتاب ، فإن لم يفعلا برئت الأمة من حُكْمهما ، ولا عهد لهما ولا ذمة ، وقد وجبت القضيّة على ما قد سُمِّىَ فى هذا الكتاب من مَواقع الشروط على الحكَمَيْن والأميرين والفريقين ، والله أقربُ شهيدا وأدنى حفيظا . والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدّة الأجل ، والسلاحُ موضوع ، والسُّبل مخلّاة ، والشاهد والغائب من الفريقين سواء فى الأمن ، وللحكَمَيْن أن ينزلا منزلاً عَدْلًا بين أهل العراق والشام ، لا يحضرهما فيه إلا مَنْ أحبَّا عن ملإ منهما وتراضٍ ،

وإنّ المسلمين قد أجلوا هـذين القاضيين إلى انسلاخ شهر رمضان ، فإن رأيا تعجيل الحكومة فيما وُجّهاله تجلاها ، وإن أرادا تأخيرها بعد شهر رمضان إلى انقضاء الموسم فذلك إليهما ، وإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم فالمسلمون على أمرهم الأول فى الحرب ، ولا شرط بين الفريقين ، وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه على التمام والوفاء بما فى هذا الكتاب ، وهُمْ يَدٌ على مَنْ أراد فيه إلحادا وظُلْمًا ؛ أو حاول له نَقْضًا . وشهد فيه من أصحاب علىّ عشرة ، ومن أصحاب معاوية عشرة ؛ وتاريخ كتابته ليلة بَقِيَتْ من صفر سنة سبع وثلاثين[1] .

• • •

قال نصر : وحدثنا عَمْرو بن سعيد ، قال : حدثنى أبو جَناب ، عن ربيعة الجَرْمىّ ، قال : لما كتبت الصحيفة دُعِىَ لها الأشتر ، ليشهدَ مع الشهود عليه ، فقال: لاصحبتنى يمينى ولا نفعنى بعدَها الشمال إن كُتِب لى فى هـذه الصحيفة اسم على صُلْح أو موادعة ، أوَلَسْتُ على بيِّنة من أمرى ويقين من ضلالة عَدُوِّى ! أو لستُمْ قد رأيتم الظَّفر إن لم تُجْمِعوا على الخَور ! فقال له رجل [من الناس][2] : والله مارأيتُ ظَفَرًا ولا خَوَرًا ، هلمَّ فاشْهدْ على نفسك ، وأقرِرْ بما كُتِب فى هذه الصحيفة ، فإنه لارغبة لك عن الناس . فقال : بلى والله ، إنّ لى لرغبةً عنك فى الدنيا للدنيا ، وفى الآخرة للآخرة ؛ ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ماأنت عندى بخير منهم ، ولا أحرمَ دما .

قال نصر بن مزاحم : الرجلُ هو الأشعث بن قيس ؛ قال : فكأنما قُصِع[3] على أنفه الحميم ثم قال : ولكنى قد رضيتُ بما يرضى به أمير المؤمنين ؛ ودخلتُ فيما دخل فيه ، وخرجتُ مما خرج منه ، فإنه لايدخلُ إلا فى الهدى والصواب .

---

(١) وقعة صفين ٥٧٨ ـ ٥٨٦ .

(٢) من صفين .

(٣) القصع : الدلك والضرب . وفى صفين ٥٠٠ : الحمم .

قال نصر : فحدثنا عمر بن سعد عن أبي جناب الكلبي عن إسماعيل بن شُفَيع [١] عن سفيان بن سلمة [٢] ، قال : فلما تمّ الكتاب وشهدت فيه الشهود ، وتراضى الناسُ خرج الأشعث ، ومعه ناسٌ بنسخة الكتاب يقرؤها على الناس، ويعرِضُها عليهم ، فمرّ به على صفوف من أهل الشام ، وهم على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فرضُوا به ، ثم مرّ به على صفوف من أهل العراق ، وهُمْ على راياتهم ، فأسمعهم إياه ، فرضوا به ، حتى مرّ برايات عَنَزة ، وكان مع عليّ عليه السلام من عَنَزة بصفّين أربعة آلاف مجفّف [٣] ، فلما مرّ بهم الأشعث يقرؤه عليهم ، قال فتَيان منهم: لا حكم إلا لله ، ثم حملا على أهل الشام بسيوفهما فقاتلا حتى قُتلا على باب رواق معاوية ـ فهما أول مَنْ حكّم . واسماهما جَعْد ومَعْدان ـ ثم مرّ بهما على مُراد ، فقال صالح بن شقيق ، وكان من رءوسهم :

ما لعليٍّ في الدِّماء قد حَكَمْ   لو قاتل الأحزابَ يوماً ما ظَلَمْ

لا حكم إلا لله ، ولو كره المشركون . ثم مرّ على رايات بني راسب ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لا حُكْمَ إلا لله ، لا نرضى ولا نُحكِّمُ الرجال في دين الله . ثم مر على رايات تميم ، فقرأها عليهم ، فقال رجل منهم : لا حُكْمَ إلا لله ، يقضي بالحق وهو خير الفاصلين . فقال رجل منهم لآخر : أمّا هذا فقد طعن طعنةً نافذة .وخرج عروة بن أُدَيّة، أخو مرداس بن أُدَيّة التميميّ ، فقال : أتحكّمُون الرجال في أمر الله لا حُكْمَ إلا لله فأين قتلانا يا أشعث ! ثم شدّ بسيفه ليضرب به الأشعث ، فأخطأه ، وضرب عَجُزَ دابته ضربة خفيفةً ؛ فصاح به الناس : أن املك [٤] يدك ، فكفّ ورجع الأشعث إلى قومه ، فمشى الأحنف إليه ومَعْقل بن قيس ومِسْعَر بن فَدَكِيّ ، ورجال من بني تميم ، فتنصّلوا واعتذروا ، فقبل منهم ذلك وانطلق إلى عليّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي

(١) كتاب صفين . « شُفيع » بالتصغير .
(٢) كتاب صفين : « عن شقيق بن سلمة » .
(٣) المجفف : لابس التجفاف ، وأصله ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة .
(٤) صفين : « أن أمسك » .

عرضت الحكومة على صفوف أهل الشام ، وأهل العراق ، فقالوا جميعاً : رضينا ، حتى مَرَرْتُ برايات بنى راسب ، ونَبْذٍ[١] من الناس سواهم ، فقالوا : لا نرضى ، لا حُكمَ إلا لله فَمِل[٢] بأهل العراق وأهل الشام عليهم حتى نقتلهم . فقال علىّ عليه السلام : هل هى غيرُ رايةٍ أو رايتين ونَبْذٍ من الناس ؟ قال : لا ، قال : فدعْهم .

قال نصر : فظَنّ علىّ عليه السلام أنهم قليلون لا يُعبأ بهم ، فما راعهُ إلا نداء الناس من كلّ جهة ومن كلّ ناحية : لا حُكم إلا لله ! الحكم لله يا علىّ لا لك ! لا نَرْضَى بأنْ يُحَكَّم الرجالُ فى دين الله . إن الله قد أمضى حُكْمَه فى معاوية وأصحابه أن يُقتلوا أو يدخلوا تحت حُكْمنا عليهم[٣] ، وقد كنا زَلَلْنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين ، وقد بان لنا زَلَلُنا وخَطَؤُنا فرجعنا إلى الله وتُبْنا ، فارجع أنت يا علىّ كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تُبْنا ، وإلا بَرِئْنا منك . فقال علىّ عليه السلام : ويْحَكُم ! أبعدَ الرِّضا والميثاق والعهد نرجع ! أليس الله تعالى قد قال : ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[٤] ، وقال : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[٥] فأبى علىٌّ أن يرجع ، وأبت الخوارجُ إلا تضليل التحكيم والطعن فيه ، فبرئت من علىّ عليه السلام وبَرِئَ علىّ عليه السلام منهم[٦] .

قال نصر : وقام إلى علىّ عليه السلام محمد بن جريش[٧] فقال : يا أمير المؤمنين ، أما إلى الرجوع عن هذا الكتاب سبيل ! فوالله إنى لأخاف أن يُورِثَ ذلاً ، فقال علىٌّ عليه

---

(١) نبذ من الناس ، أى عدد قليل منهم .
(٢) صفين : « فلنميل » .
(٣) صفين : « أو يدخلوا فى حكمنا عليهم » .
(٤) سورة المائدة ١ .
(٥) سورة النحل ٩١ .
(٦) وقعة صفين ٥٨٩ ـ ٥٩٠ .
(٧) كتاب صفين : « محرز بن جريش » ؛ وقال : « وكان محرز يدعى مخضخضا ، وذلك أنه أخذ عنزة بصفين ؛ وأخذ معه إداوة من ماء ؛ فإذا وجد رجلا من أصحاب على جريحا سقاه من اللبن ، وإذا وجد رجلا من أصحاب معاوية خضخضه بالعنزة حتى يقتله » .

السلام : أبعد أن كتبناه ننقضه ! إنّ هذا لا يحلّ (١) .

* * *

قال نصر ؛ وحدثني عمر بن نمير بن وعلة ، عن أبي الودّاك ، قال : لما تداعى الناس إلى المصاحف ، وكُتِبَتْ صحيفةُ الصلح والتحكيم ، قال عليّ عليه السلام : إنّما فعلتُ مافعلتُ لِمَا بدا فيكم من الخوَر والفشَل عن الحرب (٢) ؛ فجاءت إليه همْدان كأنها ركن حَصِير (٣) فيهم سعيد بن قيس وابنُه عبد الرحمن ؛ غلام له ذؤابة فقال سعيد : ها أنذا وقومي، لا نردّ أمرَك (٤) فقلْ ماشئتَ نعمله ؛ فقال: أما لو كان هذا قبل سَطْر الصحيفة (٥) لأزلتُهم عن عسكرهم ، أو تنفردَ سالفتي (٦) [قبل ذلك] (٧) ، ولكن انصرفوا راشدين ، فلعمري ما كنت لأعرّض قبيلة واحدة للناس (٨) .

* * *

قال نصر : وروى الشعبي أنّ عليًّا عليه السلام ، قال يوم صِفّين حين أقرّ الناس بالصلح: إنّ هؤلاء القوم لم يكونوا لِيُنيبوا إلى الحقّ، ولا لِيُجيبوا (٩) إلى كلمة سواء حتى يُرْمَوا بالمناسر (١٠) تتبعها العساكر ؛ وحتى يُرْجَمُوا بالكتائب تَقْفُوها الجلائب (١١)،

(١) كتاب صفين ٥٩٦ .
(٢) صفين : « لما بدا فيكم الخور والفشل ـ هما الضعف » .
(٣) وفي صفين : « فجمع سعيد بن قيس قومه ، ثم جاء في رجراجة من همدان كأنها ركن حصير يعني جبلا باليمن » .
(٤) صفين . « لا نرادك ولا نرد عليك » .
(٥) صفين : « أما لو كان هذا قبل رفع المصاحف » .
(٦) السالفة : صفحة العنق ؛ وفي حديث الحديبية : « لأقاتلهم على أمري حتى تنفرد سالفتي » ، قال في اللسان : كنى بانفرادها عن الموت ؛ لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت .
(٧) من كتاب صفين .
(٨) كتاب صفين ٥٩٦ ، ٥٩٧ .
(٩) صفين : « ليفيئوا » .
(١٠) المناسر : جمع منسر ، بكسر الميم ؛ وهو القطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .
(١١) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش .

وحتى يجرّ ببلادهم الخميسُ يتلوه الخميس[١] ؛ وحتى يدعوا الخيولَ فى نواحى أرضهم ، وبأحناء مساربهم ومسارحهم ؛ وحتى نشنّ عليهم الغارات من كلّ فجّ ؛ وحتى يلقاهم قومٌ صُدُقٌ صُبُرٌ ، لا يزيدهم هلاكُ من هلك من قتلاهم وموتاهم فى سبيل الله إلا جدًّا فى طاعة الله ، وحرصاً على لقاء الله ؛ ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه ، نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأخوالنا وأعمامنا ، لا يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليما ، ومُضيًّا على أمضّ الألم ، وجِدًّا على جهاد العدوّ ، والاستقلال بمبارزة الأقران ، ولقد كان الرّجلُ منّا والآخر من عدوّنا يتصاولان تصاول الفحلين ، يتخالسان أنفسهما أيُّهما يسقى صاحبه كأس المنون ، فمرة لنا من عدوّنا ، ومرة لعدوّنا منّا ، فلما رآنا الله صُدُقا صُبراً أنزل بعدوّنا الكبت ، وأنزل علينا النّصر ؛ ولعمرى لو كنّا نأتى مثل الذى أتيتم ماقام الدّين ولا عزّ الإسلام[٢] ، [وايمُ الله لتحلبُنّها دماً ، فاحفظوا ما أقول لكم][٣] .

•••

وروى نصر عن عمرو بن شمر ، عن فضيل بن خديج ، قال : قيل لعلىّ عليه السلام لمّا كُتبت الصحيفة : إنّ الأشتر لم يرضَ بما فى الصحيفة ، ولا يرى إلا قتالَ القوم ؛ فقال علىّ عليه السلام : بلى إنّ الأشتر ليَرضَى إذا رضيتُ ، وقد رضيتُ ورضيتم ، ولا يصلحُ الرجوع بعد الرضا ، ولا التبديلُ بعد الإقرار ؛ إلا أنْ يُعصَى الله أو يتعدّى مافى كتابه. وأمّا الذى ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه ، فليس من أولئك ولا أعرفه[٤] على ذلك ، وليت فيكم مثلَه اثنين ، بل ليت فيكم مثلَه واحدا ، يرى فى عدوّى مثل رأيه ، إذاً لخفّتْ مؤنتكم علىّ ، ورجوت أن يستقيم لى بعض أوَدِكم[٦] .

•••

(١) الخميس : الجيش الجرار ؛ سمى بذلك لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساق .
(٢) كتاب صفين ٥٩٧ ، ٥٩٨ .
(٣) تكملة من كتاب صفين .
(٤) كتاب صفين : « وليس أعرفه » .
(٥) كتاب صفين ٥٩٨ .

قال نصر : وروى أبو عبد الله زيد الأوْدِيّ أن رجلاً منهم يقال له عمرو بن أوس ، قاتل مع عليّ عليه السلام يوم صفّين ، فأسَرَه معاويةُ في أسرَى كثيرة ، فقال له عمرو بن العاص : اقتُلْهم ، فقال له عمرو بن أوس : لا تقتلني يامعاوية ، فإنك خالي ، فقامت إليه بنو أوْد[1] فاستوهبوه ، فقال : دَعُوه ، فلعمري إن كان صادقاً فيا ادّعاه من خئولتي إيّاه ليستغنِيَنّ عن شفاعتكم ؛ وإلّا فشفاعتكم من ورائه ؛ ثم استدناه ، فقال : من أين أنا خالُك ؟ فوالله ما بين بني عبد شمس وبين أوْد من مُصاهرة ! قال : فإن أخبرتُك فعرفتَ فهو أمانٌ عندك ؟ قال : نعم ، قال : أليست أمّ حبيبة[2] أختك أمّ المؤمنين ؟ فأنا ابنها وأنت أخوها ، فأنت إذاً خالي . فقال معاوية : لله أبوه ! أما كان في هؤلاء الأسرى مَنْ يَفطِن إلى هذا غيره ! ثم خلّى سبيله[3] .

* * *

وروى إبراهيم بن الحسين بن عليّ الكسائيّ المعروف بابن ديزيل الهمدانيّ ، في «كتاب صفين» ، قال : حدّثنا عبد الله بن عمر ، قال : حدّثنا عمرو بن محمد ، قال : دعا معاويةُ بن أبي سُفيان عمرو بن العاص ، ليبعثه حكَماً ، فجاء وهو متحزّم ، عليه ثيابه وسيفه ، وحوله أخوه وناس من قريش ، فقال له معاوية : ياعمرو ؛ إنّ أهلَ الكوفة أكرهُوا عليّاً على أبي موسى وهو لا يريده ، ونحن بك راضون ، وقد ضُمّ إليك رجل طويل اللسان ، كليل المُدْية ، وله بعدُ حظّ من دِين ؛ فإذا قال فدَعْه يقلْ ، ثم قلْ فأوجز ، واقطع المفصِل ، ولا تَلْقه بكلّ رأيك ، واعلم أنّ خَبء[4] الرأي زيادة في العقل ، فإنْ خوّفك بأهل العراق فخوّفه بأهل الشام ، وإن خوّفك بعليّ فخوّفه بمعاوية ، وإن

(١) أود : بطن في قيس عيلان .
(٢) أم حبيبة ؛ هي رملة بنت أبي سفيان .
(٣) كتاب صفين ٥٩٤ ، ٥٩٥ .
(٤) الخبء : ما خبئ وغاب من الشيء ، وفي ح : « خبيء » وهما سواء .

خَوّفكَ بمصر نخوّفه باليمن ، وإن أتاكَ بالتفصيل فأْتِه بالجُمل . فقال له عمرو : يامعاوية ، أنت وعليّ رجُلا قريش ، ولم تنلْ فى حربك ما رجوت ، ولم تأمن ماخفت ، ذكرتَ أنّ لعبد الله دِيناً ، وصاحبُ الدين منصور ، وايمُ الله لأُلقينّ [عليه][1] عِلّه ، ولأستخرجنّ خَبْأه[2] ، ولكن إذا جاءنى بالإيمان والهجرة ومناقب علىّ ، ماعسيتُ أن أقول ! قال : قل ماترى ، فقال عمرو : وهل تدَعُنى وما أرى ! وخرج مُغضَباً كأنه كره أن يُوصَى ثقةٌ بنفسه ؛ وقال لأصحابه حين خرج : إنما أراد معاوية أن يصغِّر أمرَ أبى موسى، لأنه علم أنى خادعه غداً ، فأحبّ أن يقول : إن عمراً لم يخدَعْ أريباً ، فقد كدتُه بالخلاف عليه .

وقال فى ذلك :

يُشجّعُنى معاويةُ بن حَرْبٍ ... كأنّى للحوادثِ مستكينُ

وأنّى عَنْ معاويةٍ غَنِىٌّ ... بحمدِ الله والله المعينُ

وهوّن أمرَ عبد الله عمداً ... وقال له على ما كان دينُ

فقلتُ له ولم أردُدْ عليه ... مقالتَه وللشّكِّ أَنينُ

ترى أهلَ العراق بذئب منهم ... وعَنْ جيرانهم رَجُلٌ مَهينُ !

فلو جهلُوه لم يجهل علىٌّ ... وغثّ القولِ يحمِلُه السَّمِينُ

ولكن خطبه فيهم عظيمٌ ... وفضلُ المرء فيهم مُسْتَبِينُ

فإنْ أظْفَرْ فلم أظفرْ بِوَغْدٍ ... وإن يَظفرْ فقد قُطِعَ الوَتِينُ

فلما بلغ معاوية شعره ، غضب من ذلك وقال : لولا مسيره لكان لى فيه رأى ! فقال له عبدالرحمن بن أمّ الحكم : أما والله إنّ أمثاله فى قريش لكثير ، ولكنك ألزمت نفسك الحاجة إليه ، فألزمها الغَنَاء عنه ، فقال له معاوية : فأجبه عن شعره ، فقال عبدالرحمن يعيّره بفراره من علىّ يوم صِفّين :

---

(١) تكملة من ح .

(٢) ح : « خبيئة » .

أَلَا يا عمرو عمرو قَبيلِ سَهْمٍ ... أمِنْ طِبٍّ أصابَكَ ذا الجُنونُ!
دعِ البغيَ الذى أصبحتَ فيه ... فإنّ البَغيَ صاحبُه لَعِينُ
ألم تَهرُبْ بنفسِك من علىّ ... بصفّينٍ وأنت بها ضَنينُ
حِـذاراً أنْ تلاقِيَكَ المنايا ... وكلّ فتًى سيدركه المَنونُ
ولَسْنا عائبين عليك إلّا ... لقولك إنّنى لا أستكينُ

* * *

قال نصر : ثم إنّ الناس أقبلوا على قَتْلاهم فدفنوهم ، قال : وقد كان عمر بن الخطاب دعا فى خلافته حابس بن سعد الطائىّ ، فقال له : إنّى أريدُ أنْ أولّيَك قضاء حِمْص ، فكيف أنت صانع ؟ قال : أجتهدُ رأيى وأستشير جلسائى ، قال : فانطلِقْ إليها . فلم يمض[1] إلا يسيرا حتى رجع ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّى رأيتُ رؤيا أحببتُ أنْ أقصّها عليك ، قال : هاتِها ، قال : رأيتُ كأنّ الشمس أقبلتْ من المشرق ، ومعها جَمْع عظيم ، وكأنّ القمر قد أقبل من المغرب ومعه جَمْع عظيم ، فقال له عمر : مع أيّهما كنت ؟ قال : كنتُ مع القمر ، قال : كنتَ مع الآية الممحوّة ، اذهب فلا والله لا تلِي لى عملا ، وردّه . فشهد مع معاوية صِفّين ، وكانتْ رايةُ طيّئٍ معه ، فقُتِل يومئذ ، فمرّ به عدىّ بن حاتم ، ومعه ابنه زيد ، فرآه قتيلا ، فقال له : يا أبتِ[2] هذا والله خالى ، قال : نعم ، لعنَ الله خالكَ ! فبئس والله المَصرع مصرعه ! فوقف زيدٌ وقال : مَنْ قتل هذا الرجل ؟ مرارا ، فخرج إليه رجل من بكر بن وائل ، طُوالٌ يَخضِب ، فقال : أنا قتلتُه ، فقال له : كيف صنعتَ به ؟ فجعل يُخبره ، فطعنه زيد بالرمح فقتله ، وذلك بعد أن وضعت الحربُ أوزارها ؛ فحمل عليه عدىّ أبوه يسبّه ويشتِم[3] أمّه ، ويقول : يا ابنَ المائقة ، لستُ على دين محمد إن لم أدفعك إليهم ، فضرب

(١) صح : « فلم يمض ». (٢) صح : « يا أبه ».
(٣) صح « وسب أمه ».

زيد فرسَه فلحِق بمعاوية ، فأكرمه وحمله وأدنى مجلسَه ، فرفع عديٌّ يديه فدعا عليه ، وقال : اللهمّ إنّ زيداً قد فارق المسلمين ، ولحِق بالملحدين(١) ، اللهمّ فارمِه بسهم من سهامك لا يُشوي(٢) — [أو قال لا يخطىء — فإنّ رَمْيَتَكَ لا تُنْمِي](٣)، والله لا أكلّمه من رأسي كلمةً أبداً ، ولا يُظِلّني وإياه سقف أبداً . وقال زيد في قتل البكريّ :

مَنْ مبلغٌ أبنـــاءَ طيِّئٍ بأنّني   ثأرتُ بخـــالي ثمّ لم أتأثّمِ

تركتُ أخا بـكرٍ ينوء بصدرِهِ   بصِفِّينَ مخضوبَ الجبين من الدّمِ(٤)

وذكَّرني ثأري غَـداةَ رأيتُه   فأوجرتُه رُمحي فخرّ على الفمِ

لقد غادرتْ أرماحُ بكرِ بن وائلٍ   قتيلاً عن الأهوال ليس بمُحجِمِ

قتيلاً بظلّ الحيّ يُثنون بعدَهُ   عليـــــه بأيدٍ من نداه وأنعُمِ

لقد فُجِعتْ طيٌّ بحِلمٍ ونائلٍ   وصاحبِ غاراتٍ ونهبٍ مُقسَّمِ

لقد كان خالي ليس خالٌ كمثلِهِ   دِعاماً لِضَيْمٍ واحتمالاً لمغرَمِ(٥)

* * *

قال نصر : وروى الشّعبيّ ، عن زياد بن النّضر أنّ عليًّا عليه السلام بعث أربعمائة، عليهم شُرَيح بن هانئ الحارثيّ، ومعه عبدالله بن عباس يصلّي بهم ، [وَيَلي أمورَهم](٦)، ومعهم أبو موسى الأشعريّ ، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمائة(٧) ، ثم إنهم

(١) صفين : « الظالمين » .

(٢) أشوى : رمى فأصاب الشوى — وهي الأطراف — ولم يصب المقتل .

(٣) تكملة من كتاب صفين . ويقال : أنمى الصيد ، إذا رماه فأصابه ، ثم ذهب عنه فمات .

(٤) صفين . « مخضوب الجيوب » .

(٥) صفين ٥٩٩ — ٦٠٠ ، والمغرم : الدية .

(٦) من كتاب صفين .

(٧) في كتاب صفين بعد هذه الكلمة : « قال : فكان إذا كتب علي بشيء أتاه أهل الكوفة فقالوا : ما الذي كتب به إليك أمير المؤمنين ؟ فيكتمهم ، فيقولون له : كتمتنا ما كتب به إليك ! إنما كتب في كذا وكذا . ثم يجيء رسول معاوية إلى عمرو بن العاص فلا يدرى في أي شيء جاء ، ولا في أي شيء ذهب ، ولا يسمعون حول صاحبهم لغطا . فأنّب ابن عباس أهل الكوفة بذلك وقال : إذا جاء رسول قلتم بأي شيء جاء ؟ فإن كتمتكم قلتم : لم تكتمنا؟ جاء بكذا وكذا . فلا تزالون توقفون وتقاربون حتى تصيبوا ، فليس لكم سر ! » .

خلوْا ابن الحكَمين، فكان رأىُ عبدالله بن قيس [أبو موسى (١)] فى عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وكان يقول : والله إن استطعت لأُحْيِيَنَّ سنة عمر (٢) .

• • •

قال نصر : وفى حديث محمد بن عبيدالله ؛ عن الجرجانى قال : لما أراد أبو موسى المسيرَ قام إليه شُرَيْح بن هانئ ، فأخذ بيده ، وقال : ياأبا مُوسى ، إنكَ قد نُصِبْتَ لأمرٍ عظيم لا يُجْبَرُ صَدْعُه ، ولا تُستقالُ فتنتُه (٣)، ومهما تَقُلْ من شىء عليك أو لَكَ ، يَثْبتْ حقه ونُرَ صحتُه وإنْ كان باطلا ، وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم علىّ ، وقد كانت منك تَثْبِيطة أيامَ الكوفة والجمل، فإن تشفعها بمثلها يكن الظنُّ بك يقينا ، والرجاء منك يأسا ، ثم قال له شريح فى ذلك :

أبا مُوسَى رُمِيتَ بِشَرِّ خَصْمٍ   فلا تُضِعِ العِراقَ فدتكَ نَفْسِى
وأعطِ الحقَّ شامَهُمُ وخُــذْهُ   فإنَّ اليوم فى مَهَــلٍ كأمْسِ
وإنْ غـــداً يجىءُ بما عَلَيْهِ   كذاكَ الدهرُ من سَعْدٍ وَنَحْسِ (٤)
ولا يَخْــدعْك عمرٌو إنَّ عمراً   عــدُوّ الله مَطْلَعَ كلِّ شمسِ
لهُ خُـــدَعٌ يَحَارُ العقلُ مِنْهَا   مُمَوَّهــةٌ مُزَخْرَفَةٌ بِلَبْسِ
فلا تَجْعَــلْ مُعاوِيةَ بنَ حَرْبٍ   كشَيْخٍ فى الحوادثِ غيرِ نِكْسِ
هـــداه الله للإسلام فَرْداً   سوى عِرْسِ النَّبِىّ، وأىُّ عِرْسِ! (٥)

فقال أبو موسى : ما ينبغى لقوم اتهمونى أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلا ، أو أجرَّ إليهم حقا .

• • •

---

(١) من كتاب صفين .
(٢) كتاب صفين ٦١٤
(٣) كتاب صفين : « ولا يستقال فتقه » .
(٤) فى صفين : « يدور الأمر » .
(٥) كتاب صفين : « سوى بنت النبى » .

وروى المدائني[1] في «كتاب صفين»، قال: لما أجمع أهلُ العراق على طلب أبي موسى، وأحضروه للتحكيم على كُرْهٍ من عليّ عليه السلام، أتاه عبدُ الله بن العباس، وعنده وجوهُ الناس وأشرافهم، فقال له: يا أبا موسى، إنّ الناس لم يرضَوْا بك، ولم يجتمعوا عليك لفضل لا تشارَك فيه، وما أكثرَ أشباهَك من المهاجرين والأنصار والمتقدمين قبلك؛ ولكنّ أهلَ العراق أبوْا إلّا أن يكون الحكَم يمانياً، ورأوْا أنّ[2] معظمَ أهلِ الشام يمان، وايمُ الله، إني لأظنّ ذلك شرًّا لك ولنا؛ فإنه قد ضُمّ إليك داهية العرب، وليس في معاوية خَلّة يستحق بها الخلافة، فإن تقذفْ بحقك على باطله تدركْ حاجتَك منه، وإن يطمع باطلهُ في حقك يدركْ حاجته منك. واعلم يا أبا موسى أنّ معاويةَ طليقُ الإسلام، وأنّ أباه رأسُ الأحزاب، وأنّه يدّعي الخلافةَ من غير مشورة ولا بَيْعة، فإنْ زعم لك أنّ عمر وعثمان استعملاه فلقد صدقَ؛ استعمله عمر وهو الوالي عليه، بمنزلة الطبيب يحميه مايشتهي، ويُوجِرُه ما يكره؛ ثم استعمله عثمان برأي عمر، وما أكثرَ من استعملا ممن لم يدّعِ الخلافة. واعلم أنّ لعمرو مع كلّ شيء يسرّك خبيئاً يسوءك؛ ومهمانسيتَ فلا تنسَ أن عليا بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وأنها بَيْعة هدى، وأنّه لم يقاتلْ إلا العاصين والناكثين.

فقال أبو موسى: رحمك الله! والله مالي إمامٌ غيرُ عليّ، وإني لواقف عندما رأى، وإنّ حق الله أحبُّ إليّ من رضا معاوية وأهل الشام، وما أنت وأنا إلا بالله.

• • •

وروى البلاذُري[3] في كتاب «أنساب الأشراف»، قال: قيل لعبدالله بن عباس:

---

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني؛ صاحب التصانيف الكثيرة في السيرة وأخبار القبائل والخلفاء، والفتوح والمغازي وغيرها؛ توفي سنة ٢١٥. الفهرست لابن النديم ١٠٠–١٠٤.

(٢) كذا في ب، ح، وفي ا: «الآن».

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري؛ صاحب كتاب البلدان، وأنساب الأشراف، توفي سنة ٢٧٩. الفهرست ١١٣، ومعجم الأدباء ٥: ٨٩.

مامنع علياً أن يبعثك مع عَمْرو يومَ التحكيم ؟ فقال : منعه حاجزُ القَدر ، ومِحْنة الابتلاء، وقِصَر المدة ؛ أما والله لو كنت،لقعدت على مَدارج أنفاسه،ناقضا ماأبرم،ومبرما مانَقض، أطير إذا أسَفّ، وأسِفُّ[1] إذا طار ؛ ولـكن قد سَبَق قَدَر ، وبَقِيَ أسف ،ومع اليوم غد، والآخرة خير لأمير المؤمنين .

***

وذكر البلاذُرِيّ أيضا ، قال : قام عمرو بن العاص بالموسم ، فأطرَى معاوية وبنى أميّة ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مشاهده بصِفّين ويوم أبى موسى ، فقام إليه ابن عباس، فقال : ياعمرو ، إنك بعتَ دينك من معاوية ، فأعطيته مافى يدك ، ومنّاك مافى يد غيره؛ فـكان الذى أخذه منك فوق الذى أعطاك ، وكان الذى أخذتَ منه دون ما أعطيتَه ، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى؛فلما صارت مصر فى يدك ، تتبعك بالنقض عليك والتعقب لأمرك ، ثم بالعزل لك ؛ حتى لو أنّ نفسك فى يدك لأرسلتَها . وذكرت يومك مع أبى موسى،فلا أراك فخَرْت إلا بالغدر،ولا مُنِيتَ إلّا بالفجور والغِشّ . وذكرت مشاهدك بصِفّين ؛ فوالله مائقلتْ علينا وطأتك،ولا نَـكأتْ فينا جرأتك ؛ ولقد كنت فيها طويلَ اللسان،قصير البنان ، آخرَ الحرب إذا أقبلت،وأولها إذا أدبرت.لك يدان: يد لاتقبضها عن شرّ ، ويد لا تبسطها إلى خير،ووجهان: وجه مؤنِس ، ووجه مُوحِش ؛ ولَعمرى إنّ مَنْ باع دينه بدنيا غيره لحرِيّ حزنه على ماباع واشترى . أما إنّ لك بياناً ولـكنْ فيكَ خطل ، وإن لك رأياً ولـكن فيك فَشَل،وإنّ أصغرُ عيبٍ فيك لأعظمُ عيبٍ فى غيرك.

***

قال نصر : وكان النجاشيّ الشاعر صديقا لأبى موسى ، فـكتب إليه يحذّره من عمرو بن العاص :

يؤمّلُ أهـلُ الشام عَمْراً وإنّنى لآملُ عبـدَ الله عنـدَ الحقائقِ

---

(١) أسف الطائر : دنا من الأرض .

وإنّ أبا موسى سيُدرِكُ حَقَّنا ... إذا ما رمى عَمْرًا بإحدى البَوائِقِ (١)

فلله مايُرْمَى العِراقُ وأهلُه ... به منه إن لم يَرْمِهِ بالصَّواعِقِ (٢)

فكتب إليه أبو موسى : إنى لأرجو أن ينجلِيَ هذا الأمرُ ، وأنا فيه على رضا الله سبحانه .

قال نصر : ثم (٣) إن شريح بن هانئ جهّز أبا موسى جهازا حسنا، وعظّم أمرَه فى الناس ليشرُف فى قومه ، فقال الأعور الشَّنِّىّ فى ذلك يخاطب شُرَيحا :

زَفَفْتَ ابنَ قيسٍ زِفافَ العروسِ ... شُرَيْحُ إلى دُومةِ الجَنْدَلِ

وفى زَفِّكَ الأشعرىَّ البلاء ... وما يُقْضَ مِنْ حادِثٍ يَنزِلِ

وما الأشعرىّ بذى إرْبَةٍ ... ولا صاحب الخُطّةِ الفَيْصَلِ (٤)

ولا آخِذاً حظَّ أهلِ العراقِ ... ولو قيلَ ها خُذْهُ لم يَفعلِ

يُحاولُ عَمرٌو وعمرٌو له ... خَدائِعُ يأتى بها من عَلِ (٥)

فإن يَحكُما بالهُدَى يُتْبَعا ... وإن يَحكُما بالهَوى الأَمْيَلِ

يكونا كتَيْسَيْنِ فى قفرةٍ ... أكيلَىْ نقيفٍ من الحنظلِ (٦)

فقال شريح: والله لقد تعجّلتْ رجالٌ مَسَاءتنا فى أبى موسى، وطعنوا عليه بأسوأ (٧) الظّنّ ، وظنّوا فيه ما الله عاصمه (٨) منه ، إن شاء الله .

---

(١) كتاب صفين ٦١٥ : «الصواعق» ، وبعده فيه :

وحقّقهُ حتّى بدَرٍّ وبدْؤه ... ونحن على ذاكم كأحنق حانِقِ

على أن عمراً لا يُشَقُّ غُبارُهُ ... إذا ما جرى بالجِدّ أهلُ السوابقِ

(٢) صفين : «بالبوائق» . (٣) صفين ٦١٦ .

(٤) صفين : «صاحب الخطة» . (٥) من عل ، يا ماساكنة ؛ لغة فى «عل» .

(٦) الحنظل النقوف : الذى يكسر ليستخرج حبه .

(٧) كتاب صفين : «سوء الظن» .

(٨) صفين : «عاصمه» .

قال : وسار مع عمرو بن العاص شُرَحبيل بن السِّمط فى خَيْل عظيمة ؛ حتى إذا أمِنَ عليه خيل أهل العراق ودَّعَه ، ثم قال له : يا عمرو ؛ إنك رجلُ قريش ؛ وإنّ معاوية لم يبعثك إلا لعلمه أنك لا تؤتَى مِن عجز ولا مكيدة ، وقد عرفت أنى وطّأتُ هذا الأمرَ لك ولصاحبك ؛ فكنْ عند ظنى بك . ثم انصرف وانصرف شُرَيح بن هانئ حين أمِنَ خيل أهلِ الشام على أبى موسى ، وودّعه .

وكان آخر مَنْ ودَّعَ أبا موسى الأحنفُ بن قيس ، أخذ بيده ، ثم قال له : يا أبا موسى ، اعرف خَطْبَ هذا الأمر ، واعلم أنّ له ما بعده ، وأنك إن أضعت العراق فلا عِراق ؛ اتق الله فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك ، وإذا لقيت غدا عمرًا فلا تبدأه بالسلام ، فإنها وإن كانت سنّةً إلا أنه ليس من أهلها ، ولا تُعطه يدك فإنها أمانة ؛ وإياك أن يُقعِدك على صَدْر الفراش فإنها خُدعة ، ولا تلقَهُ إلّا وحده . واحذرْ أن يكلِّمك فى بيت فيه[1] مخدع تُخبأ لك فيه الرجال والشهود . ثم أراد أن يَبُورَ[2] ما فى نفسه لعلىّ ، فقال له : فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلىّ ، فليختر أهلُ العراق من قريش الشام من شاءوا ، أو فليَختَر أهلُ الشام من قريش العراق من شاءوا .

فقال أبو موسى : قد سمعتُ ما قلتَ ، ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن علىّ .

فرجع الأحنف إلى علىّ عليه السلام ، فقال له : أخرَجَ أبو موسى والله زُبْدَةَ سِقائه فى أول مَخضه ؛ لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكِر خَلْعك . فقال علىّ : الله غالب على أمره[3] .

* * *

قال نصر : وشاع وفشا أمرُ الأحنف وأبى موسى فى الناس ، فبعث الصَّلَتانُ العبدى وهو بالكوفة إلى دُومة الجندل بهذه الأبيات :

---

(١) ا ، ح : « له » .

(٢) يبور : « يختبر » ، وفى ا ، ب : « يبلو » ، وفى صفين : « يبور » وكله بمعنى .

(٣) كتاب صفين ٦١٦ ، ٦١٧ .

لَعَمْرُكَ لا أَلْقَى مَدَى الدَّهْرِ خالعاً ... عليًّا بقول الأشعرىّ ولا عمرِو

فإن يحكما بالحقّ نقبــلْه منهما ... وإلّا أثرناهـا كراغيةِ البَـكْرِ[1]

ولسنا نقولُ الدَّهرَ ذاك إليهما ... وفى ذاك لو قلناهُ قاصِمَةُ الظهرِ

ولـكن نقول: الأمرُ والنهىُ كله ... إليه ، وفى كَفّيْه عاقبةُ الأمرِ

وما اليوم إلا مثل أمسِ وإنّنا ... لفى وشَلِ الضَّحْضاح أو لُجّة البَحْرِ[2]

قال : فلما سمع النّاس قول الصّلّتان شحَدّم ذلك على أبى موسى ، واستبطأه القومُ وظَنُّوا به الظنون ، ومـكث الرّجُلان بدُومة الجندل لا يقولان شيئا . وكان سعد ابن أبى وقّاص قد اعـتزل عليًّا ومعاوية ، ونزل على ماء لبنى سُلَيْم بأرض البادية ، يتشوّف[3] الأخبار ـ وكان رجلاً له بأس ورأى ومكان فى قُريش ، ولم يكنْ له هوًى فى علىّ ولا فى معاوية ـ فأقبل راكب يوضع[4] من بعيد ، فإذا هو ابنه عمر ، فقال له أبوه : مهيمْ[5] ؟ فقال : التقى النّاس بصِفّين ، فكان بينهم ما قد بلَغك حتى تفانَوْا . ثم حـكّموا عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ؟ وقد حضر ناسٌ من قريش عندهما ، وأنت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه ومن أهل الشورى ، ومن قال له النبىّ صلى الله عليه : « اتّقُوا دَعْوَته » ، ولم تدخل فى شىء مما تـكره الأمة ، فاحضُر دُومَةَ الجَنْدَل ، فإنك صاحبها غدا . فقال : مهلاً يا عمر ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « تكون بعدى فِتْنة ، خيرُ الناس فيها التقىّ الخَفِىّ » ، وهذا أمر لم أشهد أولَه ، فلا أشهدُ آخرَه ،

---

(١) الراغية : الرغاء ، والبـكر : ولد الناقة ، وفى ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص ٣٠٢ : « راغية البكر ، من أمثال العرب ، ومن أبى عمرو . قولهم : كانت عليهم كراغية البكر ؛ أى استؤصلوا استئصالا ، يعنون رغاء بكر ثمود حين عقر الناقة قدار » .

(٢) الوشل : القدار اليسير من الماء .

(٣) يتشوف الأخبار ، أى يتطلع إليها .

(٤) يوضع فى سيره : يسرع .

(٥) مهيم ، أى ما وراءك وما حالك ؟ وهى كلمة استفهام يمانية البنى .

ولو كنتُ غامساً يدى فى هذا الأمر لغمستُها مع علىّ بن أبى طالب [١] ؛ وقد رأيتَ أباك كيف وهب حقّه من الشورى ، وكَرِه الدخول فى الأمر . فارتحل عمر ، وقد استبان له أمرُ أبيه . [٢]

***

قال نصر : وقد كان الأجنادُ [٣] أبطأتْ عَلَى معاوية ، فبعث إلى رجال من قريش كانوا كرهوا أن يُعينوه فى حَرْبه : إنّ الحرب قد وضعتْ أوزارَها ، والتقى هذان الرجلان فى دُومة الجندل ، فاقدَموا علىّ .

فأتاه عبدُ الله بن الزبير وعبدُ الله بن عمر بن الخطاب وأبو الجهم بن حُذيفة العَدَوىّ ، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزُّهرىّ ، وعبد الله بن صفوان الجُمَحىّ . وأتاه المغيرة ابن شعبة ـ وكان مقيما بالطائف لم يشهد الحرب ـ فقال له : يا مغيرة ، ما ترى؟ قال : يا معاوية ، لو وَسِعنى أن أنصرَك لنصرتُك ، ولكنْ علىّ أن آتيك بأمر الرّجلين . فرحل حتى أتى دُومةَ الجندل ، فدخل عَلَى أبى موسى كالزائر له ، فقال : يا أبا موسى ، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمرَ وكره الدماء ؟ قال : أولئك خيرُ [٤] الناس ، خفّتْ ظهورُهم من دمائهم ، وخَمِصت بطونهم من أموالهم . ثم أتى عمرًا ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر ، وكَرِه الدماء ؟ قال : أولئك شِرار الناس ؛ لم يعرفوا حقًّا ، ولم يُنكِروا باطلا . فرجع المغيرةُ إلى معاوية ، فقال له : قد ذُقْتُ الرّجُلَيْن ، أمّا عبد الله

(١) فى كتاب وقعة صفين بعد هذه الكلمة : « قد رأيت القوم حلونى على حد السيف فاخترته على النار ؛ فأقم عند أبيك ليلتك هذه . فراجعه حتى طمع فى الشيخ ، فلما جنه الليل رفع صوته ليسمع ابنه ؛ فقال . . . » وذكر أبياتا مطلعها :

دَعَوْتَ أباكَ اليومَ واللهِ لِلّذِى ... دَعَانِى إليهِ القومُ والأمرُ مُقْبِلُ

(٢) صفين : ٦١٨ ـ ٦٢٠ .

(٣) وقعة صفين : « الأخبار » .

(٤) وقعة صفين : « خيار »

ابن قيس تخالفٌ صاحبَه ، وجاعلُها لرجل لم يشهد هذا الأمر ، وهَوَاه [في][1] عبد الله ابن عمر ،وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى تَعرف،وقد ظَنّ الناس أنه يرومها لنفسه، وأنه لايرى أنك أحقُّ بهذا الأمر منه[2] .

* * *

قال نصر في حديث عمرو بن شَمِر ، قال : أقبـل أبو موسى على عمرو ، فقال : ياعَمرو ، هل لك في أمرٍ هو للأمة صلاح ، ولصلحاء الناس رِضاً ؟ نولّي هذا الأمرَ عبدالله ابن عمر بن الخطاب ، الذى لم يدخل في شيء من هذه الفتنة، ولا هذه الفرقة . قال:وكان عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير قريبيْن يسمعان هـذا الـكلام ، فقال عمرو : فأين أنت ياأبا موسى عن معاوية ؟ فأبى عليه أبو موسى ، [قال : وشهدهم عبدالله ابن هشام ، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وأبو الجهم بن حذيفة العدوى والمغيرة ابن شعبـة][1]، فقال عمرو : ألستَ تعلم أنّ عثمان قُتل مظـلوماً ؟ قال : بلى ، قال : اشهدوا[3] ، ثم قال: فما يمنعُك من معاوية وهو ولى عثمان ،وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً ﴾[4] ؟ ثم إنّ بيتَ معـاوية من قريش ماقد علمتَ ، فإنْ خشِيتَ أن يقول الناس : ولى معاوية وليستْ له سابقة ؛ فإنّ لك حجّة ؛ أن تقول : وجـدته وليَّ عثمان الخليفة المظلوم ، والطالبَ بدمه، الحسَنَ السياسة، الحسَنَ التدبير ؛ وهو أخو أمّ حَبيبة أم المؤمنين ، وزوّج النبى صلى الله عليه ، وقد صحبه ، وهو أحد الصحابة . ثم عرّض له بالسلطان ، فقال له : إن هو وَلِيَ الأمرَ أكرمَك كرامة لم يكرِمْك أحدٌ قطّ مثلها ؛ فقال أبو موسى : اتّقِ الله ياعمرو ! أمّا ماذكرت من شرف معاوية ، فإنّ هـذا

(١) من كتاب صفين .
(٢) وقعة صفين ٦٢٠ ، ٦٢١ .
(٣) ب : « أشهد » .
(٤) سورة الإسراء ٣٣

الأمر ليس على الشّرف يُوَلّاه أهله ؛ لوكان على الشرف كان أحقّ الناس بهذا الأمر أبرهة بن الصبّاح ؛ إنما هو لأهل الدين والفضل ؛ مع أنّي لو كنت أعطيه أفضلَ قريش شرفاً لأعطيتهُ عليَّ بن أبي طالب . وأمّا قولُك : إنّ معاوية وليّ عثمان فوله هذا الأمر ؛ فإني لم أكن أولّيه إياه لنسبته من عثمان ، وأدَع المهاجرين الأولين ، وأمّا تعريضُك لى بالإمْرة والسلطان ؛ فوالله لوخرج لى من سلطانه ماوليتهُ ، وما كنت أرتشي فى الله ، ولكنك إن شئتَ أحيينا سُنّة عمر بن الخطاب[1] .

قال نصر : وحدّثني عمر بن سعد عن أبي جناب أنّ أبا موسى قال غير مرّة : والله إن استطعتُ لأُحْيِيَنّ اسم عمر بن الخطاب ، قال : فقال عمرو بن العاص : إن كنت إنما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه ، فما يمنعُك من ابني عبد الله ، وأنت تعرفُ فضلَه وصلاحه ! فقال : إنّ ابنَك لَرجُلُ صدق ، ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة[2] .

قال نصر : وحدّثنا عمر بن سعد ، عن محمد بن إسحاق ، عن نافع ، قال : قال أبو موسى لعمرو : ياعمرو ، إن شئت ولّينا هذا الأمر الطّيّب ابن الطّيّب ، عبدَ الله ابن عمر ، فقال له عمرو : ياأبا موسى ، إن هذا الأمرَ لايصلح له إلا رجل له ضِرْسٌ يأكل ويُطْعِم ، وإنّ عبد الله ليس هناك .

قال نصر : وقد كان فى أبي موسى غفلة[3] ، فقال ابنُ الزبير لابن عمر : اذْهب إلى عمرو ابن العاص فارشُه ، فقال ابن عمر : لاوالله لاأرشُو عليها بشيء أبدا ماعشت ، ولكنه قال له : إنّ العربَ قدأسندت إليك أمرها بعدماتقارعت بالسيوف ، وتطاعنت بالرماح ، فلاتردّهم فى فتنة ؛ واتّق الله[4] .

---

(١) وقعة صفين ٦٢٢ ـ ٦٢٣ . (٢) وقعة صفين ٦٢٢ .
(٣) وكذا فى صفين ، وفى الطبرى : « ابن عمر » . (٤) وقعة صفين ٦٢٣ .

قال نصر : وحدثنا عمر بن سعد ، عن أزهر العبسي عن النضر بن صالح ، قال : كنت مع شريح بن هانئ في غزوة سجستان ، فحدثني أن عليًّا عليه السلام أوصاه بكلمات إلى عمرو بن العاص ، وقال له : قل لعمرو إذا لقيته : إن عليًّا يقول لك : إن أفضل الخلق عند الله مَن كان العملُ بالحق أحبَّ إليه وإن نقصه ، وإن أبعد الخلق من الله من كان العملُ بالباطل أحبَّ إليه وإن زاده ؛ والله ياعمرو إنك لتعلم أين موضعُ الحق ، فلِمَ تتجاهل ؟ أ بأنْ أوتيت طمعا يسيرا صرت لله ولأوليائه عدوًّا ! فكأنْ والله ماقد أوتيت قد زال عنك ، فلا تكن للخائنين خصيما ، ولا للظالمين ظهيرا . أما إني أعلم أنّ يومَك الذي أنت فيه نادم هو يومُ وفاتك ،وسوف تتمنى أنك لم تُظهِر لي[1] عداوة ،ولم تأخذ على حكم الله رشوة . قال شريح : فأبلغته ذلك يوم لقيتُه ، فتمعّر وجهه[2] وقال : متى[3] كنتُ قابلا مشورة عليّ أو منيبا إلى رأيه ، أو معتدًّا بأمره[3] ! فقلت : وما يمنعُك يابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم مشورته ! لقد كان مَن هو خير منك أبو بكر وعمر يستشيرانه ويعملان برأيه : فقال : إن مِثْلي لا يكلّم مثلَك، فقلت : بأيّ أبويك ترغَبُ عن كلامي ! بأبيك الوَشيظ[4] أم بأمك النابغة ! فقام من مكانه وقمت[5] .

* * *

قال نصر : وروى أبو جناب الكلبي أن عمرا وأبا موسى لما التقيا بدُومة الجندل، أخذ عمرو يقدّم أبا موسى في الكلام ، ويقول : إنك صحبتَ رسول الله صلى الله عليه قبلي ، وأنت أكبر مني سِنًّا ،فتكلمْ أنت ، ثم أتكلم أنا ،فجعل ذلك سُنّةً وعادة بينهما

(١) صفين : « المسلم » .

(٢) وقعة صفين : « فتمعر وجه عمرو » . وتمعر : تغير وجهه غيظا .

(٣ — ٣) وقعة صفين : « متى كنت أقبل مشورة علي أو أنيب إلى أمره وأعتد برأيه ! » .

(٤) الوشيظ : الخسيس والتابع .

(٥) وقعة صفين ٦٩٤

وإنما كان مكرا وخديعة واغترارا له أن يقدّمه ، فيبدأ بخلع علىّ ثم يرى رأيه .

* * *

وقال ابن ديزيل فى " كتاب صفين " : أعطاه عمرو صَدْرَ المجلس ، وكان لا يتكلم قبله ، وأعطاه التقدّم فى الصلاة وفى الطعام ، لا يأكل حتى يأكل ، وإذا خاطبه فإنما يخاطبه بأجلّ الأسماء ، ويقول له : ياصاحبَ رسول الله ؛ حتى اطمأنّ إليه ، وظنّ أنه لا يغشّه .

* * *

قال نصر : فلما انمخضَتِ الزُّبدة بينهما ، قال له عَمْرو : أخبرنى مارأيك ياأبا موسى؟ قال : أرى أن أخلع هذين الرجُلين ، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين ، يختارون من شاءوا ، فقال عمرو : الرأى والله مارأيت . فأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتكلّم أبو موسى ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ رأيى ورأى عمرو قد اتفق على أمرٍ نرجو أن يُصلح الله به شأنَ هذه الأمة ؛ فقال عمرو : صدق ، ثم قال له : تقدّم ياأبا موسى ؛ فتكلّم ، فقام ليتكلّم ، فدعاه ابن عباس ، فقال له : ويحك ! والله إنى لأظنه خدَعك ! إن كنتُما قد اتفقتُما على أمرٍ فقدّمه قبلَك ليتكلّم به ثم تكلّمْ أنت بعده ؛ فإنه رجل غدّار ، ولاآمن أن يكون قد أعطاك الرِّضا فيما بينك وبينه ؛ فإذا قمتَ به فى النّاس خالفك – وكان أبو موسى رجلا مُغفَّلا – فقال : إيهاً عنك إنّا قد اتفقنا !

فتقدم أبو موسى ، فحمِد اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ؛ إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة ، فلم نر شيئاً هو أصلحُ لأمرِها ولا ألمّ لشَعْثها من ألّا تتباينَ أمورُها، وقد أجمع رأيى ورأىُ صاحبى على خلْع علىّ ومعاوية ، وأن يُستقبلَ هذا الأمرُ ، فيكونَ شورى بينَ المسلمين ، يولّون أمورَهم مَنْ أحبّوا ، وإنى قد خلعتُ عليا ومعاوية ؛ فاستقبلوا

أموركم ، وولُّوا مَنْ رأيتموه لهذا الأمر أهلا . ثم تنحى .

فقام عمرو بن العاص فى مقامه : فحمد اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبَه ، وأنا أخلع صاحبَه كما خلعه ، وأثبتُ صاحبى معاوية فى الخلافة ، فإنه ولىّ عثمان ، والطالب بدمه ، وأحقّ الناس بمقامه .

فقال له أبو موسى : مالك لا وفقك الله قد غدرت وفجرت ! إنما مثلكَ ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾[1] . فقال له عمرو : إنما مثلك ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾[2] .

وحمل شُرَيح بن هانئ على عمرو فقنّعه بالسوط ، وحمل ابن عمرو على شُريح فقنّعه بالسوط ، وقام الناس فحجزوا بينهما ، فكان شُريح يقول بعد ذلك : ما ندمتُ على شىء ندامتى ألا أكون ضربتُ عمرا بالسيف بدلَ السوط ، أتى الدهر بما أتى به !

والتمس أصحابُ علىّ عليه السلام أبا موسى فركب ناقته ، ولحق بمكة . وكان ابن عباس يقول : قبّح الله أبا موسى ! لقد حذّرته وهديتُه إلى الرأى فما عقَل . وكان أبو موسى يقول : لقد حذّرنى ابنُ عباس غَـدْرَةَ الفاسق ، ولكنى اطمأننت إليه ، وظننت أنه لا يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة[3] .

***

قال نصر : [4] ورجع عمرٌو إلى منزله من دُومة الجَندَل ، فكتب إلى معاوية[4] :

أَتَتْكَ الخلافةُ مَزْفُوفَةً ... هَنِيئاً مرِيئاً تُقِرُّ العُيُونا

---

(١) سورة الأعراف ١٧٦

(٢) سورة الجمعة ٥

(٣) كتاب صفين ٦٢٧ — ٦٢٩ مع تصرف .

(٤ — ٤) العبارة كما وردت فى كتاب صفين ٦٣٠ : « ولما فعل عمرو مافعل ، واختلط الناس ، رجع إلى منزله ، فجهز راكبا إلى معاوية يخبره بالأمر من أوله إلى آخره ، وكتب فى كتاب على حدة ».

تُزَفُّ إليكَ زِفافَ العروسِ[1] | بأهْوَنَ مِنْ طَعْنِكَ الدَّارِعِينَا
وَمَا الأَشْعَرِيُّ بِصَلْدِ الزِّنَادِ | ولا خامِلِ الذِّكْرِ في الأَشْعَرِينَا
وَلَكِنْ أَتيحتْ لهُ حَيَّةٌ | يَظَلُّ الشُّجاعُ لَهَا مُسْتَكِينَا
فَقَالُوا وقلتُ وَكُنْتُ امْرأً | أُجَهْجِهُ بالخَصْمِ حَتَّى يَلِينَا[2]
فَخُذْهَا ابنَ هِنْدٍ عَلَى بُعْدِها[3] | فَقَدْ دَافَعَ اللهُ ما تَحْذَرُونَا
وَقَدْ صَرَفَ اللهُ عَنْ شَامِكُمْ | عَدُوًّا مبِينًا وَحَرْبًا زَبُونَا[4]

قال نصر : هَمَّام بن قبيصة الهَمْدانى ، وقال : والله لو اجتمعنا على الهُدَى ما زدتمانا على ما نحن الآن عليه ، وما ضلالكما بلازم لنا ، وما رجعتما إلا بما بدأتما به ، وإنّا اليوم لَعَلَى ما كنا عليه أمس .

وقام كُردوس بن هانئ مغضبًا ، فقال[5] :

أَلَا لَيتَ مَنْ يَرْضَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ | بِعَمْرٍو وعبدِ اللهِ في لُجَّةِ البَحْرِ
رَضِينَا بِحُكْمِ اللهِ لَاحُكْمَ غَيْرُهُ | وباللهِ رَبًّا والنَّبِيِّ وبالذِّكْرِ
وبالأَصْلَعِ الهَادِي عَلِيٍّ إمامِنَا | رَضِينَا بِذَاكَ الشَّيْخِ في العُسْرِ واليُسْرِ
رَضِينَا بِهِ حَيًّا وَمَيْتًا ، وإنَّهُ | إمامُ هُدًى في الحُكْمِ والنَّهْيِ والأَمْرِ
فَمَنْ قَالَ لا ، قُلْنَا بَلَى إنَّ أَمْرَهُ | لَأَفْضَلُ ما نُعْطَاهُ في لَيْلَةِ القَدْرِ
وَمَا لابْنِ هِنْدٍ بَيْعَةٌ في رِقَابِنَا | وما بَيْنَنَا غَيْرُ المُثَقَّفَةِ السُّمْرِ

---

(١) كتاب صفين : « كزف العروس » .
(٢) أجهجه : قال الجوهرى : « جهجهت بالسبع ، صحت به لتكفه » .
(٣) كتاب صفين : « على نأيها » .
(٤) كتاب صفين : « عدوا شنبا » . وحرب زبون : تزبن الناس ، أى تصدمهم وتدفعهم .
(٥) كتاب صفين ٦٣٠ والعبارة هناك : « وتكلم الناس غير الأشعث بن قيس ، وتكلم كردوس بن هانئ ، فقال : أما والله إنى لأظنك أول راس بهذا الأمر بأنها ربيعة ، فغضب كردوس فقال » .

وَضربٍ يُزيلُ الهامَ عَنْ مُستَقَرِّه وَهَيْهاتَ هَيْهاتَ الرِّضا آخِرَ الدَّهْرِ!
أبت لِيَ أشياخُ الأراقِمِ سُبَّــةً أُسَبُّ بِها حَتَّى أُغَيَّبَ فِي القَبْرِ[1]

وتكلّم يزيد بن أسَدٍ القسريّ ـ وهو مِن فوّاد معاوية ـ فقال : يأهل العراق ، اتقوا الله ؛ فإنّ أهونَ ماتردُّنا وإياكم إليه الحرب ما كُنّا عليه بالأمس ؛ وهو الفناء ؛ وقد شَخصتِ الأبصارُ إلى الصّلح ، وأشرفَتِ الأنفسُ على الفَناء ، وأصبح كلّ امرئٍ يبكي على قتيل ؛ مالكم رضيتم بأوّلِ أمرِ صاحبكم وكرهتم آخره ! إنّه ليس لكم وحدَكم الرِّضا .

قال : وقال بعض الأشعريّين لأبي موسى[2] :

أبا مُوسَى خُدِعْتَ وَكُنْتَ شَيْخاً قَرِيبَ الْقَعْرِ مَدْهُوشَ الْجَنَانِ
رَمَى عمرو صَفَاتَكَ بابنِ قيسٍ بأمْرٍ لا تَنُوءُ بـــه اليَـــدانِ
وَقَدْ كُنَّا نُجَمْجِمُ عَنْ ظُنُونٍ فَصَرَّحَتِ الظُّنُونُ عن العيـــانِ
فَعَضَّ الكَفَّ مِنْ نَدَمٍ وَمَاذَا يَرُدُّ عليـــكَ عَضُّكَ بالبَنَانِ !

قال : وَشَمِتَ أهلُ الشام بأهْلِ العراق . وقال كَعْبُ بن جُعَيل شاعرُ معاوية :

كأنّ أبا موسى عَشِيَّــةَ أَذْرُحٍ يطوفُ بلقمانَ الحكيمِ يُوَارِبُهْ[3]
وَلَمّا تَلاقَوْا في تُرَاثِ مُحَمَّــدٍ نَمَتْ بابنِ هِنْدٍ في قُرَيْشٍ مَنَاسِبُهْ[4]
سَعَى بابنِ عَفّانٍ لِيُـــدْرِكَ ثَأْرَهُ وَأَوْلَى عِبَـــادِ اللهِ بالثّأرِ طَالِبُهْ

---

(١) الأراقم : أحياء فى تغلب ، والسبة : العار .
(٢) فى كتاب صفين : « فتشاتم عمرو وأبو موسى من ليلته ، فإذا ابن عم لأبى موسى يقول » .
(٣) كتاب صفين ٦٣٠ ومعجم البلدان ١ ـ ١٦٢ ؛ وأذرح : بلد فى أطراف الشام مجاورة لأرض الحجاز ؛ وكان فيها أمر الحكمين فى أحد القولين ، وثانيهما فى دومة الجندل . ويعنى بلقمان الحكيم عمرو بن العاص .
(٤) كتاب صفين وياقوت : « مضاربه » .

وَقَدْ غَشِيَتْنَا فِي الزُّبَيْرِ غَضَاضَةٌ … وَطَلْحَةُ إِذْ قَامَتْ عَلَيْهِ نَوَادِبُهْ
فَرَدَّ ابنُ هِنْدٍ مُلْكَهُ فِي نِصَابِهِ … وَمَنْ غَالَبَ الأَقْدَارَ فَاللَّهُ غَالِبُهْ
وَمَا لابنِ هِنْدٍ من لؤيِّ بن غالبٍ … نَظيرٌ وإنْ جاشَتْ عَلَيْهِ أقارِبُهْ
فَهَذَاكَ مُلْكُ الشَّامِ وافٍ سَنَامُهُ … وهَذَاكَ مُلْكُ القَوْمِ قَدْ جُبَّ غَارِبُهْ
يُحَاوِلُ عَبْدُ اللهِ عَمْراً وإنَّهُ … لَيَضْرِبُ فِي بَحْرٍ عَرِيضٍ مَذَاهِبُهْ
دَحَا دَحْوَةً فِي صَدْرِهِ فَهَوَتْ بِهِ … إلى أَسْفَلِ الجُبِّ الظُّنُونِ كَوَاذِبُهْ(١)

• • •

قال نصر : وكان عليّ عليه السلام لما خدع عمرو أباموسى بالكوفة ، كان قد دخلها منتظراً مايحكم به الحكمان ؛ فلما تمّ على أبي موسى ماتمّ من الحيلة ، غمّ ذلك عليّاً وساءه ، ووجم له ، وخطب الناس ، فقال :

« الحمدُ للهِ وإن أتى الدّهر بالخطب الفادح ، والحدَث الجليل... » الخطبة التى ذكرها الرضيّ رحمه الله تعالى ؛ وهى التى نحن فى شرحها ، وزاد فى آخرها بعد الاستشهاد ببيت دُريد : « ألا إنّ هذين الرّجُلين اللّذَيْن اخترتموهما قد نبذا حُكم الكتاب ، وأحييا ماأمات ، واتّبع كلّ واحدٍ منهما هواه ، وحكم بغير حُجّة ولا بيّنة ولا سُنّة ماضية ، واختلفا فيما حكما ، فكلاهما لم يُرْشِد الله . فاستعدوا للجهاد ، وتأهبوا للسير ، وأصبحوا فى معسكركم يوم كذا » .

---

(١) الظنون : البئر لايدرى أفيها ماء أم لا ، وفى كتاب صفين :

• إلى أسْفَلِ المَهْوَى ظُنُونٌ كَوَاذِبُهْ •

فرد عليه رجل من أصحاب على فقال :

غَدَرْتُمْ وَكَانَ الغَدْرُ مِنْكُمْ سَجِيَّةً … فَمَا ضَرَّنَا غَدْرُ اللَّئِيمِ وَصَاحِبُهْ
وَسَمَّيْتُمُ شَرَّ البَرِيَّةِ مُؤْمِناً … كَذَبْتُمْ فَشَرُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ كَاذِبُهْ

قال نصر : فكان علىّ عليه السلام بعد الحكومة إذا صلى الغَدَاة والمغرب ، وفرغ من الصلاة وسلّم ، قال : اللهمّ العن معاوية ، وعمرا ، وأبا موسى ، وحبيب بن مسلمة ، وعبدَ الرحمن بن خالد ، والضحاكَ بن قيس ، والوليدَ بن عُقْبة ؛ فبلغ ذلك معاوية ، فكان إذا صلّى لعن عليًّا ، وحسنا ، وحسينا ، وابنَ عباس ، وقيس بن سعد بن عبادة ، والأشتر.

وزاد ابن ديزيل فى أصحاب معاوية أبا الأعور السُّلَمىّ .

* * *

وروى ابن ديزيل أيضاً أن أبا مُوسى كتب من مكّة إلى علىّ عليه السلام : أمّا بعدُ ، فإنّى قد بلغنى أنك تلعنُنى فى الصّلاة ويؤمّن خلفَك الجاهلون ، وإنّى أقول كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾[1].

وروى ابن ديزيل ، عن وَكِيع ، عن فضل بن مرزوق ، عن عطية ، عن عبد الرحمن ابن حَبيب ، عن علىّ عليه السلام ، أنه قال : « يُؤْتَى بى وبمعاوية يوم القيامة ، فنجىء ونختصم عند ذى العَرْش ، فأيّنا فَلَج فَلَج أصحابه[2] » .

وروى أيضاً عن عبد الرحمن بن نافع القارئ ، عن أبيه ، قال : سئل علىّ عليه السلام عن قَتْلى صفين ، فقال : إنّما الحساب علىّ وعلى معاوية .

وروىَ أيضا عن الأعمش ، عن موسى بن طريف ، عن عَبَايَة[3] ، قال : سمعت عليًّا عليه السلام ، وهو يقول : أنا قسيمُ النار ، هذا لى وهذا لك .

وروى أيضاً عن أبى سعيد الخُدْرِىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، دعْوتهما واحدة ، فبينما هم كذلك مَرَقتْ منهم مارقة ؛ يقتلهم أَوْلَى الطائفتين بالحقّ » .

---

(١) سورة القصص ١٧ (٢) فلج ، أى غلب .

(٣) عباية بن رفاعة بن رافع بن خديج الأنصارى .

قال إبراهيم بن ديزيل: وحدثنا سعيد بن كثير، عن عُفَير، قال: حدثنا ابن لَهيعة، عن ابن هُبَيرة، عن حَنَش الصَّنْعانيّ، قال: جئت إلى أبي سعيد الخُدْريّ، وقد عَمِيَ، فقلت: أخبرني عن هذه الخوارج، فقال: تأتونا فنخبركم، ثم ترفعون ذلك إلى معاوية، فيبعث إلينا بالكلام الشديد! قال: قلت: أنا حنش، فقال: مرحبا بك يا حنش المصريّ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: « يخرج ناس يقرءون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرُقُون من الدِّين كما يمرُق السهم من الرمِيّة، ينظر أحدكم في نصله، فلا يرى شيئاً، فينظر في قُذَذه[1] فلا يرى شيئاً؛ سبق الفرثَ والدم، يتولّى قتالهم أولى الطائفتين بالله »، فقال حنش: فإن عليًّا صَلِيَ قتالهم، فقال أبو سعيد: وما يمنع عليًّا أن يكون أولى الطائفتين بالله!

* * *

وذكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباريّ في أماليه، قال: قال عبد الرحمن بن خالد ابن الوليد: حضرتُ الحكومة، فلما كان يوم الفصل جاء عبد الله بن عباس، فقعد إلى جانب أبي موسى وقد نشر أذنَيه، حتى كاد أن ينطق بهما، فعلمتُ أن الأمر لا يتمّ لنا مادام هناك؛ وأنه سيفسد على عمرو حيلته، فأعملت المكيدة في أمره، فجئت حتى قعدت عنده، وقد شرع عمرو وأبو موسى في الكلام، فكلّمت ابنَ عباس كلمة استطعمتُه جوابها فلم يجب، فكلّمته أخرى فلم يجب، فكلّمته ثالثة، فقال: إني لفي شغل عن حِوارك الآن، فجبهته، وقلت: يابني هاشم، لا تتركون بأوكم[2] وكبْركم أبداً! أما والله لولا مكانُ النبوّة لكان لي ولك شأن. قال: فحَمِيَ وغضب، واضطرب فكرُه ورأيُه، وأسمعني كلاماً يسوء سماعه، فأعرضتُ عنه، وقمت فقعدت إلى جانب عمرو بن العاص، فقلت: قد كفيتك التِّقْوالة[3]، إني قد شغلت باله بما دار بيني وبينه، فأحكم أنت أمرك. قال:

(١) القذذ جمع قذة، وهي: ريش السهم. (٢) البأو: الفاخر.
(٣) التقوالة: الكثير القول.

فذُهل والله ابن عباس من الكلام الدائر بين الرَّجُلين، حتى قام أبو موسى، فخلع عليًّا.

* * *

وروى الزبير بن بكار في "الموفقيات"، ورواه جميع الناس ممن عُني بنقل الآثار والسِّيَر، عن الحسن البصري [قال]: أربع خصال كُنّ في معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة منهنّ لكانت مُوبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزّها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده ابنَه يزيد؛ سِكّيراً خِمّيراً؛ يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الولد للفراش، وللعاهر الحَجَر»، وقتله حُجْر بن عديّ وأصحابه؛ فياويله من حُجْر وأصحاب حُجْر!

وروى في "الموفقيات" أيضاً الخبر الذي رواه المدائني، وقد ذكرناه آنفاً من كلام ابن عباس لأبي موسى، وقوله: إن الناس لم يرتضوك لفضلٍ عندك لم نشارك فيه.. وذكر في آخره: فقال بعض شعراء قريش:

وَاللهِ مَا كَلَّمَ الأَقْوَامَ مِنْ بَشَرٍ ... بَعْدَ الوَصِيِّ عَلِيٍّ كَابْنِ عَبَّاسِ

أَوْصَى ابنَ قَيْسٍ بِأَمْرٍ فِيهِ عِصْمَتُهُ ... لَوْ كَانَ فِيهَا أَبُو مُوسَى مِنَ النَّاسِ

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِ مَكْرَ صَاحِبِهِ ... أَرْجُو رَجَاءً مَخُوفٍ شِيبَ بِالْيَاسِ

* * *

وذكر الزّبير أيضاً في "الموفقيات" أن يزيد بن حُجَيّة التيمي، شهد الجمل وصفّين ونَهْروان مع عليّ عليه السلام، ثم ولّاه الرّيّ ودَسْتَبَى (١)، فسرق من أموالها، ولحق بمعاوية، وهجا عليًّا وأصحابَه، ومدح معاوية وأصحابه، فدعا عليه عليّ عليه السلام، ورفع أصحابُه أيديَهم فأمّنوا، وكتب إليه رجل من بني عمه كتاباً يقبّح إليه

(١) دستبى، بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح التاء، والباء المقصورة: كورة كبيرة كانت مقسومة بين الري وهمذان. ياقوت.

ماصنع ، وكان الكِتاب شعرا ، فكتب يزيد بن حُجَيّة إليه : لو كنتُ أقول شعرا لأجبتُك ، ولكن قد كان منكم خلال ثلاث ؛ لاترون معهن شيئا مما تحبون ؛ أما الأولى فإنكم سرتم إلى أهل الشام ؛ حتى إذا دخلتم بلادَهم ، وطعنتموهم بالرماح ، وأذقتموهم ألم الجِراح ، رفَعوا المصاحفَ فسخِرُوا منكم ، وردّوكم عنهم ؛ فوالله ووالله لادخلتموها بمثل تلك الشوكة والشدة أبدا . والثانية أنّ القوم بعثوا حَكَمًا ، وبعثتم حكما ؛ فأما حكَمُهم فأثبتَهم ، وأما حكَمُكم فخلعكم ، ورجع صاحبُهم يُدْعَى أميرَ المؤمنين ورجعتم متضاغنين. والثالثة أن قرّاءكم وفقهاءكم وفُرسانكم خالفوكم ، فعدوتم عليهم ، فقتلتموهم . ثم كتب فى آخر الكتاب بيتين لعفّان بن شُرَحبيل التيمى :

أحببتُ أهلَ الشام مِنْ بَيْنِ المَلاَ وبكيتُ مِنْ أسفٍ عَلَى عُثمانِ
أرضًا مُقَدَّســـــة وقومًا منهمُ أهـــلُ اليقين وتابعو الفُرقانِ

وذكر أبو أحمد العسكرى[1] فى كتاب "الأمالى" أن سعد بن أبى وقاص دخل على معاوية عام الجماعة ، فلم يسلِّم عليه بإمْرَة المؤمنين ، فقال له معاوية : لو شئت أن تقولَ فى سلامك غير هذا لقلت ، فقال سعد : نحن المؤمنون ولم نؤمِّرك ، كأنك قد بهجتَ[2] بما أنت فيه يامعاوية ! والله مايسرّنى ما أنت فيه وأنى هَرَقْتُ المِحْجمة[3] دم . قال : ولكنّى وابن عمك عليا ياأبا إسحاق قد هَرَقْنا أكثر من محجمة ومحجمتين ، هلمّ فاجلس معى على السرير ، فجلس معه ، فذكر له معاوية اعتزاله الحرب يعاتبه ، فقال سعد : إنما كان مثلى ومثلُ الناس كقوم أصابتهم ظُلْمة ، فقال واحد منهم لبعيره إخ ، فأناخ حتى أضاء له الطريق

---

(١) هو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى أبو أحمد ؛ أحد أعلام اللغة والأدب ، أخذ عن ابن دريد وطبقته ؛ وصاحب كتاب التصحيف توفى سنة ٣٨٠ : (إنباه الرواة ١ : ٣١٠).

(٢) بهج بالشىء : فرح به .   (٣) المحجمة : قارورة الحجام .

فقال معاوية: والله يا أبا إسحاق[1] ما في كتاب الله « إلخ » وإنما فيه : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾[2] ؛ فوالله ما قاتلتَ الباغية ولا الباغيَ عليها. فأفحمه.

وزاد ابن ديزيل في هذا الخبر زيادة ذكرها في " كتاب صفين " ، قال : فقال سعد: أتأمرني أن أقاتل رجلا قال له رسول الله صلى الله عليه: « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيّ بعدي » ! فقال معاوية: مَنْ سمع هذا معك ؟ قال: فلان وفلان وأمّ سلمة، فقال معاوية : لو كنتُ سمعتُ هذا لما قاتلته .



(١) أبو إسحاق كنية سعد بن أبي وقاص .　　(٢) سورة الحجرات ٩

(٣٦)

ومن خطبة له عليه السلام فى تخويف أهل النّهروان :

الأصل :

فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهَرِ ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ ، عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَا سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ ، قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ ، وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ .

وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ ؛ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْمُنَابِذِينَ ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ . وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ ؛ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ ، وَلَمْ آتِ ـ لَا أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً ، وَلَا أَرَدْتُ بِكُمْ ضُرّاً .

• • •

الشرح :

الأهضام : جمع هَضْم ؛ وهو المطمئنّ من الوادى . والغائط : ماسَفَل من الأرض .

واحتبلكم المقدار : أوقعكم فى الحِبَالة .

والبُجْر : الداهية والأمر العظيم ، ويروى : « هُجْراً » . وهو المستقبح من القول ، ويروى « عُرّاً » . والعُرّ : قروح فى مشافر الإبل . ويستعار للداهية .

• • •

[أخبار الخوارج]

قد تظافرت الأخبار حتى بلغت حدّ التواتر بما وعد الله تعالى قاتِلِي الخوارج من الثواب ، على لسان رسوله صلى الله عليه وآله . وفى الصّحاح المتّفق عليهما أنّ

رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلّم [(١)] بينما هو يَقْسِم قَسْماً جاء رجل من بنى تميم ، يُدْعَى ذا الخُوَيْصِرة ، فقال: اعدِلْ يامحمد، فقال عليه السلام : «قدعَدَلْتُ»،فقال له ثانية :اعدل يامحمد ، فإنك لم تعدل ،فقال صلى الله عليه وسلم : « وَيْلَكَ ! ومَنْ يَعْدِل إذا لم أعدل ! » ، فقام عمر بن الخطاب ، فقال : يارسولَ الله ، ائذن لى أضربْ عُنُقَه ،فقال :«دَعْه،فسيخرج من ضِئْضِئِه [(٢)] هذا قوم يَمْرُقُون [(٣)] من الدِّين كما يَمْرُق السهم من الرمِيَّة ، ينظر أحدُكُمْ إلى نَصْلِه [(٤)] فلا يجدُ شيئاً ، فينظر إلى نَضِيِّه [(٥)] فلا يجد شيئا ، ثم ينظر إلى القُذَذ [(٦)] فكذلك ؛ سَبَقَ الفَرْثَ والدم [(٧)]،يخرجون على حين فُرْقةٍ من الناس،تُحَقِّرُ صلاتُكُم فى جَنْب صلاتهم ، وصومُكم عندصومهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقِيَهم. آيتهم [(٨)] رجل أسود ـ أو قال : أَدْعَج [(٩)] ـ مُخْدَج [(١٠)] اليد ، إحدى يديه كأنها ثَدْىُ امرأة ، أو بَضْعَة تَدَرْدَر [(١١)] » .

وفى بعض الصِّحاح أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأبى بكر ، وقد غاب الرجل

---

(١) أنظر الكامل ٣ : ١٩٠

(٢) ضئضئ هذا،أى من جنس هذا؛ يقال: فلان من ضئضئ صدق، ومن محتد صدق ، ومن مركب صدق .

(٣) قال المبرد : « يقال : مرق السهم من الرمية ؛ إذا نفذ منها ، وأكثر مايكون ذلك ألا يعلق به من دمها شىء » .

(٤) النصل : حديدة السهم والسيف .

(٥) النضى ، على « فعيل » : القدح (بكسر فسكون) ؛ وهو السهم قبل أن ينصل ويريش .

(٦) القذذ : جمع قذة ؛ وهى ريشة السهم .

(٧) الضمير عائد على السهم ؛ والكلام على التشبيه والاستعارة التمثيلية ؛ ضربه صلى الله عليه وسلم مثلا لخروجهم من الدين ، لم يعلق بقلوبهم منه شىء .

(٨) ذكروا أنه حرقوص بن زهير ؛ كان صحابيا أمد به عمر للسلمين الذين نازلوا الأهواز ، ثم كان مع على فى صفين ؛ ثم صار خارجيا عليه ، فقتل. تاج العروس (٤ : ٣٧٩) .

(٩) الدعج : شدة سواد العين مع اتساعها .

(١٠) مخدج اليد ، من أخدجه الله ؛ إذا نقص عضوا منه .

(١١) تدردر ؛ قال ابن الأثير فى النهاية (٢: ١٩) : « تدردر ؛ أى ترجرج ؛ تجىء وتذهب، والأصل تتدردر ، فحذف إحدى التاءين تخفيفا » .

عن عَيْنيه : قم إلى هذا فاقتله ، فقام ثم عاد وقال : وجدتُه يصلّي ، فقال لعمر مثلَ ذلك ، فعاد وقال : وجدتُه يصلّي ، فقال لعليّ عليه السلام مثل ذلك ، فعاد فقال : لم أجده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لو قُتِل هذا لكان أوّلَ فتنة وآخرها ؛ أما إنه سيخرج من ضِئْضِئِ هذا قوم . . . » الحديث .

وفي بعض الصّحاح : « يقتلهم أوْلى الفريقين بالحق » .

وفي مسند أحمد بن حنبل ، عن مسروق ، قال : قالت لي عائشة : إنّك من ولدي ومنْ أحبّهم إليّ ، فهل عندك علم من المخدّج ؟ فقلت : نعم ، قتله عليّ بن أبي طالب على نَهْر يقال لأعلاه تامَرّا[1] ولأسفله النّهروان ، بين لَخاقيق وطَرْفاء[2] ، قالت : ابغِني على ذلك بيّنة ، فأقمت رجالا شهدوا عندها بذلك ، قال : فقلت لها : سألتك بصاحب القبر ، ما الذي سمعتِ من رسول الله صلى الله عليه فيهم ؟ فقالت : نعم سمعتُه ، يقول : « إنّهم شرّ الخلق والخليقة ، يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربُهم عند الله وسيلة » .

* * *

وفي " كتاب صِفّين " للواقدي عن عليّ عليه السلام : لولا أن تبطَرُوا فتدَعُوا العمل ، لحدّثتُكم بما سبقَ على لسان رسول الله صلى الله عليه لمن قتل هؤلاء .

وفيه : قال عليّ عليه السلام : إذا حدّثتُكم عن رسول الله صلى الله عليه فَلأَنْ أخِرّ من السماء أحبُّ إليّ من أن أكذب على رسول الله صلى الله عليه ، وإذا حدّثتُكم فيما بيني وبينكم فإن الحربَ خُدْعة ؛ وإنّما أنا رجل محارب ؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « يخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، قولُهم من خير

---

(١) تامرا : ضبطه ياقوت : « بفتح الميم وتشديد الراء والقصر » ، وقال « نهر واسع يخرج من جبال شهرزور والجبال المجاورة لها » .

(٢) لخاقيق : جمع لخقوق ؛ وهو صدع في الأرض ، والطرفاء : شجر من الحمض ، واحدته طرفاء .

أقوال أهل البرية ، صلاتُهم أكثر من صلاتكم ، وقراءتهم أكثر من قراءتكم ، لا يجاوز إيمانُهم تراقيَهم – أو قال: حناجرهم – يمرُقون من الدين كما يمرُق السهمُ من الرمية ، فاقتلوهم ، فإنّ قتلَهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة » .

* * *

وفي " كتاب صفين " أيضا للمدائنيّ عن مسروق ، أنّ عائشة قالت له لما عرفت أنّ عليا عليه السلام قتل ذا الثُّدَيّة : لعن الله عمرو بن العاص ! فإنه كتب إليّ يخبرني أنه قتله بالإسكندرية ، ألا إنه ليس يمنعني ما في نفسي أن أقول ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه ، يقول : « يقتله خير أمتي من بعدي » .

* * *

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في " التاريخ " أنّ عليًّا عليه السلام لما دخل الكوفة دخلها معه كثيرٌ من الخوارج ، وتخلّف منهم بالنُّخَيلة وغيرها خَلْقٌ كثير لم يدخلوها ، فدخل حُرقوص بن زُهَير السَّعْديّ ، وزُرْعة بن البُرْج الطائيّ – وهما من رءوس الخوارج – على عليّ عليه السلام ، فقال له حُرقوص : تُبْ من خطيئتك ، واخرُج بنا إلى معاوية نجاهده ، فقال له عليّ عليه السلام : إني كنت نهيتُكم عن الحكومة فأبيتم ، ثم الآن تجعلونها ذَنبا ! أما إنّها ليست بمعصية ، ولكنّها عَجْز من الرأي وضَعف في التدبير ، وقد نهيتُكم عنه ، فقال زُرْعة : أما والله لئن لم تَتُبْ من تحكيمك الرجال لأقتلنّك[1] أطلُبُ بذلك وجه الله ورضوانه ، فقال عليّ عليه السلام : بؤساً لك ما أشقاك ! كأني بك قتيلاً تَسْفي عليك الرياح ! قال زُرْعة : وددتُ أنه كان ذلك[2] .

قال : وخرج عليّ عليه السلام يخطُب الناسَ فصاحوا به من جوانب المسجد :

(١) الطبري : « لأقاتلنك » .
(٢) تاريخ الطبري ٥ : ٧٢ .

لا حُكْمَ إلا لله ، وصاح به رَجُلٌ [منهم واضع إصبعه في أذنيه ، فقال] [١] : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٢] ، فقال له عليّ عليه السلام : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [٣] .

* * *

وروى ابن ديزيل في كتاب " صفين " ، قال : كانت الخوارج في أوّل ما انصرفت عن رايات عليّ عليه السلام تُهدِّد الناس قتلا ، قال : فأتت طائفةٌ منهم على النّهر إلى جانب قرية ، فخرج منها رجل مذعوراً آخذاً بثيابه ، فأدركوه فقالوا له : رَعَبْنَاكَ ؟ قال : أجل ؛ فقالوا له : قد عرَفناك ، أنت عبد الله بن خبّاب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه ، قال : نعم ، قالوا : فما سمعت من أبيك يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه ؟

قال ابن ديزيل : فحدّثهم أنّ رسول الله صلى الله عليه قال : « إنّ فتنةً جائية ، القاعدُ فيها خير من القائم ... » الحديث .

وقال غيره : بل حدّثهم : « إنّ طائفة تمرُق من الدين كما يمرُق السّهم من الرميّة ، يقرءون القرآن ، صلاتهم أكثر من صلاتكم ... » الحديث ، فضربوا رأسه ، فسال دمُه في النهر ، ما امذقرّ ، (أي ما اختلط بالماء) ، كأنّه شِرَاك ، ثم دعَوْا بجارية له حُبْلى فبقَرُوا عمّا في بطنها .

* * *

وروى ابن ديزيل ، قال : عزّم عليّ عليه السلام على الخروج من الكوفة إلى الحَرُورية [٤] ، وكان في أصحابه منجِّمٌ فقال له : يا أمير المؤمنين ، لا تَسِر في هذه الساعة ،

(١) تكملة من تاريخ الطبري .

(٢) سورة الزمر ٦٥

(٣) سورة الروم ٦٠ والخبر في الطبري ٥ : ٧٣

(٤) الحرورية : نسبة إلى حروراء ؛ قرية على ميلين من الكوفة ؛ كان اجتماع الخوارج فيها ، فنسبوا إليها.

ويرّ على ثلاث ساعات مضين من النهار ؛ فإنك إن سرت فى هذه الساعة أصابك وأصحابك أذى وضُرٌّ شديد ، وإن سرتَ فى الساعة التى أمرتُك بها ظَفِرت وظهرت ، وأصبتَ ما طلبتَ . فقال له علىّ عليه السلام : أتدرى ما فى بطن فرسى هذه ؛ أذكر هو أم أنثى ؟ قال : إن حسبتُ علمتُ ، فقال علىّ عليه السلام : مَنْ صدّقك بهذا فقد كذّب بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ... ﴾ [1] الآية ، ثم قال عليه السلام :

إن محمداً صلى الله عليه ما كان يدّعى علم ما ادّعيت علمه ؛ أتزعم أنك تَهدِى إلى الساعة التى يصيب النفع مَنْ سار فيها ، وتصرف عن الساعة التى يَحيق السوء بمن سار فيها ! فمَنْ صدقك بهذا فقد استغنى عن الاستعانة بالله جلّ ذكره فى صَرْف المكروه عنه . وينبغى للموقن بأمرك أن يوليك الحمد دون الله جلّ جلاله ، لأنك بزعمك هديته إلى الساعة التى يُصيب النفع مَنْ سار فيها ، وصرفته عن الساعة التى يَحيق السوء بمن سار فيها ؛ فمن آمن بك فى هذا لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله ضداً ونداً . اللهم لا طيرَ إلا طيرُك ، ولا ضُرَّ إلا ضُرّك ، ولا إله غيرك . ثم قال : نُخالف ونسيرُ فى الساعة التى نهيتنا عنها ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناسُ ، إياكم والتعلّمَ للنجوم إلّا ما يُهتدَى به فى ظُلُمات البر والبحر ، إنما المنجّم كالكاهن ، والكاهن كالكافر ، والكافر فى النار . أما والله لئن بَلَغنى أنك تعمل بالنجوم لأخلدنّك السجنَ أبداً ما بقيتُ ، ولأحرمنّك العطاء ما كان لى من سلطان .

ثم سار فى الساعة التى نهاهُ عنها المنجّم ، فظفِرَ بأهل النهر وظهر عليهم ، ثم قال : لو سرنا فى الساعة التى أمرَنا بها المنجّم لقال الناس : سار فى الساعة التى أمَر بها المنجّم فظفر وظهر ، أما إنه ما كان لمحمد صلى الله عليه منجّم ، ولا لنا من بعده ؛ حتى فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر . أيها الناس ، توكّلوا على الله وثِقُوا به ، فإنه يكفى ممّن سواه .

(١) سورة لقمان ٣٤ .

قال : فروى مُسلِم الضَّبى عن حَبَّة العُرَنى ، قال : لما انتهينا إليهم رمَوْنا ، فقلنا لعلىّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين قد رمَوْنا ، فقال لنا : كُفّوا ، ثم رمَوْنا ، فقال لنا عليه السلام : كُفّوا ، ثم الثالثة ، فقال : الآن طابَ القتالُ ، احملوا عليهم .

وروى أيضا عن قَيْس بن سعد بن عبادة أنّ عليا عليه السلام لما انتهى إليهم ، قال لهم : أقيدونا بدم عبد الله بن خَبّاب ، فقالوا : كُلّنا قتله ، فقال : احملوا عليهم .

* * *

وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابُ " الأوائل " أنّ أول من قال : « لا حُكم إلا لله » ، عُرْوة بن حُدَيْر ، قالها بصِفِّين ؛ وقيل : زيد بن عاصم المحاربىّ . قال : وكان أميرُهم أوّلَ ما اعتزلوا ابنَ الكوّاء ، ثم بايعوا لعبد الله بن وهب الراسبىّ — وكان أحد الخطباء — فقال لهم عند بيعتهم إياه : إيّاكم والرأىَ الفَطير[(1)] ، والكلام القضيب[(2)] ، دعوا الرأى يَغِبّ[(3)] ، فإن غُبُوبه يكشف للمرء عن فَصّه[(4)] ، وازدحام الجواب مَضَلّة للصواب ، وليس الرأى بالارتجال ، ولا الحزم بالاقتضاب ، فلا تدعوَنَّكم السلامة من خطأ مُوبِق ، وغنيمة نلتموها من غير صواب إلى معاودته والتماس الربح من جهته . إنّ الرأى ليس بنَهْنَهِىّ[(5)] ، ولا هو ما أعطتك البديهة ، وإنّ خمير الرأى خيرٌ من فطيره ؛ ورب شىء غابُّه خير من طَرِيّه ، وتأخيرُه خير من تقديمه .

* * *

وذكر المدائنىّ فى كتاب " الخوارج " قال : لما خرج علىٌّ عليه السلام إلى أهل النهر أقبلَ رجل من أصحابه ممن كان على مقدّمته يركُض ؛ حتى انتهى إلى علىّ عليه السلام ،

(١) الرأى الفطير : الذى يبدو بديهيا من غير تروية ، خلاف الخمير .
(٢) الكلام القضيب : الرتجيل .
(٣) يغب ، أى يمضى عليه وقت .
(٤) الفصة : العيب .
(٥) النهنهى : نسبة إلى النهنه ، وهو الثوب الرقيق النسج .

فقال : البشرى يا أمير المؤمنين ! قال : ما بُشراك ؟ قال : إنّ القوم عبروا النهر لمّا بلغهم وصولُك ، فأبْشِر ، فقد منحك الله أكتافَهم ! فقال له : آللهِ أنت رأيتهم قد عبروا ! قال : نعم ، فأحلفه ثلاث مرات ، في كلّها يقول : نعم ، فقال عليّ عليه السلام : والله ما عبَروه ولن يعبُروه ؛ وإن مصارعهم لَدُون النطفة ؛ والذى فَلَق الحبّة ، وبرأ النسمة ، لن يبلغوا الأثْلاث ولا قصر بَوَازِن ، حتى يقتلَهم الله ، وقد خاب من افترى . قال : ثم أقبل فارس آخر يركُض ، فقال كقول الأول ، فلم يكترث عليّ عليه السلام بقوله ، وجاءت الفرسان تركض ، كلّها تقول مثلّ ذلك ؛ فقام عليّ عليه السلام فجالَ فى متن فَرَسه . قال : فيقول شابّ من الناس : والله لأ كوننّ قريبا منه ، فإن كانوا عبروا النهر لأجعلنّ سِنانَ هذا الرمح فى عينه ؛ أيدّعى علم الغيب ! فلما انتهى عليه السلام إلى النهر وجد القوم قد كسّروا جفونَ سيوفهم ، وعرقبوا خيلهم ، وجثَوا على رُكَبهم ، وحكّموا تحكيمة واحدة بصوت عظيم له زَجل فنزل ذلك الشابّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى كنت شككت فيك آنفا ، وإنى تائب إلى الله وإليك ، فاغفر لى ، فقال عليّ عليه السلام : إن الله هو الذى يغفر الذنوب ، فاستغفره .

***

وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى " الكامل " قال : لما واقفهم عليّ عليه السلام بالنَّهروان ، قال : لاتبدءوهم بقتال حتى يبدءوكم ، فحمل منهم رجل على صفّ عليّ عليه السلام ، فقتل منهم ثلاثة ؛ ثم قال :

أقتلُهُمْ وَلا أرَى عَلِيّا ولو بدا أوجرتهُ الْخَطِّيّا[1]

فخرج إليه عليّ عليه السلام فضربه ، فقتله ، فلما خالطه سيفُه ، قال : يا حبّذا الرَّوْحة إلى الجنة ! فقال عبد الله بن وهب : والله ماأدرى إلى الجنة أم إلى النار ! فقال رجل منهم

(١) أوجرته الخطى : طعنته بالرمح .

من بنى سَعْد : إنما حضرتُ اغترارا بهذا الرجل ـ يعنى عبد الله ـ وأراه قد شكّ واعتزل عن الحرب بجماعة من الناس، ومال ألفٌ منهم إلى جهة أبى أيوب الأنصارى ؛ وكان على ميمنة علىّ عليه السلام، فقال علىّ عليه السلام لأصحابه : احملوا عليهم ؛ فوالله لا يُقتل منكم عشرة، ولا يسلم منهم عشرة[1]. فحمل عليهم فطحنهم طحنًا ، قُتِل من أصحابه عليه السلام تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية[2].

* * *

وذكر أبو العبّاس ـ وذكر غيره أيضا ـ أن أميرَ المؤمنين عليه السلام لما وجّه إليهم عبدَ الله بن عباس ليناظرَهم قال لهم : ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين؟ قالوا له : قد كان للمؤمنين أميرا ، فلما حكّم فى دين الله خَرَج من الإيمان ؛ فليَتُبْ بعد إقراره بالكفر نَعُدْ إليه[3]؛ قال ابن عباس : ما ينبغى لمؤمن لم يَشُبْ إيمانَه بشكّ أنْ يُقِرّ على نفسه بالكفر، قالوا : إنه حكّم ، قال: إنّ الله أمر بالتحكيم فى قتل صيد ، فقال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾[4]، فكيف فى إمامةٍ قد أشكلتْ على المسلمين ! فقالوا : إنه حُكِم عليه فلم يَرْضَ ، فقال : إنّ الحكومة كالإمامة ، ومتى فسَق الإمام وجبت معصيتُه ؛ وكذلك الحكَمان لمّا خالفا نُبِذَتْ أقاويلهما ، فقال بعضهم لبعض : اجعلوا احتجاجَ قريش حُجّة عليهم ؛ فإنّ هذا من الذين قال الله فيهم : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾[5]، وقال جلّ ثناؤه : ﴿ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾[6].

قال أبو العباس : ويقالُ: إنّ أولَ مَنْ حكّم عروة بن أُدَيّة ـ وأُديّة جدّة له جاهلية ـ وهو عروة بن حُدَيْر ، أحد بنى ربيعة بن حنظلة . وقال قوم : أولُ من حكّم رجل من بنى

(١) فى الكامل : « ولا يفلت » .
(٢) الكامل ٣ : ١٨٧ .
(٣) ب : « نعد له » .
(٤) سورة المائدة ٩٥
(٥) سورة الزخرف ٥٨
(٦) سورة مريم ٩٧ ، والخبر فى الكامل ٣ : ١٦٥ .

محارب بن خَصَفَة بن قيس بن عَيْلان ، يقال له سعيد . ولم يختلفوا في اجتماعهم[١] على عبدالله بن وهب الراسبي، وأنه امتنع عليهم، وأومأ إلى غيره فلم يقنعوا إلا به ، فكان إمام القوم، وكان يُوصف برأى . فأما أولُ سيف سُلَّ من سيوف الخوارج فسيف عُروة بن أُدَيَّة ، وذلك أنه أقبل على الأشعث ، فقال له : ماهذه الدنية يا أشعث ؟ وماهذا التحكيم ؟ أشرطٌ أوثقُ من شرط الله عزّ وجلّ ؟ ثم شَهَر عليه السيفَ ، والأشعثُ مولٍّ ؛ فضرب به عجز بغلته .

قال أبو العباس : وعروة بن حُدَيْر هذا من النفر الذين نَجَوْا من حرب النَّهْرَوان، فلم يزل باقياً مدةً من أيام معاوية ، ثم أُتِيَ به زياد ومعه مولى له ، فسأله عن أبي بكر وعمر فقال : خيرا ، فقال له : فما تقولُ في أمير المؤمنين عثمان وفي أبي تراب ؟ فتولّى عثمانَ ست سنين من خلافته ثم شهد عليه بالكفر ، وفعل في أمر عليّ عليه السلام مثلَ ذلك إلى أن حكّم ثم شهد عليه بالكُفر ، ثم سأله عن معاوية فسبّه سبّاً قبيحاً ، ثم سأله عن نفسه ؛ فقال له : أوّلُك لِزِنْيَة[٢] وآخرك لِدَعْوة ، وأنت بعدُ عاصٍ لربك . فأمر به فضُربتْ عنقه ، ثم دعا مولاه ، فقال له : صِفْ لي أمورَه ، قال : أأطنب أم أختصر ؟ قال : بل اختصر ، قال: ما أتيتُه بطعام بنهار قطّ ، ولا فرشت له فراشا بليل قطّ[٣] !

قال أبو العباس: وسبب تسميتهم الحرورية أنّ عليا عليه السلام لما ناظرَهم بعد مناظرة ابن عباس إياهم ، كان فيما قال لهم : ألا تعلمون أنّ هؤلاء القوم لما رفعُوا المصاحف قلت لكم : إنّ هذه مكيدةٌ ووَهْن[٤] ، وأنهم لو قصدوا إلى حُكْم المصاحف لأتوني ، وسألوني[٥] التحكيم ! أفتعلمون أنّ أحداً كان أكرهَ للتحكيم مني ؟ قالوا : صدقت ، قال : فهل تعلمون أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشترطت أنّ حُكْمَهما نافذ ما حكما

(١) الكامل : « إجماعهم » .
(٢) لزنية ، يشير إلى ما كان من أبي سفيان في جاهليته من عشاقه أمه سمية .
(٣) الكامل ٣ : ١٧٩ ـ ١٨١
(٤) ب : « مكيدة وهن » . (٥) الكامل : « ثم سألوني » .

بحكم الله ، فمن خالفناه ، فأنا وأنتم من ذلك برآء ، وأنتم تعلمون أن حُكم الله لا يعدونى؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : وكان معهم فى ذلك الوقت ابن الكَوّاء[1] ، قال : وهذا من قبل أن يذبحوا عبد الله بن خبّاب ، وإنما ذبحوه فى الفُرقة الثانية بكسكر[2] ، فقالوا له : حكّمت فى دين الله برأينا ونحن مقرون بأنا كنا كفرنا ، ولكنا الآن تائبون فأقِرّ بمثل ماأقررنا به ، وتُبْ ننهضْ معك إلى الشام ، فقال : أما تعلمون أن الله تعالى قد أمر بالتحكيم فى شِقاق بين الرجل وامرأته ، فقال سبحانه : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ، وفى صيد أصيب كأرنب يساوى نصف درهم ، فقال : ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ ! فقالوا له : فإن عمراً لما أبى عليك أن تقول فى كتابك : « هذا ما كتبه عبد الله على أمير المؤمنين » محوت اسمك من الخلافة ، وكتبت : « على بن أبى طالب » ، فقد خلعت نفسك ، فقال : لى فى رسول الله صلى الله عليه أسوةٌ حين أبى عليه سُهيل بن عمرو أن يكتب : « هذا كتاب كتبه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُهيل بن عمرو » ، وقال له : لو أقررت بأنك رسول الله ماخالفتك ، ولكنى أقدّمك لفضلك ؛ فا كتب « محمد بن عبد الله » ، فقال لى : ياعلى ، امحُ « رسول الله » ، فقلت : يارسول الله ، لا تشجعنى نفسى[3] على محو اسمك من النبوة ، قال : فقفنى عليه ، فمحاه بيده ، ثم قال : « اكتب محمد بن عبد الله » ، ثم تبسم إلىّ وقال : ياعلىّ ، أما إنك ستسام مثلها فتعطى ، فرجع معه منهم ألفان من حرُوراء ، وقد كانوا تجمّعوا بها ، فقال لهم علىّ : مانسميكم ؟ ثم قال : أنتم الحرُورية ، لاجتماعكم بحرُوراء[4] .

* * *

وروى جميعُ أهل السِّيَر كافةً أن عليا عليه السلام لما طحن القوم طلب ذا الثُّدَيَّة طلباً

(١) ابن الكواء ، هو عبد الله بن الكواء ؛ من بنى يشكر بن بكر بن وائل .
(٢) كسكر : كورة بين الكوفة والبصرة .
(٣) الكامل : « لا تسخو نفسى » .
(٤) الكامل ٣ : ١٨١ ، ١٨٢ .

شديداً ، وقلّب القتلى ظَهراً لبطن ، فلم يقدر عليه ، فساءه ذلك ، وجعل يقول : والله ما كَذَبت ولا كُذِبت ، اطلبوا الرجل ، وإنه لفي القوم ؛ فلم يزل يتطلّبه حتى وجده ، وهو رجل مُخْدَجُ اليد[1] ، كأنها ثديٌ في صدره .

• • •

وروى إبراهيم بن ديزيل في كتاب " صفين " عن الأعمش ، عن زيد بن وهب ، قال : لما شَجَرَهم عليّ عليه السلام بالرماح ، قال : اطلبوا ذا الثُّدَيّة ، فطلبوه طلبا شديدا ، حتى وجدوه في وَهْدَةٍ من الأرض تحت ناس من القتلى ، فأُتِيَ به ، وإذا رَجُلٌ على ثَدْيه مثل سَبَلات[2] السنّور ، فكبّر عليّ عليه السلام ، وكبّر الناس معه سرورا بذلك.

وروى أيضا عن مسلم الضَّبيّ عن حَبّة العُرَنيّ ، قال : كان رجلا أسود مُنْتِن الريح ، له ثدي كثدي المرأة ، إذا مُدّت كانت بطول اليد الأخرى ، وإذا تُركت اجتمعت وتقلّصت ، وصارت كثدي المرأة ، عليها شعرات مثل شوارب الهرّة ، فلما وجدوه قطعوا يده ، ونصبوها على رُمْح . ثم جعل عليّ عليه السلام يُنادي : صدق الله وبلّغ رسوله ؛ لم يزل يقول ذلك هو وأصحابه بعد العصر إلى أن غَرَبت الشمس أو كادت .

وروى ابن ديزيل أيضا ، قال : لما عِيلَ[3] صبرُ عليّ عليه السلام في طلب المخدَّج ، قال : ائتوني ببغلة رسول الله صلى الله عليه ، فركبها واتبعه الناس ، فرأى القتلى ، ويقول: اقلبوا ، فيَقْلِبون قتيلا عن قتيل ، حتى استخرجوه ، فسجد عليّ عليه السلام .

وروى كثير من الناس أنه لما دعا بالبغلة ليركبها ، قال : ائتوني بها فإنها هادية ، فوقفتْ به على المخدَّج ، فأخرجه من تحت قتلى كثيرين .

وروى العوّام بن حَوْشب عن أبيه ، عن جده يزيد بن رُوَيم ، قال : قال عليّ عليه

---

(١) مخدج اليد ، أي ناقص اليد .
(٢) السبلة : ما على الشارب من الشعر ، وجمعه سبلات .
(٣) عيل صبره : أعوزه الصبر .

السلام : يُقتَلُ اليومَ أربعة آلاف من الخوارج أحدهم ذو الثُّدَيَّة ، فلما طُحِن القومُ ورام استخراج ذِي الثُّدَيَّة فأتبعه ، أمرني أن أقطع له أربعة آلاف قصبة ، وركب بغلة رسول الله صلى الله عليه ، وقال : اطرح على كلّ قتيل منهم قصبة ، فلم أزل كذلك وأنا بين يديه ، وهو راكب خلفي ، والناس يتبعونه حتى بَقِيَتْ في يدي واحدة ، فنظرت إليه وإذا وجهه أربد ، وإذا هو يقول : والله ما كَذَبْت ولا كُذِبت ، فإذا خريرُ ماء عند موضع دالية ، فقال : فَتِّش هذا ففتشته ، فإذا قتيل قد صار في الماء ، وإذا رجلُه في يدي ، فجذبتها ، وقلت : هــذه رِجْلُ إنسان ، فنزل عن البغلة مسرعا ، فجذب الرِّجْلَ الأخرى ، وجررناه حتى صار على التراب ، فإذا هو المخدَّج ، فكبّر عليّ عليه السلام بأعلى صوته ، ثم سجد ، فكبّر الناس كلهم .

وقد روى كثير من المحدّثين أن النبي صلى الله عليه وآله قال لأصحابه يوما : « إنّ منكم مَنْ يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلت على تنزيله » ، فقال أبو بكر : أنا يارسول الله ؟ فقال : « لا » ، فقال عمر : أنا يارسول الله ؟ فقال : « لا ، بل خاصف النعل » ، وأشار إلى عليّ عليه السلام .

* * *

وقال أبو العباس في " الكامل " : يقال : إنّ أوّلَ مَنْ لفظ بالحكومة ولم يُشِدْ [1] بها رجل من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بن مُرّ . من بني صَرِيم ، يقال له الحجاج بن عبد الله ، ويعرف بالبُرَك ؛ وهو الذي ضرب آخرا معاوية على أَلْيَتِه ، يقال : إنه لما سمع بذكر الحكمين ، قال : أيحكّم أميرُ المؤمنين الرجالَ في دين الله ! لا حُكْم إلا لله ، فسمعه سامع ، فقال : طَعَن والله فأنفذ .

قال أبو العباس : وأول من حكّم بين الصفين رجلٌ من بني يَشْكُر بن بكر

---

(١) لم يشد ، من أشاد به ، إذا رفع صوته .

ابن وائل ، كان من أصحاب علىّ عليه السلام ، فحمل عَلَى رجل منهم فقتله غيلة ، ثم مرق بين الصَّفَّين يُحكِّم ، وحمل عَلَى أصحاب معاوية ، فكثروه ، فرجع إلى ناحية علىّ عليه السلام ، فخرج إليه رجل من همْدان فقتله ، فقال شاعر همْدان :

وَمَا كَانَ أَغْنَى الْيَشْكُرِىُّ عن الَّتِى تَصَلَّى بِهَا جَمْراً من النَّارِ حَامِيَاً

شَدَاةٌ ينادى والرماحُ تَنُوشُهُ خلعتُ علياً بادئاً ومعاويا[1]

قال أبو العباس : وقد روى المحدّثون[2] أن رجلا تلا بحضرة علىّ عليه السلام : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [3] ، فقال علىّ عليه السلام : أهلُ حَرُوراء منهم .

قال أبو العباس : ومن شعر أمير المؤمنين عليه السلام الذى لا اختلافَ فيه أنه قاله ، وكان يردّده ، أنهم لما ساموه أن يُقرّ بالكفر ، ويتوب حتى يسيروا معه إلى الشام ، فقال : أبعدَ صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفقه فى الدين أرجع كافراً ! ثم قال :

يا شاهِدَ اللهِ عَلَىَّ فاشْهَدِ أنِّى عَلَى دِينِ النبىِّ أَحْمَدِ

* مَنْ شَكَّ فى اللهِ فإِنِّى مُهْتَدِ[4] *

وذكر أبو العباس أيضاً فى " الكامل " أن علياً عليه السلام فى أول خروج القوم عليه ، دعا صعصعة بن صُوحان العبدىّ ــ وقد كان وجّهه إليهم ــ وزياد بن النضر الحارثىّ ، مع عبدالله بن عباس ، فقال لصعصعة : بأىّ القوم رأيتهم أشدّ إطافة[5] ؟ فقال : بيزيد بن قيس الأرحبىّ ، فركب علىّ عليه السلام إلى حَرُوراء ، فجعل يتخلّلهم حتى صار إلى مَضْرِب يزيد بن قيس ، فصلّى فيه ركعتين ، ثم خرج فاتّكأ على قوسه ، وأقبل

---

(١) تنوشه : تتناوله .
(٢) فى الكامل : « وجاء فى الحديث » .
(٣) سورة الكهف ١٠٤ .
(٤) الكامل ٣ : ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٥) إطافة ، مصدر أطاف بالشىء ؛ إذا أحاط به .

عَلَى الناس ، فقال : هذا مَقَامُ مَنْ فَلَجَ [١] فيه فَلَجَ يوم القيامة . ثم كلّمهم وناشدهم ، فقالوا : إنّا أذنبنا ذنبا عظيما بالتحكيم ، وقد تُبْنا ، فتب إلى الله كما تُبْنا نَعُدْ لك . فقال عليّ [١] عليه السلام : أنا أستغفر الله من كل ذنب ، فرجعوا معه وهم ستة آلاف ، فلما استقرّوا بالكوفة أشاعوا أنّ عليًّا عليه السلام رجع عن التحكيم ، ورآه ضلالا ، وقالوا: إنّما ينتظر أميرُ المؤمنين أن يسمّن الكُراع [٢] ويُجْبَى الأموال ، ثم ينهضُ بنا إلى الشام. فأتى الأشعثُ عليًّا عليه السلام ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ الناس قد تحدّثوا أنّك رأيتَ الحكومة ضلالا والإقامة عليها كفرا ، فقام عليّ [٣] عليه السلام يخطب ، فقال : مَنْ زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذَب ، ومَنْ رآها ضلالا فقد ضلّ ؛ فخرجت حينئذ الخوارجُ من المسجد فحكّمت [٤] .

* * *

قلت : كلّ فساد كانَ في خلافة عليّ عليه السلام ، وكلّ اضطراب حدث فأصلُه الأشعث ، ولولا محاقته [٥] أمير المؤمنين عليه السلام في معنى الحكومة في هذه المرّة لم تكن حَرْبُ النّهروان ، ولكانَ أميرُ المؤمنين عليه السلام ينهضُ بهم إلى معاوية ، ويملك الشام ؛ فإنه صلوات الله عليه حاول أن يَسْلُكَ معهم مسلك التّعريض والمواربة ؛ وفي المَثل النبويّ صلوات الله على قائله : « الحرب خُدْعة » ، وذاك أنّهم قالوا له : تُبْ إلى الله

(١ـ١) عبارة الكامل : « من فلج فيه فلج يوم القيامة ؟ أنشدكم الله ، أتعلمون أحدا منكم كان أكره للحكومة منى ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : أتعلمون أنكم أكرهتمونى حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : إنا أتينا ذنبا عظيما ، فتب إلى الله منه ، واستغفره نعد لك ، فقال على . . . » ، والفلج : الظفر والانتصار .

(٢) الكراع : اسم الخيل .

(٣) الكامل : « فخطب على الناس » .

(٤) الكامل ٣ : ٢١٠ ـ ٢١٢ .

(٥) المحاقة : أن يقول كل واحد من الطرفين : « أنا أحق » ؛ هذا أصلها ، والمراد المحاجة والمجادلة .

عما فعلت ، كما نبتنا ننهض معك إلى حرب أهل الشام ، فقال لهم كلمة مجملة مُرْسَلة يقولها الأنبياء والمعصومون ، وهي قوله : « أستغفر الله من كلّ ذنب » ، فرضُوا بها وعدّوها إجابةً لهم إلى سؤلهم ، وصفَتْ له عليه السلام نيّاتُهم ، واستخلصَ بها ضمائرَهم ، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفرٍ أو ذنب ، فلم يتركه الأشعثُ ، وجاء إليه مستفسراً وكاشفاً عن الحال ، وهاتكا ستْر التورية والكناية ، ومُخرجا لها من ظلمة[1] الإجمال وستر الحيلة إلى تفسيرها بما يفسد التدبير ، ويُوغر الصدور ، ويعيد الفتنة ؛ ولم يستفسرْه عليه السلام عنها إلا بحضور مَنْ لا يمكنه أن يجعلها معه هدنة على دَخَن[2] ، ولا ترقيقا عن صَبُوح[3] ، وألجأه بتضييق الخناق عليه إلى أن يكشف ما في نفسه ، ولا يترك الكلمة على احتمالها ، ولا يطويها على غرّها[4] ، فخطب بما صدّع به عن صورة ما عنده مجاهرة ، فانتقض ما دبّره ، وعادت الخوارج إلى شُبْهتها الأولى ، وراجعوا التحكيم والمُروق ؛ وهكذا الدول التي تظهر فيها أمارات الانقضاء والزوال ، يُتاحُ لها أمثال الأشعث من أولي الفساد في الأرض ، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾[5] .

• • •

قال أبو العباس : ثم مضى القومُ إلى النهروان ، وقد كانوا أرادوا المضيّ إلى المدائن ، فمن طريف أخبارهم أنهم أصابوا في طريقهم مُسلما ونصرانيًّا ، فقتلوا المسلمَ لأنه عندهم كافر ؛ إذ كان على خلاف معتقدهم ، واستوصَوْا بالنصرانيّ ، وقالوا : احفظوا ذمة نبيّكم[6]

(١) ب : « مظلمة » ، تصحيف ، صوابه من ا ، ج .
(٢) هدنة على دخن مثل ، والهدنة في الأصل : اللين والسكون ، ويطلق على المصالحة . والدخن : تغير الطعام . وانظر الميداني ٢ : ٣٨٢ .
(٣) أصل المثل : « من صبوح ترقق » ، والصبوح : مايشرب صباحا ، وترقيق الكلام تزيينه ، يضرب لمن كنى عن شيء ويريد غيره . وانظر الميداني ٢ : ٢١ .
(٤) أصل المثل : « طويت الثوب على غره » أي كسره .
(٥) سورة الأحزاب ٦٢ .   (٦) الكامل : ٣٠ : ٢١٢

قال أبو العباس : ونحو ذلك أن واصل بن عطاء رحمه الله تعالى أقبل فى رُفْقَةٍ فأحسوا بالخوارج ، فقال واصل لأهل الرُّفقة : إنّ هذا ليس من شأنكم ، فاعتزلوا ودَعُونى وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العَطَب ، فقالوا : شأنَك ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابُك ؟ فقال : قومٌ مشركون مستجيرون بكم ، ليسمعوا كلامَ الله ، ويفهموا حدوده ، قالوا : قد أجَرْناكم ، قال : فعلِّمُونا ، فجعلوا يعلِّمُونهم أحكامهم ، ويقول واصل : قد قبلت أنا ومن معى ، قالوا : فامضُوا مصاحَبين ، فقد صرتم[1] إخواننا ، فقال : بل تُبلغُونا مأمننا ، لأن الله تعالى يقول : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾[2] ، قال : فنظر[3] بعضُهم إلى بعض ، ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا معهم بجمعهم حتى أبلغوهم المأمن[4] .

• • •

قال أبو العباس : ولقِيَهم عبد الله بن خَبّاب فى عنقه مصحف ، على حِمار ، ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا له : إنّ هذا الذى فى عُنُقك ليأمُرُنا بقتلك ، فقال لهم : ما أحياه القرآن فأحيُوه ، وما أماته فأميتوه ، فوثب رجل منهم على رُطَبة سقطت من نخلة فوضعها فى فيه ، فصاحوا به ، فلفظها تورُّعا . وعرض لرجل منهم خِنزيرٌ فضربه فقتله ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض ، وأنكرُوا قتل الخِنزير ، ثم قالوا لابن خَبّاب : حدِّثنا عن أبيك ، فقال : إنى سمعتُ أبى يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « ستكون بعدى فتنة

---

(١) الكامل : « فإنكم إخواننا » .
(٢) سورة التوبة ٦ .
(٣) الكامل : « فنظر بعضهم إلى بعض » .
(٤) الكامل ٣ : ١٦٤ ، ١٦٥ .

يموت فيها قلبُ الرجل كما يموت بَدَنُه ، يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، فكن عبد الله المقتول ، ولا تكن القاتل» ، قالوا : فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقولُ في عليّ قبل التحكيم ، وفي عثمان في السنين الستّ الأخيرة ؟ فأثنى خيرا ، قالوا : فما تقولُ في عليّ بعد التحكيم والحكومة ؟ قال : إنّ عليا أعلمُ بالله وأشدُّ توقّيًا على دينه ، وأنفذُ بصيرة ، فقالوا : إنّك لست تتّبع الهدى ، إنما تتبعُ الرجال على أسمائهم ، ثم قرّبوه إلى شاطئ النهر ، فأضجعوه فذبحوه[1] .

قال أبو العباس : وساوَمُوا رجلا نصرانيًّا بنخلة له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : ما كنا لنأخذها إلّا بثمن ، فقال : واعجباه ! أتقتلون مثل عبد الله بن خَبّاب ، ولا تقبلون جَنَا نخلة إلا بثمن[1] !

* * *

وروى أبو عبيدة معمر بن المثنّى ، قال : طَعَن واحدٌ من الخوارج يوم النّهروان ، فمشى في الرمح ، وهو شاهر سيفه ، إلى أن وصل إلى طاعنه فضربه فقتله ، وهو يقرأ : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾[2] .

وروى أبو عبيدةَ أيضا ، قال : استنطقهم عليٌّ عليه السلام بقتل عبد الله بن خَبّاب ، فأقرّوا به ، فقال : انفردوا كتائبَ لأسمع قولكم كتيبة كتيبة ، فتكتّبوا كتائبَ ، وأقرّت كلُّ كتيبة بمثل ما أقرّتْ به الأخرى ؛ من قتل ابن خبّاب ، وقالوا : ولنقتلنّك كما قتلناه ؛ فقال عليٌّ : والله لو أقرّ أهلُ الدنيا كلّهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم ؛ ثم التفت إلى أصحابه ، فقال لهم : شدّوا عليهم ؛ فأنا أولُ من يشدّ عليهم . وحَمَل

(١) الكامل ٣ : ٢١٢ ، ٢١٣ .
(٢) سورة طه ٨٤ .

بذى الفقار حملةً منكرةً ثلاث مرات ، كلّ حملةٍ يضرب به حتى يعوجَّ متْنُه ، ثُم يخرج فيسوِّيه بركبتيْه ، ثم يحمل به حتى أفناهم .

وروى محمد بن حبيب ، قال : خَطَب علىّ عليه السلام الخوارج يوم النّهر ، فقال لهم : نحن أهلُ بيت النبوّة ، وموضع الرسالة ، ومختلَف الملائكة ، وعنصر الرحمة ، ومعدِن العلم والحكمة ، نحن أفق الحجاز ، بنا يلحَق البطىء ، وإلينا يرجع التائب ؛ أيها القومُ ، إنى نذيرٌ لكم أن تُصبِحُوا صَرْعى بأضغام هذا الوادى ... إلى آخر الفصل .



(٣٧)

ومن كلام له عليه السلام يجري مجرى الخطبة :

الأصْلُ :

فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا ، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا ، وَنَطَقْتُ حِينَ تَمْتَعُوا ، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا . وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً ، وَأَعْلَاهُمْ فَوْتاً ، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا ، وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا .

كَالْجَبَلِ لَا تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ ؛ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ ، وَلَا لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ ؛ الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ .

رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ ، وَسَلَّمْنَا لِلهِ أَمْرَهُ . أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! وَاللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ ، فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ .

فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي ؛ فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي ؛ وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي .

• • •

الشَّرْحُ :

هذه فصول أربعة ، لا يمتزج بعضُها ببعض ، وكلُّ كلام منها ينحُو به أمير المؤمنين عليه السلام نحواً غير ما ينحوه بالآخر ؛ وإنما الرضيّ رحمه الله تعالى التقطها من كلامٍ لأمير المؤمنين عليه السلام طويل منتشر ، قاله بعد وقعة النَّهروان ، ذكر فيه حاله منذ توفِّيَ رسول الله صلى الله

عليه وآله ، وإلى آخر وقت ؛ فجعل الرضيّ رحمه الله تعالى ما التقطه منه سَرْداً ، وصار عند السامع كأنه يقصد به مقصدا واحدا .

* * *

فالفصل الأول وهو من أول الكلام إلى قوله : « واستبددت برهانها » ؛ يذكر فيه مقاماته في الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر أيامَ أحداث عثمانَ ، وكَون المهاجرين كلّهم لم ينكروا ولم يُواجهوا عثمانَ بما كان يواجِهُه به وينهاه عنه ؛ فهذا هو معنى قوله : « فقمت بالأمر حين فشلوا » ، أى قمت بإنكار المنكر حين فشل أصحاب محمد صلى الله عليه وآله عنه . والفَشَل : الخَوَر والجُبْن .

قال : « ونطقتُ حين تمتعوا » ، يقال : تمتع فلان ، إذا تردّد في كلامه من عِيّ أو حَصَر [١] .

قوله : « وتطلّعتُ حين تقبّعوا » ، امرأة طُلَعة قُبَعة ، تطلع ثم تقبّع رأسها ، أى تدخله كما يقبَع القنفذ ، يدخل برأسه في جلده ، وقد تقبّع الرجُل ، أى اختبأ ، وضدّه تطلّع .

قوله : « وكنت أخفضهم صوتا ، وأعلاهم فوتا » ، يقول : علوتُهم وفتّهم وشأوتُهم سَبْقا ، وأنا مع ذلك خافِض الصوت ، يشير إلى التواضع ونفي التكبّر .

وقوله : « فطرت بعنانها ، واستبددت برهانها » يقول : سبقتهم ، وهذا الكلامُ استعارة من مُسابقة خَيْل الحلْبة . واستبددت بالرهان ، أى انفردت بالخطَر [٢] الذي وقع التراهنُ عليه .

* * *

الفصل الثاني فيه ذكر حاله عليه السلام في الخلافة بعد عثمان ، يقول : كنتُ لمّا وَليتُ الأمر كالجبل لا تحرّكه القواصف ، يعني الرياح الشديدة ، ومثله العواصف .

والمهمز : موضع الهمز ؛ وهو العيب ، وكذلك المَغمز .

(١) ج : « من عي وحصر » .

(٢) الخطر : السبق الذي يتراهى عليه في الرهان .

ثم قال : « الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والقويّ عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه » ؛ هـذا آخر الفصل الثاني ، يقول : الذليل المظلوم أقوم بإعزازه ونصره ، وأقوي يدَه إلى أن آخذ الحقّ له، ثم يعود بعد ذلك إلى الحالة التي كان عليها قبل أن أقومَ بإعزازه ونصره، والقويّ الظالم أستضعفه وأقهرُه وأذلّه إلى أن آخذَ الحقَّ منه، ثم يعود إلى الحالة التي كان عليها قَبْل أن أهتضمَه ، لاستيفاء الحق .

* * *

الفصل الثالث من قوله : « رضينا عن الله قضاءه » ، إلى قوله : « فَلاَ أكونُ أوّلَ مَنْ كذَب عليه » ؛ هـذا كلامٌ قاله عليـه السلام لمّا تفرّس في قوم من عسكره أنهم يتّهمونه فيما يخبرهم به عن النبيّ صلى الله عليه وآله من أخبار الملاحم والغائبات ، وقد كان شكّ منهم جماعة في أقواله ؛ ومنهم مَنْ واجهه بالشكّ والتهمة[1] .

[الأخبار الواردة عن معرفة الإمام عليّ بالأمور الغيبيّة]

روى ابن هلال الثقفيّ في كتاب " الغارات " عن زكريا بن يحيى العطّار، عن فُضَيْل، عن محمد بن عليّ، قال : لما قال عليّ عليه السلام: سَلُوني قبْل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئةٍ تُضِلّ مائة، وتَهدي مائةً إلا أنبأتكم بناعقِها وسائقها، قام إليه رجل فقال: أخبرْني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شَعر، فقال له عليّ عليه السلام: والله لقد حدّثني خليلي أنّ على كلّ طاقة شَعْرٍ من رأسك مَلَكاً يلعنُك ، وأنّ على كلّ طاقة شعر مِنْ لحيتك شيطانا يُغويك ؛ وأنّ في بيتك سَخْلا يقتلُ ابنَ رسول الله صـلى الله عليـه ــ وكان ابنهُ قاتل الحسين عليه السلام يومئذ طفلا يحبو ــ وهو سنان بن أنس النّخَعيّ .

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثماليّ، عن سويد بن غفلة أنّ عليا عليه السلام ، خطب ذات يوم، فقام رجل من تحت منبره ، فقال : يأميرَ المؤمنين ؛ إني مررتُ بوادي

(١) انظر الكلام عن الفصل الرابع ص ٢٩٥ .

القرى ، فوجدتُ خالد بن عُرْفطة قد مات ، فاستغفر له ، فقال عليه السلام : والله مامات ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة ، صاحب لوائه حبيب بن حمار . فقام رجل آخر من تحت المنبر ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، أنا حبيب بن حمار ، وإني لك شيعة ومحبّ ، فقال: أنت حبيب بن حمار ؟ قال : نعم ، فقال له ثانية : والله إنك لحبيب بن حمار ؟ فقال : إي والله ! قال : أما والله إنك لحاملها ولتحملنها ، ولتدخلَنّ بها من هذا الباب ــ وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة .

قال ثابت : فوالله مامتّ حتى رأيتُ ابنَ زياد ، وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين ابن عليّ عليه السلام،وجعل خالد بن عُرْفطة على مقدّمته وحبيب بن حمار صاحبَ رايته، فدخل بها من باب الفيل .

وروى محمد بن إسماعيل بن عمرو البَجَلي ، قال : أخبرنا عمرو بن موسى الوجيهيّ ، عن المنهال بن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث ، قال : قال علي عليه السلام على المنبر : ما أحدٌ جرت عليه المواسي إلا وقد أنزل الله فيه قرآنا ! فقام إليه رجل من مبغضيه فقال له : فما أنزل الله تعالى فيك ؟ فقام الناس إليه يضربونه ؛ فقال : دعوه ، أتقرأ سورة هود؟ قال:نعم ، قال:فقرأ عليه السلام:﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾[1] ثم قال : الذي كان على بينة من ربه محمد صلى الله عليه ، والشاهد الذي يتلوه أنا .

وروى عثمان بن سعيد ، عن عبد الله بن بكير ، عن حكيم بن جُبير ، قال : خطب عليّ عليه السلام فقال في أثناء خطبته : « أنا عبدُ الله ، وأخو رسوله ، لا يقولها أحدٌ قبلي ولا بعدي إلا كذب ؛ ورثتُ نبيّ الرحمة ، ونكحتُ سيدة نساء هذه الأمة ، وأنا خاتم الوصيين » .

---

(١) سورة هود ١٧ .

فقال رجل من عَبْس : [و] مَنْ لا يحسِنُ أن يقول مثل هذا ! فلم يرجع إلى أهله حتى جُنَّ وصُرِع ، فسألوهم : هل رأيتم به عَرَضا قبل هذا ؟ قالوا : ما رأينا به قبل هذا عَرَضا.

وروى محمد بن جبلة الخيّاط ، عن عِكْرِمة ، عن يزيد الأحمسيّ أنّ عليا عليه السلام كان جالسا في مسجد الكوفة ، وبين يديه قوم منهم عمرو بن حُرَيث ؛ إذ أقبلت امرأة مختمرة لا تُعرَف ، فوقفت فقالت لعليّ عليه السلام : يامَنْ قتل الرجال ، وسفك الدماء وأيتمّ الصبيان،وأرمل النساء ! فقال عليه السلام : وإنّها لهي هذه السَّلْقَلَقة الجليعة المُجَعَة ، وإنها لهي هذه،شبيهة الرجال والنساء ، التي ما رأت دماً قطّ ؛ قال : فولّت هاربة منكّسة رأسها ، فتبعها عمرو بن حريث ، فلمّا صارت بالرّحبة ، قال لها : والله لقد سررتُ بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل ، فادخلي منزلي حتى أهبَ لك وأ كسوك ، فلما دخلتْ منزلَه أمر جواريه بتفتيشها وكشفها ونزْع ثيابها لينظر صدقه فيما قاله عنها ، فبكتْ وسألته ألّا يكشفها ؛ وقالت:أنا والله كما قال ، لي رَكَب النساء ، وأُنثيان كأنثى الرجال ؛ وما رأيت دماً قطّ . فتركها وأخرجها،ثم جاء إلى عليّ عليه السلام فأخبره ، فقال : إنّ خليلي رسولَ الله صلى الله عليه أخبرني بالمتمرّدين عليّ من الرجال والمتمرّدات من النساء إلى أن تقومَ الساعة .

قلت : السَّلْقَلَقة : السليطة،وأصله من السَّلْق وهو الذئب،والسِّلْقة : الذئبة.والجليعة المُجَعة : البذيئة اللسان . والرَّكَب : منبت العانة .

وروى عثمان بن سعيد ، عن شريك بن عبدالله ، قال : لما بلغ عليًّا عليه السلام أنّ الناس يتّهمونه فيما يذكره من تقديم النبيّ صلى الله عليه وآله وتفضيله [إياه] على النّاس،قال: أنشدُ اللهَ مَنْ بَقِيَ ممن لقي رسول الله صلى الله عليه وسمع مقاله في يوم غَدير خُمٍّ[1] إلّا قام

---

(١) خم : واد بين مكة والمدينة عند الجحفة ، به غدير عرف به .

فشهد بما سمع ، فقام ستة ممن عن يمينه ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وستة ممن على شماله من الصحابة أيضاً ، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ذلك اليوم ، وهو رافع بيدىْ علىّ عليه السلام : « مَنْ كنتُ مولاه فهذا علىّ مولاه ، اللهم والِ مَنْ والاه،وعادِ من عاداه ، وانصُرْ مَنْ نصره،واخذُل مَنْ خذله،وأحبِبْ مَنْ أحبّه ، وأبْغِضْ مَنْ أبغضه »(1) .

وروى عثمان بن سعيد عن يحيى التَّيمىّ،عن الأعمش ، عن إسماعيل بن رجاء ، قال: قام أعْشَى همْدان(2)—وهو غلام يومئذٍ حَدَث— إلى علىّ عليه السلام ، وهو يخطب ويذكر الملاحم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما أشبه هذا الحديث بحديث خُرافة ! فقال على عليه السلام : إنْ كنتَ آثماً فيما قلتَ ياغلام ، فرماك الله بغلام ثَقيف ! ثم سكت ، فقام رجال فقالوا: ومَنْ غلامُ ثَقِيف يا أمير المؤمنين؟ قال : غلام يملِك بلدتكم هذه لا يترك لله حرمةً إلا انتهكها ، يضرب عُنُق هذا الغلام بسيفه ، فقالوا : كم يملكُ يا أمير المؤمنين ؟ قال : عشرين إن بلغها ، قالوا : فيُقتَل قتلا أم يموت موتا ؟ قال : بل يموتُ حَتْفَ أنفه بداء البَطْن ، يثقب سريره لكثرة مايخرج من جوفه .

قال إسماعيل بن رجاء : فوالله لقد رأيتُ بعيني أعْشَى باهلة ، وقد أحضِر في جملة الأسرى الذين أسِروا من جيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بين يدى الحجاج ، فقرّعه ووبّخه ، واستنشده شِعْرَه الذى يحرّض فيه عبدَ الرحمن على الحرب،ثم ضرب عنقه فى ذلك المجلس .

وروى محمد بن على الصوّاف،عن الحسين بن سفيان،عن أبيه ، عن شُمَير بن سَدير الأزدىّ ، قال:قال علىّ عليه السلام لعمرو بن الحَمِق الخُزاعىّ : أين نزلت ياعمرو؟قال:

(1) نقله المحب الطبرى فى الرياض النضرة (٢ : ١٦٩) ، وتحدث عن طرقه هناك .
(2) أعشى همدان ، أسره الحجاج ثم قتله ؛ وانظر الأغانى ٦ : ٥٨ — ٦٢ .

فى قومى ، قال: لا تنزلنّ فيهم، قال : فأنزلُ فى بنى كِنانة جيرانا؟قال : لا ، قال : فأنزل فى ثَقِيف ؟ قال : فما تصنع بالمَعَرّة والجرة ؟ قال : وماهما ؟ قال: عُنُقان من نار ، يخرجان من ظهر الكوفة ، يأتى أحدهما على تميم وبكر بن وائل ؛ فقلّما يُفلِت منه أحدٌ ، ويأتى العنق الآخر ، فيأخذ على الجانب الآخر من الكوفة ، فقلّ منْ يصيبُ منهم،إنما يدخل الدارَ فيحرِق البيتَ والبيتين . قال : فأين أنزِل؟قال : انزِل فى بنى عمرو بن عامر ، من الأزد ــ قال : فقال قوم حضروا هــذا الكلام : ماتراه إلّا كاهنا يتحدّث بحديث الكَهَنَة ــ فقال : ياعمرو ، إنك المقتول بعدى ؛ وإنّ رأسك لمنقول ؛ وهو أوّلُ رأسٍ ينقَل فى الإسلام ؛ والويل لقاتِلك ! أما إنّك لا تنزِل بقوم إلا أسلموك برُمّتك[1]؛ إلا هذا الحىّ من بنى عمرو بن عامر من الأزد ، فإنّهم لن يُسلموك ولن يَخذُلوك ؛ قال : فوالله مامضت إلا أيام حتى تنقل عمرو بن الحَمِق فى خلافة معاوية فى بعض أحياء العرب،خائفا مذعورا ، حتى نزل فى قومه من بنى خُزاعة ، فأسلموه ، فقتِل وحُمِل رأسه من العراق إلى معاوية بالشام ؛ وهو أوّلُ رأسٍ حُمِل فى الإسلام من بلد إلى بلد .

• • •

وروى إبراهيم بن ميمون الأزدىّ عن حَبّة العرنىّ ، قال : كان جويرية بن مِسهر العبدىّ صالحا ، وكان لعلى بن أبى طالب صديقا ، وكان علىّ يحبُّه، ونظر يوما إليه وهو يسير ، فناداه: ياجويرية،الحَقْ بى ، فإنى إذا رأيتُك هَوِيتُك؛ قال إسماعيل بن أبان: فحدّثنى الصبّاح ، عن مسلم عن حَبّة العرنىّ، قال : سرنا مع على عليه السلام يوما فالتفت فإذا جُويرية خلْفه بعيدا ، فناداه : ياجُويرية ، الْحَقْ بى لا أبالك ! ألا تعلم أنّى أهواك وأحِبّك!قال : فركَض نحوه،فقال له : إنى محدّثك بأمور فاحفظها،ثم اشتركا فى الحديث سرّا ، فقال له جُويرية : ياأمير المؤمنين ، إنى رجلٌ نَسِىّ [2]، فقال له : إنى أعيدُ عليك

---

(١) أسلموك برمتك ، أى أسلموك بجميع ما معك .
(٢) النسى : الكثير النسيان .

الحديثَ لتحفظه ، ثم قال له فى آخر ما حدثه إياه : ياجويرية ، أحبب حبيبَ ما أحبَّنا ، فإذا أبغضنا فأبغضه ، وأبغِض بغيضَنا ما أبغضَنا ، فإذا أحبَّنا فأحبَّه .

قال : فكان ناسٌ ممن يشكّ فى أمر على عليه السلام يقولون : أتراه جعل جُوَيرية وصيّه كما يدّعى هو من وصية رسول الله صلى الله عليه ؟ قال : يقولون ذلك لشدّة اختصاصه له ، حتى دخل على علىّ عليه السلام يوما ، وهو مضطجع ، وعنده قوم من أصحابه ، فناداه جويرية : أيها النائم ، استيقظ ، فلتُضْرَبَنّ على رأسك ضربة تخضب منها لحيتك ، قال : فتبسّم أميرُ المؤمنين عليه السلام ؛ قال : وأحدّثك ياجويرية بأمرك ؛ أما والذى نفسى بيده لتُعتَلَنّ[1] إلى العُتُلّ الزنيم ، فليقطعن يدك ورجلك وليصلبنك تحت جذع كافر ، قال : فوالله مامضت إلا أيام على ذلك حتى أخذ زياد جُويرية ، فقطع يدَه ورجلَه وصلّبه إلى جانب جذع ابن مكعبر ، وكان جذعا طويلا ؛ فصلّبه على جذْع قصير إلى جانبه .

وروى إبراهيم فى كتاب « الغارات » عن أحمد بن الحسن الميثمىّ ، قال : كان ميثم التمّار مولى علىّ بن أبى طالب عليه السلام عبداً لامرأة من بنى أسد ، فاشتراه علىّ عليه السلام منها وأعتقه ، وقال له : مااسمك ؟ فقال : سالم ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه أخبرنى أنّ اسمك الذى سماك به أبوك فى العجم « ميثم » ، فقال : صدَق الله ورسوله ، وصدقتَ ياأمير المؤمنين، فهو والله اسمى ، قال : فارجع إلى اسمك ، ودَعْ سالما، فنحن نكنيك به ؛ فكناه أبا سالم . قال : وقد كان قد أطلعه علىّ عليه السلام على علم كثير ، وأسرار خفية من أسرار الوصية ، فكان ميثم يحدّث ببعض ذلك ، فيشكّ فيه قوم من أهل الكوفة ، وينسُبون عليا عليه السلام فى ذلك إلى المخرقة[2] والإيهام والتدليس ؛ حتى قال له يوما بمحضَر من خَلْق كثير من أصحابه ، وفيهم الشاكّ والمخلص : ياميثم ،

---

(١) عتله : عتله عتلا ؛ إذا أخذه بمجامعه وجره جرا عنيفا .

(٢) المخرقة : اختلاق الكذب .

إنك تُؤخَذ بعدى وتُصلب ، فإذا كان اليوم الثانى ابتدر مَنْخِراك وفمك دماً ، حتى تُخضَب لحيتُك ، فإذا كان اليومُ الثالث طُعِنت بحربة يُقضى عليك ، فانتظِر ذلك . والموضع الذى تُصلَب فيه على باب دار عمرو بن حريث ؛ إنك لعاشر عشرة أنت أقصرُهم خشبة ، وأقربهم من المطهّرة — يعنى الأرض — ولأُرِينّك النّخلة التى تُصلَب على جِذْعها ، ثم أراه إياها بعد ذلك بيومين ، وكان ميثم يأتيها ، فيصلّى عندها ، ويقول : بورِكتِ مِنْ نخلة لكِ خُلِقتُ ، ولِى نبتِّ ، فلم يزل يتعاهدها بعد قتل علىّ عليه السلام ، حتى قُطِعت ، فكان يَرْصُد جذعها ، ويتعاهده ويتردّد إليه ، ويبصره ، وكان يَلْقَى عمرو بن حريث ، فيقول له : إنّى مجاورُك فأحسِنْ جوارى ، فلا يعلم عمرو مايريد ، فيقول له : أتريدُ أنْ تشترِىَ دار ابن مسعود ، أم دار ابن حكيم !

قال : وحجّ فى السّنة التى قتل فيها ، فدخل على أمّ سلمة رضى الله عنها ، فقالت له : مَنْ أنت ؟ قال : عِراقىّ ، فاستنسبته ، فذكر لها أنه مولى علىّ بن أبى طالب ، فقالت : أنت هيثم ، قال : بل أنا ميثم [1] ، فقالت : سبحان الله ! والله لربّما سمعتُ رسول الله صلى الله عليه يوصى بك عليًّا فى جوف الليل ، فسألها عن الحسين بن علىّ ، فقالت : هو فى حائط [2] له ، قال : أخبريه أنّى قد أحببتُ السّلام عليه ، ونحن ملتقون عند ربّ العالمين ، إن شاء الله ، ولا أقدر اليوم على لقائه ، وأريد الرجوع ، فدعتْ بطيب فطيّبت لحيته ، فقال لها : أما إنها ستخضب بدم ، فقالت : مَن أنبأك هذا ؟ قال : أنبأنى سيدى ، فبكت أمُّ سلمة ، وقالت له : إنه ليس بسيّدك وحدَك ؛ هو سيّدى وسيد المسلمين ، ثم ودّعته .

---

(١) ميثم ، ضبطه صاحب القاموس بكسر الميم .

(٢) الحائط : البستان .

فقدم الكوفة ، فأخِذ وأدخِلَ على عُبيد الله بن زياد . وقيل له : هذا كان من آثرِ الناس عند أبى تراب ، قال : وَيحكم ! هـذا الأعجميّ ! قالوا : نعم ، فقال له عبيد الله : أين ربُّك ؟ قال : بالمرصاد ، قال : قد بلغنى اختصاصُ أبى تراب لك ، قال : قد كان بعضُ ذلك ، فما تريد ؟ قال : وإنه ليقال إنه قد أخبرك بما سيَلقاك ، قال : نعم ؛ إنّه أخبرنى ، [1]قال : ماالذى أخبرك أنى صانع بك[1] ؟ قال : أخبرنى أنك تصلُبنى عاشر عشرة وأنا أقصرهُم خشبة ، وأقربهم من المطهرة ، قال : لأخالفنه ، قال : ويحك ! كيف تخالفُه ؟ إنما أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبر رسول الله عن جبرائيل ، وأخبر جبرائيل عن الله ، فكيف تخالف هؤلاء ! أما والله لقد عرفتُ الموضع الذى أُصْلَب فيه أين هو من الكوفة ؟ وإنى لأوّل خَلق الله أُلجِم فى الإسلام بلجام كما يُلْجَم الخيل . فحبسه وحبس معه المختار بن أبى عبيدة الثقفى ، فقال ميثم للمختار — وهما فى حبس ابن زياد : إنك تُفلِت وتخرج ثائرا بدم الحسين عليه السلام ، فتقتل هذا الجبّار الذى نحن فى سجنه[2] ، وتطأ بقدمك هذه على جَبْهته وخدّيه . فلما دعا عبيد الله بن زياد بالمختار ليقتله طلع البريد بكتاب يزيد بن معاوية إلى عبيد الله بن زياد ، يأمره بتخلية سبيله ؛ وذلك أن أخته كانت تحت عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فسألتْ بعلها أن يشفع فيه إلى يزيد فشفع ، فأمضى شفاعته ، وكتب بتخلية سبيل المختار على البريد ، فوافى البريد ، وقد أخرج ليضرب عنقه ، فأطلق . وأما مِيثم فأخرج بعده لِيُصلَب ؛ وقال عبيد الله : لأمضِيَنّ حكْم أبى تراب فيه ، فلقيَه رجل ، فقال له : ما كان أغناك عن هـذا يامِيثم ؟ فتبسم ، وقال : لها خلقتُ ، ولى غُذِيتُ ؛ فلما رُفع على الخشبة اجتمع الناس حوله على باب عمرو بن حريث ، فقال عمرو : لقد كان يقول لى : إنى مجاورك ، فكان يأمر جاريته كلَّ عشية أن تكنُس تحت خشبته وترشّه ، وتجمّر بالمجمر تحته ، فجعل ميثم يحدّث بفضائل بنى هاشم ، ومخازى

(١ — ١) ساقط من ا

(٢) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « حبسه » .

بنى أمية ، وهو مصلوب على الخشبة ، فقيل لابن زياد : قد فضحكم هـذا العبد ، فقال : ألجموه ، فألجم ، فكان أول خلق الله ألجم فى الإسلام . فلما كان فى اليوم الثانى فاضت مُنخراه وفمه دما ، فلما كان فى اليوم الثالث طُعن بحربة فمات .

وكان قَتْلُ ميثم قبل قدوم الحسين عليه السلام العراق بعشرة أيام .

قال إبراهيم : وحدثنى إبراهيم بن العباس النَّهْدِىّ ، حدثنى مبارك البَجَلِىّ ، عن أبى بكر بن عياش ، قال : حدثنى المجالد ، عن الشعبى ، عن زياد بن النضر الحارثى ، قال : كنتُ عند زياد ، وقد أُتِىَ برشيد الهَجَرِىّ — وكان من خواصّ أصحاب علىّ عليه السلام — فقال له زياد : ما قال خليلُك إنا فاعلون بك ؟ قال : تقطعون يدىَ ورِجْلىَ ، وتصلبوننى ، فقال زياد : أما والله لأكذبنّ حديثه ؛ خلّوا سبيله ، فلما أراد أن يخرج قال : ردّوه ، لا نجد شيئاً أصلحَ مما قال لك صاحبُك ؛ إنك لا تزال تبغى لنا سوءاً إن بقيت ؛ اقطعوا يديه ورجليه ؛ فقطعوا يديه ورجليه ، وهو يتكلم ، فقال : اصلبوه خنقا فى عنقه ، فقال رشيد : قد بقى لى عندكم شىء ، ما أراكم فعلتموه ، فقال زياد : اقطعوا لسانه ، فلما أخرجوا لسانه ليقطع قال : نفسوا عنى أتكلم كلمة واحدة ، فنفسوا عنه ، فقال : هـذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين ، أخبرنى بقطع لسانى . فقطعوا لسانه وصلبوه .

وروى أبو داود الطَّيالسىّ ، عن سليمان بن رُزَيْق ، عن عبد العزيز بن صُهيب ، قال : حدثنى أبو العالية ، قال : حدثنى مزرع[1] صاحبُ علىّ بن أبى طالب عليه السلام أنه قال : ليُقبِلَنّ جيشٌ حتى إذا كانوا بالبيداء ، خُسِف بهم . قال أبو العالية : فقلت له : إنك لتحدّثنى بالغيب ! فقال : احفظ ما أقوله لك ، فإنما حدّثنى به الثقة علىّ بن أبى طالب . وحدثنى أيضاً شيئاً آخر : ليؤخذنّ رجل فليقتلنّ وليُصلبنّ بين شُرفتين من شُرَف المسجد ؛ فقلت له : إنك لتحدّثنى بالغيب ! فقال : احفظ ما أقول لك ؛ قال أبو العالية : فوالله ما أتت

(١) مزرع ، ذكره صاحب تنقيح المقال ٣ : ٢١٠ ، ولم يرد على ما نقله من خبره هنا

علينا جُمَة حتى أخذ مزرع ، فقتل وصُلِب بين شرفتين من شُرَف المسْجِد .

قلت : حديث الخَسْف بالجيش قد خرّجه البخارى ومسلم فى الصحيحين ، عن أم سلمة رضى الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : « يَعُوذ قومٌ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء[1] خُسِف بهم » ، فقلت : يارسولَ الله ، لعلّ فيهم المكرَه أو الـكاره ، فقال : « يُخْسَف بهم ، ولـكن يحشرون » ـ أو قال : « يُبْعَثون على نياتهم[2] يوم القيامة » .

قال : فسئل أبو جعفر محمد بن على : أهى بيداء من الأرض ؟ فقال : كَلّا والله إنها بيداء المدينة . أخرج البخارى بعضه وأخرج مسلم الباقى[3] .

وروى محمد بن موسى العَنَزِىّ ، قال : كان مالك بن ضَمْرة الرؤاسىّ من أصحاب علىّ عليه السلام ، وممن استبطن من جهته علماً كثيراً ، وكان أيضاً قد صَحِب أبا ذَرّ ، فأخذ من علمه ، وكان يقول فى أيام بنى أمية : اللهم لاتجعلنى أشْقَى الثلاثة ، فيقال له : وما الثلاثة ؟ فيقول : رجلٌ يرمى من فوق طَمَار[4] ، ورجل تقطع يداه ورجلاه ولسانه ويصلب ، ورجل يموت على فراشه . فكان من الناس مَن يهزأ به ، ويقول : هذا من أكاذيب أبى تراب .

قال : وكان الذى رُمِى به من طَمَار هانىء بن عُرْوة[5] ، والذى قُطِع وصلب رشيد الهجرىّ ، ومات مالك على فراشه .

* * *

الفصل الرابع وهو من قوله : « فنظرت فى أمرى ... » إلى آخر الـكلام ، هذه كلمات

---

(١) البيداء : كل أرض ملساء لاشىء بها . (٢) لفظ مسلم : « ولـكنه يبعث يوم القيامة على نيته » .

(٣) صحيح مسلم ٤ : ٢٢٠٩ . (٤) طمار ، كقطام : المكان المرتفع .

(٥) كذا فى الأصول ، وفى معجم البلدان ٦ : ٥٨ أن الذى رمى به من طمار مسلم بن عقيل بن أبى طالب ، أمر بإلقائه عبيد الله بن زياد ، وأنشد :

فإن كُنْتِ ماتَدْرِينَ ماالموتُ فانظرى إلى هانئٍ فى السُّوقِ وابن عَقيـــل

إلى بَطَلٍ قـــد عَفّر السَّيفُ وجهَه وآخرَ يَهْوِى مِنْ طَمَارِ قتيـــل

مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنه كان معهودا إليه ألّا ينازِعَ في الأمر ، ولا يثير فتنة ، بل يطلبه بالرفق ؛ فإن حَصَل له وإلا أمسك .

هكذا كان يقول عليه السلام ، وقوله الحق ، وتأويلُ هذه الكلمات : فنظرت فإذا طاعتي لرسول الله صلى الله عليه ، أى وجوب طاعتي ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه .

قد سَبَقَت بيعتي للقوم ؛ أى وجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه عليّ ، ووجوب امتثالى أمرَه سابقٌ على بيعتى القوم ، فلا سبيل لى إلى الامتناع من البَيْعة ؛ لأنه صلى الله عليه وآله أمرنى بها .

وإذا الميثاق فى عُنُقى لغيرى ؛ أى رسول الله صلى الله عليه وآله أخذ عليّ الميثاق بترك الشِّقاق والمنازعة ، فلم يحلّ لى أن أتعدّى أمرَه ، أو أخالف نهيَه .

فإن قيل : فهذا تصريح بمذهب الإمامية .

قيل : ليس الأمر كذلك ؛ بل هذا تصريح بمذهب أصحابنا من البغداديين ؛ لأنهم يزعمون أنه الأفضل والأحقّ بالإمامة ، وأنه لولا ما يعلمه الله ورسوله من أن الأصلح للمكلّفين من تقديم المفضول عليه ، لكان مَنْ تقدَّم عليه هالكا ، فرسول الله صلى الله عليه وآله أخبره أنّ الإمامة حقّه ، وأنه أولى بها من الناس أجمعين ، وأعلمه أنّ فى تقديم غيره وصَبْره على التأخّر عنها مصلحةً للدين راجعة إلى المكلّفين ، وأنّه يجب عليه أن يُمسك عن طلبها ، ويُغْضى عنها لمن هو دون مَرْتبته ، فامتثل ما أمره به رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يخرجه تقدُّم مَنْ تقدم عليه من كونه الأفضل والأولى والأحقّ . وقد صرّح شيخنا أبو القاسم البلخيّ رحمه الله تعالى بهذا ، وصرّح به تلامذتُه ، وقالوا : لو نازع عَقِيب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلّ سيفه لحكمْنا بهلاك كلّ

من خالفه وتقدّم عليه كما حكمنا بهلاك مَنْ نازعه حين أظهر نفسه ، ولكنه مالك الأمر ، وصاحب الخلافة ؛ إذا طلبها وجب علينا القول بتفسيق مَنْ ينازعه فيها ، وإذا أمسك عنها وجب علينا القولُ بعدالة مَنْ أغضى له عليها ، وحكمه فى ذلك حكْم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه قد ثبت عنه فى الأخبار الصحيحة أنه قال : « علىّ مع الحقّ ، والحق مع علىّ يدور حيثًا دار » ، وقال له غير مرة : « حربُك حربى وسِلْمك سِلْمى » .

وهذا المذهب هو أعدل المذاهب عندى ، وبه أقول .

(٣٨)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأَصْلُ :

وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ ، فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ ، وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى . وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا[1] الضَّلَالُ ، وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى .

فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ ، وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ .

• • •

الشَّرْحُ :

هذان فصلان ، أحدهما غير ملتئم مع الآخر ، بل مبتور عنه ؛ وإنما الرضيّ رحمه الله تعالى كان يلتقط الكلام التقاطا ، ومراده أن يأتي بفصيح كلامه عليه السلام ، ومايجري مجرَى الخطابة والكتابة ، فلهذا يقعُ في الفصل الواحد الكلامُ الذي لا يناسِبُ بعضُه بعضا ؛ وقد قال الرضيّ ذلك في خطبة الكتاب[2] .

• • •

أما الفصل الأول فهو الكلام في الشُّبْهة ، ولماذا سمّيت شبهة ، قال عليه السلام : « لأنّها تُشْبِه الحقّ » ؛ وهذا هو محضُ ما يقوله المتكلّمون ؛ ولهذا يسمّون ما يحتج به أهلُ الحقّ دليلا ، ويسمون ما يحتجّ به أهل الباطل شُبهة .

قال : « فأمّا أولياء الله فضياؤهم في حلّ الشبهة اليقين ، ودليلُهم سَمْتُ الهُدى » ؛ وهذا حقّ لأنّ من اعتبر مقدّمات الشُّبْهَة ، وراعى الأمور اليقينيَّة ، وطلَب المقدّمات المعلومة قطعا ، انحلّت الشُّبْهة ، وظهر له فسادها من أين هو ؟ ثم قال : « وأما أعداء الله فدعاؤهم

---

(١) ساقطة من مخطوطة النهج .　　(٢) الجزء الأول ص ٥٣ .

الضلال ، ودليلهم العمى ، وهذا حق ؛ لأن المبطل بنظر فى الشُّبْهة ، لا نظر مَنْ راعى الأمور اليقينية ، ويحلّل المقدمات إلى القضايا المعلومة ؛ بل يَغْلِبُ عليه حبّ الذهب ، وعصبية أسلافه ، وإيثار نصره مَنْ قد ألزم بنصرته ، فذاك هو العمى والضلال ، اللذان أشار أمير المؤمنين إليهما ، فلا تنحلّ الشبهة له ، وتزداد عقيدته فسادا ، وقد ذكرنا فى كتبنا الكلامية الكلامَ فى توليد النظر للعلم ؛ وأنه لا يولِّد الجهل .

***

الفصل الثانى ، قوله : « فما ينجو من الموت مَنْ خافه ، ولا يعطى البقاء مَنْ أحبّه » ؛ هذا كلام أجنبىّ عمّا تقدم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الموتُ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[3] .

(١) سورة آل عمران ١٥٤
(٢) سورة النساء ٧٨ .
(٣) سورة الأعراف ٣٤ .

(٣٩)

ومن خطبة له عليه السلام

الأصل :

مُنِيتُ بِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ ، وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ ، لَا أَبَا لَكُمْ ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ ، وَلَا حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ ! أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً ، وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً ، فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً ، وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمْراً ، حَتَّى تَكَشَّفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ ، فَمَا يُدْرَكُ بِكُمْ ثَارٌ ، وَلَا يُبْلَغُ بِكُمْ مَرَامٌ .

دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوَانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ الْجَمَلِ الْأَسَرِّ ، وَتَثَاقَلْتُمْ تَثَاقُلَ النِّضْوِ الْأَدْبَرِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ضَعِيفٌ ؛ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

• • •

قال الرضى رحمه الله :

قوله عليه السّلام : « مُتَذَائِبٌ » أى مُضْطَرِب ؛ مِن قولهم : تَذَاءبَتِ الرِّيحُ ، أى اضْطَرَبَ هُبُوبُها ، وَمنه سُمِّيَ الذِّئْبُ ذِئْباً لِاضْطِرابِ مِشْيَتِه .

• • •

الشرح :

مُنِيتُ ، أى بُلِيتُ . وتُحْمِشُكم : تُغْضِبُكم ، أحمشه أى أغضبه . والمستصرخ : المستنصر . والمتغوّث : القائل : واغوثاه !

و بَجَرْجرة : صوت يردّده البعير في حَنْجَرته ؛ وأ كثرُ مايكون ذلك عند الإعياء والتعب .والجمل الأسَرّ : الذي بكِركِرَته دَبَرة[1] . والنِّضو :البعير المهزول .والأدْبَر: الذي به دَبَر ؛ وهو المعقور من القَتَب وغيره.

هذا الكلام خَطَب به أميرُ المؤمنين عليه السلام في غارة النعمان بن بشير الأنصاريّ على عَيْن التَّمْر[2] .

• • •

[أمر النعمان بن بشير مع عليّ ومالك بن كعب الأرحبيّ]

ذكر صاحبُ الغارات أنّ النعمانَ بن بشير قدِم هو وأبوهريرةَ على عليّ عليه السلام من عند معاوية ،بعد أبي مسلم الخَولانيّ ، يسألانه أن يدفع قتلةَ عثمان إلى معاوية ليُقيدَهم بعثمان ؛ لعلّ الحرب أن تُطفَأ ، ويصطلح الناس ؛ وإنما أراد معاويةُ أن يرجعَ مثلُ النعمان وأبي هريرة من عند عليّ عليه السلام إلى الناس ، وهم لمعاويةَ عاذرون ولعليّ لائمون ؛ وقد علِم معاوية أنّ عليًّا لا يدفع قتلةَ عثمان إليه ، فأراد أن يكون هذان يشهدان له عند أهل الشام بذلك ، وأن يظهر عذره ، فقال لهما : ائتيا عليًّا فانشُداه الله ، وسَلاه بالله لَمّا دفعَ إلينا قتلةَ عثمان ؛ فإنّه قد آواهم ومنعهم ؛ ثم لا حربَ بيننا وبينه ، فإن أبي فكونوا شهداء الله عليه .

وأقبلا عَلَى الناس فأعلماهم ذلك ، فأتيا إلى عليّ عليه السلام ، فدخلا عليه ،فقال له أبو هريرة : ياأبا حَسَن، إن الله قد جعل لك في الإسلام فضلا وشرفا ؛أنت ابنُ عمّ محمد رسول الله صلى الله عليه ؛ وقد بعثنا إليك ابنُ عمّكَ معاوية ، يسألك أمرا تسكُن بهذه

(١) الكركرة ، بالكسر : زور البعير . والدبرة : قرحة الدابة .
(٢) عين التمر : بلدة في طرف البادية ؛ على غربي الفرات .

الحرب ، ويُصلح اللهُ تعالى ذاتَ البين ؛ أن ندفع إليه قتلةَ عثمان ابن عمه ، فيقتلهم به ، ويجمع الله تعالى أمرك وأمره ، ويصلح بينكم ، وتَسْلَم هذه الأمة من الفتنة والفرقة . ثم تكلّم النعمانُ بنحوٍ من ذلك[1] .

فقال لها : دَعاً الكلام في هذا ؛ حدِّثني عنك يانعمان ، أنت أهدى قومك سبيلا ؟ يعني الأنصار ، قال : لا ، قال : فكلُّ قومك قد اتّبعني إلّا شُذّاذاً ؛ منهم ثلاثة أو أربعة ؛ أفتكون أنت من الشُذّاذ ! فقال النعمان : أصلحك الله ، إنّما جئتُ لأكونَ معك وألزمك ؛ وقد كان معاويةُ سألني أن أؤدّيَ هذا الكلام ، ورجوتُ أن يكون لي موقف أجتمع فيه معك ، وطمعتُ أن يُجْرِيَ اللهُ تعالى بينكما صلحا ؛ فإذا كان غير ذلك رأيُك ، فأنا مُلازمك وكائن معك .

فأما أبو هريرة فلحق بالشام ، وأقام النعمان عند علي عليه السلام ، فأخبرَ أبو هريرة معاويةَ بالخبر ، فأمره أن يُعلِم الناس ، ففعل ، وأقام النعمان بعده شهرا، ثم خرج فارًّا من علي عليه السلام ، حتى إذا مرَّ بعين التمْر أخذه مالكُ بن كعب الأرحبي - وكان عامل علي عليه السلام عليها - فأرادَ حبسه ، وقال له : ما مرَّ بك بيننا[2] ؟ قال : إنّما أنا رسولٌ بلّغتُ رسالةَ صاحبي ، ثم انصرفت ، فحبسه وقال : كما أنتَ ؛ حتى أكتبَ إلى علي فيك . فناشده ، وعظَّم عليه أن يكتبَ إلى علي فيه ، فأرسل النعمانُ إلى قَرَظة بن كعب الأنصاري - وهو كاتب عين التمر يجبي خراجها لعلي عليه السلام - فجاءه مسرعا، فقال لمالك بن كعب : خلِّ سبيلَ ابن عمي ؛ يرحمك الله ؛ فقال : ياقَرَظة ؛ اتقِ الله ولا تتكلّم في هذا ، فإنه لو كان من عُبّاد الأنصار ونُسّاكهم لم يهرُب من أمير المؤمنين إلى أمير المنافقين .

فلم يزلْ به يُقسِم عليه حتى خَلّى سبيلَه ، وقال له : ياهذا ، لك الأمان اليوم والليلة .

---

(١) ب : « هذا » .

(٢) ب : « ماهنا » .

وغدا ، والله إنْ أدركتُكَ بعدَها لأضربنّ عنقك ، فخرج مسرعا لا يلوى على شىء ، وذهبتْ به راحلتُه ، فلم يدرِ أين يتسكّعُ من الأرض ثلاثة أيام ، لا يعلم أين هو ! فكان النعمان يحدِّث بعد ذلك ، يقول : والله ما علمتُ أين أنا ، حتى سمعت قول قائلة تقول وهى تطحَن :

شَرِبْتُ مع الجوزاء كأساً رَوِيَّةً[1] وأخرى مع الشِّعرى إذا ما استَقَلَّتِ
مُشَعْشَعَةً كانت قريشٌ تَصُونُهـــا فلمّا استحلّوا قتـــلَ عثمانَ حلّتِ

فعلمتُ أنى عند حىٍّ من أصحاب معاوية ، وإذا الماء لبنى القَيْن ، فعلمت أنى قد انتهيتُ إلى الماء[2] .

ثم قدِم على معاوية فخبَّره بما لَقِىَ ، ولم يزل معه مصاحباً ؛ لم يجاهدْ عليا ، ويتتبّع قتلة عثمان ؛ حتى غَزَا الضحاكُ بنُ قيس أرضَ العراق ، ثم انصرف إلى معاوية ؛ وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة : أمَا من رجل أبعثُ به[3] بجريدة خيل ؛ حتى يُغيرَ على شاطئ الفرات ، فإنّ الله يُرعِبُ بها أهلَ العراق ؟ فقال له النعمان : فابعثنى ؛ فإنّ لى فى قتالهم نيّة وهوًى ـ وكان النعمان عثمانيا ـ قال : فانتدب على اسمِ الله ، فانتدَبَ ونَدَبَ معه ألفَىْ رجل ، وأوصاه أن يتجنّب المدن والجماعات ، وألّا يُغير إلا على مَسْلَحة ، وأن يعجّل الرجوع .

فأقبلَ النعمانُ بن بشير ؛ حتى دنا من عين التَّمْر ، وبها مالكُ بن كعب الأرحبىّ الذى جرى له معه ماجَرى[4] ، ومع مالكٍ ألفُ رجل ؛ وقد أذِن لهم ، فرجعوا إلى الكوفة ، فلم يبق معه إلا مائة أو نحوها ، فكتب مالك إلى علىّ عليه السلام : أمّا بعد ؛ فإنّ النعمان ابن بشير ، قد نزَل بى فى جمع كثيف ، فرَ رأيَك ، سدّدك الله تعالى وثبّتك . والسلام .

فوصل الكتابُ إلى علىّ عليه السلام ؛ فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) ب : « رديبة » ، وصوابه من ج . (٢) كذا فى الأصول ، ويرى السيد جاسم أنها « الأمان » .
(٣) ب : « معه » . (٤) ب : « ما ذكرناه » .

اخرجوا هداكم الله إلى مالك بن كعب أخيكم ، فإنّ النعمان بن بشير قد نزل به فى جمع من أهل الشام ليس بالكثير ؛ فانهضوا إلى إخوانكم ، لعلّ الله يقطع بكم من الكافرين طرفًا . ثم نزل .

فلم يخرجوا ، فأرسل إلى وجوههم وكبرائهم ، فأمرهم أن ينهضوا ويحثوا الناس على المسير ، فلم يصنعوا شيئًا ، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائة فارس أو دونها ، فقام عليه السلام ، فقال : ألا إنى مُنيت بمن لا يطيع . . . الفصل الذى شرحناه إلى آخره ، ثم نزل .

فدخل منزله ، فقام عدىّ بن حاتم ، فقال : هذا والله الخذلان ؛ على هذا بايعنا أميرَ المؤمنين ! ثم دخلَ إليه فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ معى من طيّئ ألفَ رجل لا يعصوننى ؛ فإن شئتَ أن أسير بهم سرت . قال : ما كنت لأعرض قبيلة واحدة من قبائل العرب للناس ولكن اخرج إلى النُّخَيلة فعسكر بهم . وفرض علىّ عليه السلام لكلّ رجل سبعمائة ؛ فاجتمع إليه ألفُ فارس ، عدا طيّئًا أصحاب عدىّ بن حاتم .

وورد على علىّ عليه السلام الخبرُ بهزيمة النّعمان بن بشير ونُصرة مالك بن كعب ؛ فقرأ الكتاب على أهل الكوفة ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم نظر إليهم وقال : هذا بحمد الله وذمّ أكثركم .

* * *

فأما خبرُ مالك بن كعب مع النعمان بن بشير ؛ قال عبدالله بن حوزة الأزدىّ : قال : كنتُ مع مالك بن كعب حين نزل بنا النعمان بن بشير ، وهو فى ألفين ؛ وما نحن إلّا مائة فقال لنا : قاتلوهم فى القرية ، واجعلوا الجُدُر فى ظهوركم ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ؛ واعلموا أنّ الله تعالى ينصُر العشرة على المائة ، والمائة على الألف ، والقليل على الكثير . ثم قال : إنّ أقرب مَنْ ها هنا إلينا من شيعة أمير المؤمنين وأنصاره وعماله قَرَظة بن كعب

ومِخْنَف بن سُلَيم ؛ فاركُض إليهما ، فأعلمْهما حالنا ، وقل لهما : فلينصُرانا ما استطاعا[1]،
فأقبلتُ أركض ؛ وقد تركتُه وأصحابَه يرمون أصحابَ ابن بشير بالنَّبل ، فمررت بقَرَظة
فاستصرختُه ، فقال : إنما أنا صاحبُ خراج ؛ وليس عندى من أعينه به . فمضيت إلى
مِخْنَف بن سليم ، فأخبرته الخبر ، فسرّح معى عبد الرحمن بن مخنف فى خمسين رجلا ،
وقاتل مالكُ بن كعب النعمانَ وأصحابه إلى العصر ، فأتيناه وقد كسّر هو وأصحابُه جفونَ
سيوفهم، واستقبلوا الموت[2]، فلو أبطأنا عنهم هلكوا، فما هو إلا أنْ رآنا أهلُ الشام، وقد
أقبلْنا عليهم ؛ فأخذوا ينكصون عنهم ويرتفعون ، ورآنا مالكٌ وأصحابه ، فشدّوا
عليهم حتى دفعوهم عن القَرْية ، فاستعرضناهم ، فصرعنا منهم رجالًا ثلاثة ، وارتفع القومُ
عنا ، وظنّوا أنّ وراءنا مددا ؛ ولو ظنّوا أنه ليس غيرنا لأقبلوا علينا ولأهلكونا، وحال
الليل بيننا وبينهم ، فانصرفوا إلى أرضهم . وكتب مالك بن كعب إلى علىّ عليه السلام:

أما بعدُ ، فإنّه نزل بنا النعمان بن بشير فى جَمْع من أهل الشام ، كالظاهر علينا ، وكان
عُظْم[3] أصحابى متفرّقين ، وكنّا الذى كان منهم آمنين ؛ فخرجنا إليهم رجالًا مصلِتين[4]،
فقاتلناهم حتى المساء ، واستصرخْنا مِخْنف بن سُليم، فبعث إلينا رجالًا من شيعة أمير المؤمنين
وولده ؛ فنعم الفتى ونعم الأنصار كانوا ؛ فحملنا على عدوّنا وشددنا عليهم ، فأنزل الله علينا
نصرَه ، وهزم عدوّه ، وأعزّ جنده . والحمد لله رب العالمين ، والسلام على أمير المؤمنين
ورحمة الله وبركاته .

* * *

(١) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « بما استطاعا » .
(٢) ب : « واستقبلوا الموت » .
(٣) عظم الشيء ؛ أى معظمه .
(٤) يقال : أصلت الرجل السيف ؛ إذا جرده من غمده .

وروى محمد بن فرات الجَرْميّ ، عن زيد بن علي عليه السلام ، قال : قال عليّ عليه السلام في هـذه الخطبة : أيها الناس ، إني دعوتـكم إلى الحق فتوليتم عني ، وضربتكم بالدِّرَّة فأعييتموني ؛ أما إنه سَيَليكم بعـدي ولاةٌ لا يرضون عنكم بذلك حتى يعذّبوكم بالسياط والحديد ، فأمّا أنا فلا أعذّبكم بهما ؛ إنه من عذّب الناس في الدّنيا عذّبه الله في الآخرة ؛ وآية ذلك أن يأتيكم صاحبُ اليمن ،حتى يحلّ بين أظهركم ؛ فيأخذ العمالَ وعمالَ العمال [1] ؛ رجل يقال له يوسف بن عمرو ؛ ويقوم عنـد ذلك رجـل منّا أهلَ البيت ، فانصروه فإنه داعٍ إلى الحق .

قال : وكان الناس يتحدثون أن ذلك الرجل هو زيد عليه السلام .



(١) ساقطة من ب .

(٤٠)

ومن كلام له عليه السلام للخوارج لما سمع قولهم : « لا حكم إلا لله » قال :

الأصْلُ :

كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلهِ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : لَا إِمْرَةَ [1] . وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ ، وَيُبَلِّغُ اللهُ فِيهَا الْأَجَلَ ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ ، وَيُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ .

وفى رواية أخرى أنه عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال :

حُكْمَ اللهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ .

وقال :

أَمَّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيهَا التَّقِيُّ ، وَأَمَّا الْإِمْرَةُ الْفَاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيهَا [2] الشَّقِيُّ ؛ إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ ، وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ .

* * *

[اختلاف الرأى فى القول بوجوب الإمامة]

الشَّرْحُ :

هذا نصٌّ صريح منه عليه السلام ؛ بأنّ الإمامةَ واجبة ؛ وقد اختلف الناس فى هذه

---

(١) ب : « لا إمرة إلا لله » وما أثبته من ا ، ج ومخطوطة النهج .

(٢) ا : « بها » .

المسألة فقال المتكلمون كافة : الإمامة واجبة ؛ إلا ما يحكى عن أبى بكر الأصمّ من قدماء أصحابنا أنها غيرُ واجبة ، إذا تناصفت الأمة ، ولم تتظالم .

وقال المتأخرون من أصحابنا:إنّ هذا القول منه غيرُ مخالف لما عليه الأمة؛لأنه إذا كان لا يجوز فى العادة أن تستقيم أمورُ الناس من دون رئيس يحكم بينهم ؛ فقد قال بوجوب الرياسة على كلِّ حال ؛ اللهم إلا أن يقول : إنه يجوز أن تستقيم أمورُ الناس من دون رئيس ؛ وهذا بعيد أن يقوله ؛ فأما طريق وجوب الإمامة ماهى ؟ فإن مشايخنا البصريين رحمهم الله يقولون : طريق وجوبها الشرع ، وليس فى العقل ما يدلّ على وجوبها .

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين وشيخنا أبو الحسين رحمه الله تعالى : إنّ العقلَ يدلّ على وجوب الرياسة ؛ وهو قول الإمامية ، إلا أنّ الوجه الذى منه يوجب أصحابنا الرياسة غير الوجه الذى توجب الإمامية منه الرياسة ، وذاك أنّ أصحابنا يوجبون الرياسة عَلَى المكلّفين ، من حيث كان فى الرياسة مصالح دنيوية ، ودفع مضارّ دنيوية . والإمامية يُوجبون الرياسة عَلَى الله تعالى ، من حيث كان فى الرياسة لُطْف وبعدٌ للمكلّفين عن مواقعة القبائح العقلية .

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يطابق مايقوله أصحابنا ، ألا تراه كيف علّل قوله : « لا بدّ للناس من أمير » ، فقال فى تعليله : « يُجمع به الفىء ، ويقاتَل به العدوّ وتؤمّن به السُّبل ، ويؤخذ للضعيف من القوىّ » ! وهذه كلّها من مصالح الدنيا .

فإنْ قيل : ذكرتم أنّ الناس كافّة قالوا بوجوب الإمام،فكيف يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الخوارج إنّهم يقولون : « لا إمرة » !

قيل : إنهم كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك،ويذهبون إلى أنّه لاحاجةَ إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمّروا عليهم عبدَ الله بن وهب الرّاسبىّ .

* * *

فإن قيل : فسّروا لنا ألفاظ أمير المؤمنين عليه السلام .

قيل : إنّ الألفاظ كلّها ترجع إلى إمرة الفاجر .

قال : يعمل فيها المؤمن ، أى ليست بمانعة للمؤمن من العمل ، لأنه يمكنه أن يصلّى ويصوم ويتصدّق ؛ وإن كان الأمير فاجرا فى نفسه .

ثم قال : « ويستمتع فيها الكافر » أى يتمتّع بمدته ، كما قال سبحانه للكافرين : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [1] .

ويبلّغ الله فيها الأجل،لأنّ إمارة الفاجر كإمارة البَرّ،فى أنّ المدة المضروبة فيها تنتهى إلى الأجل المؤقت للإنسان .

ثم قال : « ويُجمع به الفىء ، ويُقاتَل به العدوّ،وتأمن به السبل ، ويُؤخذ به للضّعيف من القوىّ » ، وهذا كلّه يمكن حصوله فى إمارة الفاجر القوىّ فى نفسه،وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:« إنّ الله ليؤيّد هذا الدّين بالرجُل الفاجر »،وقد اتّفقت المنزلة على أنّ أمراء بنى أميّة كانوا فُجّاراً عدا عثمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد . وكان الفىء يُجْمَع بهم ، والبلاد تُفْتَح فى أيامهم ، والثغورُ الإسلامية محصنة محفوظة ، والسُّبل آمنة،والضعيف منصور على القوىّ الظالم ؛ وما ضرّ فجورُهم شيئا فى هذه الأمور . ثم قال عليه السلام : فتكون هذه الأمور حاصلة إلى أن يستريحَ برّ بموته،أو يُستراح من فاجر بموته أو عزله .

فأما الرواية الثانية ، فإنّه قد حمل التقىّ يعمل فيها للإمرة البَرّة خاصة [2] .

وباقى الكلام غنىّ عن الشرح

● ● ●

---

(١) سورة إبراهيم ٣٠ .

(٢) كذا فى ج ، وهو الوجه ، وفى ب : « يعمل فيها التقى الإمرة خاصة » .

[من أخبار الخوارج أيضاً]

وروى إبراهيم بن الحسن بن ديزيل المحدِّث فى كتاب " صِفِّين " ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن خالد بن حميد المصرى ، عن عمر مولى غُفْرة ، قال : لما رجع علىّ عليه السلام من صِفِّين إلى الكوفة ، أقام الخوارج حتى جَمُّوا[1] ، ثم خرجوا إلى صحراء بالكوفة تسمى حَرُوراء ، فنادَوْا : لا حُكْمَ إلا لله ولو كره المشركون ؛ ألا إنّ عليًّا ومعاوية أشركا فى حُكْم الله .

فأرسل علىّ عليه السلام إليهم عبدَ الله بن عباس ، فنظر فى أمرهم وكلّمهم ، ثم رجع إلى علىّ عليه السلام ، فقال له : ما رأيتَ ؟ فقال ابنُ عباس : والله ما أدرى ما هم ! فقال له علىّ عليه السلام : رأيتَهم منافقين ؟ قال : والله ما سيماهُم بسيما المنافقين ؛ إنّ بينَ أعينهم لأثرَ السجود ، وهم يتأوّلون[2] القرآن . فقال علىّ عليه السلام : دَعُوهم ما لم يسفِكوا دما ، أو ينصِبوا مالا ، وأرسل إليهم : ما هذا الذى أحدثتم ؟ وما تريدون ؟ قالوا : نريد أن نخرُجَ نحن وأنت ومَنْ كان معنا بصِفِّين ثلاث ليال ، ونتوب إلى الله من أمْرِ الحكَمين ، ثم نسير إلى معاوية ، فنقاتله حتى يحكُمَ اللهُ بيننا وبينه . فقال علىّ عليه السلام : فهلا قلتم هذا حين[3] بعثنا الحكَمين ، وأخذنا منهم العهد ، وأعطيناهُمُوه ! ألا قلتم هذا حينئذ ! قالوا : كنا قد طالت الحرب علينا ، واشتدّ البأس ، وكثُر الجراح ، وخلا الكُراع والسلاح ، فقال لهم : أفحين اشتدّ البأس عليكم ، عاهدتم ، فلما وجدتُم الجمام قلتم : نقضُ العهد ! إنّ رسول الله كان يفى للمشركين ، أفتأمرُونى بنقضِه !

فمكثوا مكانَهم لا يزالُ الواحد منهم يرجع إلى علىّ عليه السلام ، ولا يزال الآخر

---

(١) الجمام ، بالفتح : الراحة . (٢) ا : « ويتأولون » .
(٣) كذا فى ا ، ج ، وفى ب : « حيث » .

يخرج من عند عليّ عليه السلام ، فدخل واحد منهم قِبَل عليّ عليه السلام بالمسجد ، والناس حوله ، فصاح : لا حُكم إلا لله ولو كره المشركون ، فتلفّت الناس ، فنادى : لا حكم إلا لله ولو كره المتلفتون ، فرفع [1] عليّ عليه السلام رأسه إليه ، فقال : لا حكم إلا لله ولو كره أبو حسن . فقال عليّ عليه السلام : إن أبا الحسن [2] لا يكره أن يكون الحكم لله [2] ، ثم قال : حكم الله أنتظر فيكم ، فقال له الناس : هلا ملتَ يا أمير المؤمنين على هؤلاء فأفنيتهم ! فقال : إنهم لا يفنون ، إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة .

وروى أنس بن عياض المدنيّ ، قال : حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، عن أبيه عن جدّه ، أنّ عليًّا عليه السلام كان يوما يؤمّ الناس ، وهو يجهر بالقراءة ، فجهر ابنُ الكوّاء من خلفه : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [3] ، فلما جهر ابنُ الكوّاء وهو خلفه بها سكت عليّ ، فلما أنهاها ابنُ الكوّاء عاد عليّ عليه السلام ، فأتمّ قراءته ، فلما شرع عليّ عليه السلام في القراءة أعاد ابن الكوّاء الجهر بتلك الآية ، فسكت عليّ ، فلم يزالا كذلك يسكت هذا ، ويقرأ ذاك مرارا ، حتى قرأ عليّ عليه السلام : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [4] ، فسكت ابن الكوّاء ، وعاد عليه السلام إلى قراءته .

---

(١) ب : « فرجع » ، وما أثبته عن ا ، ج .
(٢ — ٢) ب : « لا يكره أن يكون الحكم إلا لله » .
(٣) سورة الزمر ٦٥ .
(٤) سورة الروم ٦٠ .

(٤١)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصل :

إنّ[1] الْوَفَاءَ تَوْءَمُ الصِّدْقِ ، وَلَا أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ ، وَمَا[2] يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ .

وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً ، وَنَسَبَهُم أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ .

مَالَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا ، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لَا حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ .

• • •

الشرح :

يقال : هذا توءم هذا ، وهذه توءمته ، وهما توءمان ؛ وإنما جُعل الوفاء توءم الصدق ؛ لأنّ الوفاء صدقٌ في الحقيقة ؛ ألا ترى أنّه قد عاهد عَلَى أمرٍ وصدق فيه ولم يُخلف ؛ وكأنهما أعمّ وأخصّ ، وكل وفاء صدق وليس كلّ صدق وفاء ، فإن امتنع من حيث الاصطلاح تسميةُ الوفاء صدقا فلأمر آخر ؛ وهو أن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول ، ولا يكون الصدق إلاّ في القول ؛ لأنّه نوع من أنواع الخبر ، والخبر قول .

---

(١) قبلها في مخطوطة النهج : « أيها الناس » .
(٢) ب : « ولا » .

ثم قال : « ولا أعلم جُنَّة » أى درعا . أوقى منه ، أى أشدّ وقاية وحفظا ، لأنّ الوفىّ محفوظ من الله ، مشكور بين الناس .

ثم قال : « وما يغدر مَنْ عَلِمَ كيف المرجع » ، أى مَنْ علم الآخرة وطوى عليها عقيدته ، منعه ذلك أن يغدِر ؛ لأنّ الغدر يُحْبِط الإيمان .

ثمّ ذكر أنّ الناس فى هذا الزمان ينسبون أصحاب الغدر إلى الكَيْس ، وهو الفطْنة والذكاء ، فيقولون لمن يخدَع ويغدِر ، ولأرباب الجريرة والمكْر : هؤلاء أذكياء أكياس ؛ كما كانوا يقولون فى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وينسُبون أرباب ذلك إلى حسن الحيلة وصحّة التدبير .

ثم قال : « ما لهم قاتلهم الله » ! دعاء عليهم

ثم قال : قد يرى الحوّل القلّب وجهَ الحيلة ، ويمنعه عنها نهيُ الله تعالى عنها ، وتحريمه بعد أن قدَر عليها ، وأمكنه ، والحوّل القلّب : الذى قد تحوّل وتقلّب فى الأمور وجرّب ، وحنّكته الخطوب والحوادث .

ثم قال : « وينتهز فُرْصتها » ، أى يبادر إلى افتراصها ويغتنمها . مَنْ لاحريجة له فى الدين ، أى ليس بذى حَرَج ، والتحرّج : التأثّم والحريجة : التقوى؛وهذه كانت سجيته عليه السلام وشيمته ، ملَكَ أهلُ الشام الماء عليه ، والشريعة بصفّين ، وأرادوا قتْله وقتلَ أهل العراق عطشا ؛ فضاربَهم على الشريعة حتى ملَكها عليهم ، وطردَهم عنها ، فقال له أهل العراق : اقتُلْهُم بسيوف العطش ، وامنعهم الماء ، وخذهم قبْضاً بالأيدى ؛ فقال : إنّ فى حدّ السيف لغنًى عن ذلك ، وإنى لاأستحلّ منعَهم الماء . فأفرَجَ لهم عن الماء فوردوه ، ثم قاسمهم الشريعة شَطْرَيْن بينهم وبينه . وكان الأشتر يستأذنه أن يبيّتَ[1] معاوية ، فيقول :

---

(١) يقال : بيت العدو ، أى قصده فى الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، وهو البيات .

إنّ رسول الله صلى الله عليه نهى أن يُبَيِّتَ المشركون ، وتوارث بنوه عليه السلام هذا الخُلق الأبيّ .

أراد القضاة أن يُبَيِّت عيسى بن موسى فمنعه إبراهيم بن عبدالله[1]

وأرسل لما ظهر بالبصرة إلى محمد بن قحطبة مولى باهلة وكان قد وُلّيَ لأبي جعفر المنصور بعضَ أعمالٍ بفارس ، فقال له : هل عندك مال ؟ قال : لا ، قال : آللهِ ؟ قال : آلله . قال : خلُّوا سبيله ، فخرج ابن قحطبة ، وهو يقول بالفارسية : ليس هذا من رجال أبي جعفر . وقال لعبد الحميد بن لاحق : بلغني أن عندك مالا للظلمة ، بني آل أبي أيوب الموريانيّ كاتب المنصور ، فقال : ما لهم عندي مال . قال : نُقسم بالله ! قال : نعم ، فقال : إن ظهرَ لهم عندك مال لأعدّنك كذابا[2] .

وأرسل إلى طلحة البندري — وكان المنصور عنده مال — : بلغنا أنّ عندك مالا فأتنا به ، فقال : أجل ، إنّ عندي مالا ، فإن أخذتَه مني أغرمنيه أبو جعفر ، فأضرب عنه .

وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبي طالب من هذا النوع أخبار كثيرة ، وكان القوم أصحابَ دين ليسوا من الدنيا بسبيل ، وإنما يطلبونها ليقيموا عمود الدين بالإمرة فيها ، فلم يستقم لهم ، والدنيا إلى أهلها أميل .

* * *

---

(١) هو إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ؟ دخل البصرة على عهد أبي جعفر المنصور ودعا الناس إلى أخيه محمد بن عبد الله فبايعه كثيرون من أهلها ، ثم استولى على الأهواز وواسط ، ولم يزل يهاجم أتاه نعي أخيه محمد قبل عطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام ، فأرسل إليه أبو جعفر قائده عيسى بن موسى ، فخرج إبراهيم للاقاته ؟ والتقيا عند باخرى وكانت الغالبة لعيسى ، وقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة ١٤٥ ، والقضاء أحد رجاله . مقاتل الطالبيين ٣١٥ وما بعدها . وتاريخ الطبري (حوادث سنة ١٤٥) .

(٢) مقاتل الطالبيين ٣٣٣ .

[الأخبار والأحاديث والآيات الواردة في مدح الوفاء وذم الغدر]

ومن الأخبار النبوية المرفوعة في ذم الغدْر : « ذمة المسلمين واحدة ، فإن جارت عليهم أمة منهم ، فلا تخفِروا جوارها ، فإنّ لكل غادر لواء يعرَف به يوم القيامة »[١].

وروى أبو هريرة ، قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجل يبيع طعاما فسأله : كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأمر أبا هريرة أن يدخل فيه يدَه ، فأدخلها فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ليس منّا من غشّ » .

قال بعضُ الملوك لرسولٍ وردَ إليه من ملك آخر : أطلعْني على سِرّ صاحبك ، فقال : أيها الملك ، إنّا لا نستحسن الغدر ، وإنه لو حُوِّل ثواب الوفاء إليه لما كان فيه عوض من قُبْحه ، ولكان سماجة اسمه وبشاعة ذكره للعوِّين عنه .

مالك بن دينار : كفى بالمرء خيانة أن يكون أميناً للخونة .

وقّع جعفر بن يحيى على ظهر كتابٍ كتبه عليّ بن عيسى بن ماهان إلى الرشيد ، يسعى[٢] فيه بالبرامكة ، فدفعه الرشيدُ إلى جعفر ، يمنّ به عليه ، وقال : أجبْه عنه ، فكتب في ظاهره : حبّب الله إليك الوفاء يا أخي فقد أبغضتَه ، وبغّض إليك الغدْر فقد أحببتَه ، إنّي نظرت إلى الأشياء حتى أجدَ لك فيها مشبها فلم أجد ، فرجعت إليك ، فشبّهتك بك ؛ ولقد بلغ من حسن ظنّك بالأيام أنْ أمِنْتَ السلامة مع البغي ، وليس هذا من عاداتها . والسلام .

كان العهد في عيسى بن موسى بن محمد بعد المنصور بكتاب كتبه السفّاح . فلما طالت أيامُ المنصور ، سامه أن يخلع نفسَه من العهد ، ويقدّم محمداً المهديّ عليه ، فكتب إليه عيسى :

بَدَتْ لِي أماراتٌ من الغدْرِ شِمْتُها أرى ما بدا منهـــا سيُمطِرُكُمْ دَمَا

---

(١) نقله السيوطي في الجامع الصغير ٢ : ٣٠ عن الحاكم ، مع اختلاف في الرواية .
(٢) السعي هنا : الوشاية .

وَمَا يعلمُ العـــالِي مَتَى هبطـاتُه ... وإن سار في ريح الغُرورِ مُسَلَّمــا

أبو هريرة يرفعه: «اللهمّ إني أعوذ بك من الجوع فبئسَ الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فبئست البطانة!».

وعنه مرفوعا: «المكر والخديعة والخيانة في النار».

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب، عند زوال أمره: أرى أن تصير إلى هؤلاء، فلعلّك أن تنفعني في مخلفي، فقال: وكيف لي بعلم الناس جميعاً أنّ هذا عن رأيك! إنّهم ليقولون كلهم: إني غَدَرْتُ بك، ثم أنشد:

وغَدْرِي ظاهرٌ لاشكّ فيه ... لمبصره وعذري بالمَغِيبِ

فلما ظفر به عبد الله بن عليّ، قطع يديه ورجليه، ثم ضرب عُنقه.

كان يقال: لا يغدر غادر إلّا لصغر همّته عن الوفاء، واتّضاع قَدْره عن احتمال المكاره في جَنْب نَيْل المكارم.

من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: الوفاء لأهل الغدر غَدْر، والغدرُ بأهل الغدر وفاء عند الله تعالى.

قلت: هذا إنما يريد به إذا كان بينهما تعهّد ومُشارطة، فغدَر أحد الفريقين، وخاس بشرطه، فإنّ للآخر أن يغدر بشرطه أيضاً ولا يفي به.

ومن شعر الحماسة، واسم الشاعر العارق الطائي[1]:

(١) واسمه أيضاً قيس بن جروة الطائي؛ والأبيات في ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ٣: ١٤٦٦، ١٤٦٧. قال الشارح: «كان عمرو بن هند غزا اليمامة فأخفق ورجع منفضاً، فمر بطيء — وكانوا في ذمته — بكتاب عقد كتبه لهم، وعهد أحكمه معهم، فقال زرارة بن عدس له: أبيت اللعن! أصب من هذا الحي شيئاً. قال: ويلك! إن لهم عقداً لا يجوز لنا نقضه. فأخذ زرارة يهون أمر العهد عليه، ويحسن الإيقاع بهم، فلم يزل يحتال له في الغدرة والمآرب معه لغيّ كان في نفسه على طيء، حتى أصاب أذواداً ونساء، فهجا عارق عمرو بن هند بأبيات يعتب بها رأسه فيها بالغدر الذي كان منه، فوقعت الأبيات إلى عمرو بن هند، فتوعد عارقاً وحلف أنه يقتله، فاتصلت مقالته بعارق، فقال هذه الأبيات».

مَنْ مبلغٌ عَمْرو بن هِنْدٍ رسالةً ... إذا استحقبتْها العيسُ جاءتْ من البُعْدِ[(١)]

أبو عدّنى والرَّمْلُ بينى وبينَه ... تبيَّنْ رُويداً ما أمامةُ من هِنْدِ[(٢)]

ومِنْ أجَأ حَوْلى رِعانٌ كأنّها ... قنابلُ خَيْلٍ من كُمَيْتٍ ومن وَرْدِ[(٣)]

غدرتَ بأمرٍ كنتَ أنت اجْتَرَرْتَنا ... إليه وبئس الشيمةُ الغدر بالعهدِ[(٤)]

قال أبو بكر الصديق : ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه كُنَّ عليه : البغى والنَّكْثُ والمكر ؛ قال سبحانه : ﴿ يٰأيُّها النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾[(٥)]، وقال : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾[(٦)]، وقال : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[(٧)]



(١) استحقبتها : حملتها فى الحقائب .
(٢) أبو عدنى ، الاستفهام على طريق التقريع واستعظام الأمر .
(٣) أجأ : أحد جبلى طيىء ، وثانيهما سلمى . والرعان : جمع رعن ؛ وهو أنف يتقدم من الجبل . والقنابل جماعات الخيل ، قال التبريزى : « جعلها مختلفة الألوان لاختلاف ألوان الجبال » .
(٤) فى حماسة المرزوقى « اجتذبتنا » . وفى التبريزى : « دعوتنا » .
(٥) سورة يونس ٢٣ .
(٦) سورة الفتح ١٠ .
(٧) سورة فاطر ٤٣ .

(٤٢)

ومن خطبة له عليه السلام :

الأصْـلُ :

أيُّها النَّاسُ ، إنَّ أخْوَفَ مَا أخَافُ عَلَيْكم اثنان : اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الأَمَل ؛ فَأمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ ، وَأمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ .

ألَا وَإنَّ الدُّنيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلَّا صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإنَاءِ ، اصْطَبَّهَا صَابُّهَا . ألَا وَإنَّ الآخِرَةَ قَدْ أقْبَلَتْ ؛ وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُون ، فَكُونُوا مِن أبْنَاءِ الآخِرَةِ وَلَا تَكُونُوا مِنْ أبْنَاءِ الدُّنيَا ، فَإنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ ، وَغَداً حِسَابٌ وَلَا عَمَل .

* * *

قال الرضى رحمه الله :

أقول : الحذَّاء : السَّريعة ، ومن النَّاس من يَرْويه : « جَذَّاء » بالجيم والذّال ، أى انقطع درُّها وخيرُها .

* * *

الشّـرْحُ :

الصُّبابة : بقية الماء فى الإناء . واصطبها صابُّها ، مثل قولك : أبقاها مُبقيها أو تركها تاركها ؛ ونحو ذلك ، يقول : أخوَف ما أخافه عليكم اتباع الهوى وطول الأمل ، أما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق ؛ وهذا صحيح لاريب فيه ، لأنّ الهوى يُعمى البصيرة ، وقدقيل :

حُبُّكَ الشيءَ يُعمِي ويُصِمّ ، ولهذا قال بعض الصالحين : رحم الله امرأً أهدى إلىَّ عيوبي ؛ وذلك لأنّ الإنسان يحبُّ نفسه ، ومن أحبَّ شيئاً عَمِيَ عن عيوبه ، فلا يكاد الإنسانُ يلمح عيبَ نفسه ، وقد قيل :

أَرَى كُلَّ إِنْسَانٍ يَرَى عَيْبَ غَيْرِهِ ... وَيَعْمَى عَنِ الْعَيْبِ الَّذِي هُوَ فِيهِ

فلهذا استعان الصالحون عَلَى معرفة عيوبهم بأقوال غيرهم ، علماً منهم أنّ هوى النفس لذاتها يُعميها عن أن تُدرك عيبَها ، وما زال الهوى مُرْدياً قتّالا ، ولهــذا قال سبحانه : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾[1] ، وقال صلى الله عليه وآله : « ثلاثٌ مُهلِكَات : شُحٌّ مُطاعٌ ، وهوًى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه »[2] .

وأنت إذا تأملت هلاكَ مَنْ هلك من المتكلمين كالمجبرة والمرجئة ، مع ذكائهم وفطنتهم واشتغالهم بالعلوم ، عرفتَ أنه لا سببَ لهلاكهم إلا هوى الأنفس ، وحبّهم الانتصار للمذهب الذى قد ألفوه ، وقد رأسوا بطريقه ، وصارت لهم الأتباع والتلامذة ، وأقبلت الدنيا عليهم ، وعدّهم السلاطين علماء ورؤساء ، فيكرهون نقض ذلك كلّه وإبطاله ، ويحبون الانتصار لتلك المذاهب والآراء التى نشئوا عليها ، وعرفوا بها ، ووصلوا إلى ما وصلوا إليه بطريقها ، ويخافون عار الانتقال عن المذهب ، وأن يشتفيَ بهم الخصوم ويقرّعهم الأعداء ؛ ومن أنصفَ علِم أنّ الذى ذكرناه حقّ . وأما طولُ الأمل فينسى الآخرة ؛ وهذا حقّ ، لأن الذهن إذا انصرف إلى الأمل ، ومدّ الإنسان فى مداه ، فإنه لا يذكر الآخرة ، بل يصير مستغرق الوقت بأحوال الدنيا ، وما يرجو حصوله منها فى مستقبل الزمان .

---

(١) سورة النازعات ٤٠ .

(٢) كذا أورد الحديث مختصراً ، ونقله السيوطى فى الجامع الصغير (١ : ٢٣٦) بهذه الرواية : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، وثلاث كفارات ؛ وثلاث درجات ؛ فأما المهلكات فشح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه ، وأما المنجيات . . . » إلى آخر الحديث .

ومن كلام مِسعر بن كِدام : كم من مُستقبِل يوماً ليس بمستكمِله ، ومنتظرٍ غداً ليس من أجَله ! ولو رأيتم الأجل ومسيرَه أبغضتم الأملَ وغروره .

وكان يقال : تسويف الأمل غرار ، وتسويل المحال ضرار .

ومن الشعر المنسوب إلى علىّ عليه السلام :

غَرَّ جَهُولًا أملُهْ   يموتُ مَنْ جَا أجلُهْ

وَمَنْ دَنَا مِنْ حَتْفِهِ   لَمْ تُغْنِ عَنْهُ حِيَلُهْ

وَمَا بقاء آخِرٍ   قَدْ غَابَ عَنْهُ أوَّلُهْ

والمرء لا يصحَبُهُ   فى القَبْرِ إلا عَمَلُهْ

وقال أبو العتاهية :

لا تأمَنِ الموتَ فى لحظٍ وَلَا نَفَسٍ   ولو تمنّعتَ بالحجّاب والحَرَسِ[1]

واعلَمْ بأنّ سِهَامَ الموتِ قاصدةٌ   لكلِّ مُدَّرِعٍ مِنّا ومُتَّرِسِ

مابالُ دينك تَرضَى أن تدنِّسَهُ   وثوبُ لُبسك مَغسُولٌ مِنَ الدَّنَسِ !

ترجُو النَّجاةَ وَلَمْ تَسلُكْ مَسالِكَها   إنّ السَّفينَةَ لا تجرِى عَلَى اليَبَسِ

ومن الحديث المرفوع : « أيها الناس إنّ الأعمالَ تُطوَى ، والأعمار تفنى، والأبدانَ تَبلَى فى الثرى ، وإن الليل والنهار يتراكضان تراكُضَ الفرقدين ، يقرّبان كلّ بعيد ، ويُخْلِقان كل جديد ؛ وفى ذلك ماألهى عن الأمل ، وأذكرك بحُلول الأجل » .

وقال بعض الصالحين : بقاؤك إلى فناء ، وفناؤك إلى بقاء ، فخذ من فنائك الذى لا يبقى ، لبقائك الذى لا يفنى .

وقال بعضهم : اغتنم تنفُّس الأجل ، وإمكان العمل ، واقطع ذِكْرَ المعاذير والعلَل ؛ ودع تسويفَ الأمانى والأمل ؛ فإنك فى نفسٍ معدود ، وعمرٍ محدود ، ليس بممدود .

وقال بعضهم : اعمل عَمل المرتحل ، فإنّ حادىَ الموت يحدُوك ليوم لا يعدوك .

---

(١) ديوانه ١٣٣ .

ثم قال عليه السلام : «ألا إن الدنيا قد أدبرت حذّاء » بالحاء والذال المعجمة ؛ وهى السريعة ، وقطاة حذّاء : خفّ ريشُ ذَنَبها ، ورَجُل أحذّ ، أى خفيف اليد ، وقد رُوى، « قد أدبرت جذّاء » بالجيم ؛ أى قد انقطع خَيْرُها ودَرّها .

ثم قال : إن كل ولد سيلْحَق بأمّه يوم القيامة ، فكونوا من أبناء الآخرة لتلحقوا بها وتفوزوا ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا فتلحقوا بها وتخسروا .

ثم قال : «اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل » ، وهذا من باب المقابلة فى علم البيان[1] .



(١) هنا آخر الجزء الثانى فى نسخة ا ، وبها بعد هذه الكلمة : « تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة »

(٤٣)

ومن كلام له عليه السلام ، وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام ، بعد إرساله إلى معاوية بجرير بن عبد الله البجليّ :

الأصلُ :

إنَّ اسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ ، وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ ، وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً ، وَالرَّأْيُ مَعَ الأَنَاةِ فَأَرْوِدُوا ، وَلا أَكْرَهُ لَكُمُ الإِعْدَادَ .

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الأَمْرِ وَعَيْنَهُ ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ ، فَلَمْ أَرَ فِيهِ[1] إِلَّا القِتَالَ أَوِ الكُفْرَ[2] بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ[2] .

إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الأُمَّةِ وَالٍ أَحْدَثَ أَحْدَاثاً ، وَأَوْجَدَ النَّاسَ[3] مَقَالاً فَقَالُوا ، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا .

* * *

الشرح :

أرْوِدُوا ، أي ارفُقوا ، أرْوَد في السير إروادا ، أي سار برِفْق ، والأناة : التثبّت والتأنّي . وجهه لهم عن الاستعداد ، وقوله بعد : « ولا أكره لكم الإعداد » غيرُ متناقض ، لأنه كره منهم إظهار الاستعداد والجهر به ، ولم يكره الإعداد في السّر ، وعلى وجه الخفاء .

---

(١) كذا في ب ، وفي ا : « فلم أر إلا القتال » ، وفي ج : « فلم أر لي إلا القتال » .

(٢ ــ ٢) كذا في ب ، وهو ساقط من ا ، ج .

(٣) مخطوطة النهج : « الناس » .

والكتمان ؛ ويمكن أن يقال إنّه كره استعداد نفسه ، ولم يكره إعداد أصحابه ؛ وهذان متنافران . وهذا الوجهُ اختاره القطب الراوندىّ .

ولقائل أن يقول : التعليلُ الذى علّل به عليه السلام يقتضى كراهيّة الأمْرين معا ، وهو أن يتصل بأهل الشام الاستعداد فيرجعوا عن السّلم إلى الحرب ؛ بل ينبغى أن تكونَ كراهته لإعداد جيشه وعسكره خيولَهم وآلات حربهم أوْلى؛ لأنّ شياع ذلك أعظمُ من شياع استعداده وحده ، لأنه وحدَه يمكن أن يكْتم استعداده ، وأما استعداد العساكر العظيمة ، فلا يمكن أن يُكْتمَ ، فيكون اتّصاله وانتقاله إلى أهل الشام أسرَع ، فيكون إغلاق الشام عن باب خير إن أرادوه أقرب ؛ والوجه فى الجمع بين اللفظتين ما قدمناه .

وأما قوله عليه السلام : « ضربت أنفَ هذا الأمر وعينَه » ، فمثل تقوله العرب إذا أرادت الاستقصاء فى البحث والتأمّل والفِكر ؛ وإنما خصّ الأنف والعين ، لأنهما صورة الوجه ، والذى يتأمّل من الإنسان إنما هو وجهه .

وأما قوله : « ليس إلّا القتالُ أو الكفر » فلأنّ النهىَ عن المنكر واجبٌ على الإمام ، ولا يجوز له الإقرار عليه ، فإن تركَه فسَق ، ووجبَ عزلُه عن الإمامة .

وقوله : «أو الكفر»من باب المبالغة؛ وإنما هو القتال أو الفِسْق ، فسمّى الفِسْق كفرا تغليظا وتشديداً فى الزجر عنه .

وقوله عليه السلام : « أوجد النّاس مقالا » ، أىْ جعلَهم واجدين له [١] .

وقال الراوندىّ : أوجد ها هنا بمعنى «أغضب» . وهذا غير صحيح ، لأنه لا شىء ينصب به « مقالا » إذا كان بمعنى « أغضب » . والوالى المشار إليه عثمان .

---

(١) عبارة ابن ميثم : « أى جعل لهم بذلك الأحداث طريقاً إلى القول عليه فقالوا » .

[ذكر ما أورده القاضى عبد الجبار من دفع ما تعلق به الناس على عثمان من الأحداث]

يجب أن نذكر ها هنا أحداثه ، وما يقوله أصحابنا فى تأويلاتها ، وما تكلّم به المرتضى فى كتاب " الشافى " فى هذا المعنى ، فنقول :

إنّ قاضى[1] القضاة رحمه الله تعالى ، قال فى " المغنى " قبل الكلام فى تفصيل هذه الأحداث كلاما مجملا ، معناه أنّ كل مَنْ تثبت عدالته ووجب تولّيه إمّا على القطع وإمّا على الظاهر فغير جائز أن يُعدَل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمر متيقّن يقتضى العدول عنها ، يبيّن ذلك أنّ مَنْ شاهدناه على ما يوجب الظاهر تولّيه وتعظيمه يجب أن يبقَى فيه على هذه الطريقة ، وإن غاب عنّا . وقد عرفنا أنّهُ مع الغيبة يجوز أن يكون مستمرًا على حالته ، ويجوز أن يكون منتقلا ، ولم يقدح هذا التجويز فى وجوب ماذكرناه .

ثم قال : فالحدث الذى يُوجِب الانتقال عن التعظيم والتولّى إذا كان من باب محتمَل لم يجز الانتقال لأجله . والأحوال المقرّرة فى النفوس بالعادات والأحوال المعروفة فيمن تولّاه أقوى فى باب الإمارة من الأمور المتجدّدة ؛ فإنّ مثلَ فرقد السَّبَخى[2] ، ومالك ابن دينار[3] لو شوهدا فى دارٍ فيها منكر لَقَوِىَ فى الظّنّ حضورهما للتغيير والإنكار ؛

---

(١) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمدانى ، صاحب كتاب « المغنى » فى الجدل ؛ وإمام أهل المعتزلة فى زمانه ، توفى سنة ٤١٥ . طبقات الشافعية ٣ : ٢١٩ .

(٢) السبخى ، بفتح السين والباء الموحدة ، وفى آخرها خاء معجمة : منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، وهو أبو يعقوب فرقد بن يعقوب السبخى ، من زهاد البصرة ، ومات سنة ١٣١ معجم البلدان ٥ : ٢٧ .

(٣) هو أبو يحيى مالك بن دينار ؛ وكان من كبار الزهاد والوعاظ ؛ روى عن أنس بن مالك وعن جماعة من كبار التابعين كالحسن وابن سيرين ، توفى سنة ١٣٠ . صفة الصفوة ٣ : ١٩٧ .

أو على وجه الإكراه أو الغلط ؛ ولو كان الحاضر هناك مَنْ عُلِم من حاله الاختلاط بالمنكر لجوّز حضوره للفساد ؛ بل كان ذلك هو الظاهر من حاله .

ثم قال : واعلم أن الكلامَ فيما يُدَّعى من الحدَث والتغيّر فيمن ثبت توليه ؛ قد يكونُ من وجهين :

أحدُ هما : هل عُلِم بذلك أم لا ؟

والثانى : أنّه مع يقين حصوله : هل هو حَدَثٌ يؤثّر فى العدالة أم لا ؟

ولا فرق بَيْن تجويز ألّا يكون حدث أصلا ، وبين أن يعلم حدوثه ويجوز ألّا يكون حدثا .

ثم قال : كلّ محتمل لو أخبر الفاعل أنه فعله على أحد الوجهين ، وكان يغلِبُ على الظن صدقه لوجب تصديقه ، فإذا عرف من حاله المتقررة فى النفوس مايطابق ذلك جرَى مجرى الإقرار ؛ بل ربما كان أقوى ؛ ومتى لم نسلك هذه الطريقة فى الأمور المشتبهة لم يصح فى أكثر من نتولّاه ونعظّمه أن تسلم حاله عندنا ، فإنّ لو رأينا من يُظَنّ به الخير يكلّم امرأة حسناء فى الطريق لكان ذلك من باب المحتمل ؛ فإذا كان لو أخبر أنّها أخته أو امرأته لوجب ألا نحول عن توليه ، فكذلك إذا كان قد تقدّم فى النفوس ستره وصلاحه ؛ فالواجب أنْ نحمِلَه على هذا الوجه .

ثم قال : وقول الإمام له مزيّة فى هذا الباب ؛ لأنه آكد من غيره ، وأمّا ما ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإنه وإن لم يكن مقطوعا به يؤثّر فى هذا الباب ، ويكون أقوَى مما تقدّم .

ثم قال : وقد طعن الطاعنون فيه بأمور متنوعة مختلفة ؛ ونحن نقدّم على تلك المطاعن كلاما مُجملا ؛ يبين بطلانها على الجملة ، ثم نتكلم عن تفصيلها .

قال : وذلك أنّ شيخنا أبا على[1] رحمه الله تعالى قد قال : لو كانت هذه الأحداث مما تُوجب طعنا على الحقيقة ، لوجب من الوقت الذى ظهر ذلك من حاله أن يطلب المسلمون رجلا يُنصَّب للإمامة ، وأن يكون ظهور ذلك من عثمان كونه ؛ فإنه لاخلاف أنّه متى ظهر من الإمام ما يوجب خلعه ، أنّ الواجب على المسلمين إقامة إمام سواه ، فلما علمنا أنّ طلبّهم لإقامة إمام إنّما كان بعد قتله ، ولم يكن من قبلُ والتمكن قائم ، علمنا بطلان ما أضيف إليه من الأحداث .

قال : وليس لأحد أن يقول : إنهم لم يتمكّنوا من ذلك ؛ لأنّ المعالَم من حالهم أنّهم حصروه ومنعوه من التمكّن من نفسه ، ومن التصرف فى سلطانه ؛ خصوصا والخصوم يدّعون أنّ الجميع كانوا على قولٍ واحد فى خلْعه والبراءة منه .

قال : ومعلوم من حال هذه الأحداث أنّها لم تحصل أجمع فى الأيام التى حوصر فيها وقتِل ، بل كانت تحصل من قبلُ حالا بعد حال ، فلو كان ذلك يُوجب الخلع والبراءة لما تأخّر من المسلمين الإنكارُ عليه ؛ ولكان كبار الصحابة المقيمون بالمدينة أوْلَى بذلك من الواردين من البلاد ؛ لأن أهل العلم والفضل بإنكار ذلك أحق من غيرهم .

قال : فقد كان يجبُ على طريقتهم أن تحصُل البراءة والخلعُ من أول الوقت الذى حصَل منه ما أوجب ذلك ، وألّا ينتظر حصول غيره من الأحداث ، لأنه لو وجب انتظار ذلك لم ينته إلى حدّ إلا وينتظر غيره .

ثم ذكر أنّ إمساكهم عن ذلك إذا تيقنوا الأحداث منه يُوجب نسبة الجميع إلى الخطأ والضلال . ولا يمكنهم أن يقولوا : إنّ علمهم بذلك إنما حصل فى الوقت الذى حُصِر ومُنِـع ؛ لأنّ من جملة الأحداث التى يذكرونها ما تقدم عن هذه الحال ؛ بل كلها أو جلّها تقدم هذا الوقت ؛ وإنما يمكنهم أن يتعلقوا فيما حدث فى هذا الوقت بما يذكرونه من

(١) هو محمد بن عبد الوهاب الجبائى ، شيخ المعتزلة ، توفى سنة ٣٠٣ . شذرات الذهب ٢ : ٢٤١ .

حديث الكتاب النافذ إلى ابن أبي سَرْح بالقتل ، وما أوجب كون ذلك حدثا يوجب كونَ غيره حـدثا ، فـكان يجب أن يفعلوا ذلك من قبل ؛ واحتمالُ المتقدّم للتأويل كاحتمال المتأخر .

ثم قال : وبعد ؛ فليس يخلو من أن يدّعوا أنّ طلب الخلع وقع من كلّ الأمة أو من بعضهم ؛ فإن ادّعَوا ذلك فى بعض الأمة ، فقد علمنا أنّ الإمامة إذا ثبتت بالإجماع لم يجز إبطالُها بلا خلاف ، لأنّ الخطأ جائز على بعض الأمة ، وإن ادعَوا فى ذلك الإجماع لم يصح ؛ لأن من جملة أهل الإجماع عثمان ومَنْ كان بنصره ، ولا يمكن إخراجهم من الإجماع ، بأن يقال : إنه كان على باطل ؛ لأن بالإجماع يتوصّل إلى ذلك ، ولم يثبت.

ثم قال : على أنّ الظاهر من حال الصحابة أنّها كانت بين فريقين ؛ أمّا مَنْ نصره ، فقد رُوِى عن زيد بن ثابت أنه قال لعثمان ومن معه من الأنصار : ائذن لنا بنصرك . وروى مثل ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة والمغيرة بن شعبة ، والباقون ممتنعون انتظاراً لزوال العارض ؛ إلا إنه لو ضُيّق عليهم الأمر فى الدفع ماقعدوا ، بل المتعالَم من حالهم ذلك .

ثم ذكر مارُوِى من إنفاذ أمير المؤمنين عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام إليه ، وأنه لما قُتِل لامَهما عليه السلام على وصول القوم إليه ، ظنا منه أنهما قصّرا .

وذكر أنّ أصحاب الحديث يروون عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال : «ستكونُ فتنة واختلاف ، وإنّ عثمان وأصحابَه يومئذ على الهدى» . ومارُوِىَ عن عائشة من قولها : «قُتِل والله مظلوما» .

قال : ولا يمتنع أن يتعلق بأخبار الأحاديث فى ذلك ؛ لأنه ليس هناك أمر ظاهر يدفعه ؛ نحو دعواهم أن جميعَ الصحابة كانوا عليه ؛ لأنّ ذلك دعوى منهم ، وإن كان فيه رواية من جهة الآحاد ؛ وإذا تعارضت الروايات سقطت ، ووجب الرجوع إلى ماثبت من أحواله السليمة ، ووجوب توليه .

قال : ولا يجوز أن يعدّل عن تعظيمه وصحّة إمامته بأمور محتملة ؛ فلاشيء مماذكروه إلّا ويحتمل الوجه الصحيح .

ثم ذكر أنّ للإمام أن يجتهدَ برأيه في الأمور المَنُوطة به ، ويعمل فيها على غالب ظنه؛ وقد يكون مصيبا ، وإن أفضتْ إلى عاقبة مذمومة .

فهذه جملة ماذكره قاضي القضاة رحمه الله تعالى في " المغني " من الكلام إجمالا في دفع مايُتعلق به على عثمان من الأحداث[1] .

* * *

[رد المرتضى على ماأورده القاضي عبد الجبار من الدفاع عن عثمان]

واعترض المرتضى رحمه الله تعالى في " الشافي[2] " ، فقال :

أما قوله : « مَنْ تثبت عدالته ووجب توليه إمّا قطعا أو على الظاهر ؛ فغير جائز أن يَعْدِل فيه عن هذه الطريقة إلا بأمر متيقَن » ؛ فغير مُسَلم لأن مَنْ نتولاه على الظاهر ، وتثبت عدالتُه عندنا من جهة غالب الظنّ ، يجب أن نرجع عن ولايته بما يقتضي غالبَ الظنّ دون اليقين ؛ ولهذا يؤثّر في جَرْح الشهود وسقوط عدالتهم أقوالُ الجارحين؛ وإن كانت مظنونة غير معلومة . وما يظهر من أنفسهم من الأفعال التي لها ظاهر يُظَنّ معه القبيح بهم حتى نرجعَ عما كنا عليه من القول بعدالتهم ؛ وإن لم يكن كلُّ ذلك متيقَّنا ، وإنما يصح ماذكره فيمن تثبتْ عدالته على القَطْع ووجب توليه على الباطن؛ فلايجوز أن يؤثّر في حاله مايقتضي الظنّ ، لأنّ الظنّ لا يقابل العلم ، والدلالة لا تقابل الأمارة .

فإن قال : لم أرِدْ بقولي إلا بأمرٍ متيقَن أن كونه حدَثا متيقَن ؛ وإنما أردت تيقُّنَ وقوع الفعل نفسِه .

قلنا : الأمرانِ سواء في تأثير غَلَبة الظنّ فيهما ، ولهذا يؤثّر في عدالة مَنْ تقدمتْ

(١) نقله المرتضى في الشافي ٢٦٣ ، ٢٦٤ مع تصرف في العبارة .
(٢) كتاب الشافي في الإمامة والرد على كتاب المغني . طبع في العجم سنة ١٣٠١ .

عدالته عندنا على سبيل الظنّ أقوالُ من يخبرنا عنه بارتـكاب القبائح[1] إذا كانوا عدولا، وإن كانتْ أقوالهم لاتقتضِى اليقينَ ، بل يحصل عندها غالبُ الظنّ . وكيف لانرجع عن ولاية مَنْ توليناه على الظّاهر بوقوع أفعالٍ منه يقتضى ظاهرُها خلافَ الولاية ، ونحن إنما قلنا بعدالته فى الأصـل على سبيل الظاهر ! ومع التجويز لأن يكون ماوقع منه فى الباطن قبيحا لايستحقّ به التولّى والتعظيم ، ألا ترى أنّ مَنْ شاهدْناه يلزمُ مجالسَ العلم ، ويكرر تلاوة القرآن ، ويدمِنُ الصلاة والصيام والحج ، يجب أن نتولّاه ونعظّمه على الظاهر ولو أن جوّزنا أن يكون جميعُ ماوقع منه مع خبث باطنه ، وأن غرضه فى فعله القبيح فلم نتولّه إلا على الظاهر . ومع التجويز ، فـكيف لانرجع عن ولايته بما يقابل هذه الطريقة ! فأما مَنْ غاب عنّا وتقدمت له أحوال تقتضى الولاية ، فيجب أن نستمرّ على ولايته ؛ وإن جوزْنا على التبية أن يكون منتقلا عن الأحوال الجميلة التى عهدناها منه ؛ إلا أنّ هذا تجويزٌ محض لاظاهر معه يقابل ماتقدّم من الظاهر الجميل ، وهو بخلاف ماذكرناه من مقابلة الظاهر الظاهر ، وإن كان فى كلّ واحد من الأمرين تجويز .

قال : وقد أصاب فى قوله : « إنّما يحمل لاينقل[2] له عن التعظيم والتولّى » إن أراد بالاحتمال مالا ظاهر له ، وأمّا ماله ظاهر ومع ذلك يجوز أن يكون الأمر فيه بخلاف ظاهره؛ فإنه لايسمّى محتملا . وقد يكون مؤثرا فيما ثبت من التولى على الظاهر على ماذكرناه .

قال : فأما قوله : « إنّ الأحوال المتقررة فى النفوس بالعادات فيمن نتولّاه تؤثّر مالايؤثر غيرها ، وتقتضى حمْل أفعاله على الصحة والتأول له » ؛ فلا شك أنّ ماذكره مؤثّر وطريق قوى إلى غلبة الظنّ ، إلا أنه ليس يقتضى مايتقرر فى نفوسنا لبعض مَنْ نتولاه على الظاهر أن نتأول كلّ مايشاهَد منه من الأفعال التى لها ظاهر قبيح ، ونحمل الجميعَ على

---

(١) الشافى : « قبيح » .

(٢) الشافى : « لايجوز أن ينقل له » .

أجمل الوجوه ، وإن كان بخلاف الظاهر ، بل ربما نبين الأمرُ فيا يقع[1] منه من الأفعال التى ظاهرُها القبيح إلى أن تؤثّر فى أحواله المقرّرة ، ونرجع بها عن ولايته ؛ ولهـذا نجد كثيرا من أهلِ العدالة المقرّرة لهم فى النفوس ، ينسلخون منها حتى يلحقوا بمن لاتثبت له فى وقت من الأوقات عدالة ، وإنّما يكون ذلك بمـا يتوالى منهم ويتكرر من الأفعال القبيحة الظاهرة .

قال : فأمّا مااستشهد به من أنّ مثل مالك بن دينار لوشاهدناه فى دارٍ فيها منكَر لقوِىَ فى الظن حضورُه لأجل التغيير والإنكار[2] ، أو على وجه الإكراه والغلط وأنّ غيره يخالفه فى هـذا الباب ؛ فصحيح لايخالف ماذكرناه ؛ لأنّ مثل مالك بن دينار ممّن تناصرتْ أمارات عدالته وشواهد نزاهته حالا بعدحال ،لايجوز أن يقدَح فيه فعل له ظاهر قبيح ، بل يجب لما تقدّم مِنْ حاله أن نتأوّل فعله ، ونخرجَه عن ظاهره إلى أجمل وجوهه. وإنما وجب ذلك لأنّ الظنون المتقدمة أقوى وأولى بالترجيح والغلبة ، فنجعلُها قاضية على الفعل والفعلين ،ولهذا متى توالت منه الأفعال القبيحة الظاهرة وتكرّرت، قدحت فى حاله، وأثّرت فى ولايته ، كيف لايكون كذلك وطريق ولايته فى الأصل هو الظنّ والظاهر ، ولابدّ مِنْ قدح الظاهر فى الظاهر ، وتأثير الظن فى الظن على بعض الوجوه .

قال : فأما قوله : « فإنّ كلّ محتمل لوأخبرنا عنه وهو مما يغلب على الظنّ صدقه أنه فعله على أحد الوجهين، وجب تصديقُه ، فمتى عرف من حاله المقرّرة فى النفوس مايطابق ذلك ، جَرَى مجرى الإخبار[3] » ؛ فأوّل مافيه أنّ « المحتَمل » هو مالاظاهر له من الأفعال، والذى يكون جواز كونه قبيحا كجواز كونه حسنا ، ومثل هذا الفعل لا يقتضى ولاية

---

(١) الثانى : « فيا يرجع منه » .
(٢) الثانى : « التنكير » .
(٣) الثانى : « الإقرار » .

ولا عداوة ، وإنما يقتضى الولاية ماله من الأفعال ظاهر جميل ، ويقتضى العداوة ماله ظاهر قبيح .

فإن قال : أردتُ بالمحتمَل ماله ظاهر ، لكنه يجوز أن يكونَ الأمر بخلاف ظاهره .

قيل له : ماذكرتَه لا يسمى محتملا ؛ فإنْ كنتَ عنيتَه فقد وضعت العبارة فى غير موضعها ، ولاشكَّ فى أنه إذا كان ممّن لو أخبرنا بأنه فعل الفعل على أحد الوجهين لوجب تصديقُه، وحمل الفعل على خلاف ظاهره ؛ فإنّ الواجب لما تقرّر له فى النفوس أن يُتأوّل له ويعدل بفعله عن الوجه القبيح إلى الوجه الجميل ، إلا أنه متى توالتْ منه الأفعال التى لها ظواهر قبيحة، فلابدّ أن تكون مؤثرة فى تصديقه، متى خُبّرنا بأن غرضَه فى الفعل خلاف ظاهره ، كما تكون مانعة من الابتداء بالتأوّل .

وضرب له المثل بأنّ من نراه يكلّمُ امرأة حسناء فى الطريق إذا أخبر أنها أختُه أو امرأته فى أنّ تصديقه واجب، ولو لم يخبر بذلك لحملنا كلامَه لها على أجمل الوجوه ؛ لما تقدم له فى النفوس — صحيح، إلا أنه لابد من مراعاة ماتقدم ذكره، من أنه قد يقوى الأمر لقوّة الأمارات والظواهر إلى حدٍّ لايجوز معه تصديقه ولا التأول له، ولولا أنّ الأمر قد ينتهى إلى ذلك لما صحّ أن يخرج أحد عندنا من الولاية إلى العداوة ، ولا من العدالة إلى خلافها؛ لأنه لاشىء مما يفعله الفسّاق المتهتكون إلا ويجوز أن يكونَ له باطن بخلاف الظاهر، ومع ذلك فلا يلتفت إلى هذا التجويز ؛ يبين صحة ماذكرناه أنّا لو رأينا من يُظَن به الخير يكلّمُ امرأة حسناء فى الطريق ويداعبها ويضاحكها لظننا به الجميل مرة ومرات ، ثم ينتهى الأمر إلى ألّا نظنه . وكذلك لو شاهدناه ويحضرته المنكر ، لحملْنا حضوره على الغلط أو الإكراه أو غيرذلك من الوجوه الجميلة. ثم لابدّ من انتهاء الأمر إلى أن نظن به القبيح ولا نصدقه فى كلامه .

قال : ثم تقول [1] له : أخبرنا عمن شاهدناه من بُعْد وهو مفترش امرأة نعلم أنها ليست له بمحرم ، وأن لها في الحال زوجاً غيره ، وهو ممن تقررت له في النفوس عدالة متقدمة ، ماذا يجب أن نظن به ؟ وهل نرجع بهذا الفعل عن ولايته ، أم نحمله على أنه غالط ومتوهم أن المرأة زوجته ، أو على أنه مكره على الفعل ، أو غير ذلك من الوجوه الجميلة ؟

فإن قال : نرجع عن الولاية ، اعترف بخلاف ما قصده في الكلام ، وقيل له : أى فرق بين هذا الفعل وبين جميع ما شاهدناه من الأفعال وادعيت أن الواجب أن نعدل عن ظاهرها ؟ وما جواز الجميل في ذلك إلا كجواز الجميل في هذا الفعل .

وإن قال : لا أرجع بهذا الفعل عن ولايته [2] ، بل نؤوله على بعض الوجوه الجميلة . قيل له : أرأيت لو تكرر هذا الفعل وتوالى هو وأمثاله حتى نشاهده حاضراً في دور القمار ومجالس اللهو واللعب ونراه يشرب الخمر بعينها ، وكل هذا مما يجوز أن يكون عليه مكرهاً وفي أنه القبيح بعينه غالطاً وأن كان يجب علينا الاستمرار على ولايته أم العدول عنها ؟ فإن قال : نستمر ونتأول ، ارتكب ما لا شبهة في فساده ، وألزم ما قد قدمنا ذكره من أنه لا طريق إلى الرجوع عن ولاية أحد ، ولو شاهدنا منه أعظم المناكير . ووقف أيضاً على أن طريق الولاية المتقدمة إذا كان الظن دون القطع ، فكيف لا نرجع عنها لمثل هذا الطريق ، فلابد إذن من الرجوع إلى ما بيناه وفصلناه في هذا الباب .

قال : فأما قوله : « إن قول الإمام له مزية ؛ لأنه آكد من غيره » فلا معنى له ؛ لأن قول الإمام على مذهبنا يجب أن يكون له مزية ، من حيث كان معصوما مأمون [3] الباطن ، وعلى مذهبه إنما تثبت ولايته بالظاهر كما تثبت ولاية غيره من سائر المؤمنين ، فأى مزية له في هذا الباب !

(١) ب « ثم يقال » .
(٢) الشافى : « الولاية » .
(٣) الشافى : « معصوما مأمونا باطنه » .

وقوله : « [1] إن ما ينقل عن الرسول وإن لم يكن مقطوعا عليه يؤثِّر في هذا الباب، ويكون أقوى مما تقدم » غير صحيح على إطلاقه ؛ لأن تأثيرَ ما ينقل إذا كان يقتضى غلبة الظنِّ لا شبهة فيه ؛ فأما تقويتُه على غيره فلا وجه له ؛ وقد كان يجب أن يبين من أى الوجوه يكون أقوى .

فهذه جملة ما اعترض به المرتضى على الفصل الأول من كلام قاضى القضـــاة رحمه الله تعالى .



تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة[2]

---

(١) الشافى ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .

(٢) هنا نهاية نسخة ب ، ج ، وفى آخر نسخة ج : « تم الجزء الثانى من شرح نهج البلاغة ، بحمد الله ومنه وصلى الله على محمد وآله » .

فهرس الخطب وما يجرى مجراها *

صفحة

---

* وهى للموضوعات التى وردت أثناء الشرح .

فهرس الموضوعات *

* وهى الموضوعات التى وردت أثناء الشرح .

